(١١) صفحات من تاريخ مصر

تاريخ مصر الحديث

مع فذلكة في تاريخ مصر القديم

الجزء الثاني

تأليف
جرجي زيدان

الناشر: مكتبة مدبولي - القاهرة

صفحات من تاريخ مصر

(١١)

تاريخ مصر الحديث

من الفتح الاسلامي الى الآن

مع

تذكرة في تاريخ مصر القديم



تأليف

جرجي زيدان

منشيء الهلال



الجزء الثاني

وهو يشتمل على تاريخ مصر من الفتح العثماني الى الآن
اي في عهد الدولة العثمانية وحملة بونابرت
والدولة المحمدية العلوية او الاسرة الخديوية ولا .

الناشر

مكتبة مدبولي

١٩٩٩

بيان

انتهى الجزء الاول من هذا الكتاب في طبعته الاولى بانقضاء الدولة الايوبية فبدأنا الجزء الثاني بدولة المماليك الأولى . ونظراً لتوسعنا في مواضيع الكتاب واضافة ما جدَّ من الحوادث المصرية بعد الطبعة الاولى جعلنا الجزء الاول من هذه الطبعة ينتهي في آخر دولة المماليك الثانية . فاصبح الجزء الثاني هذا يبتدئ بدخول مصر في سيادة الدولة العثمانية وينتهي بالعام الماضي . ولذلك كان اكثر توسعنا في تاريخ الدولة المحمدية العلوية من زمن موُسسها محمد علي باشا الى الان . ويدخل في ذلك بيان ما حدث في هذا العصر من النهضات السياسية والعلمية والمالية والصحافية وما تقلب على مصر من الاحوال السياسية اشهرها الحوادث العرابية والحوادث السودانية . واقتضى ذلك ان نخص هذا الجزء بدرس خاص فطالعنا اهم المؤلفات التي صدرت عن احوال مصر وتاريخها بعد صدور الطبعة الاولى او ما لم نكن اطلعنا عليه من قبل وهاك اهمها :

مصر الحديثة	في مجلدين	تأليف اللورد كرومر	في الانكليزية
انكلترا في مصر	« «	« « ملنر	« «
الاسماعيلية . رحلة الى خط الاستواء	« «	للسير صموئيل باكر	« «
مصر والخديوي		لدايسي	« «
تاريخ السودان	في ٣ مجلدات	لنعوم بك شقير	« العربية
تقارير اللورد كرومر		للورد كرومر	« «
مصر في حكم محمد علي	في مجلدين	لمامون	في الفرنساوية



منشأ الدولة العثمانية

قبل التقدم الى تاريخ مصر في سلطة الدولة العثمانية يحسن بنا ان نأتي على فذلكة في اصلها ومنشأها

يتصل نسب العثمانيين بالتتر الذين كانوا يقطنون ما يجاور جبال التاي عند حدود الصين الشمالية ويغلب على الظن انهم الاسكثيون المعروفون قديماً بالشجاعة وشدة البأس . ويقال ان جماعة منهم ينتسبون الى جد يقال له «ترك» نزحوا غرباً في الجيل الاول للميلاد واقاموا فيما هو الآن بلاد تركستان ويحدها شمالاً سبيريا وجنوباً بخارا وشرقاً حدود الصين وغرباً بحيرة اورال وهي مشهورة بجودة الاقليم وخصب المرعى وجمال السكان وقوة ابدانهم

وما استتب لهم المقام في تركستان حتى اخذوا يمدون سلطتهم وهم لا يزالون في حالة الجاهلية . ولم يعتنقوا الديانة الاسلامية الا في اواسط القرن الرابع للهجرة واشهرهم طائفتان كبيرتان تعرفان بالاغوزية والسلجوقية

وكان الاتراك السلجوقيون يقيمون في ما يجاور بخارا ثم اشتدوا وانشأوا مملكة مستقلة شاسعة الاطراف يحدها بحر قزوين من جهة وبحر الروم من جهة اخرى عواصمها فرسبوليس (اصطخر) وقرمان ودمشق وحلب ورومية في آسيا الصغرى . ثم افتتحوا جانباً من بلاد فارس. ثم هددوا امبراطور الروم وتغلبوا عليه حتى اضطر الى تقبيل الارض بين يدي الب ارسلان ملك السلجوقيين

وفي القرن الثالث عشر للميلاد كانت سلطة السلجوقيين منتشرة في آسيا الصغرى وسلطانها علاء الدين ومقره مدينة قونية

وظهر في اثناء ذلك جنكزخان القائد المغولي وغزا قبائل الاتراك المقيمين في تركستان فاذعنوا له الا قبيلة اوغوزية من قبائل خراسان هاجرت تحت قيادة امير يدعى سليمان تطلب مقاماً لها ومرعى لمواشيها . وما زالوا يسيرون غرباً حتى حدث وهم يعبرون الفرات ان اميرهم سقط بجواده في النهر ومات فدفنوه هناك ـ وهو جد ساكن الجنان السلطان عثمان الغازي فاصبحوا بعده جماعات متفرقة فاتخذ ابنه ارطغرل قيادة جماعة منهم وسار بهم يخترق آسيا الصغرى . وهو في بعض السهول شاهد عن بعد غباراً متصاعداً وحرباً قائمة فتقدم على نية الانتصار لاضعف الفئتين ففعل وهو لا يدري

لمن ينتصر فقيض الله النصر له وتقهقرت الفئة الاخرى ثم علم انه انتصر للسلجوقيين وقهر المغوليين فشكر الله على ذلك

فنال بذلك منزلة رفيعة لدى علاء الدين فاقطعه بقعة كبيرة يقيم فيها برجاله على حدود فريجيا وبيثينيا وكانت ارضاً جيدة ذات مرعى خصب . وفي تلك البقعة نشأ ابنه عثمان وشب وترعرع . وما زال ارطغرل تحت رعاية علاء الدين حتى توفي هو نخلفه عثمان . ثم توفي علاء الدين بغير ولد فاقتسم امراؤه مملكته فاستقل عثمان بما لديه سنة ١٣٠٠ م وهو اول امراء دولة آل عثمان



السلطان عثمان الغازي

ومن التقاليد المأثورة بين العثمانيين ان عثمان هذا عشق وهو شاب فتاة تدعى « مال خاتون » وكان والدها شيخاً تقياً ورعاً طاعناً في السن اسمه ادبالي فلما شعر بمحبة عثمان لابنته خاف العاقبة وصار يحاول ابعادهما الواحد من الآخر وبالغ في حجاب ابنته لانه لم يكن يطمع بمصاهرة ابن حاكمه

فجاء عثمان ذات ليلة ليبيت في منزل ادبالي وقضى معظم الليل هاجساً بحبيبته حتى غلب عليه النعاس فرأى في الحلم كأن القمر خارج من صدر ادبالي ثم رآه يتسع بسرعة حتى غطى كل ما كان واقعاً تحت نظره من الارض . ثم اخذ في التقلص حتى عاد الى حجمه الاول وارتد الى صدر ادبالي كما كان . ثم رأى شجرة عظيمة خارجة من صلب ادبالي واخذ ظلها يمتد حتى غطى البر والبحر وتراأى له ان انهر دجلة والفرات والدانوب والنيل خارجة من اصل تلك الشجرة . وجبال قوقاس واطلس وطورس وهيموس

يستظل باغصانها ورأى اوراقها تستطيل وتستدق حتى صارت كالسيوف ورؤوسها مصوبة الى اشهر عواصم العالم وخصوصاً القسطنطينية الواقعة عند ملتقى القارتين ومجتمع البحرين . وخيل له انها جوهرة بين زمردتين وياقوتتين مصطنعة في فص خاتم وانه همَّ ان يجعل ذلك الخاتم في اصبعه فاستيقظ مبغوتاً . فاخبر ادبالي في الصباح بما كان فاستبشر بما سيكون من مستقبل ذلك الشاب وانه سيملك القسطنطينية

وما انفك خلفاءُ عثمان كلما اتسع سلطانهم يزدادون ثقة بمآل ذلك الحلم وقد حاول بعضهم فتح القسطنطينية فرجع ولم ينل وطراً حتى ظهر محمد الفاتح السلطان السابع من سلاطين آل عثمان وبينه وبين صاحب الحلم نحو ١٦٠ سنة ففتحها بعد ان يئس المسلمون من فتحها



السلطان محمد الفاتح

يوم دخوله القسطنطينية بعد فتحها سنة ١٤٥٣

وحارب العثمانيون اعظم ملوك اوربا وطاردوهم الى بلاد المجر وحاصروا فينَّـا عاصمة النمسا واخذوا الجزية من الارشيدوق فرديناند واكتسحوا البحر الابيض الى شواطىء اسبانيـا – ووجهوا مطامعهم مـن الجهة الاخرى نحو الشرق ففتحوا العراق والشام ومصر على يد سليم الفاتح كما تقدم وبسلطنته يبدأ هذا الجزء من تاريخ مصر الحديث



الدولة العثمانية

من سنة ٩٢٣ — ١٢١٣ هـ او من ١٥١٧ — ١٧٩٨ م

سلطنة سليم بن بيازيد

من سنة ٩٢٣ — ٩٢٦ هـ او من ١٥١٧ — ١٥٢٠ م

امر السلطان سليم بدفن طومان باي قرب قبر قنسو الغوري وبعد دفنه بثلاثة ايام دخل السلطان سليم عاصمة الديار المصرية ظافراً في غاية ربيع اول سنة ٩٢٣ هـ. وبعد يسير نزل الى الاسكندرية في فرقة من جيوشه لوضع الحماية عليها . ثم عاد الى القاهرة ومكث فيها الى ٢٠ شعبان من تلك السنة فبرحها قاصداً الرومللي . ويقال انه نقل معه الف جمل محملة ذهباً وفضة فضلاً عن اسلاب اخرى وهدايا قدمت له . وقبل خروجه من مصر جعل فيها حكومة منظمة فاصبحت مصر ايالة عثمانية

وكان فيها من الخلفاء العباسيين اذ ذاك محمد المتوكل على الله (الثالث) الخليفة الثامن عشر من الدولة العباسية بمصر . وكيفية وصول الخلافة اليه ان الامام المستنجد بالله الخليفة الخامس عشر الذي تولى الخلافة في ايام ينال سنة ٨٥٩ هـ كما تقدم توفي في ٢٤ محرم سنة ٨٨٤ هـ بعد ان تولاّها ٢٥ سنة وولي مكانه الخليفة عبد العزيز بن يعقوب حفيد الخليفة العاشر المتوكل على الله ولقب بلقب جده . ثم توفي يوم الجمعة في ٢ صفر سنة ٩٠٣ هـ فخلفه الخليفة ابو صابر يعقوب الملقب بالمستمسك بالله ثم خلف هذا نحو الفتح العثماني الخليفة محمد المتوكل على الله المتقدم ذكره . فلما فتح العثمانيون مصر راى السلطان سليم الفاتح ان نصره لا يؤيد الا اذ قبض على الازمة الدينية . فاستخرجها من ايدي الخلفاء العباسيين فصارت الخلافة الاسلامية الى العثمانيين واول خلفائهم السلطان سليم . واما الخليفة العباسي فانه نقل الى الاستانة وخصص له راتب معين لنفقاته وقبل وفاة السلطان سليم بيسير عاد المتوكل الى مصر وعاش فيها منفرداً الى ان توفاه الله سنة ٩٤٥ هـ وهو آخر الخلفاء العباسيين

الخلافة والعرب والترك

ويجدر بنا ان نقول كلمة في الخلافة ونسبتها الى العرب او غيرهم . افضت امور المسلمين الى ملوك وسلاطين من الفرس والاتراك والاكراد والبربر والجركس وغيرهم ومع ما بلغوا من سعة الملك وعز السلطان ومع حاجتهم الى السيادة الدينية لتستقيم دولهم وتجتمع الرعية على طاعتهم لم يخطر لاحد منهم ان يطلب الخلافة لنفسه قبل انتقال الاسلام الى طوره الثاني بعد تضعضه بفتوح المغول . ولا ادعاها احد من العرب غير قريش . واول سلطان غير عربي بويع بالخلافة السلطان سليم العثماني ولا تزال الخلافة في دولته الى الان

على ان الذين قويت شوكتهم في عهد ذلك التمدن من الامراء المسلمين او القواد غير العرب كانوا اذا طمعوا بالسيادة الدينية او الخلافة انتحلوا لانفسهم نسباً في قريش كما فعل ابو مسلم الخرساني لما راى من نفسه القوة على انشاء الدولة وربما طمع بالخلافة فانتحل لنفسه نسباً في بني العباس فقال انه ابن سليط بن عبد الله بن العباس

واما الملوك او السلاطين الاعاجم فلما ضخمت دولهم في اواخر العصر العباسي وراوا انحطاط الخلافة وتقهقرها وتمنوا الاستغناء عنها ولكنهم لم يروا سبيلاً الى ذلك الا ان يستبدلوها بخلافة اخرى . على ان بعضهم طمع بالنفوذ الديني من طريق الانتساب الى الخليفة بالمصاهرة . واول من فعل ذلك عضد الدولة بن بويه المتوفى سنة ٣٧٢ هـ فانه حمل الطائع لله الخليفة العباسي في ايامه ان يتزوج بابنته وغرضه من ذلك ان تلد ابنته ولداً ذكراً فيجعله ولي عهده فتكون الخلافة في ولد لهم فيه نسب ولم يوفق الى مراده

ولما افضت السلطة الى السلاجقة تقدموا في هذا الطريق خطوة اخرى فعمدوا الى التقرب بالمصاهرة ايضاً ولكن على ان يتزوج السلطان طغرلبك السلجوقي ابنة الخليفة وهو يومئذ القائم بامر الله فخطبها اليه ووسط قاضي الري في ذلك فانزعج الخليفة لهذا الطلب ايما انزعاج اذ لم يسبق ان يتزوج بنات الخلفاء الا اكفاؤهم بالنسب وكانت يد السلطان قوية والخليفة لا شيء في يده فاخذ في استعطافه ليعفيه من الاجابة على طلبه فابى السلطان الا ان يجاب . وحدثت امور يطول شرحها خيف منها على الدولة فاضطر الخليفة الى القبول — فعقد له عليها سنة ٤٥٤ هـ وهذا ما لم يجر مثله قبله لان آل بويه لم يطمعوا بذلك ولا تجاسروا على طلبه مع مخالفتهم للخليفة في المذهب اذ يكفي من الخليفة تنازلاً ان يتزوج بنات الملوك لا ان يزوجهم بناته ولم

ينل هذا الشرف احد قبل طغرلبك . ومع ذلك فانه لما دخل الى عروسه في السنة التالية قبل الارض بين يديها وهي جالسة على سرير ملبس بالذهب فلم تكشف الخمار عن وجهها ولا قامت له . وظل اياماً يحضر على هذه الصورة وينصرف . على انه لم يوفق لاتمام ما اراده لانه توفي في تلك السنة . اما المبايعة بالخلافة لغير العرب فلم تنلها دولة اسلامية قبل العثمانيين

نظام الحكومة المصرية ايام العثمانيين

واخذ السلطان سليم في تأييد سلطته في مصر ليأمن من تمردها وتلاعب ذوي الاغراض فيها . فجعل عليها حاكماً يلقب بالباشا اليه مرجع الحل والعقد . وكان من جملة الذين انحازوا الى العثمانيين في واقعة مرج دابق امير يقال له خير بك من كبار رجال قنسو . فلما فتح الله على العثمانيين ولاه السلطان سليم على مصر بلقب باشا . ثم خشي من تفرد هذا الحاكم بالامر مع بعد مصر عن الاستانة ان يكون داعياً لعصيانه . فاعمل الفكرة فيما يكفيه مؤونة هذا الخطر فاهتدى الى طريقة تضمن له ذلك . وهي ان يجعل في مصر ثلاث ادارات كل منها تراقب اعمال الأخريين فلا يخشى من اتحادها وتمردها

فالقوة الاولى « الباشا » واهم واجباته ابلاغ الاوامر السلطانية لرجال الحكومة وللشعب ومراقبة تنفيذها

والقوة الثانية « الوجاقات » فانه اقام في القاهرة وفي المراكز الرئيسية من القطر ستة الآف فارس وستة الاف ماش بالبنادق جعلها ستة وجاقات « فرق » تحت قيادة واوامر خير الدين احد قواد العثمانيين العظماء وامره ان يقيم في القلعة ولا يخرج منها لاي سبب كان . وواجبات هذه الوجاقات حفظ النظام في القطر المصري والدفاع عنه وجباية الخراج . وقد رتبها على الوجه الآتي :

١ وجاق المتفرقة . وهو مؤلف من نخبة الحرس السلطاني

٢ وجاق الجاويشية . وهو مؤلف في الاصل من صف ضابطان جيش السلطان سليم فعهد اليهم جباية الخراج

٣ وجاق الهجانة

٤ وجاق التفقجية . وهم ناقلو البنادق

٥ وجاق الانكشارية . وهم اخلاط من نخبة القبائل الخاضعة للدولة العثمانية وكانوا يعرفون ايضاً بالمستحفظين لاناطة محافظة البلاد بهم

٦ وجاق العزب

وكان كل من هذه الوجاقات مؤلفاً من افراد يقال لهم « وجاقلية » واحدهم « وجاقلي » على كل وجاق منها ضابط يلقب بالآغا يصحبه الكخيا والباش اختيار والدفتردار والخزندار والرزنامجي . ومن اجتماع هؤلاء الضباط من سائر الوجاقات يتألف مجلس شورى الباشا فلا يقضي امراً الا بمصادقتهم . اما هم فلهم ان يوقفوه عن الاجراء وان يستأنفوا الى ديوان الاستانة عند الاقتضاء . ولهم ايضاً ان يطلبوا عزله حالما يشتبهون بمقاصده

الانكشارية

واهم تلك الوجاقات « الانكشارية » وهم يشملون الجند العثماني في ذلك العهد . انشيء هذا الجند في زمن السلطان اورخان ثاني سلاطين آل عثمان (سنة ٧٢١ — ٧٦١ هـ) على يد قره خليل احد كبار رجال الدولة ونظر في تنظيمه الى خلوه من عصبية تبعث على التمرد . وكان العثمانيون يومئذ يفتحون البلاد واكثراهلها مسيحيون فيدخل في حوزتهم جماعة من غلمان النصارى الذين قتل آباؤهم واصبحوا لا نصير لهم ولامرجع لآمالهم — فارتأى ان يربي اولئك الغلمان تربية اسلامية ويدربهم على الفنون الحربية ويجعلهم جنداً دائماً لايخشى منه التمرد لانه لايعرف عصبية غيرالدولة ولا عملاً غير الجندية ولا ديناً غير الاسلام . فجندهم وسار بهم الى الحاج بكطاش شيخ طريقة البكطاشية باماسية ليدعو لهم . فدعا لهم وسماهم « يكي چري » الجند الجديد

وقسم هذا الجند الى وجاقات واحدها وجاق والوجاق يقسم الى اورط احداها اورطة ولكل اورطة عدد تعرف به ولبعضها اسماء خاصة . ويختلف عدد الجند في كل اورطة حسب الاعصر من ١٠٠ الى ٥٠٠ ويختلف عدد الاورط في الوجاق وعدد الوجاقات بمقتضى ذلك . واكبر ضباط الوجاق او قائدها الاكبر يسمى « آغا » تحته سكبان باشي تحته غيره فغيره على هذه الصورة :

الاغا	قائد الوجاق ويقابل اللواء في هذه الايام
سكبان باشي	ينوب عن الاغا في الاستانة ويقابل القائمقام اليوم
قول كخيا او كخيا بك	نائب الآغا او السكبان باشي
سمسونجي باشي	قائد اورطة نمرو ٧١
زغرجي باشي	قائد الاورطة نمرو ٦٤
محضر اغا	ينوب عن الانكشارية عند الصدر الاعظم
خصكي	ينوب عن الآغا في القيادة على الحدود

باشجاويش	قائد الاورطة الخامسة
كخيا كري	ينوب عن الوجاق لدى الآغا
الافندي	الكاتب

ولكل اورطة ضباط يقتسمون قيادتها وادارة شؤونها مما يطول شرحه



١ ٢ ٣ ٤

ش ١ : اغا الانكشاريه ونائبه وخادمه

كان للانكشارية رواتب يسمونها العلوفة كانت تدفع يومياً باعتبار درهم واحد لكل انكشاري ثم ارتفعت الى خمسة دراهم غير الهدايا التي كانوا ينالونها في الاعياد وعند تولية السلاطين ويسمونها « بخشيش الجلوس » وغير ما يصرف لهم من الاطعمة كاللحم والخبز او القمح

ملابس الانكشارية وطعامهم

المقصود من البسة الجند التفريق بين رتبهم . فكان لكل طبقة من الانكشارية لباس خاص نقتصر على وصف بعضها بالتصوير (انظر ش ١)

فالصورة الوسطى التي تحتها نمرة (٢) هي صورة آغا الانكشارية وعمامته كبيرة منفوخة وعليه القفطان والجبة وحول وسطه الحزام وفيه الخنجر وفي قدميه نعال مكشوفة . والى يمينه في الطرف نمرة (٤) نائبه المسمى « قول كخيا » وقاووقه يختلف عن ذلك اختلافا عظيماً وفي قمته شبه المروحة من الريش وبجانبه نمرو (٣) خادم الاغا

وعمامته كالعمائم المعروفة . والى يسار الآغا نمرو (١) الباشجاويش ويختلف لباسه عن اولئك من كل جهة وخصوصاً قاووقه وقفطانه وازاره ونعاله

وترى مثل هذا الاختلاف في صغار الانكشارية ايضاً على تفاوت في الرتب والاعمال فترى في الشكل الثاني ان نمرة (٣) صورة جندي انكشاري واقف وعليه الجبة والقفطان بشكل خاص والقاووق مثنى الى الوراء ونمرة (٤) انكشاري واقف وقفة الاحترام و(١) ضرب آخر من الانكشارية يعرف بسلاق و(٥) نوع آخر جيولك . وانتبه الى (٢) فانها صورة احد الغلمان الاعاجم الذين يخرج الانكشارية منهم ونمرة (٦) انكشاري مدرع



ش٢ : انفار الانكشارية

ويمتاز الانكشارية بعادات خاصة في طعامهم واهم اصنافه الشورباء فقد كانت تصنع في حلل خاصة ترسل الى الاجناد في قدور كبيرة يحملونها معلقة باعواد مستعرضة كما ترى في الشكل الثالث

يحمل الحلة اثنان من الجند يقال لهما « قراقول اغجي » يتقدمهما ضابط اسمه باش قراقول اغجي يحمل على كتفه ملعقة كبيرة من الحديد . فيمر بالاماكن التي فيها عساكر من اورطتهم وهم في انتظار وصولهم فيحطون القدر على الارض ويغرفون منها بالملعقة لمن يأتي بطبقه على قدر حاجته

وللطعام شان كبير عند الانكشارية وفي مطبخ كل اورطة قدر كبيرة هي مثال لقدر يحترمونها اعتماداً على حديث يتناقلونه بينهم عن الحاج بكطاش صاحب الطريقة



ش ٣ : توزيع الشورباء على الانكشارية

البكطاشية التي ينتسب اليها الانكشارية انه طبخ شورباءه فيها ويعتقدون انهم اذا نقلوا هذه القدر من مكانها وصبوا هناك ماء زلزلت الارض . وكانت هـذه القدور ملجأ للمجرمين فمن اتى اليها وجب على الانكشارية حمايته والدفاع عنه كما كان يفعل العرب في حماية من يستجير بهم . وفي الحوادث الكبيرة التي تتفق لهم كقيامهم بثورة او مفاوضتهم في امر يهمهم يجتمعون حول هذه القدر للمفاوضة بجانبها تبركاً بها

الامراء المماليك

اما القوة الثالثة فالمماليك . وهم بقايا الدولتين السالفتين والفائدة منهم حفظ الموازنة بين الباشا والوجاقات لانهم في الاصل اعداء لكلا الفريقين ومن غرضهم الانتصار للفريق الاضعف ليمنعوا القوي من الاستبداد . وقد كان القطر المصري منقسما الى ١٢ « سنجقلية » (مديرية) يحكم كلاً منها حاكم يقال له « سنجق » او (بك) يعينه الديوان (وهو مجلس شورى الباشا) من امراء المماليك . ولا غرو ان تقاطع المصالح على هذه الصورة واختلاطها مع تعداد الآمرين مما يقود الى القلاقل والمتاعب اما الدولة العثمانية فقد اجتنت راحة من هذا التعب لانها كانت على ثقة من استبقاء الديار المصرية في حوزتها

وبقي خير بك باشا والياً على مصر الى ان ادركته الوفاة بمرض جلدي سنة ٩٢٨هـ ودفن في جامعه المعروف باسمه في شارع درب الوزير تحت القلعة . وبعد وفاته لهجت الالسنة بذمه لعظم استبداده فكانوا يقولون انه كان ينهض من لحده ليلا ويستغفر الله على ما اتاه من الشرور في حياته

سلطنة سليمان القانوني

من سنة ٩٢٦ — ٩٧٤ ﻫ او من ١٥٢٠ — ١٥٦٦ م



ش ٤ : السلطان سليمان القانوني

وقبل وفاة خير بك باشا بسنتين توفي السلطان سليم وخلفه ابنه السلطان سليمان سنة ٩٢٦ﻫ وسنهُ ٢٦ سنة ويعرف بالقانوني لانهُ سن قانوناً . فمكث على كرسي الخلافة نحواً من نصف قرن وقد اكثر من الاهتمام بمصر وتنظيمها . وكان ابوه قبل وفاته قد رسم الخطة التي يجب ان تسير عليها مصر في حكومتها وادارتها لكنه توفي قبل ان يبرزها الى حيز الفعل فلما تولى السلطان سليمان جعل اهتمامهُ اتمام مشروع ابيه

نظام الحكومة المصرية ايضاً

وكان من راي السلطان سليم ان ينشيء ديواناً تحت رئاسة الباشا حفظاً للموازنة اما السلطان سليمان فاتم الموازنة بانشاء ديوانين عرفا بالديوان الكبير والديوان الصغير « او الديوان فقط » واناط رئاستهما بالباشا وعليه ان يجلس عند انعقاد الجلسة وراء ستار المنبر . وعلى الكخيا والدفتردار استئذانه قبل المفاوضة ومتى اقرّ الديوان على امر ابلغاهُ ذلك القرار وليس له الا المصادقة والامر بالتنفيذ . وجعل اقامة هذا

الباشا بالقلعة تحت ملاحظة الآغا الذي هو قومندانها ويجدد تعيين الباشا في كل سنة

اما واجبات الديوان الكبير فهي المفاوضة والاقرار على ما يتعلق بالاشغال العمومية التي لا تتعلق ادارتها بالباب العالي نفسه . اما اعضاء هذا الديوان فهم اغاوات الوجاقات الستة ودفترداريوها وروزنامجيوها . ونواب من جميع فرق الجيوش وامير الحج وقاضي القضاة واعيان المشايخ والاشراف والمفتون الاربعة والائمة الاربعة والعلماء . اما المخاطبات التي ترد الى هذا الديوان فتعنون باسم الديوان الكبير لكنها تسلم للباشا وله وحده الحق ان يأمر بعقد جلساته ولم تكن كثيرة . اما جلسات الديوان الاصغر فكانت تنعقد يومياً في قصره واعضاء هذا الديوان هم كخيا الباشا ودفترداره وروزنامجيه ونائب من كل من الوجاقات والاغا وكبار ضباط وجاق المتفرقة . ومن واجبات هذا الديوان النظر في الحوادث اليومية ومن اختصاصاته البحث في الادارات الثانوية

وانشأ السلطان سليمان فضلاً عن الستة الوجاقات التي انشأها ابوه وجاقاً سابعاً دعاه وجاق الشراكسة وهم بقية جند المماليك . ومن هذه الوجاقات السبعة تتألف حكومة مصر وحاميتها . اما نفقاتها فمن مخصصات يتولى ضبطها وتفريقها « افندي » من كل وجاق . وجعل لكل وجاق مجلساً مؤلفاً من ضباط ذلك الوجاق وبعض صف ضابطانه لمحاسبة الافندية والنظر في الدعاوي الخصوصية وعرض الترقيات للباشا للمصادقة عليها ومقامهم في القاهرة ولكل منهم لباس خاص برتبته وعليه علاماته ومجموع رجال الوجاقات معاً عشرون الفاً وقد يزيد او ينقص حسب الاقتضاء . اما مقرهم ففي القاهرة على انهم كثيراً ما كانوا يخرجون منها للمهمات في المديريات . وكان لوجاق الانكشارية امتيازات على سائر الوجاقات وقائده (الآغا) مفضل على سائر القواد وله نفوذ عليهم

وجعل السلطان سليمان للبكوات المماليك الذين اقامهم السلطان سليم امتيازات خصوصية وحقاً بالارتقاء الى رتبة الباشوية . واضاف اليهم ١٢ بيكاً آخرين لمهمات فوق العادة . وهاك اسماء الموظفين الذين ينتخبون من البكوات المماليك وهم : الكخيا او نائب الباشا والقبابطين الثلاثة وهم قومندانات ثغور السويس ودمياط والاسكندرية ويسمى واحدهم قبطان بك والدفتردار وامير الحج وامير الخزنة وحكمداريو اومديريو المديريات الخمس الآتي ذكرها وهي جرجا والبحيرة والمنوفية والغربية والشرقية . ولم يكن لغير الكخيا والدفتردار وامير الحج الحق في دخول

الديوان فالدفتردار كان عليه ضبط الحسابات وحفظ الدفاتر والسجلات ولا ينفذ امر بيع عقار الا بعد توقيعه عليه اشارة الى تسجيله في دفاتره . وامير الحج يحمل الهدايا والصدقات التي كانت يرسلها السلطان سنوياً الى مكة او المدينة وعليه حماية قافلة الحج ذهاباً واياباً . واما امير الخزنة فيحمل القسم المختص بالقسطنطينية من حاصلات مصر براً وعليه حمايته . وينتخب من البكوات المماليك ايضاً شيخ البلد » وسنعود اليه

وكانت مديريات القليوبية والمنصورة والجيزة والفيوم في عهدة كشاف لا فرق بينهم وبين البكوات في النفوذ . ولا يعمل باقرار احدهم الا بعد مصادقة الشربجية وغيرهم من الوجاقليين الذين يتألف منهم ديوان خاص في كل مديرية

ثم ان تعيين كخيا الباشا وقباطين السويس ودمياط والاسكندرية متعلق رأساً بجلالة السلطان فيرسلونهم من الاستانة ويستدعونهم اليها في آخر كل سنة . اما البكوات الاخرون فيعينهم الديوان ويوليهم الباشا ويثبتهم الباب العالي ومراكزهم ثابتة الا ان واجباتهم تتغير الا الدفتردار . وقد ينتخب البكوات من وجاق المتفرقة ومتى انتخبوا لا يعودون تابعين لذلك الوجاق . وكان من هم الباب العالي الانتباه الى السويس ودمياط والاسكندرية على الخصوص لانها الابواب التي يدخل منها الى مصر فكان يرسل حاميتها راساً من الاستانة تحت قيادة القباطين ويجددها كل سنة وهؤلاء القباطين لم يكونوا يحسبون من جند مصر الا باعتبار اقامتهم فيها وبما ينالونه من الامدادات المالية لنفقاتهم . امافيما خلا ذلك فكانوا يحسبون اجانب في اعتبار الباشا وديوان مصر ولم يكونوا تحت اوامر حكومة البلاد في شيء فاوامرهم كانت ترد اليهم من ديوان الاستانة رأساً

حاصلات البلاد

هذا من قبيل الادارة . اما من قبيل حاصلات البلاد فان السلطان سليمان صرح بانه المالك الحر لارض مصر فكانت له ملكاً وكان يفرقها اقطاعات على مزارعين كان يدعوهم « الملتزمين » على انه لم يكن له ان يمنع اقطاعها او يوقفه فلم يكن بالحقيقة فرق بين هذه الاقطاعات والملك الحقيقي . والفلاحون الذين كانوا يحرثون الارضين كانوا يتمتعون بنصيبهم منها ويورثونها لاعقابهم ولكنهم كانوا مجبورين على العمل فيها بدون حق التصرف بها وعليهم خراج لامناص من دفعه للملتزمين فاذا توفي فلاح بلا وريث تعطى ارضه للملتزم وهو يعهد بحراثتها الى من يشاء واذا مات الملتزم بلا وريث تعود الارض للسلطان . وكان على كل من الملتزمين والفلاحين خراج يدفعونه اما نقداً واما عيناً فاذا تاخر الفلاح عن الدفع يمنع من نيل نصيبه واذا تاخر الملتزم تؤخذ الارض منه . ونظراً لاتساع ارض مصر لم يمكن حصر املاك كل من الملتزمين

فلم يكن ممكناً تعيين مقدار خراجها فارسل السلطان سليمان مساحين مسحوا الارضين المصرية فقسموا المديريات الى اقسام دعوها بالقراريط ومسحوا كلاًّ منها على حدة وحدوده

باشوات مصر او ولاتها ايام السلطان سليمان

كل هذه النظامات الادارية والمالية اجراها السلطان سليمان بالتتابع بواسطة الباشوات الذين اقامهم على مصر مدة حكمه وعددهم ١٤ . اولهم مصطفى باشا تولى بعد وفاة خير بك باشا في ذي الحجة سنة ٩٢٦ ﻫ وبعد تسعة اشهر و ٢٥ يوماً ابدل باحمد باشا وكان عدواً للصدر الاعظم ابراهيم باشا فاسر الصدر سنة ٩٣٠ ﻫ الى امراء القاهرة ان يقتلوه فعلم هو بالدسيسة فقبض على الكتب الوارده بذلك قبل ان تصل الى اصحابها ثم استدعاهم واعلنهم انها اوامر من جلالة السلطان بقتلهم ولم يطلعهم عليها فابوا الاذعان الا ان اباءهم لم يمنع قتلهم

ولما تأكد احمد باشا انه صار في مأمن من المقاومين صرح باستقلاله وامر ان يخطب له وان تضرب النقود باسمه — وهو اول من طمع بالاستقلال من ولاة مصر في عهد الدولة العثمانية . لكنه بالغ بالعسف فاختلس ممتلكات البعض وحبس البعض فثارت الافكار عليه حتى اصبحت حياته في خطر . وبينما كان ذات يوم في الحمام فاجاء اميران من امرائه كان قد امر بسجنهما وهما جهم الحمزاوي ومحمود بك فكسرا باب السجن وخرجا رافعين العلم الشاهاني يستنصران الناس حتى اتيا الحمام فعلم الباشا بذلك ففر من السطح والتجأ الى احد مشايخ عربان الشرقية واسمه ابن بقر فتعقبه اعداؤه حتى ادركوه وقطعوا رأسه وعلقوه على باب زويلة ثم نقل الى الاستانة سنة ٩٣١ ﻫ

فارسل السلطان عوضاً عنه قاسم باشا وفي نيته تقصير مدة هؤلاء الولاة لئلاّ يثور في خواطرهم حب الاستقلال فبعد تسعة اشهر و١٤ يوما استبدله بابراهيم باشا وكان نشيطاً محباً للاصلاح والنظام الا ان قصر مدته لم تمكنه من اتمام ما كان شارعاً فيه فعزل واقيم بدلاً منه سليمان باشا سنة ٩٣٣ ﻫ وكان السلطان راضياً عن هذا الباشا واثقاً به فابقاه في الحكم تسع سنوات و١١ شهراً

وفي سنة ٩٤١ ﻫ استقدمه الى الاستانة ليسلمه قيادة حملة اعدها لمحاربة الفرس والهند وقد اقام في اثناء حكمه بنايات كثيرة من جملتها جامع سارية في القلعة . وناب عنه في غيابه خسرو باشا نحو سنة وعشرة اشهر فعاد سليمان باشا الى مصر وبقي عليها بعد ذلك نحو سنة وخمسة اشهر

وفي سنة ٩٤٥ ﻫ عهدت باشوية مصر الى داود باشا فبقي عليها ١١ سنة و٨ اشهر

وكان رجلاً مستقيماً كريم الاخلاق محباً للعلماء آخذاً بناصرهم كلفاً بالمطالعة وعلى نوع خاص مطالعة المؤلفات العربية فجمع منها عدداً وافراً واستنسخ كل ماظفر به من الكتب غير المطبوعة فجمع مكتبة جميلة جداً . وكان الاهلون في مدة حكمه في بحبوحة السعادة والامن وتوفي في القاهرة سنة ٩٥٦هـ فتولى مكانه علي باشا وهذا رمم وبنى عدة بنايات عمومية في القاهرة وفي فوة ورشيد واقتدى به غيره من بكوات مصر فجعلوا يشيدون الجوامع منها الجامع الذي ابتناه عيسى بك في ديروط . وكان علي باشا محبوباً مكرماً عند المصريين بمنزلة الاب لكنه مع ذلك لم يحكم الا اربع سنوات وستة اشهر . ففي سنة ٩٦١ هـ تولى باشوية مصر محمد باشا وكان الناس يبغضونه فلم يحكم الا ثلاث سنوات ولما زاد التشكي منه عزل واستقدم الى الاستانة للمحاكمة فحكم عليه بالقتل سنة ٩٦٣ هـ

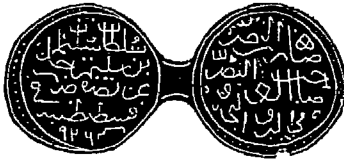
وبعد محمد باشا تولى اسكندر باشا فحكم ٣ سنوات و٣ اشهر ونصف وفي سنة ٩٦٨ هـ تولى علي باشا الخادم . وبعد ١٧ شهراً خلفه مصطفى باشا (الثاني) في سنة ٩٦٩ هـ ثم في سنة ٩٧١ هـ تولاها علي باشا الصوفي سنتين و٣ اشهر . وكان علي الصوفي قبلاً حاكماً في بغداد مشهوراً فيها باعوجاج الاحكام والخيانة فلما تولى مصر كثرت فيها السرقات والتعديات حتى غصت ضواحي القاهرة باللصوص واخترقت فئة منهم المدينة حتى الجامع الابيض . فاضطرت الحكومة ان تقيم سوراً من قنطرة الحاجب الى هذا الجامع منعاً لمثل ذلك

وفي شوال سنة ٩٧٣ هـ ابدل علي باشا الصوفي بمحمود باشا وهو آخر من تولى مصر في ايام السلطان سليمان فجاء من الاستانة بموكب عظيم فاهدي اليه في اثناء مروره من الاسكندرية الى القاهرة هدايا عظيمة . فلما وصل القاهرة لاقاه الامير محمد بن عمر متولي الصعيد على قارب فيه جميع انواع الهدايا وخمسون الف دينار فاخذ الباشا الهدايا منه وأمر بخنقه حال خروجه من مجلسه . وامر ايضاً بخنق القاضي يوسف العبادي لانه لم يات لملاقاته ولم يهده شيئاً واستمر على هذه المظالم حتى قتل معظم اعيان القاهرة فكان لايمر الا ومعه الشوباصي (رئيس الجلادين) فاذا مرَّ باحد واراد قتله اشار بيده الى الشوباصي فيعمد حالاً الى ذلك السيء الطالع فيعدمه الحياة باسرع من لمح البصر

وفي ٣ رجب سنة ٩٧٤ هـ توفي الامير ابراهيم الدفتردار وكان اميراً للحج فاستولى محمود باشا على ماترك من المال والمماليك والجواري وجملة ذلك مائة الف دينار ضمها الى المال الذي يرسل الى الاستانة سنوياً وبعث معها هدايا ثمينة للسلطان ووزرائه استجلاباً

لخاطرهم . لكنه لم ينتفع من ذلك قبل ان قتل في يوم الاربعاء غاية جمادى الاولى سنة ٩٧٥ هـ وهو مارٌّ في موكبه الاعتيادي بين البساتين . ولم تقف الحكومة على القاتل فاتهمت اثنين من الفلاحين وقتلتهما ظلماً لانهما وجدا بقرب مكان القتل . وكان السلطان سليمان قد توفي قبل ذلك بسنة (صفر سنة ٩٧٤ هـ) وسنه ٧٤ سنة ومدة حكمه ٤٨ فتولى بعده ابنه سليم شاه « الثاني » في ٩ ربيع اول من تلك السنة

وترى في الشكل الخامس نقود السلطان سليمان ضربت في القسطنطينية سنة ٩٢٦ هـ . ومما يحسن التنبيه اليه ان سلاطين آل عثمان لا يؤرخون نقودهم الا بسنة جلوسهم على السلطنة وليس بسنة ضربها



ش ٥ : نقود سليمان القانوني

سلطنة سليم بن سليمان

من سنة ٩٧٤ — ٩٨٢ هـ او من ١٥٦٦ — ١٥٧٤ م

فلما بلغ السلطان سليم شاه موت محمود باشا امر بنقل سنان باشا من باشوية حلب الى باشوية مصر . وبعد وصوله اليها بتسعة اشهر انفذه لمحاربة اليمن فسار سنان من مصر في ٤ شوال سنة ٩٧٦ هـ ومعهُ حمزة بك وماماي بك وغيرهما من امراء مصر واستخلف على مصر اسكندر باشا الشركسي . ومكث سنان باشا في تلك الحملة سنتين و٤ اشهر ففتح اليمن وعاد ظافراً الى مصر فراى الاحوال هادئة والنظام مستتبا بدراية اسكندر باشا المذكور لانه كان حكيماً محباً للرعية فرفع الضرائب عن الفقراء والعاجزين والقسم الاعظم من طلبة العلم وكان شديد التعلق بالعلم وذويه فلما عاد سنان باشا الى مصر (اول صفر سنة ٩٧٩ هـ) عادت احكامها الى يده فاهتم بتأييد النظام وحفظ رونق البلاد فاعادحفر ترعة الاسكندرية ورمم وبنى فيها جامعاً وشارعاً وعدة حمامات . وبنى في بولاق بمصر شارعاً ووكالات وجامعاً لا يزال معروفا باسمه . ومازال على مصر الى ذي الحجة سنة ٩٨٠ هـ فخلفه حسين باشا وكان على جانب من اللطف والدعة وحب العلم والادب ولا يعاب الا لكثرة حلمه الامر الذي آل الى تكاثر اللصوص في ولايته ولم يحكم الا سنة وتسعة اشهر . وفي ايامه توفي السلطان سليم

شاه (سليم الثاني) في ٢٨ شعبان سنة ٩٨٢ هـ بعد ان حكم ثماني سنين وخمسة اشهر و ١٩ يوماً

وترى في الشكل ٦ صورة نقود السلطان سليم الثاني مضروبة في حلب بتاريخ سنة ٩٧٤ هـ



ش ٦ : نقود السلطان سليم الثاني

سلطنة مراد بن سليم

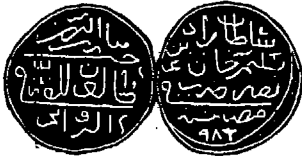
من سنة ٩٨٢ — ١٠٠٣ او من ١٥٧٤ — ١٥٩٤ م

وفي ١٠ رمضان بويع ابنه مراد خان (مراد الثالث) وحال جلوسه على كرسي السلطنة ولى على مصر بدلاً من حسين باشا مسيح باشا وكان خزنداراً عند السلطان سليم الثاني فحكم في مصر خمس سنوات وخمسة اشهر ونصف ووجه اهتمامهُ خصوصاً الى ابطال السرقات والتعديات فكان يقبض على اللصوص ويقتلهم بدون شفقة حتى بلغ عدد من قتل من اللصوص عشرة آلاف فارتاحت البلاد من شرورهم . ثم عكف على اصلاح شؤون الرعية وكان نزيهاً لا يقبل الرشوة ولا الهدية . ومن آثاره مسجد عظيم في ضواحي القرافة لا يزال يعرف باسمه . وقد بناهُ على اسم الشيخ نور الدين القرافي وجعلهُ له ولنسله ملكاً حرًّا وخصص دخلاً معيناً للنفقة عليهِ . وامر مسيح باشا ان تستهل الاوامر والكتابات الرسمية والاحكام بهذه العبارة « الحمد لله والصلاة والسلام على نبينا وآلهِ وصحبهِ ان المؤمنين اخوة فاحفظوا السلام بين اخوتكم واتقوا الله »

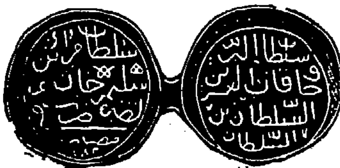
وفي سنة ٩٨٨ هـ ولي مصر حسن باشا الخادم خزندار السلطان مراد الثالث فلم يكن همه الا جمع الاموال باية وسيلة كانت واعادة ما كان حظره سابقه من الرشوة والهدايا . فبقي على ولاية مصر سنتين وعشرة اشهر . ولما عزل عنها سار من القاهرة خفية وطلع من باب المقابر لئلا ينتقم منه اهلها . وفي سنة ٩٩١ هـ خلفه ابراهيم باشا فاخذ يستطلع ويتحرى ما اتاه سابقه من الاختلاس فجعل في جامع السلطان فرج بن برقوق موظفاً خصوصياً لاستماع تشكيات المتظلمين على الوالي السابق من ١٠ رجب من تلك السنة الى غاية رمضان فاطلع على مظالم لا تحصى من جملتها ١٠٠٤٤٢

اردب قمح من الشون العمومية باعها حسن باشا واستولى على قيمتها فرفع ابراهيم باشا تقريراً مدققاً بشأن ذلك الى السلطان فامر بقتله خنقاً . ثم طاف ابراهيم باشا بنفسه يتفقد احوال المديريات ويتحقق حالتها وزار ايضاً آبار امرود في الصحراء ورمم بعضها . وفي عودته الى القاهرة استقال من منصبه سنة ٩٩٢ ﻫ وتولى مكانه سنان باشا الثاني وكان دفترداراً . وبعد ستة اشهر وعشرين يوماً برح مصر هارباً وسبب ذلك انه ساء التصرف فاشتكاه الناس الى الاستانة فجاء اويس باشا الى مصر ليتحرى تلك التشكيات فلما علم سنان بمجيئه فرّ هارباً

فتولى اويس حكومة مصر سنة ٩٩٤ ﻫ وكان صارماً في الاحكام. وكان في اول امره قاضياً ثم صار دفترداراً في الروملي ثم نقل الى باشوية مصر كما تقدم . وبقي عليها خمس سنوات وخمسة اشهر وعشرة ايام واراد ان يدرب الجنود فعصوه وهجموا عليه في الديوان في ٢٨ شوال سنة ٩٩٧ﻫ واهانوه ونهبوا بيته وفي جملة ما نهبوا منه ساعة كبيرة تعرف منها الايام . ثم ذبحوا الامير عثمان قائد وجاق الجاويشية واخربوا بيت قاضي العسكر وقتلوا قاضيين من قضاة مصر ثم عمدوا الى الحوانيت فنهبوها ــ كل ذلك والامراء لا يستطيعون منعهم والاضطراب يزداد والثائرون يتمردون وقد حاول الدفتردار ايقافهم عند حدهم فذهب سعيه باطلاً . ثم ظن اويس باشا انه اذا جاءهم بالحسنى ربما يلينون فبعث الى القضاة ان لا يخالفوا لهم امراً فلم يزدهم ذلك الا عناداً وفجوراً حتى قبضوا على اولاد الباشا رهناً لما يريدون فاضطر الباشا الى الاذعان لما ارادوه واعطاهم ما طلبوه واستقال من تلك الولاية بعد ان ملّ من خيبة مساعيه الحميدة فيها . فتولى مكانه حافظ احمد باشا سنة ٩٩٩ ﻫ وكان حاكماً في قبرص وعلى جانب عظيم من حب العلم وطالبيه حاذقاً مدرباً في امور الاحكام . وكان رفيقاً بالاهلين ففرق الحسنات على الحجاج الفقراء وابتنى في بولاق وكالتين وعدة قيصريات وعدة بيوت وخصص ربع دخلها لعمل الخير وبقي حاكما في مصر ٤ سنوات


ش ٧ : نقود السلطان مراد بن سليم

وترى في الشكلين ٧ و٨ صورة نقود السلطان مراد بن سليم مضروبة في القاهرة بتاريخ سنة ٩٨٢ ﻫ


ش ٨ : نقود السلطان مراد بن سليم

سلطنة محمد بن مراد

من سنة ١٠٠٣ — ١٠١٢ ه او من ١٥٠٤ — ١٦٩٣ م

وفي ١٧ رمضان سنة ١٠٠٣ ه تولى الخلافة في الاستانة السلطان محمد بن مراد (محمد الثالث) عوضاً عن ابيه مراد الثالث

فولى على مصر قورط باشا فلم يبق فيها الا سنة وثمانية ايام وكان الناس يحبونه للطفه ودعته وتنشيطه لطالبي الادب ومساعدته للفقراء ولكل من يلتجيء اليه . وفي شوال سنة ١٠٠٤ ه خلفه السيد محمد باشا وبقي على الحكومة سنتين اتبع في اثنائهما خطة اسلافه في تنشيط العلم والادب فاعاد بناء الجامع الازهر وجعل فيه وظائف يومية من العدس المطبوخ تفرق في الطلبة الفقراء ورمم المشهد الحسيني . ومع كل ما كان يتوخاه من السعي في حفظ النظام بين الاهلين لم يمكنه انقاذهم من ثورة عسكرية انتشبت في غرة رجب سنة ١٠٠٦ ه في سائر انحاء القطر المصري . ثم اجتمع العصاة الى القاهرة وكان السيد محمد باشا اذ ذاك في منزله في برية الجيزة فعاد الى القاهرة تحفُّ به السناجق وزمرة من الخفراء فلم يبال العصاة بذلك بل اطلقوا عليه النار ولم يتخلص من ايديهم الا بعد شق الانفس . فسار الى احد منازله فتبعوه وحاصروه هناك ليلاً ونهاراً والحوا عليه ان يسلمهم بعضاً من ضباطه وفي جملتهم دالي محمد احد كبار الامراء والامير جلاد الشوباصي والامير خضر كاشف المنصورة فطلب اليهم ان يمهلوه ثلاثة ايام . فلما جاءهم رسوله قالوا له « سيحكم الله بيننا وبين مولاك » وتفرقوا في المدينة فظفروا بقاضي العسكر عبد الرؤوف فاجبروه على القيام بمطاليبهم . اما الباشا فاغتنم اشتغالهم بذلك الشأن وفرَّ من منزله ودخل القلعة واقفل ابوابها وراءه والتجأ الى حسين باشا السكراني قائد عموم الجيش وبيري بك امير الحج فحاولا تسكين الثورة فذهب سعيهما عبثاً . ثم علما ان العصاة قتلوا الامير محمد بك والدالي محمد وعلقوا رأسيهما على باب زويلة ونهبوا بيتيهما واثخنوا في الناس قتلاً ونهباً

وفي ١٧ ذي الحجة سنة ١٠٠٦ ه ابدل السيد محمد باشا بخضر باشا فحكم ثلاث سنوات و ١٢ يوماً وقد اغضب الاهلين منذ وصوله القاهرة لانه امر بقطع الاعطيات والجرايات التي كانت توزع على العلماء والفقراء من الحنطة ولم يقتصر على الايقاع بهؤلاء الضعفاء بل تجاوزهم الى الضابطة فاحرمهم زادهم فتجمهروا في



ش ٩ : والي مصر في موكبه بالقرن العاشر للهجرة

٢٠ رمضان سنة ١٠٠٩ هـ وساروا الى قاضي العسكر . ثم اتحدوا والقاضي في مقدمتهم وتوجهوا الى الديوان يريدون الانتقام فقتلوا كخيا الباشا وامراء آخرين نخاف الباشا فسلم لهم بما كانوا يطلبونه واعاد لهم الاعطيات كما شاؤا وخمدت الثورة وعادت المياه الى مجاريها . الا ان الباشا لم يلبث هنيهة حتى جاءه الامر بالاقالة فاستقال وولي مكانه الوزير علي باشا السلحدار وكان محبا للحرب ولذلك كان يكرم الجند على الخصوص لكنه كان سفاكاً للدماء فتظلم الناس من قسوته ولم يكن يخرج في موكبه الى المدينة او ضواحيها الا ويميت على الاقل عشرة اشخاص تحت حوافر جواده فكان الناس يرتعدون خوفاً من ذكر اسمه . ورافق كل ذلك جوع عظيم فكثرت الوفيات وعم الخراب . فازداد الرعب حتى امر الباشا ان تدفن الموتى سراً اما هو فترك القاهرة فراراً من تلك الغائلة واستخلف عليها بيري بك . وبعد يسير توفي هذا فانتخب السناجق الامير عثمان بك ليقوم مقامه وبقي هذا حتى عين الباب العالي من يخلف علي باشا وكان ذلك التغيير بسبب وفاة السلطان محمد الثالث في ١٦ رجب سنة ١٠١٢ هـ .



ش ١٠ : نقود السلطان محمد بن مراد ضربت في القاهرة

وترى في الشكلين ١٠ و١١ صورتين من نقود السلطان محمد بن مراد الاولى مضروبة في القاهرة والثانية في دمشق



ش١١ : نقود السلطان محمد ن مراد مضروبة في دمشق

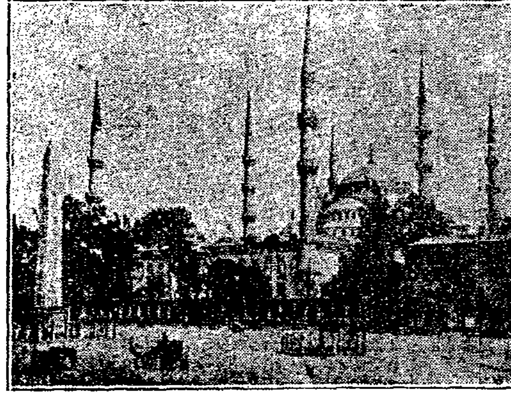
سلطنة احمد بن محمد

من سنة ١٠١٢ — ١٠٢٦ ﻫ او من١٦٠٣ — ١٦١٧ م

فنصب ابنه احمد بن محمد (احمد الاول) فولى على مصر ابراهيم باشا . فحكم فيها مدة قصيرة انتهت بخطب جسيم — وذلك انه منذ وصوله اليها عزم على ابطال طلبات الجند ولما اراد انفاذ ما نواه زادت الجنود تمرداً . وفي ٣٩ ربيع آخر سنة ١٠١٣ ﻫ علموا ان الباشا خرج من القاهرة في زمرة من رجاله وركب النيل الى بولاق قاصداً شبرا قرب جسراي المنجا . فاجتمعوا في ضواحي القرافة وتعاقدوا بالايمان المغلظة على قتله . وفي الصباح التالي جاؤا وعسكروا في بولاق ينتظرون عوده . ثم قاموا من هناك يريدون مهاجمته في قلعة الدولاب وكانوا قد علموا بالتجائه اليها . فلما علم هو ومن معه من السناجق بقدوم تلك العصابة تشاوروا فيما بينهم فنصح له السناجق ان يسافر بحراً قبل ان يصل اليه ضيم فلم يصغ لهم وتشدد بمن معه من الجاويشية والمنفرقة

ثم جاءت الجنود الثائرة واحاطوا بالقلعة وبعثوا من بينهم ١٥ رجلاً ليأتوا برأس الباشا فدخل هؤلاء القلعة والسيوف مشرعة في ايديهم حتى جاؤا مجلسه فانتهرهم قائلاً « ماذا تريدون الم تستولوا على مرتباتكم والانعام الذي يعطى اعتيادياً عند تولية الحكام عليكم فماذا تطلبون ؟ » فاجابوه « لا نطلب منك شيئاً الا راسك » قالوا هذا وصفعه احدهم على وجهه وادركه الباقون بالطعن مراراً . ثم عمد احدهم الى راسه فقطعه . فانتهرهم الامير محمد بن خسرو ووبخهم على ما جاءوا به من القحة فلم يجيبوه الا بما اجابوا ذاك واخذوا راسي الاثنين وعادوا بهما الى رفاقهم حول القلعة . ثم حملوهما وداروا بهما شوارع المدينة الى ان علقوهما على باب زويلة وكان قد تعود مثل هذه الاكاليل

وفي ذلك اليوم اقاموا عليهم عثمان بك فلم يقبل فولوا قاضي العسكر مصطفى افندي



ش ١٢: جامع السلطان احمد بالاستانة

فلما علم ديوان الاستانة بقتل ابراهيم باشا ارسل عوضاً عنه الوزير محمد باشا الكورجي الملقب بالخادم . وحال وصوله القلعة وردت الاوامر الصارمة من الباب العالي الى جميع السناجق ان يستطلعوا اصل الثورة واسبابها ويقبضوا على زعمائها . فاجتمع السناجق والقسم الاعظم من الجيش في قراميدان وكان الباشا في القلعة فبعث يستقدم السناجق اليه ليبلغهم هذه الاوامر رسمياً فرفضوا المثول بين يديه فتوسط الامراء ووعدوا السناجق انهم اذا سلموا القاتلين نجوا ونالوا العفو العام فقبلوا وسلموا القاتلين الى الباشا فامر بقطع اعناقهم بين يديه حالاً واطلق السناجق . فخاف الثائرون وضعف عزمهم ولا سيما لما رأوا من محمد باشا التيقظ لحفظ النظام ومعاقبة المعتدين وقد قتل منهم نحواً من مائتي رجل في مدة حكمه القصيرة التي لم تدم اكثر من سبعة اشهر وتسعة ايام

فتولى بعده الوزير حسن باشا وهو اقل صرامة من سلفه فكان يعامل الجند بالحسنى وكان ابنه فيهم برتبة بكلربكي وكانت الاحوال هادئة جداً في اثناء حكمه . ثم تولى بعده الوزير محمد باشا في ٧ صفر سنة ١٠١٦ هـ وبقي على حكومة مصر اربع سنوات واربعة اشهر و١٢ يوماً وكان حكيماً حازماً اخذ منذ وصوله القاهرة في المحافظة على السلام فنجى الاهلين مما كان يكدر راحتهم فاكتسب ثقتهم ومحبتهم الا انه لم ينج من الحساد وذوي الاغراض

وفي اواخر شوال من السنة التالية ثارت عليه الجيوش واجتمعوا في برج سيد

احمد البدوي وتحالفوا ان لا يوافقوه على الغاء الضرائب غير العادلة التي كانت مضروبة على القطر الى ذلك العهد . ثم اختاروا من بينهم رئيساً ولوه عليهم سلطاناً وتقاسموا مصر الى اقسام تولى كل واحد منهم اثارة الشغب والنهب في قسم منها فانتشرت تعدياتهم في جميع الدلتا . فلما علم محمد باشا بذلك جمع السناجق والجاويشية والمتفرقة وسار بهم تحت قيادته لردع العصاة في ٩ ذي الحجة سنة ١٠١٧ ﻫ واخذ معه ستة مدافع وانضم اليه كثير من مشائخ قبائل العرب وفي الليلة التالية عسكر الجميع في بركة الحج

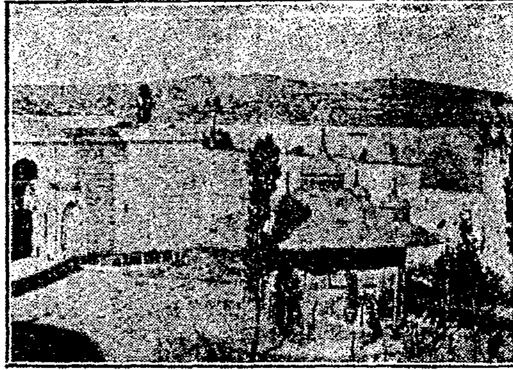
وفي الصباح هاجموا العصاة في الخانقاه فضيقوا عليهم بالنيران فاضطر اولئك الى التسليم فاخذ عليهم الباشا عهوداً اولها ان يسلموا اليه سلطانهم وكبار رؤسائهم ووعدهم بالتأمين على حياتهم فقبلوا وسلموا الرؤساء وعددهم نحو ٧٧ فامر بقتلهم حالاً . ثم جرد الباقين من سلاحهم فتفرقوا فتعقبهم رجال الباشا وقتلوا من ظفروا به منهم . فلما راى قاضي العسكر محمد افندي الملقب بنختي زاده ما كان يحصل من امثال هذه المذابح يومياً نصح للباشا ان ينفي كل من يقبض عليه منهم الى اليمن ففعل وكانت النتيجة حسنة وبطلت التعديات

ولما ارتاح محمد باشا من تلك الثورات اخذ في اصلاح الادارة المالية فتفحص بنفسه النفقات التي كانت تدفع من الخزينة واقتصد منها كل ما لم يكن ضرورياً . ثم نظر الى الضرائب فابطل طريقة المماليك الشراكسة فيها واتبع القوانين التي صدرت سنة ٩٣٢ ﻫ في زمن السلطان سليمان القانوني ثم نظم المكوس وعدلها ولم يكن يكلف نفساً الا وسعها فاذا راى ارضاً لا تقوى على القيام بما فرض عليها من المكوس تنازل لها عنه وساعدها في احياء مواتها . ولما برح مصر نال من المكافآت والانعامات ما لم ينله احد من اسلافه في مصر . وتولى بعده محمد باشا الملقب بالصوفي وكان يحب العلماء ورجال الفضيلة وكان ورعاً حليماً عفيفاً لم يقبل رشوة ولم يأت ظلماً الا انه كان ملوماً لزيادة ضعفه بما يتعلق بمحبوبه يوسف الذي كثيراً ما تعدى حدوده

وفي سنة ١٠٢٢ ﻫ ارسل الصدر الاعظم عشرة آلاف جندي الى اليمن لاخماد ما كان ثائراً من الشغب هناك وارسلت الفرقة المذكورة عن طريق مصر ومعها امر سام الى الباشا بدفع النقود اللازمة لها وتشييع الحملة الى اليمن. فلما وصلت الجيوش الى مصر وعلموا بما ورد من الاوامر بشأنهم ادعوا انهم جاؤا ليقيموا في مصر ولم يذعنوا لاوامر الباشا بالسفر فاتخذوا لهم منازل في مخازن باب النصر وطردوا بعض اصحابها منها فاجتهد الباشا ان يحملهم على التسليم بالاوامر الواردة اليه بشأنهم فذهب سعيه

باطلاً واقاموا المتاريس في ابواب الحارة واقفلوا باب النصر ونصبوا المدافع في برجيه فاضطر الباشا الى محاصرتهم بكل مالديه من الوجاقات والمدافع فتمكن الامير عابدين بك من الدخول الى حصنهم من باب في المدرسة المدعوة بالجانبلاطية فخاف العصاة وسلموا ففرق فيهم الباشا نحو ثمانين كيساً وسافروا

وبعد يسير اقيل محمد باشا الصوفي فاعتزل في قبة العدلية ولم يبرحها الا بعد ان علم بوصول خلفه احمد باشا دفتردار مصر سابقاً الى الاسكندرية ثم جاء القاهرة ودخلها بموكب حافل . وبينما هو بموكبه في المدينة رماه بعض الناس بحجر من سطح بعض البيوت فكسر الهلال الذي كان فوق عمامته ولم يؤذه فامسك الفاعل فاعترف بذنبه فقتل في ذلك المكان



ش١٣ : سبيل السلطان احمد بالاستانة

وفي محرم سنة ١٠٢٥ هـ ورد الى الباشا المذكور امر من الاستانة ان يرسل الفاً من جنود مصر لتنضم الى الجيش العثماني الذاهب لمحاربة الفرس . فارسلهم تحت قيادة صالح بك امير الحج فساروا على اتم نظام ومروا بالمديريات ولم يشعر الاهالي بمرورهم لما كان لهذا الباشا من النفوذ وما اقامه في مصر من النظام مع اعطائه الجيوش حقهم من المرتبات . ولم يكن يتيسر قبل ذلك مرور مائة رجل بمقاطعة واحدة مالم ينهبوها . فالتقت هذه الفرقة بالجيش العثماني في الخانقاه وانضمت اليه ولما ودع الباشا عسا كره فرق فيهم المال فاصاب الواحد منهم ٢٠ ديناراً على الاقل

وكانت مدة حكم احمد باشا سنتين وعشرة اشهر واثني عشر يوماً ولم يقتل في اثنائها اكثر من عشرة اشخاص ارتكبوا اموراً استوجبوا من اجلها القتل ولم يكن يحكم على احد الا بعد البحث الدقيق واستماع تقارير الدعوى من الطرفين

سلطنة مصطفى بن محمد ثم عثمان بن احمد ثم مصطفى بن محمد ثانية

من سنة ١٠٢٦ — ١٠٣٢ هـ او من ١٦١٧ — ١٦٢٣ م

وفي يوم الاربعا ٢٣ ذي القعدة سنة ١٠٢٦ هـ توفي السلطان احمد الاول وبويع اخوه السلطان مصطفى الاول ويوم مبايعته استبدل احمد باشا بمصطفى باشا لفغلي. لكن السلطان مصطفى لم يمكث على عرش السلطنة الا ثلاثة اشهر وثمانية ايام. وفي يوم الاربعاء ٣ ربيع اول سنة ١٠٢٧ هـ خلفه ابن اخيه ابو النصر عثمان. اما الوزير مصطفى باشا فلم يبق على مصر بعد خلع السلطان الذي ولاه الا بضعة اشهر لانه سهل النفوذ لذويه في الاحكام فنشأت ثورة عسكرية في ٧ شوال سنة ١٠٢٧ هـ فقتل الثائرون عدداً كبيراً من الامراء والاغوات وغيرهم من الكبراء واضطر الباقون الى الفرار ولم يسكن الاضطراب الا بعزل مصطفى باشا بامر السلطان عثمان. فتولى مكانه الوزير جعفر باشا وهذا لم تطل حكومته اكثر من خمسة اشهر ونصف. وكان محباً للعلم والعلماء يجمع اليه رجال الادب ويكرم مثواهم ولم يهتم كل تلك المدة الا بما فيه منفعة البلاد وراحة العباد

وظهر في ايامه وباء انتشر في مصر وفتك باهلها فتكاً ذريعاً من غاية ربيع اول سنة ١٠٢٨ هـ الى غاية جمادى الثانية من السنة المذكورة وقد لوحظ ان معظم الذين ماتوا بهذا الوباء شبان بين الخامسة عشرة والخامسة والعشرين اعمارهم وبلغ عدد من توفي بسببه ٣٦٥٠٠٠ نفس

وتولى بعد جعفر باشا مصطفى باشا فقبض على مصطفى بك الملقب بالبكلجي زعيم الثورة التي نشأت في ايام مصطفى باشا لفغلي وحكم عليه بالاعدام. فسر الناس بذلك لان مصطفى بك المذكور كان اصل متاعبهم. على ان سرورهم لم يلبث ان ظهر حتى ابدل بالكدر لان مصطفى باشا حاكمهم الجديد اضطهد تجارهم وضيق عليهم مسالك رزقهم. فرفعوا تظلماتهم الى السلطان فنظر في دعواهم وانصفهم فعزل ذلك الباشا وولى حسين باشا. فبادر هذا الى ابطال جميع الضرائب غير العادلة التي كان قد ضربها

سلفه . وفي ايامه ارتفع النيل ارتفاعاً فوق العادة فطاف على الارض واغرقها حتى يئس الناس من البقاء لنهاية ذلك الطوفان واصابهم ضيق عظيم عقبه طاعون شديد . ثم عزل حسين باشا واستقدم الى الاستانة وقبل وصوله اليها خلع السلطان عثمان الثاني يوم الخميس في ٨ رجب سنة ١٠٣١ ﻫ واعيد مصطفى الاول الذي كان قبله

اما الباشا المعزول فوصل الى الاستانة في اسعد الاوقات له لان اعراض السلطان السابق عنه كان داعياً لرغبة السلطان الجديد في تقريبه منه فاتفقت الاحزاب هناك على توليته الصدارة العظمى . وكان عثمان الثاني قبل وفاته قد بعث الى مصر محمد باشا بدلاً من حسين باشا لكنه لم يصل مصر الابعد ان انبيء اهلها بما كان يأتيه في الروملي يوم كان والياً عليها فنفروا منه وخافوا من تصرفه. ولحسن حظهم لم يبق بينهم الا شهرين ونصف شهر فلما تولى حسين باشا الصدارة العظمى عزله بأمر السلطان مصطفى الاول وولى ابراهيم باشا . وبقي هذا على مصر سنة وقد تمكن بحسن سياسته وتدبيره من اكتساب رضى الاهلين وثقتهم الا انه حصل في ايامه ضيق عيش وغلت اسعار المأكولات جداًّ

ولما عزل ابراهيم باشا سافر الى الاسكندرية بحراً خلافاً للعادة الجارية في من سبقوه على حكومة مصر فانهم كانوا اذا عزلوا من مناصبهم سافروا برًّا . وتولى مكانه مصطفى باشا واستلم زمام الاحكام في ٢٢ رمضان سنة ١٠٣٢ ﻫ فاتاه كتبة الديوان يشتكون تصرف سلفه وقالوا انه مدين للخزينة بمبلغ وافر فارسل في اثره بعض الجاويشية فالتقوا به فهددهم بالقتل اذا لم يعودوا عنه فخافوا وعادوا الى القاهرة . فارسل الامير صالح بك فادركه وقد نزل البحر في الاسكندرية فاوعز اليه ان يقف فاجاب انه متوجه الى الاستانة فاذا كان عليه شيء يدفعه هناك الى السلطان نفسه . قال ذلك ونشر الشراع فمخرت به السفينة فاطلقوا عليه من طابية منارة الاسكندرية بعض الطلقات المدفعية فلم يبال بها



سلطنة مراد بن احمد

من سنة ١٠٣٢ ـــ ١٠٤٩ هـ او من ١٦٢٣ ـــ ١٦٤٠ م

فبلغ الاستانة والسلطان مصطفى الاول قد خلع وتولى مكانه السلطان مراد الرابع ابن احمد فلم يتعرض له احد . وبعد تولية مصطفى باشا بثلاثة اشهر اي في ١٥ ذي الحجة ورد الى القاهرة الامر بعزله وتولية علي باشا مكانه . فاجتمعت الاجناد وساروا الى القائمقام عيسى بك يطلبون الاعطاءات التي تفرق عند تولية كل وال جديد فانتهرهم عيسى بك قائلاً « أفي كل ثلاثة اشهر تجددون هذه الطلبات » فاجابوه « وما المانع ؟ الم يغير مولانا السلطان كل ثلاثة اشهر والياً علينا . الا يضر ذلك بمصلحة البلاد واذا اراد ان يولي كل يوم والياً فنحن ايضاً كل يوم نطلب الاعطاءات التي لنا » . فحاول القائمقام اقناعهم فلم ينجح ولم يزدهم ذلك الا عناداً وتهديداً وصرخوا جميعهم بصوت واحد « نحن لا نرضى حاكماً آخر غير مصطفى باشا وليرجع هذا الى حيث اتى » ثم قراوا الفاتحة واقسموا ان يحافظوا على ما قالوه وان لا يحنث احد منهم بذلك وبناء عليه اعيد مصطفى باشا الى منصبه

فلما راى الحزب العسكري معه كتب الى السلطان يطلب تثبيته وارفق الكتاب برسائل عديدة ممضاة من علماء القاهرة ومشائخها وقضاتها وجميعهم يطلبون تثبيته . ثم بلغهم وصول علي باشا الى الاسكندرية فبعثوا اليه وفداً يبلغونه ان الجند والاهلين متفقون على رفضه فجمع الوفد اليه ودفع اليهم كتباً كلها مدح واطناب للامراء والجيوش فعاد الوفد وقرأ تلك الكتب على الجند فلم يكن جوابهم الا اعادة الوفد ليعيدوا مطالبهم الاولى . فلما راى اصرارهم استشاط غضباً وامر فقبض على ذلك الوفد وقيدوا الى قلعة الاسكندرية مغلولين وزجوا في سجنها فتآمروا مع جند الاسكندرية وكانوا من حزبهم فحلوا وثاقهم وهجموا جميعاً على علي باشا وقوضوا خيمته واجبروه على الخروج من الاسكندرية حالاً فانزلوه في قارب مخصوص واخرجوه من الميناء وكانت الريح ضده فاعادته ثانية فاطلق عليه الامير مصطفى من قلعة المنارة عدة طلقات ثقبت سفينته ثقوباً لم تغرقها لكنها اخرجتها من الميناء ولقب الامير مصطفى من ذلك الحين بالطبجي

وفي ٢٠ ربيع آخر سنة ١٠٣٣ هـ جاء القاهرة كتاب يحمله حمام الزاجل — وهو

بريد تلك الايام — فحواه قرب وصول مندوب عثماني ومعه الاوامر السلطانية . وبعد ايام وصل ذلك المندوب ودخل القاهرة وجمع السناجق والامراء وكبار الموظفين في الديوان والبس مصطفى باشا الخلعة المرسلة اليه من السلطان . ثم تلا عليهم الفرمان بتثبيته على مصر . وفي السنة التالية زاد النيل زيادة فوق العادة فبلغ ٢٤ ذراعاً فخاف الناس ان لا ينحسر الماء عن اراضيهم في زمن يمكنهم فيه زراعتها . لكنه اخذ في الهبوط بسرعة فانكشفت الارض وزاد خصبها

الوباء وبيرام باشا

ولم تكد مصر تنجو من الجوع حتى داهمها ما هو اصعب مراساً منه — نعني الوباء فانه ظهر فيها باوائل ربيع اول سنة ١٠٣٥ هـ واخذ ينتشر في جميع انحائها بسرعة . وفي شعبان من تلك السنة اخذ بالتناقص ولم ينقض الا في اوائل رمضان . قال بعضهم ان الذين ماتوا بسبب هذا الوباء ثلاثمائة الف نفس . فتذرع الباشا بهذه الضربات لاختلاس اموال الناس فجعل نفسه وريثاً لكل من مات بالوباء من الاغنياء فاستولى على تركاتهم فتظلم الورثاء الى الاستانة . ولا يخفى ان هذا الباشا لم يتولَّ مصر الا رغم ارادة الباب العالي فاغتنم هذه الفرصة فعزله وولى بيرام باشا فجاء وحاكم مصطفى باشا وحكم عليه بدفع الاموال التي اختلسها فباع كل ما له من المتاع والمقتنيات ودفع ما عليه . ولما عاد الى الاستانة (سنة ١٠٣٧ هـ) حكم عليه بالاعدام

ولا يخفى ان محاولة الجيوش والامراء عزل وتولية باشوات مصر بمجرد ارادتهم مخالف للنظام ومغاير لما وضعه السلطان سليم الفاتح لكل فئة من فئات مصر الحاكمة من الحدود . فكانت موافقة الباب العالي على مطاليب الامراء خرقاً للحدود السابقة . وعلى ما تقدم حصل بعض التعديل في القواعد الاساسية التي سنها السلطان سليم الاول منذ قرن . وكان بيرام باشا محباً للعلم والعلماء لكنه كان اكثر حبًّا لجمع المال واقامة المشاريع المفيدة وتنشيط التجارة على انواعها فاكثر من الضرائب حتى على الصابون وكان حازماً لم يترك للجند فرصة للتمرد فهدأت مصر في ايامه

محمد باشا وموسى باشا

ثم استدعي الى الاستانة وعين وزيراً في ديوانها وهذه هي المرة الثالثة لتعيينه في ذلك المنصب . فتولى بعده الوزير محمد باشا فساس الامور بحكمة ودراية وكان محبًّا للعزلة فلم يخرج بموكبه في اثناء حكمه التي هي نحو سنتين الا ست مرات . واتصل به ما اصاب اليمن من الشغب الناتج عن سوء السياسية مع القبائل البدوية فعرض على

السلطان اخضاعها وتعهد بارسال فرقة من رجاله بقيادة قنسو بك امير الحج لهذه الغاية . فاجابه السلطان الى ما طلب وولى قنسو بك على اليمن مع رتبة باشا وجعله بكاربكي (امير الامراء) على الجيش . فانشأ قنسو جيشاً من ثلاثين الف مقاتل وقبض مبلغاً كبيراً ليدفع منه نفقات الحملة وبعد ان قبضه توقف عن السفر وترك جيشه بمصر يسلبون وينهبون ويقتلون الاهالين ويتعرضون للمسافرين . ولحسن الحظ كان بين تلك الجيوش الف رجل من الروملي جاؤا للاشتراك في تلك الحملة تحت قيادة الامير جعفر آغا فاخمدوا تلك الثورة والزموا قنسوبك ان يسير بهم الى اليمن في محرم سنة ١٠٣٩ هـ فسار وحارب وفاز . وبعد سبعة اشهر من سفر تلك الحملة (في ١٩ شعبان) طاف على مكة سيل من الماء أغرق القسم الاعظم من ارضها حتى الكعبة فهدم معظم بنائها ولم يبقَ من جدرانها الا الايمن . فاتصل ذلك بوالي مصر فاوصله للسلطان مراد الرابع فانفذ السلطان الى محمد باشا يعهد اليه ترميمها ففعل . فبلغت جميع النفقات نحو مئة الف قرش (القرش يساي اربعة فرنكات تقريباً)

وفي سنة ١٠٤٠ هـ كان ارتفاع النيل قليلاً فجاء شهر توت ولم يبلغ ١٦ ذراعاً ومع ذلك فتح الخليج وسيقت المياه قليلة الى الارضين ولكن البلاد امنت من الجوع بتدبير محمد باشا . وفي هذه السنة استدعي محمد باشا الى الاستانة وقلده السلطان منصب الوزارة في الديوان الشاهاني مكافأة لحسن سياسته ودرايته . وتولى مكانه في مصر موسى باشا . وكان للاهلين في بادئ الرأي ثقة فيه وكانوا يحبونه ويجلون قدره فخرجوا لملاقاته في شبرا لكنه لم يكد يمكن قدمه حتى استسلم لهواه . فاخذ في الاختلاس والاستبداد بانفس العباد فامر بقتل اكبر رجال مصر بغير وجه حق وجعل يراقب سير اغنيائها ويترصد خطواتهم لعله يجد سبيلاً للاستيلاء على ثرواتهم

وفي شعبان من تلك السنة بعث السلطان يطلب اليه ان يعد حملة من جنده لمحاربة الفرس فجمعها تحت قيادة قيطاس بك وضرب على البلاد ضرائب فاحشة باسم اعانة حربية . ولما وصلت تلك المبالغ اليه زعم ان مصر لايمكنها تجريد مثل هذه الحملة لان ماليتها لا تسمح لها بدفع النفقات اللازمة . فنصح له قيطاس ان يتبع الاستقامة وهي افضل له فذهبت اقواله عبثاً . ثم اوجس موسى باشا خيفة من قيطاس بك لانه اطلع على فظائعه فاستدعاه الى القلعة في عيد الاضحى يوم الاربعاء في ٩ ذي الحجة وامر اربعين من رجاله ان يقتلوه ففعلوا

فلما راى الاميران كنعان بك وعلي بك ذلك وقع الخوف في قلبيهما واسرعا الى

الجيوش فاعلماهم بما كان من امر قيطاس بك مع موسى باشا فاجتمعت العساكر حالا في الرميلة . واما السناجق والامراء والقضاة وكبار الموظفين فاجتمعوا في جامع السلطان حسن وتفاوضوا في الامر فاقروا على عزل موسى باشا وتولية من يقوم مقامه . وقتاً ريثما يأتي امر الباب العالي بشأنه تخلعوه واقاموا حسن بك مكانه . فكتب موسى باشا الى السلطان يعلمه بخبر تلك الثورة . وكان رؤساؤها قد رفعوا الى ديوان الاستانة كتابين الواحد بالتركية وقع عليه السناجق والاغوات وكبار ضباط العسكرية والآخر بالعربية من القضاة والمشايخ والعلماء يطلبون بصوت واحد خلع موسى باشا . فاجابهم السلطان الى طلبهم فولى عليهم خليل باشا

خليل باشا

وفي ربيع اول سنة ١٠٤١ هـ وصل خليل باشا الى مصر واستلم ازمتها . وبلغه ان جماعة من اللصوص ثاروا تحت رئاسة احد الشرفاء المدعو نامي ونهبوا مكة فجمع جند القاهرة وارسلهم بقيادة الامير قاسم بك لاخماد تلك الثورة . فساروا وحاربوا اللصوص وقتلوا زعماءهم . وفي صفر سنة ١٠٤٢ هـ عاد قاسم بك بجيشه الى القاهرة ظافراً . واقبلت غلة مصر تلك السنة وزاد خصبها وتضاعف ريعها ونزلت اسعار الحنطة من ثمانية غروش الاردب الى غرشين

وفي سنة ١٠٤٢ هـ استقال خليل باشا من ولاية مصر فخرج منها والناس يثنون عليه ثناءً جميلاً لانه كان عادلاً حليماً . فلم يكن يصدر حكمه الا بعد التروي بما يقوله المتخاصمان . ومما يحكى عنه انهُ جيء اليه يوماً بثلاثة لصوص قبض عليهم وهم متلبسون بالجناية . فامر ان يحاكموا فقال احد رجال ديوانه ان هذه الحادثة لا تحتاج الى محاكمة لثبوت الجناية فعلاً فيجب اصدار الحكم رأساً بالاعدام . فلم يكن جواب الباشا الا الامر بهدم بيت ذلك الناصح . فاستغرب الرجل ذلك وسأل عن السبب الموجب له فاجابه الباشا قائلاً « كيف يحق لك الاعتراض عليَّ اذا امرت بهدم بيتك المبني من حطام الدنيا ولا يحق لذلك الباني العظيم معارضتنا اذا هدمنا بنايته بغير وجه شرعي » ثم ابطل الامر بالهدم واطلق اللصوص . قال ابن ابي السرور ناقل هذه الحكاية ان اللصوص قلوا بعد تلك الحادثة احتراماً للباشا

وبعد استقالة خليل باشا من مصر عين علي الروملي وتولى مصر الوزير احمد باشا الملقب بالكورجي وكان قبلاً اميرياخور . وفي صفر سنة ١٠٤٣ هـ وردت له الاوامر الشاهانية ان يبعث الفين من عساكر مصر الى سوريا مدداً للحملة العثمانية على دروز لبنان مع خمسة آلاف قنطار من البقسماط واربعة آلاف قنطار من البارود .

ثم جاءت اوامر اخرى بطلب الفي رجل آخرين وثلاثة الاف قنطار من البارود لمحاربة الفرس . فراى احمد باشا ان مصر لاتقوم بهذه الطلبات فاعتذر الى السلطان فبعث اليه ١٢ الف قنطار من النحاس ليسبكها نقوداً على ان يبعث عوضاً عنها الى الاستانة ثلاثمائة الف زر محبوب

النقود بمصر

وللنقود في مصر تاريخ لاباس من الاشارة اليه — كانت المعاملة بمصر عند الفتح الاسلامى بالدرهم وهو وزن درهم من الفضة والدينار وهو مثقال من الذهب وكان الدينار يبدل بعشرة دراهم . ثم تكاثرت الفضة فصار الدينار يساوي ١٢ درهماً في ايام بني امية و١٥ درهماً في اوائل بني العباس ثم زادت قيمته الى ٢٠ درهماً او ٢٥ او ٣٠ باختلاف الاحوال . فلما كانت الحروب الصليبية واختلط الافرنج بالمسلمين دخل البلاد الاسلامية كثير من النقود الافرنجية وحدثت نقود ذهبية جديدة كالبندقي والمجر والبينتو وزر محبوب (وهو الدينار) والجنيه العثماني والافرنجي والمصري وغيرها وكلها من الذهب . اما النقود الفضية فابدلت دراهمها بالانصاف وهي البارات وكانت المبيعات الصغرى تقدر بالانصاف والكبرى بالبندقي او الزر محبوب او غيرهما من النقود الذهبية

فاخذ احمد باشا في سكب النحاس واعد لذلك عمالاً ومعامل . ثم راى بعد حين ان جميع هذه الاجرآات ذاهبة عبثاً لان الفعلة ملوا العمل ومات اكثرهم من الحر والجهد فجمع اليه ذوي شوراه من الامراء وقضاة الاقسام والقرى واستشارهم . وكان من رايه ان يدفع مطاليب السلطان من ماله الخاص ثم يجعل النحاس سبائك صغيرة لتباع في بلاد السودان بين تكرور وبلاد الزنج . فرنأى احد القضاة راياً آخر وهو ان يجبر اهالي القاهرة على استلام هذا النحاس ودفع المبالغ المطلوبة . وان يفرق النحاس عليهم بمقادير متناسبة لما يدفعونه فوافق الجميع على ذلك واخذوا في تنفيذه في ١٦ ذي الحجة سنة ١٠٤٣ هـ وتمموه في آخر شعبان من السنة التالية

وكان ذلك ثقلاً عظيماً على كاهل المصريين لانه لم ينج من هذه الضريبة غني ولا فقير فقلت النقود وغلت الحبوب وسائر المأكولات غلاء فاحشاً وزاد في الطنبور نغمة ان النيل في السنة التالية لم يكن وفاؤه حسناً لكن الناس استغلوا الارض غلة متوسطة

مظالم وتعديات

وبعد يسير دعي احمد باشا الى الاستانة فسار ولم يدفع الاموال التي جمعت للخزينة فرفع المصريون شكواهم بشأن ذلك فلما وصل الاستانة حكم عليه بالاعدام . وتولى مكانه الوزير حسين باشا فجاء مصر في عصابة من الدروز التقطهم من كل ناد وكانوا

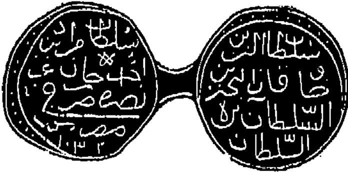
من قاطعي السبل فساموا المصريين انواع العذاب نهباً وقتلاً فاضطربت الاحوال واقفلت الحوانيت ووقفت حركة الاعمال . وهذا اصل استهجان المصريين لكلمة « درزي » على ما يظن

وابطل حسين باشا حقوق الوراثة فاذا مات احد الناس استولى هو على تركته واحرم منها ورثته الايتام او الارامل او الثكالى واذا اراد احد الانتقام من عدو له يكفيه ان يشي به الى حسين باشا بأنه غني او ابن غني فيزجه الباشا في السجن ولا يخرج منه الا بالبذل الكثير . ولم يكن يمر يوم لايطوف فيه حسين باشا المدينة في موكبه ولا تغيب الشمس قبل ان يقتل رجلاً او رجلين او اكثر . ويخطر له احياناً ان يقتل كل من لاقاه في طريقه انساناً كان او حيواناً . وقد حسب عدد الذين ذهبوا فريسة عتو هذا الغاشم في مدة حكمه وهي سنة و١١ شهراً فبلغوا نحواً من الف ومائتي نفس غير الذين كان يقتلهم بيده . وكان له هيبة في قلوب رجاله فاراد يوماً ان لايشاركوه بالقتل والنهب فخطر عليهم ذلك فلم يعودوا يجسرون على المخالفة ولم يسمع بشيء من تعدياتهم من ذلك الحين

ثم اقيل وخلفه الوزير محمد باشا بن احمد باشا وابن ابنة السلطان سليم الثاني .وفي شوال من سنة ١٠٤٧ هـ وردت اليه الاوامر ان يرسل الف وخمسماية مقاتل نجدة للحملة العثمانية الى بغداد فارسل تلك الفرقة بقيادة اميرالحج قنسوبك في محرم سنة ١٠٤٨ هـ فسارت ولم ترجع الى مصر الا بعد الاستيلاء على تلك المدينة في صفرسنة ١٠٤٩ هـ

واتبع هذا الباشا خطوات سلفه بالاختلاس والنهب فجمع ثروة عظيمة من تركات الامراء والعلماء فقام عليه الورثة وبعد الجهد تمكنوا من تحصيل نصف الاموال . وازداد ظلماً وعتوًّا حتى منع الصدقات التي كانت تدفع الى الارامل والايتام واخذها لنفسه فكثرت التظلمات وتعددت العائلات المعسرة . وفي يوم الخميس ١٦ شوال سنة ١٠٤٩ هـ توفي السلطان مراد الرابع

وترى في شكل ١٤ صورة النقود الذهبية للسلطان مراد الرابع ضربت في القاهرة سنة ١٠٣٢ هـ وهي سنة توليته



ش ١٤ : نقود السلطان مراد الرابع بن احمد

سلطنة ابراهيم بن احمد

من سنة ١٠٤٩ — ١٠٥٨ ه اومن ١٦٤٠ — ١٦٤٨

فظن المصريون ان في تغيير السلطان منجاة لهم مما كانوا يكابدونه . فبويع اخوه السلطان ابراهيم بن احمد وامر حالاً باستبدال محمد باشا واحرمه من العطية التي كانت تعطى لحاكم مصر عند ما يستقيل من منصبه . لكنه امر بعد ذلك بابقائه فعاد الى اعماله وازداد ظلماً وعسفاً ففتك بالناس فتكاً ذريعاً لم يبق ولم يذر

ثم استبدل محمد باشا بمصطفى باشا الملقب بالبستانجي [1] وكان ابي النفس على نوع ما الا ان كاتبه احمد افندي كان عاتياً غشوماً وكانت ازمة الاحكام بيده فاستبد بها فكره المصريون الحياة من اجله واتفق في ايامه تقصير النيل فازدادت الاثقال بغلاء الحبوب . ولم يكن الباشا يتعرض للاحكام مطلقاً فكثرت السرقات حتى لم ينج حي من احياء القاهرة من النهب واضطر الناس الى مهاجرة بيوتهم . وكان رئيس الضابطة اذا جيء اليه ببعض اللصوص لا تغيب عليهم الشمس في السجن . ومثل ذلك كان يفعل الكشاف « حكام الاقاليم » فتواترت التشكيات الى الباشا فاضطر الى عزل رئيس الضابطة وتولية كنعان بك مكانه فاهتم هذا بالقبض على اللصوص فسجن عدداً كبيراً منهم

وفي شوال سنة ١٠٥١ ه ثارت الجهادية وتمرد الجاويشيون على رئيسهم الامير علي لانه لا يفرق الاعطيات الا على كتبته فلم يرَ الباشا بدّاً من عزله وتولية عابدين بك في مكانه . فلما راى سائر الجيش ما كان من فوز الفئة الثائرة ثاروا جميعاً وادعوا ان مخزن الحبوب فارغة وطلبوا معاشاتهم المتأخرة منذ سنة . فعين محمد افندي قاضي العسكر لتحري دعواهم فتفقد مخازن الحبوب فرآها حقيقة فارغة وعلم ان ما كان فيها باعه الكاتب واخفى ثمنه . فاضطر الباشا مراعاة لطلب الجمهور ان يتخلى عن كاتبه مع شدة حبه له فاستنجد الجاويشية فانجدوه واعادوه الى مركزه فازداد تمرداً وبالغ في الانتقام . ثم استقال مصطفى باشا وتولى الوزير مقصود باشا وكان والياً على ديار بكر قديماً . فلما استلم مقاليد الاحكام بمصر بحث عن تصرفات سلفه فاطلع على اعماله فقبض

---

١ هو لقب فرقة من الجنود العثمانية يومئذ رئيسها يعرف بالبستانجي باشي وهو من اعظم وزراء الدولة

على كاتبه والكخيا وجلدهما واجبرهما على ارجاع مائتي كيس من النقود الى الخزينة . اما مصطفى باشا فأرسل الى الاستانة وهناك اخذ منه مائتا كيس سلمت للخزينة الشاهانية واصبح في جملة الوزراء السبعة العظام

الوباء

وفي ايام مقصود باشا قاست مصر امرّ العذاب من وباء وفد عليها كان اصعب مراسا من الوباء الذي وفد في ايام علي باشا وجعفر باشا لانه كان عاماً لم ينج من اصابته الشيوخ ولا الشبان وقد اصاب من الشيوخ واحداً في الثانية . ظهر هذا الوباء اولاً في بولاق باوائل شعبان سنة ١٠٥٢ ﻫ وبعد ذلك بشهرين ظهر في القاهرة . وما زال على معظمه من اول ذي القعده من تلك السنة الى غاية صفر من سنة ١٠٥٣ ﻫ ثم اخذ بالتناقص شيئاً فشيئاً ولم ينقض حتى انقضى الشهر الثاني . ولم يكن يسمع الا بالوفيات المتتابعة في كل ساعة . وكانت الجثث تنقل بالعشرات دفعة واحدة فيمر في الشارع الواحد احياناً ثلاثون او اربعون جنازة . وقد روى ابن ابي السرور وهو من المؤرخين المعاصرين ان جملة من صلي عليهم من المتوفين في الجوامع الخمسة الرئيسية في القاهرة في اثناء ثلاثة اشهر الفان وتسعماية وستون . وصاروا في اخر الامر يدفنون موتاهم بلا صلاة وعدد هؤلاء لايقل عن عدد الذين صلي عليهم . اما خارج القاهره فلم يكن الوباء اقل فتكاً ويقال ان ٢٣٠ قرية اصبحت خراباً لاصابة سكانها جميعاً بذلك الداء

مقصود باشا

فلما راى مقصود باشا ما المّ بمصر من الدمار سعى في اصلاح الاحوال جهده فاستعمل الرفق والغى الضرائب التي وضعها اسلافه بغير الحق . وجعل الوراثة الى الاقرباء الشرعيين مع دفع شيء من التركات الى الحكومة وتحرى التعديات تحريا شديداً وشدد في القبض على اللصوص فقبض على كثيرين منهم فقتل بعضاً وسجن بعضاً وقاصّ آخرين حسب ذنوبهم مع الصرامة فاستكنت الناس وطابت قلوبهم . وبينما كان هذا الباشا ساعياً في ما تقدم ظهرت في الاسكندرية في ٢٠ ذي القعدة من تلك السنة ثورة كدرت اعماله . وذلك ان نحواً من ستمائة من المسيحيين كانوا تحت طائلة القصاص مغلولين في سجون الاسكندرية ففي اليوم المذكور فتقوا السجون والمسلمون في الجوامع يصلون وطفقوا ينهبون الحوانيت والمخازن والبيوب ولم يبقوا ولم يذروا . ولما ملأوا جعبة مطامعهم نزلوا الى مركب كان بانتظارهم في البحر

وأقلعوا يطلبون الفرار

ولم يكن ذلك كل ما هدد مقصود باشا وحال دون مشاريعه بل هناك ما هو ادهى وامرّ . وذلك ان جماعة السناجق تآمروا على عزله في يوم الجمعة ١٢ رمضان سنة ١٠٥٤ هـ باجتماع عقدوه في بيت الامير رضوان بك الملقب بابي الشوارب . وسبب ذلك ان مقصود باشا كان قد طلب اليهم حباً بايفاء رواتب الجيش عن شهر رمضان ان يدفعوا الثلث الاول من المال الذي يطلب منهم للخزينة عن الاقطاعات العسكرية التي في ايديهم . فرفضوا بالاجماع وطلبوا عزل بعض الموظفين الذين يعدونهم من انصار الباشا . فسلم لهم الباشا بما ارادوا فلم يقنعوا بذلك فكتبوا الى الاستانة يشكون من سوء تصرفه ووافقهم كثيرون من الاعيان فكتب اليه البـاب العالي راساً ما مفاده « ان الحضرة الشاهانية لم تعلم اسباب الثورة الجهادية التي انتشبت في مصر وتتعجب كيف ان الباشا لم يبلغ الباب العالي خبرها » فاجاب الباشا انه لم يحصل لديه ما يدعى ثورة وانما هناك بعض الاختلافات التي يرجو اصلاحها بالتي هي احسن ولذلك لم يكن ثمَّ حاجة لابلاغها . فطلب اليه الباب العالي ان يتحرى ويعاقب المعتدين ويصرف الامر بما يتراءى له . ومع كل ذلك اضطر الى الاذعان لكنه اراد الفتك بالامير علي بك والامير ماماي بك والدفتردار شعبان بك لعلمه انهم زعماء تلك الثورة فاعد لهم كميناً ليقتلوهم في الديوان وعين لذلك يوم الاثنين في ٢٣ ذي الحجة سنة ١٠٥٤ هـ لكن الدفتردار نزل الى الديوان وحده في ذلك اليوم فشـاور الباشا عقله بين ان يفتك به وحده أو يخفي ما في ضميره ريثما يفتك بالثلاثة معاً فاقر اخيراً على ارجاء ذلك العمل الى يوم آخر

ايوب باشا وغيره

وفي اليوم التالي جاء الفرمان بعزله وتولية الدفتردار شعبان بك قائمقاماً يتعاطى الاحكام وقتياً فشق ذلك على الباشا لكنه اذعن وسلم مقاليد الاحكام لشعبان بك فكتب السناجق الى الباب العالي يطلعونه على حقيقة ما حصل في ايام الباشا السابق ويطلبون اليه الاسراع في ارسال من يخلفه فانفذ اليهم ايوب باشا . وكان قبل ذلك الحين من رجال القصر الشاهاني . فلما عهدت اليه هذه الولاية تردد في قبولها لما رأى من الاخطار المحدقة بها لكنه لم ير بدًّا من قبولها . وقد كان رجلاً حازماً مستقيماً استعان برجاله على ادارة الاعمال فلم تمض سنتان على حكمه حتى استتب النظام وسادت الراحة . ثم استقال من ذلك المنصب بعد ان صار وزيراً وعكف على العبادة واعتزل

السياسة وزهد زهد الدراويش فتنازل عن املاكه في الاستانة للدائرة الخاصة الهمايونية وانفرد في احد المعابد في الروملي . فولى مكانه الوزير محمد باشا حيدر سنتين ونصف ولم يحسن الادارة فارتبكت الاحوال

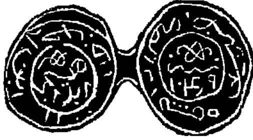
وفي ١٠ رجب سنة ١٠٥٧ هـ ثارت فرقة من الانكشارية في مصر القديمة فهددهم والي الشرطة فازدادوا تمرداً فساروا الى الباشا وطلبوا قتل ذلك الوالي ولم يكن ذنبه الا انه قام بما عليه فوافقهم الباشا على ما ارادوا . اما الوالي فكان من وجاق الجاويشية . فلما علم هؤلاء بعزم الباشا قاموا يشكون من سوء تصرفه بصوت واحد فخاف ان تبلغ هذه التشكيات مسامع الباب العالي فتعود العاقبة وبالاً عليه فاجتمع بقنسو بك واستشاره بما يفعل وكان هذا لا يشير الا بما يعود عليه بالمنفعة الشخصية فاشار على الباشا ان يرفع الى الاستانة تقريراً سرياً يشرح فيه ما حصل من القلاقل وينسبها جميعها الى الاميرين رضوان بك وعلي بك وينسب اليهما ايضاً اختلاس الخزينة المصرية وانهما سلباه منصب امير الحج وحكومة جرجا كل ذلك لكي يرجع قنسو بك وماماي بك الى منصبيهما

رضوان بك وعلي بك

فباشر الباشا كتابة ذلك التقرير وطلب الى بعض الاعيان ان يوقعوا عليه فبلغ ذلك مسامع رضوان بك فاسرع الى كتابة تقرير مناقض لتقرير الباشا وبعث به الى الاستانة فوصل قبل تقرير الباشا وفيه ما فيه من التشكيات ضد قنسو بك وماماي بك فورد الجواب من الاستانة مفوضاً الى رضوان بك وعلي بك امر النظر في تلك القضية وفي ٢١ جمادى الاولى سنة ١٠٥٧ هـ ورد الفرمان بذلك الى الباشا وفي ٢٧ منه استدعاهما الباشا الى القلعة فاستدعيا قنسو بك وماماي بك وامرا بقتلهما وقتل امراء اخرين كانوا على دعوتهما . ولم تكد تتخلص مصر من دسائس هؤلاء حتى ظهرت دسائس مصطفى كخيا الملقب بالششنير لانه لم يسم سنجقاً عوضاً من قنسو بك . وفي ٨ رمضان من تلك السنة وردت الاوامر الي علي بك ان يترك القاهرة ويتوجه حالاً الى حكومته في جرجا . وبعد ثلاثة ايام استدعى الباشا رضوان بك الى وليمة في القلعة فخاف من دسيسته فابى الحضور فغضب عليه الباشا وجرده من امارة الحج فخرج رضوان بك من القاهرة في مائتين من رجاله وفيهم عدة من الامراء والكشاف واتحد مع علي بك فبعث الباشا على اثرهما الفين من جنوده ونحو خمسمائة من الانكشارية فاجتمع الجند في الرميلة واقروا على اغفال اوامر الباشا . ثم وردت الاوامر من الاستانة بتثبيت رضوان بك وعلى بك في منصبيهما . فاضطر الباشا الى استقدام

الاميرين فقدما الى القاهرة في ١٩ رمضان بما لهما من الرواتب والحقوق فسعى الى مصالحتهما مع مصطفى كخيا

وفي ٦ ذي الحجة من تلك السنة شاع في القاهرة ان الوزير مصطفى باشا سمي على مصر عوضاً من محمد باشا بن حيدر . وفي ٢٦ منه وردت الاوامر قاضية باعادة محمد باشا الى منصبه . وفي ١٧ رجب سنة ١٠٤٨ ه توفي السلطان ابراهيم وتولى مكانه السلطان محمد الرابع


ش ١٥ : نقود السلطان ابراهيم بن محمد

وترى في شكل ١٥ صورة النقود الفضية للسلطان براهيم بن احمد ضربت في القاهرة سنة ١٠٤٩ ه



سلطنة محمد بن ابراهيم

من سنة ١٠٥٨ — ١٠٩٩ ه او من ١٦٤٨ — ١٦٨٧ م

وبلغ خبر ذلك التغيير الى مصر في اوائل رمضان مع عزل محمد باشا وتولية الوزير احمد باشا فاستلم هذا زمام الاحكام مدة سنتين كلهما اضطراب وقلاقل

واول تلك القلاقل كانت سنة ١٠٦٠ ه بسبب تقصير النيل فانه لم يرتفع تلك السنة اكثر من ١٦ ذراعاً فلم يرتو من ارض الصعيد الا الثلث اما الوجه البحري فلم يرتو منه شيء تقريباً . فغلت الاسعار حتى خيف من المجاعة

اما الباشا فلم يكن يهمه غير تكثير الضرائب مع انه لم يكن يرسل منها الى الاستانة الا الثلثين وكان لسوء نيته يرسل تلك المبالغ في عهدة رضوان بك ليحمل الباب العالي على الشك بامانته فيتغير خاطر السلطان عليه . وكان اتماماً لمكيدته يكتب الى الباب العالي على التتابع يشكو من تصرف رضوان بك ويطلب خلعه عن امارة الحج وتقليدها لعلي بك . وكان هذا على ما علمت من الصداقة مع رضوان لكنه لم يكن يعلم بدسائس الباشا . اما الباشا فكان في نيته ان يوقع الضغائن بين الاميرين فيحل عرى اتحادهما لكنه لم يتم مقصده حتى اتى الامر العالي بعزله يوم السبت ٦ صفر سنة ١٠٦١ ه ورضوان بك لم يرجع الى القاهرة بعد . ولم تكن نتيجة مساعي احمد باشا الا زيادة تألف قلبي ذينك الاميرين وكان من كرم اخلاقهما ان كلا منهما كان يتنازل

للآخر عن امارة الحج فاعجبت هذه الاريحية المصريين فاحبوهما وبالغوا في احترامهما حتى اقاموا لهما دعاء عمومياً في الرميلة . والباشا اذ ذاك محبوس في القلعة ولم يفرج عنه حتى دفع للخزينة مبالغ وافرة . فتولى مكانه الوزير عبد الرحمن باشا وما زال الى اول شوال سنة ١٠٦٢ ﻫ وقد قاسى ما قاساه سلفه من السجن والاهانة لانه سار على خطواته . فاختار الباب العالي الوزير محمد باشا ليقوم مقامه في ٥ شوال من تلك السنة ولكنه لم يدخل القاهرة الا يوم الثلاثاء في ٨ محرم سنة ١٠٦٣ ﻫ

وما زالت الولاة تتوالى على مصر ولا شيء من اعمالهم واحوالهم يستحق الذكر. وفي آخر الامر تحول النفوذ كله من ايديهم الى ايدي البكوات المماليك وهم يعدون مصر وطنهم ويغارون عليها . اما الباشوات اذا اتوا مصر لايكون ديدنهم الا اكتساب الثروة باية طريقة كانت لعلم كل منهم انه لا يلبث ان يأتيه الامر بالعزل وقلما عزل احدهم ولم يكن السجن مأواه

السلاطين سليمان بن ابراهيم واحمد بن ابراهيم

ومصطفى بن محمد

من سنة ١٠٩٩ — ١١١٥ ﻫ او من ١٦٨٧ — ١٧٠٣ م

فالسلطان محمد الرابع أقيل من السلطنة في ٣ محرم سنة ١٠٩٩ ﻫ واودع السجن حتى مات (سنة ١١٠٥) وبويع السلطان سليمان الثاني وبعد ٣ سنوات توفي (في ٢٠ رمضان سنة ١١٠٢ ﻫ) فبويع السلطان احمد خان ويدعى احمد الثاني وبعد ٣ سنوات ونصف توفي (سنة ١١٠٦) فبويع ابن اخيه السلطان مصطفى خان وهو مصطفى الثاني بن السلطان محمد الرابع . وبعد ٩ سنوات تقريباً (في جمادى الاولى سنة ١١١٥ﻫ) اقيل وتوفي في السجن (في محرم سنة ١١١٩ ﻫ)



سلطنة احمد بن محمد

من سنة ١١١٥ ـــ ١١٤٣ ه او من ١٧٠٣ — ١٧٣٠ م

وبويع اخوه احمد خان وهو احمد الثالث وكانت مدة حكمه على المملكة العثمانية
ـاً من ٣٠ سنة . وفي ايامه حصلت ثورات عديدة انتهت بتحول سلطة الباشوات
نوذهم الى البكوات المماليك . وكانت قلعة الجبل سجناً للباشوات الذين كانوا يتولون
حكام ولا يهمهم منها الا الكسب الشخصي

وقد توالى على مصر من سنة ١٠٦٣ ه الى ١١١٩ ه اثنان وعشرون والياً اغضينا
ـ ذكرهم لعدم اهميتهم . وفي سنة ١١١٩ ه في ايام السلطان احمد خان تولى مصر
سن باشا وكان على القاهرة قاسم عيواظ بك بوظيفة شيخ بلد

ومشيخة البلد منصب كان يتولاه احد البكوات المماليك كما يتولون ادارة المديريات
ـابل محافظة القاهرة اليوم . ولم يكن المنصب بنفسه مهماً ولكن تراخي الباشوات
ستفحال امر المماليك جعل لهذا المنصب اهمية كبرى حتى افضى النفوذ بتوالي الايام
ـ صاحبه وصار اليه الامر والنهي كما ستراه في ما يلي

قاسم بك وذو الفقار بك

وكانت المماليك في مصر على حزبين كبيرين يعرفان بالمماليك القاسمية نسبة الى قاسم
ـ والفقارية نسبة الى ذي الفقار بك . وكان هذان الحزبان لا ينفكان عن المنافسة
ـول كل منهما اكتساب النفوذ له واذلال الآخر . اما اصل هذين الحزبين ففيه
ـوال منها انهما ينسبان الى اخوين هما قاسم بك وذو الفقار ولدي سودون احد امراء
ـليك في عهد السلطان سليم الفاتح وان السلطان سليماً هو الذي نشطهما ونشط
ـزابهما . وقد ذكر الجبرتي لذلك قصة طويلة لا حاجة بنا الى ذكرها . وبعضهم
ـول ان هذين الحزبين ينسبان الى قاسم عيواظ بك الدفترداروذي الفقار بك الكبير
ـة ١٠٥٠ ه وكان قاسم عيواظ بك رئيس الطائفة القاسمية وذو الفقار بك رئيس
ـقارية وكان لكل من هاتين الطائفتين مناقب مختصة بها . فالفقارية كانت توصف
ـكثرة والسخاء والقاسمية بالثروة والبخل . وشارة الفقارية علمٌ ابيض مزاريقه
ـمانة والقاسمية علمٌ احمر

وكانت هاتان الفئتان قبل تولي حسن باشا في وفاق تام فلما جاء خشي من اتحادهما

فعمد الى الدسائس فالقى بينهما الشقاق فحصلت بين الطائفتين وقائع دامت ثمانين يوماً فكانوا يخرجون من القاهرة الى مكان يعرف بقبة العرب يومياً ويأخذون بالكفاح من شروق الشمس الى غروبها ثم يعودون الى القاهرة فيقضون الليل بسلام في بيوتهم بين نسائهم واولادهم ثم يعودون في الصباح التالي الى المحاربة . ومن الغريب ان هذه المحاربات لم تؤثر في الراحة العمومية مطلقاً فظلت الاشغال جارية في مجراها والحوانيت والمخازن تفتح وتقفل كالعادة

مشيخة اسماعيل بك

وانتهت تلك الوقائع بوفاة قاسم عيواظ بك فأسف عليه الناس وبكوه بكاءهم على حاكم عادل او اب حنون بارّ . ولم يبقَ صديق ولا عدوّ حتى بكاه لانه كان فضلاً عن حكمته وعدله ودعته شجاعاً باسلاً ابي النفس . فاقاموا ابنه اسماعيل بك مكانه شيخ بلد وصادق الباشا على ذلك لظنه ان اسماعيل لصغر سنه يكون آلة بيده يديرها كيف شاء فزاد كدر ذي الفقار بك واشتد حنقه لانه كان ينتظر ان يأول ذلك المنصب اليه . وكان اسماعيل عاقلاً حكيماً كوالده عارفاً وجه الربح والحق فسعى في الوفاق مع طائفة الفقارية فاتحدت الطائفتان على الباشا . وكان اسماعيل بك من الجهة الاخرى يظهر الطاعة والرضوخ لاحكام الباشا لانه رئيسه لكنه لم ينفك ساعياً سرًّا في خلعه فكتب عنه الى الاستانة ففاز بعزله فجاء غيره ثم ابدل بآخر فآخر واسماعيل بك في منصبه والرعية يحبونه الى ما يشبه العبادة

ومما يحكى عنه ان احد تجار القاهرة في ايامه واسمه عثمان باع لاحد القبقجية (لقب يعطى للحرس السلطاني) ثلاثمائة قفة بن الى اجل مسمى وكتب عليه بذلك صكاً . فقبل الاستحقاق جاء من الاستانة اعلان بخيانة القبقجي والحكم عليه بالاعدام حالاً فجيء به الى الباشا فقتله ووضع يده على تركته وفيها البن كما هو . فعلم عثمان التاجر بذلك فعرض لاسماعيل بك ماكان من امر البن فجبر الباشا ان يرجع البن لصاحبه قبل كل شيء ففعل فاصبح عثمان في حال من الامتنان لا يعرف كيف يبينها . فلاح له ان يهديه علبة مرصعة وبضعة قناطير من السكر النقي فرفض اسماعيل بك تلك الهدية وخاطب عثمان التاجر قائلاً « اذا كان المال الذي حصلت عليه بواسطتي حقاً لك فاكون قد فعلت الواجب عليَّ والله يكافئني فاذا قبلت هديتك اظلم نفسي . اما اذا كان هذا المال ليس لك وانما حصلت عليه بالحيلة فقبولي هديتك يعد مشاركة لك

بالخيانة لكنني مع ذلك اقبل السكر الذي حملته الي على ان تقبض ثمنه من وكيلي لاني سآمره ان يدفعه اليك »

ويحكى عنه ايضاً انه كان يأدب في ليالي رمضان مأدبات يجتمع اليها العلماء والفقهاء والمشايخ وقراء القرآن ولم يكن يؤذن لغير هؤلاء في الحضور فيها . فرأى ذات ليلة رجلاً بين الحضور عليه ملامح الكآبة واليأس فاوصى بعض الخدم متى ارفض الاجتماع ان يأتوا به اليه ففعلوا فلما حضر بين يديه اعطاه مصحفاً وامره ان يتلو عليه سورة . فتوقف الرجل وجلاً ثم ترامى على قدمي البك متضرعاً وقال « يعش سيدي البك اني رجل نجار لا اعرف القراءة وانما اتيت الى هذه المأدبة متنكراً بثوب الفقهاء لاملأ جوفي من الطعام فاني في حالة من الفاقة شديدة » فانصفه ولم يكتف بالاغضاء عن ذنبه لكنه جعله في عداد خدمته وجعل لعائلته راتباً معيناً . وصار هذا النجار بعد ذلك من اصدق الخدمة واكثرهم غيرة وهمة

وما زال اسماعيل بك شيخاً للبلد ١٦ سنة تقلب في اثنائها على مصر عدة بشوات كانوا اسماً بلامسمى . وكان لحسن سياسته قد اوقف الفقاريين عن كل حركة لتظاهره انه على وفاق معهم فلم يجعل لهم فرصة يحدون بها عليه . على انه ارتكب خطأ واحداً آل الى قتله . وذلك ان احد المماليك الفقارية واسمه ذو الفقار ايضاً كان له عقار يقوم بنفقات عائلته فاختلسه منه احد المماليك القاسمية (من مماليك اسماعيل بك) فرفع ذو الفقار دعواه الى شيخ البلد « اسماعيل بك » فلم يصغَ لطلبه وقضى بالعقار لمملوكه . فشق ذلك على ذي الفقار فرفع دعواه الى زعيم الفقارية ويقال له شركس بك . وكان خصماً لاسماعيل بك بالفطرة فسار الى الباشا وخاطبه بشأن تصرف اسماعيل بك . وكان في قلب الباشا حزازات من الحسد عليه فوافقهُ على الايقاع به ثم قال له « ليس لك وسيلة افضل من ان تبعث احد مماليكك وتأمره بقتله وانا اجعل له جميع ما يتركه من المال والنساء مكافأة لاتعابه »

فوافقه على رأيه وعين لتلك الفعلة اول يوم يجتمع فيه الديوان وامر مملوكه ذا الفقار ان يستعد لاجرائها فقبل اعتماداً على وعد الباشا . ففي اليوم المعين جاء ذو الفقار الى الديوان وفيه اسماعيل بك فتقدم اليه وقبل يده قائلاً « ارجو ان تأمر بارجاع عقاري الي » فاجابه اسماعيل بك « سننظر في طلبك هذا » فألح عليه فانتهره فاستل خنجراً ماضياً بقر به بطنه فتدفقت امعاؤه ومات لساعته في وسط الديوان فهجم رجال الباشا وقتلوا كل من كان هناك من رجال اسماعيل ولم ينج منهم الا سريع العدو

هكذا كانت نهاية حكم اسماعيل بك سنة ١١٣٦ هـ فنقلت جثته الى بيته ثم دفنت بجانب جثة ابيه بجوار باب اللوق

فتولى مشيخة البلد شركس بك واستولى ذو الفقار على جميع ممتلكات اسماعيل بك ونسائه حسب وعد الباشا فاصبح رجلا عظيماً يشار اليه بالبنان وفي حوزته مئات من المماليك فخافه شركس بك واخذ يسعى في اذاقته ما اذاقه لاسماعيل بك . فعلم ذو الفقار بتلك الدسائس فجمع اليه رجاله وفيهم عـدة من الرجال العثمانيين وهجم على شركس بك فجرت واقعـة لم يستطع رجال شركس الثبات فيها اكثر من ربع ساعة فقتل معظمهم وفر الباقون وزعيمهم معهم يطلبون الصعيد وهو الملجأ الوحيد للبكوات المغضوب عليهم

ذو الفقار بك

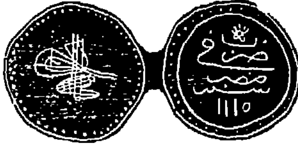
فتولى ذو الفقار مكانه مع لقب بك بعد ان اقرّ الباشا على ذلك واصبح ذو الفقار عدوًّا لاترابه البكوات وعلى الخصوص لابي دفية (سمي بذلك لانه كان يتشح برداء كبير يقال له دفية) ثم انبئ ذو الفقار بك ان ابا دفية ساع في اهلاكه وحاول ذلك مراراً ولم ينجح . اما شركس بك فجمع دعاته في الصعيد وسار بهم نحو القـاهرة فارسل ذو الفقار بك عثمان كاشف احد كبار قواده في فرقة من المماليك لمحاربته فتقهقر شركس ورجاله مراراً حتى لحق ببلاد البربر

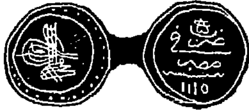
فسكر ذو الفقار من خمرة النصر واخذ في الانتقام من البكوات الذين في القاهرة وقتل منهم من يظن فيه الانتماء الى شركس بك وهم كثيرون فاتحد من بقي حياً منهم مع رئيس الشرطـة والاغا رئيس الانكشارية وبعثوا الى شركس بك بما كان من فعلة ذي الفقار وتعاهدوا جميعاً على محاربته وانضم اليهم مصطفى القرد وكان من اعداء ذي الفقار ومعه جماعـة من الرجال الاشداء . فقدم شركس بك الى القطر المصري فعلم ذو الفقار بذلك فجمع اليه العلماء والمشايخ وشاورهم في الامر فاجمعوا على عدم مناسبة الهجوم في تلك الحال الا اذا تأكد الفوز فلم يصغ لمشورتهم فارسل عثمان بك احد قواده لمحاربة شركس بك فحصلت بينهما واقعة قتل فيها مصطفى القرد وغرق شركس بك في النيل وهو يحاول الفرار . فبعث عثمان بك برأسيهما الى ذي الفقار . اما هذا فلم يهنأ بذلك النصر لانه قتل بعد قتل عدوه شركس بيومين بمكيدة اعـدها له البكوات في القاهرة ــ وذلك انهم البسوا واحداً منهم دفية وجاؤا به الى بين يدي ذي الفقار وقالوا له

« هذا ابو دفية قد جعله الله في ايدينا » وكانوا قد جعلوا تحت دفيته عيارين ناريين . فلما وقف بين يديه اطلقهما عليه دفعة واحدة فسقط ذو الفقار مضرجاً بدمائه في وسط ديوانه سنة١١٤٢ﻫ فعلم عثمان بك بما اصاب رئيسه فهرع للاخذ بثاره فدخل القاهرة وجعل يفتك بمن يصادفه في طريقه فخافه الجميع

ثم ان محمد بك احد البكوات الذين كان يترقبهم عثمان بك راى منصب مشيخة البلد خالياً فطمع فيه فعاهد صديقه صالح كاشف على ان يقتلوا من بقي من زملائه البكوات بمكيدة ينصبها لهم . فأدب محمد بك مأدبة فاخرة دعاهم اليها فلبوا دعوته ثم علموا بمكيدته فقاوموه مقاومة شديدة وتمكنوا من قتله . فيئس صالح كاشف من مرامه ففر الى القسطنطينية بعد ان شاهد رؤوس البكوات ملقاة على الطريق امام جامع الحسين . ثم عقب هذه القلاقل ضربة اشد وطأة نعني الوباء الذي اصاب مصر في تلك السنة ويدعى طاعون الكي فانه انتشر في البلاد انتشاراً سريعاً وفتك بالعباد فتكاً ذريعاً . ورافق كل هذه الضربات خلع السلطان احمد الثالث في جمادى الاولى سنة١١٤٣ ﻫ

وترى في شكل ١٦ صورة النقود الذهبية للسلطان احمد بن محمد مضروبة في القاهرة بتاريخ سنة ١١١٥ ﻫ





ش١٦: نقود السلطان احمد بن محمد

سلطنة محمود بن مصطفى

من سنة ١١٤٣ — ١١٦٨ ﻫ او من ١٧٣٠ — ١٧٥٤ م

وبعد عزل السلطان احمد بويع ابن اخيه محمود بن مصطفى خان وهو السلطان الرابع والعشرون من بني عثمان ويدعونه محموداً الاول وبقي هذا على كرسي السلطنة خمساً وعشرين سنة . اما الباشوات الذين تولوا مصر في ايامه فلم يكونوا اكثر اهلية من اسلافهم وكانت الاحكام قائمة بمشايخ البلد ولهم الحل والعقد لا يستطيع الباشوات معارضتهم في شيء

مشيخة عثمان بك

فبعد قتل ذي الفقار بك تولى مكانه عثمان بك المتقدم ذكره فرقى كثيرين من مماليكه الى رتبة البكوية ليقوموا مقام الذين هلكوا بالحوادث الاخيرة . وكان عثمان بك عادلاً حازماً ولكنه كان صارماً لا يراعي في تنفيذ العدل جانباً فعلم مرة ان احد بكواته سعى في اقليمه ظلماً فاستدعاه اليه فتحقق ارتكابه فقطع راسه . ويحكى عن عثمان بك حوادث كثيرة تشير الى حزمه واستقامته وقسطه لا بأس من ذكر بعضها على سبيل المثال

يحكى ان حماراً من حماري القاهرة اراد ترميم مذود حماره . وهو يفعل ذلك عثر في احد جدران البيت على وعاء مملوء ذهباً ففرح جدًّا واخذ الوعاء وسلمه الى امرأته واوصاها ان تكتم الامر لئلا ينكشف للحكومة فتأخذ المال منه لان لها وحدها الحق بالاستيلاء على مخزونات الارض . فطلبت المرأة من زوجها ان يبتاع لها حليا وثياباً فاخرة لتتمتع بتلك الهبة فأبى زوجها اجابة طلبها لئلا يقود ذلك الى كشف الحقيقة فاغتاظت واسرعت لساعتها ووشت به الى عثمان بك فاستدعى الحمار وبعد ان سمع حقيقة الحال صرفه قائلاً « احفظ ما وهبك الله وطلق امراتك وعش بسلام »

ولما جاء الوباء الى مصر كان عثمان بك في اول حكمه فلما راى الجوع الذي عقب الوباء فتح مخازنه وخزائنه وفرق الاقوات والاموال في الناس . ومع ذلك لم يستطع النجاة من مكايد ذوي المطامع وفي مقدمتهم ابراهيم واسماعيل رضوان الاول كخيا (١) الانكشارية والآخر كخيا العزب وكان كلاهما من المماليك الواحد من طائفة القزدغلية والآخر من طائفة الجلفية . واصل الطائفة الاولى مملوك يقال له القزدغلى كان سروجيا واصل الطائفة الثانية احمد الجلفي كان في اول امره شيالاً واغناه الله بطريقة في غاية الغرابة لا بأس من ذكرها وهي

جاء بعض المماليك الى احدى معاصر الزيت ليبتاع مؤونة بيته من الزيت مدة السنة وكان احمد الجلفي شيالاً في تلك المعصرة فابتاع المملوك الزيت واستأجر احمد لحمله وسار معه حتى بلغا بيته فانزل الحمل ووقف ينتظر اجرته . فجاءه المملوك وطلب اليه ان يساعده في اخفاء مبلغ من النقود في احد جدران البيت والح عليه ان يكتم الامر سرًّا واعطاه بضعة دراهم مكافأة لذلك . فساعده واخذ الدراهم وسار في سبيله

---

(١) ويكتب ايضاً كتخدا وكان لكل وجاق كخيا وفي عهدته ملاحظة شرطة ذلك الوجاق وقضاياه

حامداً شاكراً . وبعد ثلاثين يوماً اتفق له المرور بالقرب من ذلك البيت فشاهد جماهير مجتمعة . ثم علم ان ذلك المملوك توفي وقد عرضت تركته للمبيع . فتقدم احمد وابتاع البيت الذي فيه المخبأة وبعد ارفضاض الجمع استخرج النقود وسار بها الى قريته (جلف) في مصر العليا وامتلك ممتلكات كثيرة ثم اتسعت ثروته وما زال حتى اصبح زعيماً لعصابة كبيرة نسبت اليه

وكان ابراهيم واسماعيل رضوان في بادئ الراي على تباين كلي بالادبيات والماديات : كان ابراهيم في ضيق من المعاش مع اقدام وبسالة ومطامع كبيرة . وكان اسماعيل غنياً بليداً لايهمه الا التمتع بالملذات والشهوات . فكان ابراهيم في احتياج الى اسماعيل ولذلك كان يتقرب منه . ثم تزوج ابراهيم ابنة محمد البارودي احد التجار الاغنياء واخذ معها مالاً كثيراً فتمكن بذلك من التقرب الى بيت شيخ البلد والقاء المفاسد فيه بواسطة بعض المماليك والاتراك وغيرهم من ذوي الرتب كان يستعملهم آله لتنفيذ مآربه . ثم تأتى له الارتقاء الى رتبة البكوية مع صديقه اسماعيل رضوان فصار اسمه رضوان بك واتحد الاثنان على السراء والضراء ووحدا ممتلكاتهما واجتزءا بالسواء من محصولاتها

فاوجس عثمان بك خفية من سرعة نمو ثروتهما وملافاة لما كان يخشى حدوثه من طموح انظارهما ضم اليه ثلاثة احزاب احدها حزب ابراهيم بك القطامش وفيه ثلاثة بكوات . والثاني حزب علي بك الدمياطي وفيه بيكان . والثالث حزب علي كخيا الطويل وشاورهم في الامر فاقروا على قتل ابراهيم بك وكان اذ ذاك كخيا الانكشارية ورضوان بك فوافقوه على ما اراد . وكان وكيله احمد السكري من مماليك ابراهيم بك فلم يمكنه كتمان ذلك عنه فجاء اليه واخبره بجميع ما كان من التواطؤ على قتله وقتل رفيقه . فسار للحال الى رضوان بك واخبره وتشاورا بشأن ذلك فقررا نصب احبولة يقتلان بها عثمان بك فبعثا اليه رجالاً يترصدونه في طريقه الى القلعة فرفوثبوا عليه ففر بجواده حتى دخل القلعة ولم يظفروا به . فلاقاه وكيله وقد اضمر له الشر فسأله عما الم به فاخبره بما كان فكلمه بلسان الثعلب ناصحاً له ان يبرح المدينة حالاً لان الناس قد قاموا يطلبون قتله وما زال حتى اقنعه ففر الى سوريا وسار هو معه . حتى اذا دنوا من غزة تنحى احمد عن الطريق واختبأ في قرية يقال لها الاشرفية بحجة استطلاع الاحوال لحماية عثمان بك فتربص هناك مدة ثم عاد الى القاهرة بمن معه من المماليك وسار الى ابراهيم بك واعلمه بما فعله فكافأه على تلك الخيانة برتبة البكوية . وهمّ الاهلون بيت

عثمان فاحرقوه واقتسموا تركته

اما هو فوصل سوريا وحده وسار منها الى الاستانة فولي بروصة ولبث فيها حتى توفاه الله . وجميع هذه الحوادث توالت على مصر في اثناء سنة ١١٥٦ ﻫ

ابراهيم كخيا ورضوان بك

فلما خرج عثمان بك من مصر صفا الجو لابراهيم كخيا ورضوان بك فعملا على ابادة الاحزاب التي تآمرت عليهما فاخذ رضوان بك على نفسه قتل علي كخيا الطويل فأمر احد مماليكه ان يقتله بالرصاص في وليمة حافلة فلبى المملوك الامر لكنه اخطأ الرمي وعوضاً من ان يصيب علياً اصاب مملوكه الذي كان بجانبه فقبض عليه وقتل للحال . اما ابراهيم كخيا فتكفل باهلاك من بقي من الاحزاب وكان على ولاية مصر اذ ذاك كيور احمد باشا فطلب اليه ابراهيم ان يوافقه على ابادة البكوات فوافقه وربما فعل ذلك خوفاً منه او لانه يعود عليه بالنفع الشخصي واستعانوا بالنقود فبذلوها فسهلت شروعهم حتى قتلوا علي بك الدمياطي بيد وكيله سليمان في وسط الديوان وقد وعدهم هذا بتسليم رؤوس البكوات الآخرين من احزابه . فامر ابراهيم كخيا ورضوان بك ان تقفل جميع منافذ القلعة على من فيها من البكوات المنوي قتلهم وجعلا على بابي الانكشارية والعزب جنداً . وحافظ سليمان على وعده فبوشرت المذبحة واول من قتل فيها خليل بك من دعاة الدمياطي ومحمد بك من دعاة قطامش وكثيرون غيرهم . وحاول علي بك وعمر بك البلاط الفرار فتبعهما الباشا بنفسه ثم لاقاهما ابراهيم ورضوان وقتلاهما عند باب القلعة ولم يدفن من القتلى الا محمد بك وخليل بك

ولم يبق من مناظري ابراهيم كخيا ورضوان بك الا ابراهيم قطامش وعلي كخيا الطويل . فالاول مات من الحزن بعد مدة قصيرة والثاني هاجر من تلقاء نفسه تاركاً الدار ومن بناها . فصفا الجو لابراهيم كخيا فتولى مشيخة البلد وسمي رضوان بك اميراً للحج . ثم جعلا يتبادلان هذين المنصبين كل سنة وعاد كل منهما الى ميله الطبيعي ابراهيم الى مطامعه ورضوان الى ملاهيه . فاخذ ابراهيم كخيا يفسد الاحكام ويستخدمها لاسترجاع مابذله للحصول عليها فلم يغادر وسيلة الا استخدمها في سبيل مطامعه من قتل وفتك فابتدأ بسليمان قاتل علي بك الدمياطي فحجر عليه في القلعة ولم يفرج عنه حتى استرجع منه ما كان اعطاه من النقود . ثم باغت من بقي من الاغنياء في القاهرة ووضع يده على ممتلكاتهم بعد ان قتل بعضاً منهم وبقي البعض الاخر . فاستولى في يوم واحد على اموال ثمانين بيتاً من بيوت القاهرة ووضع يده على

محصولات البلاد والكارك والقرى والمخازن حتى الحوانيت الصغيرة فلم يبق ولم يذر

وكان كيور احمد باشا قد استدعي الى الاستانة وولي حكومة قبرص فاقيم مقامه باشا آخر سنة ١١٥٦ ﻫ فعامله ابراهيم كخيا بالاحتقار فحقد عليه . ثم اتفق غياب ابراهيم في قافلة الحج الى مكة فاغتنم الباشا غيابه وتواطأ مع حسين بك الخشاب على مكيدة يعدانها لابراهيم فاتفقا على ان يقوم الخشاب بقتل ابراهيم ورفيقه رضوان وان يكافئه الباشا على ذلك بمشيخة البلد . فلما رجع ابراهيم سعى الخشاب في انجاز وعده ففاز بالقبض على الاثنين فسجنهما في القلعة فولاه الباشا مشيخة البلد . لكنه لم يهنأ بها لان دعاة ابراهيم كخيا اتحدوا وهجموا على حسين بك والباشا واخرجوا المسجونين ففر الخشاب الى مصر العليا واختبأ في ابريم من بلاد النوبة . اما الباشا فاستدعي الى الاستانة فعاقبه السلطان عقاباً انتهى بالموت

نشأة علي بك الكبير

وكان في حوزة ابراهيم كخيا اكثر من الفي مملوك في جملتهم علي الذي سيلقب بعلي بك الكبير ويكون له شأن عظيم بهذا التاريخ وسترى في سيرته انه من افراد الدهر حزماً وبطشاً وحكمة . وكان علي سلحداراً بين مماليك ابراهيم كخيا . وكان ابراهيم يحبه كثيراً ويجل مواهبه حتى جعله ناقل سيفه . ومما زاده تعلقاً به انه اصطحبه الى الحرمين في قافلة وكان قد صار كاشفاً . فسار قائداً لتلك القافلة فلاقاهم في الطريق عصابة من اللصوص فدفعهم علي بقلب لايهاب الموت فلقبوه بالجني . ولما رجع ابراهم كخيا الى القاهرة عزم على مكافأة علي برتبة بك لكن صغر سنه ودسيسة الخشاب حالا دون ذلك

ثم عقب ذلك شاغل اكثر اهمية زاد الامر تأخيراً — وذلك انه جاء القاهرة خبر وصول باشا جديد الى الاسكندرية بدلاً من الباشا الذي اخرج منها . وكان من عادة رجال الحكومة في مصر اذا علموا بمجيء باشا جديد ان يبعثوا وفداً يلاقونه في الاسكندرية وفيهم العيون والجواسيس فيحيطون به يستطلعون مقاصده ونواياه ويطلعون على ما في يده من الاوامر السلطانية فاذا رأوا تلك الاوامر سلمية ومقاصده حسنة رحبوا به وفتحوا له الطريق حتى يصل بولاق فيحتفل الامراء بلقائه . اما اذا تبينوا من احواله غير ذلك ابلغوا الامراء بالقاهرة فيجتمعون ويقررون اعلانه ان يقف حيث هو ويكتبون الى ديوان الاستانة بعدم مناسبة ذلك الباشا الجديد وان بقاءه في مصر مخل بالنظام العمومي او ربما حمل الرعية على الثورة . ثم يطلبون استبداله بآخر اكثر موافقة للبلاد منه

فلما اتصل بهم خبر قدوم هذا الباشا واسمه راغب محمد باشا سار شيخ البلد بنفسه لاستقباله ومعه البكوات فخلع على كل واحد منهم خلعة كالمعتاد . ثم اجتمعوا جميعاً بجلسة رسمية واقسموا على الطاعة والاخلاص لامير المؤمنين . واحب الامراء راغب باشا محبة عظيمة لانه عرف كيف يعامل شيخ البلد فاحبته الرعية ومالوا بكليتهم اليه فقضى بين ظهرانيهم سنتين كلهما سلام وطمأنينة حتى اجمع البكوات على استبقائه بينهم زمناً طويلاً



ش ١٧ : اكبر رجال الدولة بملابسهم الرسمية
الصدر الاعظم والقائم مقام والرئيس افندي وعضو المجلس

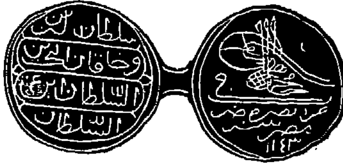
وهم في ذلك ورد الى الباشا خط شريف [1] ان يسعى جهده في قطع دابر البكوات وفي جملتهم شيخ البلد ومن يلوذ به . فاستنتج الباشا من نص ذلك الخط ان ديوان الاستانة مشتبه بتصرفه في مصر وانه وشى الى جلالة السلطان بان اتفاقه مع بكوات مصر ليس الا لعزمه على استخدامهم في مآربه بالاستقلال بحكومة مصر واخراجها من طاعة الدولة العلية . فوقع في حيرة وتردد بين ان ينفذ الاوامر الشاهانية مع ما فيها من الخطر او ان يعصيها او يؤخرها فيعرض حياته للخطر ويؤيد التشكيات التي تقدمت بحقه . وبعد ان نظر في المسألة من سائر وجوهها فضل الفتك باصدقائه البكوات . فتواطأ مع عصابة من رجاله انه متى اجتمع البكوات في مجلسه فليكونوا على

(١) يقصدون بالخط الشريف الاوامر الصادرة من جلالة السلطان رأساً

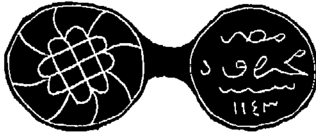
استعداد للهجوم عليهم معاً عند اول اشارة . ففعلوا ما امرهم به لكنهم لم يفوزوا كل الفوز لان ثلاثة من البكوات تمكنوا من النجاة وفي مقدمتهم شيخ البلد بعد ان جاهدوا الجهاد الحسن واوسعوا الباشا تعنيفاً على فعلته هذه التي لم يكونوا ينتظرونها منه بعد ما اظهروه نحوه من اللطف والاخلاص . فبرا ساحته باطلاعهم على الفرمان السري الوارد له بهذا الصدد فكفوا عن الانتقام منه لكنهم عزلوه وكتبوا الى الاستانة يطلبون بدله . وعينوا ثلاثة بكوات في مكان الثلاثة الذين قتلوا بتلك المكيدة

واغتنم ابراهيم كخيا هذه الفرصة لترقية علي كاشف فرقاه الى رتبة بك فشق ذلك على احد البكوات المدعو ابراهيم بك شركسي المولد يعرف بابراهيم بك الشركسي وكان من دعاة ابراهيم كخيا لكنه تظاهر عند ذلك بعداوته ونمت بينهما الضغائن ولم تنته الا بقتل ابراهيم كخيا بعد ذلك بخمس سنوات بيد ابراهيم بك الشركسي المذكور سنة ١١٦٨ هـ . وفي تلك السنة توفي السلطان محمود بن مصطفى

وترى في شكل ١٨ صور نقود السلطان محمود بن مصطفى مضروبة في القاهرة بتاريخ سنة ١١٤٣ هـ فالاولى منها ذهبية وهي صورة القطعة المعروفة باسم زر محبوب أو سكوين . والثانية ذهبية ايضاً وهي نصف سكوين أو نصفية والثالثة صورة القطعة النحاسية المعروفة بالجديد







ش ١٨ : نقود السلطان محمود بن مصطفى

سلطنة عثمان بن مصطفى

من سنة ١١٦٨ — ١١٧١ هـ او من ١٧٥٤ — ١٧٥٧ م

فبويع اخوه السلطان عثمان بن مصطفى ويدعونه ايضاً عثمان الثالث وبقي على كرسي الخلافة ثلاث سنوات فقط . فشفى ابراهيم بك الشركسي غليله بقتل ابراهيم كخيا لكنه لم يروِ مطامعه لان مشيخة البلد انتقلت الى رضوان بك

صديق ابراهيم كخيا ثم ظهر لرضوان منافس آخر من زعماء حزب ابراهيم يقال له حسين بك اصبح بعد قتل الكخيا اكبر رجال ذلك الحزب فادعى لنفسه الاولوية بمشيخة البلد فلم تقبل دعواه فجمع اليه بعض دعاته المماليك وصعد الى قلعة القاهرة واستولى على بطارية من المدافع تشرف على بركة الفيل حيث يقيم رضوان بك فاطلق بعض القنابل على المنازل فخرقت جدرانها فتداعت اركانها ورضوان بك مشغول بحلاقة لحيته . فلما احسَّ بالامر طاب جواده ولم يعلُ ظهرهُ حتى اصيب برصاصة كسرت فخذه . وتمكن من الفرار ومعه بعض المماليك الى قرية الشيخ عثمان وهناك توقف عن المسير لزيادة الالم ومعه رئيس الضابطة وكان مجروحاً ثم توفي الاثنان ودفنا معاً

فسمي حسين بك من ذلك الحين شيخ البلد واخذ يتقرب من اترابه البكوات وهم لا يزيدون منهُ الا نفوراً. ولم تمض بضعة اشهر من توليته حتى كمنوا له في مكان مصاطب النشاب في السهل الواقع بين القاهرة وارض ابراهيم بك . وكان مشتغلا بعرض جنوده المماليك فهموا به وذبحوه ثم قطعوه ارباً ارباً وصار يعرف من ذلك الحين بحسين بك المقتول . فتولى مكانه خليل بك واشتهر بحب القتل وكان متظاهراً بالعداوة والحسد لعلي بك على الخصوص لاعتقاده انه اشد اعدائه وطأة واقواهم عزيمة

سلطنة مصطفى بن احمد

من سنة ١١٧١ — ١١٧٨هـ او من ١٧٥٧ — ١٧٧٤ م

وفي سنة ١١٧١ هـ تولى الخلافة العثمانية مصطفى بن احمد وهو مصطفى الثالث . وبالحقيقة ان علي بك كان كثير الاخلاص لابراهيم كخيا لا ينفك ساعياً في الانتقام له ولكنه كان يرى السبيل الاقرب والاسهل لبلوغ مرامه انما هو القوة . فاخفى مافي ضميره ٨ سنوات اشتغل في اثنائها بجمع القوة . فابتاع عدداً وافراً من المماليك ووطد علائقه مع البكوات الآخرين واكتسب ثقتهم بما كان يظهره من الغيرة عليهم والاخلاص لهم وما كان يكرمهم به من الهدايا . وما زال يخطو خطوة بعد اخرى حتى اقترب من النقطة المطلوبة فاوجس خليل بك خيفة منه وجعل يتجسس حركاته بالارصاد والعيون ويعدُّ المكائد في شوارع القاهرة . ففي ذات يوم هجم عليه حسين كشكش بامر خليل بك وبعد موقعة هائلة اضطر علي بك ان يفر الى الصعيد في طائفة من اصدقائه البكوات يستعد للانتقام مضاعفاً

فصرح خليل بك ان علي بك واتباعه البكوات مجردون من رتبهم وحقوقهم وولى مكانهم بكوات من ذويه وقتل من ظفر به في القاهرة من اصدقاء علي بك او المنتمين اليه . اما علي بك فالتقى في الصعيد بواحد من مماليك مصطفى القرد يدعى صالح بك كان منفياً هناك وفي قلبه من خليل بك حزازات فاتحد الاثنان ورجالهما وزحفا على القاهرة . فخرج خليل بك وحسين بك كشكش فدارت رحى الحرب فكان الفوز لعلي ورفيقه فطاردا خليل بك ورجاله حتى قطعوا مديرية القليوبية واوصلوهم الى المسجد الاخضر على ضفاف النيل . واشتد الكفاح هناك فالتجأ خليل بك ورجاله الى طنطا فبعث علي بك كاشفه محمد الملقب بابي الذهب ليهاجمهم فهاجمهم واستلم طنطا بعد ان قتل حسين كشكش اما خليل بك فاختبأ بالمسجد وبقي فيه وقد غلبه الجوع ثم قبض عليه ونفي الى الاسكندرية وخنق هناك . ونقلوا رؤوس القتلى الى القاهرة وطافوا بها في اسواقها

علي بك الكبير

من سنة ١١٧٧ — ١١٨٧ ه او من ١٧٦٣ — ١٧٧٤ م

فتمكن علي بك بهذا الانتصار من استلام مشيخة البلد في القاهرة سنة ١١٧٧ ه واول امر باشره قتل ابراهيم الشركسي الذي قتل سيده فثارت عليه احزابه يطلبون الانتقام وهم عديدون فخاف علي بك على حياته ففر الى سوريا فالتجأ الى متسلم (حاكم) بيت المقدس وكانت بينهما صداقة قديمة الا ان هذا الملجأ لم يحمه الا شهرين لان اعداءه البكوات لما علموا بمقره شكوه للسلطان مصطفى واخبروه بمقره فانفذ الى متسلم القدس فرماناً يأمره به ان يرسل علي بك مخفوراً الى الباب العالي . فعلم علي بك بذلك ففر الى عكا وهناك اكتسب صداقة الشيخ ضاهر العمر امير تلك المدينة الحصينة فاكرم وفادته وسعى في تبرئته امام الباب العالي . وبمساعدة نصرائه من اصدقاء ابراهيم كخيا اكتسب له العفو من الحضرة الشاهانية فالغيت الاوامر بالقبض عليه واعيد الى القاهرة في منصبه الاول

وفي سنة ١١٧٩ ه اي بعد ذلك بسنتين هدد علي بك بالاقالة من ذلك المنصب — وذلك ان محمد راغب باشا الذي كان على مصر وعزل منها على ما مرّ بك كان يتذكر

كرم اخلاق علي بك مذ كان كاشفاً . فبعد استقالته من مصر ولي بر الاناضول وبعد تسع سنوات صار صدراً اعظم وما انفك متذكراً صداقة علي بك لا يفتر عن معاضدته وتسهيل مطالبه سرًّا وجهراً . ففي سنة ١١٧٩ هـ توفي الوزير محمد راغب باشا فاصبح علي بك في حاجة ان يعضده . فاغتنم اعداؤه هذه الفرصة ووشوا به الى الاستانة فاضطر ان يفر الى اليمن ولم تأت سنة ١١٨٠هـ حتى عاد الى القاهرة واسترجع منصبه بمساعدة احزابه وموت اربعة من دعاة ابراهيم الشركسي . ثم تراءى له ان صديقه صالح بك تحدثه نفسه بخرق حرمة الصداقة واتباع داعي المطامع الشخصية فوكل امر قتله الى ابراهيم كاشف احد اتباعه فقتله طعنا وسترى ان ابراهيم هذا سيرتقي حتى يتولى مشيخة البلد

وراى علي بك ان قبائل العربان في مصر السفلى قد شقت عصا الطاعة فانفذ اليها احد مماليكه المدعو احمد في فرقة من الرجال لحارب اولئك العربان وامعن في قتلهم حتى لقبوه بالجزار وهو الذي تولى عكا بعدئذ واشتهر باحمد باشا الجزار . اما من بقي من عداء علي بك فخافوا ولزموا السكوت وتحقق تخلصه من القلاقل والمفاسد والمقاومات وراى من باب الاحتياط والحرص ان يرقي ثمانية عشر مملوكاً من اتباعه الى رتبة البكوية لينصروه وقت الحاجة وهذه اسماؤهم :

١	رضوان ابن اخيه	من جورجيا
٢	علي الطنطاوي	» »
٣	اسماعيل	» »
٤	خليل	» »
٥	عبد الرحمن	» »
٦	حسن	» »
٧	يوسف	» »
٨	ذو الفقار	» »
٩	عجيب	» »
١٠	مصطفى	» »
١١	احمد الجزار	» اماسيا
١٢	سليم آغا	انكشاري
١٣	سليمان كخيا	»



ش ١٣ : صورة ختم سليمان كخيا.

١٤ لطيف شركسي
١٥ عثمان »
١٦ ابراهيم »
١٧ مراد »

ولهذين الاخرين شأن في هذا التاريخ لانهما سيتنازعان السلطة في مصر

١٨ محمد

وكان يعز محمداً هذا اكثر من الجميع وستراه رجلاً عقوقا منكراً للجميل . ولما تقلد البكوية لقب بابي الذهب فاحب ان يجعل هذا اللقب اسماً على مسمى فتظاهر بالكرم المفرط وبدلاً من ان يفرق العطايا بالبارات فرقها بالارباع

اما علي بك فكان ساهراً على مصلحة البلاد سهراً تاماً وكان مخلصاً في اعماله فطهر البلاد من اللصوص وسعى جهده في اصلاح شؤونها فساد الامن فيها بعد ان كانت معرضاً للقلاقل والمفاسد . ولم تقف مطامع علي بك عند هذا الحد فانه راى من تحامل الواشين بينه وبين ديوان الاستانة وايقاع ذوي الاغراض به وبسلطته ما حمله على السعي في الاستقلال بمصر وتجريدها من رعاية الدولة العثمانية لكنه كتم مقاصده وجعل يسعى في تنفيذها تحت طي الخفاء

مساعيه في سبيل الاستقلال

واول خطوة خطاها نحو هذه الغاية انه انتحل اسباباً بنى عليها عزل مستخدمي الملكية والجهادية ورؤساء الوجاقات واستبدلهم برجال على دعوته الا وجاق الانكشارية فانه لم يمسه بعد ان تمكن من استبقائه تحت حمايته وسد جميع السبل التي يمكنه بها التطرق الى مقاومته وأخر دفع مرتبات الوجاقات الاخرى عمداً وصار يدفع رواتبهم اقساطاً عملة وورق بول كانت تخسر المائة منها تسعين فكان يربح ارباحاً عظيمة باسترجاع الورق بالاثمان البخسة وصرفه ثانية بثمنه الاصلي . فلما رات رجال الوجاقات انهم لا يستولون من ماهياتهم الا على العشر كرهوا الاستخدام بالعسكرية وجعلوا يستقيلون منها شيئاً فشيئاً ويتعاطون اشغالاً اخرى اكثر فائدة لهم

ثم سعى في تقليل العساكر العثمانية واستخدام المماليك من دعاته . حتى صاروا نحواً من ستة الاف وحظر على سائر البكوات والكشاف الذين يخشى تغيرهم عليه ان يقتني احدهم اكثر من مملوك او مملوكين . وكان على ولاية مصر اذ ذاك محمد باشا فازعجته اجراآت علي بك وخشي عاقبتها فنصح له ان يقف عند حده فلم يكترث بقوله . فاقر على مقاومته لان هذه الاجراآت مضادة لمصلحة الباب العالي ولكنه لم يكن يستطيع

المجاهرة بمقاصده هذه فاخذ يدسها سرًّا واتحد مع من بقي من دعاة ابراهيم الشركسي واجمعوا على الانتقام من علي بك ثم جعلوا يسعون فساداً بين احزابه واستجلبوا بعضاً منهم الى جانبهم بالمواعيد المبنية على الحسد والطمع . وفي جملة هؤلاء محمد بك ابو الذهب الذي طمره علي بك بفضله حتى ازوجه ابنته وكان يناديه كما ينادي اولاده . ولم يكونوا يستطيعون تنفيذ مآربهم جهاراً فاغروا صهره محمد بك المذكور بالمال ووعدوه انه اذا قتل علي بك يتولى المشيخة مكانه فقبل لكنه علم بعدئذ انه يقصر عن مناوأة علي بك واستعظم الجناية فعدل عنها الى جناية تقرب منها . وذلك انه شكى الى علي بك معاملة الباشا له فاسرع علي بك الى انقاذه منه وما انفك عن الباشا حتى اخرجه من مصر فعاد الى الاستانة . ولم يزدد علي بك الا ثقة في محمد بك ابي الذهب واخلاصاً له رغم ما كان ينقل اليه عنه من السعي ضده

وفي سنة ١١٨٢ هـ انتشبت الحرب بين روسيا والدولة العلية فبعثت هذه الى مصر ان تمدها باثني عشر الفاً فوصلت الاوامر لعلي بك بذلك ومشروعه لم ينضج بعد فلم يسعه الا مباشرة ما أُمر به فابتدأ بجمع الجنود . اما اعداؤه فاغتنموا تلك الفرصة للوشاية فضموا اليهم الباشا الجديد الذي كان قد ارسل من القسطنطينية بدلا من الباشا الذي اخرجه علي بك واتفقوا جميعاً على كتابة تقرير امضاه الباشا وسائر البكوات اعداء علي يشون به الى الديوان الشاهاني بدعوى انه انما اراد بما يجمعه من الجيوش معاضدة روسيا للاستقلال بمصر فانفذ الديوان الشاهاني الى الباشا امراً مشدداً ان يقتل علي بك ويرسل راسه الى الاستانة

فاتصل ذلك بعلي بواسطة اصدقائه بالاستانة فبعث علي بك الطنطاوي احد دعاته في عشرة من اتباعه المماليك متنكرين بلباس البدو يكمنون على مسافة قصيرة من القاهرة حيث لا بد للقابجي باشي حامل ذلك الفرمان من المرور به فمكثوا هناك ثلاثة ايام وفي اليوم الرابع بان لهم القابجي ومعه اربعة رجال فوثبوا بهم وقتلوهم وطمروهم في الرمل واخذوا ملابسهم والفرمان وساروا الى علي فقراه ثم جمع اليه ديوان البكوات العمومي واطلعهم عليه واقنعهم ان ذلك الامر ليس لقتله وحده بل لقتلهم جميعاً ثم خاطبهم قائلاً « دافعوا اذا عن حياتكم وحقوقكم واعلموا ان مصر ما برحت منذ القدم يحكمها دول من المماليك كانوا سلاطين اشداء تفاخر بهم الارض السماء فاعيدوها اليهم . وهذه فرصة لا تضيعوها فانكم لن تعثروا عمركم على فرصة مثلها : هلم اذا نسعى في الاستقلال فان فيه حياتنا وحريتنا »

استقلال علي بك بمصر

فتأثر البكوات من فصاحة علي وبلاغته وكانوا ثمانية عشر قد اجمعوا على دعوته فعاهدوه على الدفاع عنه ما استطاعوا الى الدفاع سبيلاً . اما سائر الامراء المماليك من اعدائه فخافوا العاقبة ولزموا السكوت . فكتب ديوان علي بك امراً الى الباشا ان يبرح الديار المصرية في ثمان واربعين ساعة واذا لم يفعل يقتل وان مصر قد اصبحت مستقلة . وبعث علي الى الشيخ ضاهر العمر امير عكا يعلنه رسمياً باستقلال مصر ويدعوه للمساعدة في ذلك فاجابه الشيخ ضاهر مسروراً وجمع اليه رجاله ورجال بنيه السبعة وصهره وانضم الجميع الى جنود علي وكان قد اضاف الى الستة الآلاف التي عنده من المماليك الاثني عشر الفاً التي جمعت مدداً للعثمانيين واضاف الى هذه ايضاً رجال اصدقائه البكوات حتى رجال اعدائه لانهم لم يعد يسعهم الا طاعته

فاتصل ذلك بالاستانة فارسل الباب العالي امراً الى والي دمشق ان يسير في ٢٥ الفاً لمنع جنود عكا من معاضدة علي فسار الوالي في ذلك العدد من الرجال فلاقاه الشيخ ضاهر في ٦ آلاف بين لبنان وبحيرة طبرية ورده على أعقابه سنة ١١٨٣ هـ . وكانت هذه الواقعة آخر الوقائع لان الباب العالي امسك بعدها عن ارسال الجند كانه نسي علاقته مع سوريا ومصر بالكلية

أما عليّ فاغتنم اشتغال الدولة العلية بالمحاربة مع روسيا وصرف عنايته في تنظيم مملكته الجديدة واصلاح ما داخلها من الخلل نخفض الضرائب وجعل على المالية مدير الكمرك القديم المعلم ميخائيل فرحات القبطي بدلاً من يوسف بن لاوي الاسرائيلي وكان قد قتل جزاء خيانته . ونظم التجارة الخارجية والمواصلات وابعد العربان الى الصحراء فاستولى الامن وانتشر الاصلاح في القطر فزادوا على القاب علي لقب لوط قبان (مبيد اللصوص)

قبيلة الهوارة

وكان في جملة القبائل الثائرة على مصر قبيلة الهوارة وهي اشدهن بأساً واطول باعاً جاءت في الاصل من ضواحي تونس الغرب واستقرّت بين جرجا وفرشوط في بقعة من الارض لم تكن تصلح للزراعة فاعتنوا فيها حتى انشأوا عدة قرى وما زالوا ينشرون سطوتهم حتى احتلوا جميع البقاع بين هوارة وكفر الشيخ سليم . ثم اغتنم الشيخ هامان (شيخ الهوارة) اشتغال مصر بما تقدم ووضع يده على البلاد من اسيوط الى اصوان وجمع اليه محصولاتها . وكان قد حارب هذه القبيلة كثيرون ممن تولوا مصر قبل عليّ

وفرضوا عليها ضريبة مقدارها ٢٥٠ الف اردب من الحنطة توردها سنويا الى مصر

ففي سنة ١١٨٣ ﻫ ارسل علي بك صديقه محمد بك ابا الذهب لمحاربة الشيخ هامان وقبيلته فحاربهم وتغلب عليهم في اواخر تلك السنة . فاضطر ابناء الشيخ ان يبتاعوا حياتهم بما لديهم من ثروة ابيهم . فربح ابو الذهب من ذلك مالاً كثيراً ثم اسرع الى القاهرة لما علمه من الدسائس التي كان ساعياً بها رفيقه احمد بك الجزار على علي بك وكانه لم يكن يريد ان يشاركه احد بالدسائس على سيده . وكان احمد الجزار ينظر الى ابي الذهب نظره الى عدو يناظره في ارتكاب الدنايا فسعى في قتله فلم ينجح . وكان لاحمد الجزار سيف مشهور بطيب فولاذه واتقان صنعه . فاتفق يوماً انه اجتمع بمحمد ابي الذهب فقال له محمد « ارني حسامك لاجربنَّ فرنده » فاجابه احمد « لا يستل حسامي سواي ولا اغمده حتى يستباح قتيل » ثم نهض للحال وغادر القاهرة قاصداً القسطنطينية فوصلها . ثم عهدت اليه ولاية عكا بعد ذلك . وما زال فيها حتى توفاه الله

فتوح علي بك ومعاهداته

اما علي بك فبعد ان تغلب على الصعيد ثار في خاطره حب الافتتاح فجرد الى اليمن جيشاً تحت قيادة محمد ابي الذهب فسار في عشرين الف مقاتل فقطع برزخ السويس ومضيق العقبة ولم يبق على احد من القبائل التي حاولت الوقوف في طريقه وما زال حتى اتى اليمن وافتتحها . وامر عليٌّ فسار اسماعيل بك في ثمانية آلاف لافتتاح السواحل الشرقية للبحر الاحمر وحسن بك لافتتاح جدة ولقب بالجداوي اشارة الى انتصاره على تلك المدينة وما زال يعرف بهذا اللقب من ذلك الحين . ولم تمض ستة اشهر حتى افتتحت شبه جزيرة العرب وفي جملتها مكة المشرفة ولحق بها نهب شديد وانزل شريفها واقيم مقامه ابن عمه الامير عبد الله فوافق عليًّا في سلطنته وسماه بسلطان مصر وخاقان البحرين ـ فعل ذلك بصفته الدينية تملقاً لعلي . فلما حصل علي بك على ذلك من شريف مكة اخذ يتمتع بحقوق السلطنة فامر ان يخطب باسمه في الصلوات العمومية ايام الجمعة . وضرب النقود سنة ١١٨٥ﻫ في القاهرة باسمه كما سترى

وسعى علي بك في هذه السنة الى امر سبق به الى حتفه وذلك انه عهد الى محمد بك ابي الذهب ان يسير في ثلاثين الفاً لاخضاع بلاد الشام لانه كان يعتبر هذه الولاية بعد خروجه من طاعة الدولة العلية عدوًّا قريباً يخشى منه على نفسه وعلى صديقه ومحالفه الشيخ ضاهر . وكان ينظر الى سوريا كانها جزء طبيعيٌّ من مملكة مصر .

وكانت بالواقع قسماً منها في سائر الازمنة التي كانت فيها مصر مستقلة في الدولة الطولونية والفاطمية والايوبية والمماليك وغيرها

وسعى علي بك في التحالف مع الدول التي بينها وبين الاستانة عداوة طبيعية فاستخدم تاجراً ايطالياً اسمه روستي عقد له معاهدة سلمية مع البندقيين على ان يكونوا حلفاء له . ثم عهد الى رجل ارمني اسمه يعقوب ان يستطلع من الكونت الكسيس اورلوف قومندان القوات الروسية في البحرين (المتوسط والاسود) عن عقد معاهدة دفاعية وهجومية مع قيصرة روسيا كاترينا الثانية . فاجاب الكونت بالايجاب



ش ٢٠ : كاترينا الثانية

وفتحت المخابرات بشأن ذلك وطال امرها كثيراً لبعد المسافة بين الطرفين . اما جنود علي بك في سوريا فصاحبها الظفر واتحدت بجنود الشيخ ضاهر فاستولوا على غزة والرملة ونابلس والقدس ويافا وصيدا واخيراً حاصروا دمشق ولم تلبث يسيرًا حتى سلمت

خيانة محمد بك ابي الذهب

فلما رأى محمد ابو الذهب تمام هذه الفتوحات العظيمة على يده حدثته نفسه ان يجعلها لنفسه . ثم قادته مطامعه الى محاربة علي واستخراج مصر من يده . ويظن انه لم يقدم على ذلك من تلقاء نفسه وانما حمل عليه باوامر جاءته من الاستانة لان المخابرات السرية كانت متواصلة بينه وبينها بواسطة الباشا الذي اخرجه عليٌّ من مصر. فامسك محمد عن المسير في البلاد العثمانية وحول شكيمة مقاصده نحو الديار المصرية فجمع ما كان لديه من الجيوش وضم اليها الحاميات التي كان قد اقامها في المدن المفتتحة وسار قاصداً مصر . لكنه لم يجسر على المسير الى القاهرة رأساً خوفاً من الانكشارية والوجاقات الاخرى لعلمه بما في قلوبهم من الضغينة عليه . فعرج نحو الصحراء حتى أتى الصعيد فحط رحاله هناك واستولى على اسيوط في آخر يوم من سنة ١١٨٥ هـ . ثم استقدم قبائل العربان وطلب محالفتهم ومحالفة بكوات الصعيد وجاهر بعزمه على خلع علي بك وسار قاصداً القاهرة فوصلها في اوائل سنة ١١٨٦ هـ فنزل بجيشه تجاه البساتين فوق مصر القديمة

فلما علم علي بك بذلك ندم على ما وضعه من الثقة في رجل كان له ان يعتبر من سيرته الماضية انه على غير الاخلاص والاستقامة . فجند ٣ آلاف رجل بقيادة اسماعيل بك وامرهم ان يمنعوا محمداً من عبور النيل . فسار اسماعيل لكنه خاف سطوة عدوه ووردت عليه كتب مفعمة بالمواعيد يمازجها بعض التهديد فاخذ جانبه وضمَّ جيشه الى جيشه فقطع محمد بك النيل فاستقبله رجال اسماعيل بالترحاب . فاتصل ذلك بعلي فيئس من الفوز فانقطع الى القلعة باهله واصدقائه ورجال دعوته وقد عزم على المدافعة الى آخر نسمة من حياته

علي بك في عكا

وبعد ثلاثة ايام ورد اليه كتاب من الشيخ احمد احد ابناء صديقه الشيخ ضاهر ان يبرح القاهرة حالاً ويأتي الى ابيه في عكا . فخرج علي من القلعة بمن معه وسار من جهة الجبل الاحمر طالباً سوريا عن طريق الصحراء . وكان خروجه قبل دخول محمد بك القاهرة بيوم واحد اي مساء ٩ محرم سنة ١١٨٦ هـ وهذه هي المرة الثالثة لخروجه منها الى سوريا وفي معيته عدد يسير من الجند لايبلغ ستة آلاف معظمهم من الخدمة الذين لايستطيعون الدفاع . ولم يحمل معه من المال الا ثمانماية الف زر محبوب يحملها ٢٥ جملاً . ونقل معه من المصوغات والحلي مايساوي اربعة اضعاف ذلك . وما زالوا في

المسير ليلاً ونهاراً فوصلوا الى خان يونس في حدود سوريا بعد ثلاثة ايام فرأوا ان خمسة من الجمال الحاملة للنقود قد ذهبت فريسة بيد القبائل البدوية وان عدداً من جنوده فروا ومعهم يوسف الخزندار . وفي اليوم التالي دخل علي بك غزة ثم واصل السير حتى اتى عكا بعد ثمانية ايام فرحب به اميرها وكانت بينهما مودة شديدة فاطمأن علي هناك . غير ان ماتكبده من المشاق في الاسفار مع ما اثر في نفسه من الغيظ الشديد غير صحته فلم يصل عكا الا وهو في حالة الخطر من شدة المرض

وفي اثناء ذلك وصل مينا عكا اسطول روسي فلما علمت حاميته بما حل بعلي عقدوا معه معاهدة ثانية وقدموا له كل ما يحتاج اليه من المؤن والزخائر وكان في خدمة ذلك الاسطول فرقة من الالبانيين « الارناؤوط » مؤلفة من ثلاثة آلاف رجل فأمدوه بهم . فلما راى علي بك ماكان من نجدة الروسيين مع مايمكنه الحصول عليه من جنود الشيخ ضاهر عزم على مناواة ابي الذهب لكنه لم يكن يستطيع مباشرة ذلك بنفسه لانحراف صحته . فعهد الى علي بك الطنطاوي بعد ثلاثة اشهر ان يسير اولاً لاسترجاع المدن السورية التي دخلت في حوزة محمد ابي الذهب فسار واستولى على صور وصيدا وقرى اخرى من سواحل سوريا كانت قد احتلتها جنود عثمانية بعد انسحاب جنود محمد ابي الذهب . ثم سار علي بنفسه مع من بقي من الجند الى يافا وافتتحها بعد محاصرة خمسة اشهر استولى في اثنائها على غزة عنوة وعلى الرملة واللد تسليماً . فاعاد يافا الى حكومة الشيخ ضاهر وجعل على اللد حسن بك الجداوي وعلى الرملة سليم بك

محمد ابو الذهب بمصر

وفي ٩ ذي القعدة ١١٨٦ هـ كان علي بك في يافا فجاءته رسل من القاهرة بمهمة سرية من وجاق الانكشارية والوجاقات الاخرى وسائر اعيان القاهرة يعلمونه ان محمداً ابا الذهب دخل القاهرة حالما خرج منها هو وسمى نفسه شيخ البلد وجعل يعيث في البلاد عيثاً لم يسبقه الى مثله احد ممن تولى مصر قبله. فجعل بعض الضرائب ضعفين وبعضها ثلاثة اضعاف . ثم اختلق قانوناً غريباً دعاه قانون رفع المظالم والمقصود منه بحسب الظاهر انقاذ ملتزمي الاموال الاميرية من الاجراآت الاستبدادية التي كان يسومهم اياها الكشاف الى ذلك العهد واستبدالها بما يعود بالمنفعة والحقيقة ان الضرائب ماانفكت اشد وطأة من ذي قبل والاجراآت لم تزدد الا استبداداً فضلاً عما رافق كل ذلك من الفتك بالعباد قتلاً ونهباً

ثم قالوا ان مصر بجملتها لما رأت ما وصلت اليه من الانحطاط وما لحق باهلها من

المظالم التي ما انزل الله بها من سلطان قد انابتهم ان يبلغوا علي بك انها بصوت واحد تلتمس رجوعه ليحكم فيها لانه هو منقذها الوحيد وان مدينة القاهرة مستعدة ان تفتح ابوابها لاستقبال اميرها القديم وان تدافع عنه الدفاع الممكن اذا حاول محمد بك ابو الذهب ما يخالف الصوت العمومي

خروج علي بك لمحاربة ابي الذهب

فلما علم علي بكل ذلك شعر ان آماله عادت اليه وبرح يافا للحال قاصداً القاهرة ولم يكن معه من الجنود الا الفان وخمسمائة فاستنجد حاميات اللد والرملة وانضم اليهم جنود الشيخ ضاهر وجنود ابنه الشيخ شلبي وصهره الشيخ كريم وحسن شيخ صور وكان قد استأجر ثلاثة آلاف وخمساية من المغاربة . فكان عدد جنوده جملة ثمانية آلاف محارب

ففي ١١ محرم سنة ١١٨٧ هـ وصل علي بك الى خان يونس وفي ١٦ منه اقترب من الصالحية . وفي ١٨ منه التقى بمقدمة جيوش محمد بك ابي الذهب وعدتهم اثنا عشر الف مقاتل وبعد محاربة بضع ساعات ظهر علي بك عليهم وقد قتل عدداً غفيراً من رجالهم . فانفتحت له ابواب الصالحية فدخلها وقد أصيب بجروح بليغة . ثم علم ان اعتماده على احزابه في القاهرة لا يورثه الا خيبة الامل لان ابا الذهب كان قد جمع اليه كبراء البلاد ورجال حكومتها لما علم بمظاهرتهم لعلي واقنعهم ان علي بك قد غدر الامة وخان الوطن واباح دماء المسلمين بمعاهداته مع الروسيين وغيرهم من الامم النصرانية . واستخدم ابو الذهب في سبيل اقناعهم الدرهم الوضاح فانحازت اليه القوات العسكرية الا وجاق الانكشارية فأنه ظلّ محافظاً على ولاء علي بك . فلما تحقق محمد بك ابو الذهب اجتماع الاحزاب على دعوته أمن من الاضطراب الداخلي فسار بنفسه لمحاربة علي

أما علي فانزعج لتلك الاحوال انزعاجاً كثيرًا فضلاً عما كابده من مشاق الاسفار في قطع الصحراء الحارة وزد على ذلك الجروح التي اصابته في واقعة الصالحية فاصيب بحمى شديدة عجز معها عن ركوب جواده وقيادة جنوده . وفي ٣ محرم سنة ١١٨٧هـ علم بمجيء ابي الذهب وهو على ما تقدم من المرض فلم يتردد في وجوب الدفاع . فامر قواده فانتظمت رجاله على قلتها وتهيأت للدفاع وكان على احد جناحي الجيش علي بك الطنطاوي ومن معه من البكوات وعلى الجناح الآخر ابن الشيخ ضاهر وصهره فاستظهرت جنود علي في بادىء الرأي حتى قاربت الفوز التام . ثم ارسل ابو الذهب

بعض جواسيسه الى المغاربة في جيش علي يغريهم على خيانة رئيسهم فوافقوه ووافقه غيرهم كثيرون من بكوات علي وفي جملتهم ابراهيم بك ومراد بك . وهذا الاخير اشترط ان يأخذ مقابلاً لخيانته هذه ما يخلفه عليٌّ من المتاع والنساء وخصوصاً امرأته نفيسة وكان علي يحبها ويحترمها لما كانت عليه من الفطنة والجمال

فلما انتشبت الحرب في الصباح التالي انحاز جميع المغاربة والبكوات الذين خانوا الى معسكر ابي الذهب . وكانت جنود علي بك قريبة من الفوز فلما رأت تلك الخيانه تضعضعت وفر الجند يطلبون النجاة بانفسهم بعد ان قتل علي بك الطنطاوي والشيخ شبلي ونجا الشيخ كريم والشيخ حسن ورضوان بك من المعركة وساروا الى فسطاط علي واعلموه بما حصل وطلبوا اليه ان يمتطي فرسه ويسير برفقتهم الى غزة حيث يلاقيهم الشيخ ضاهر بمن معه من الجند

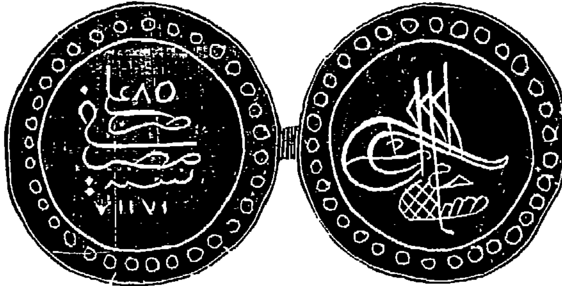
مقتل علي بك

اما علي بك فابت نفسه الاصغاء لما ارادوا فجلس بباب خيمته وقال لهم « اني ملازم هذا الموضع لا ابرحه حتى تبرحني نفسي لان الموت هنا افضل عندي من الفرار . اما انتم اذا شئتم النجاة بانفسكم فبادروا الى الفرار قبل ان يغشاكم ما ربما لا لا تقوون على دفعه » . فاضطر ابن اخيه ورجاله الباقون ان يذعنوا لما امر . فودعوه وحولوا الاعنة في طريق خان يونس قاصدين غزة فلاقوا الشيخ ضاهراً هناك فاعلموه بما كان وبوفاة ابنه فاسف عليه كثيراً . ومكث علي بك بعد ذهاب اصدقائه بضع ساعات ينتظر منيته وبجانبه عشرة من مماليكه واذا بخمسين رجلاً تحت قيادة الكخيا نائب محمد ابي الذهب قد وصلوا الى الخيمة ودخلوها وقتلوا من كان فيها من المماليك ثم وثبوا على علي وكان المرض مشتداً عليه وفيه جروح لكنه نهض بسيفه فقتل اول قادم اليه وجرح اثنين آخرين فخشي الباقون الاقتراب منه فاطلقوا عليه البنادق فجرحوه جروحاً بليغة في ذراعه اليمنى وفخذه . فجعل يدافع بيسراه دفاعاً شديداً الى ان وثب عليه الكخيا بنفسه فدافعه علي حتى اصيب في ذراعه اليسرى وفي اماكن اخرى فسقط على الارض وهو لا ينفك عن الدفاع فتكاثرت عليه الرجال حتى امسكوه حيا وساروا به الى محمد ابي الذهب وطرحوه عند قدميه فامر بحمله الى القاهرة فحملوه اليها وانزلوه في داره بدرب عبد الحق في شارع البكري وراء صندوق الدين فلبث فيها سبعة ايام ثم توفاه الله . وقد قال بعضهم ان ابا الذهب ادخل السم في جروحه فقتله والله اعلم . ودفنوه بتربة استاذه ابراهيم كخيا بجوار الامام الشافعي . وكان لموت هذا الرجل تأثير

عظيم في قلب كل من عرفه حتى ان ابا الذهب نفسه لم يسعه الا الندم داخلياً لما فرط منه وما اتاه من نكران الجميل وارتكاب مثل هذه الخيانة

مناقبه

ومن مناقب علي بك انه كان عظيم الهيبة حتى اتفق لاناس انهم ماتوا خوفاً من هيبته . وكانت تأخذ الرعدة بعضهم بمجرد المثول بين يديه فيأخذ هو بتلطيف رعبه فيقول له « هون عليك » . وكان صحيح الفراسة شديد الحذق يفهم ملخص الدعوى الطويلة بين المتخاصمين ولا يحتاج في التفهيم الى ترجمان او من يقرا له الصكوك والوثائق بل يقراها هو بنفسه ولا يختم ورقة حتى يقراها ويفهم فحواها . ومن مآثره البناية العظيمة بطنطا وهي المسجد والجامع والقبة على مقام السيد البدوي والمكاتب والميضاة الكبيرة والحنفيات والمنارتان العظيمتان والسبيل المواجه للقبة والقيسارية العظيمة . وجدد ايضاً قبة الامام الشافعي وبنايات ووكالات في بولاق مصر ولا يزال هذا الرجل مميزاً عند المؤرخين بلقب الكبير فيدعونه « علي بك الكبير »



ش ٢٠ : نقود السلطان مصطفى بن احمد وعلي بك

وترى في الشكلين ٢٠ و ٢١ صورتي النقود التي ضربت على عهد علي بك في القاهرة . الاولى فضية وعليها الطغراء الشاهانية للسلطان مصطفى بن احمد وتاريخ توليه السلطنة سنة ١١٧١ هـ ويشاهد عليها ايضا من الاعلى اسم علي وتاريخ ٨٥ وهي مختصر من سنة ١١٨٥ هـ وتدعى هذه القطعة من المعاملة قرشاً . والثانية فضية ايضاً ويشاهد عليها الطغراء العثمانية . اما تاريخ تولية السلطان فاستبدل بسنة ١١٨٣ هـ وهي السنة التي صرح بها علي بك باستقلاله ويشاهد عليها اسمه . وتدعى هذه القطعة عشرينية اي نصف قرش



ش ٢١ : نقود السلطان مصطفى ابن احمد وعلي بك

سلطنة عبد الحميد الاول

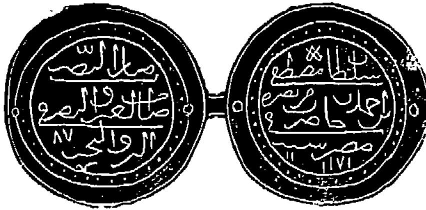


ش٢٢: عبد الحميد الاول

من سنة ١١٧٧ — ١٢٠٣ هـ او من ١٧٧٤ — ١٧٨٩ م

وفي تلك السنة تولى الخلافة العثمانية السلطان عبد الحميد الاول عوضاً من السلطان مصطفى الثالث

وترى في الشكلين ٢٣و٢٤ صورتي نقود ضربت في القاهرة في عهد السلطان مصطفى بن احمد قبل استقلال علي بك بتاريخ ١١٧١ هـ الاولى فضية والثانية نحاسية



ش ٢٣ : نقود السلطان مصطفى بن احمد

وبوفاة علي بك عاد وادي النيل الى ما كان عليه قبله تابعاً لاملاك الدولة العلية وعادت احكامه الى مشائخ البلد والكشاف الذين جعلوا تلك المناصب وسيلة لاختلاس

اموال الناس وحقوق الدولة . وكان علي بك قد جعل لكل هذه المظالم حدًّا واصلح الشؤون حتى علقت الآمال باعتزاز مصر ورفع شأنها فلم تبق المنية عليه



ش ٤٢ : نقود السلطان مصطفى

نعم ان مصر بعد وفاته عادت الى كنف الدولة العلية لكنها بالحقيقة لم تفدها شيئاً لانها كانت في الحالة الاولى طعمة لرجل محب للاصلاح مخلص بمقاصده وان كانت بمعزل عن سيادة الدولة واصبحت في الثانية طعمة لثلاثين رجلاً كل منهم يسعى في ابتلاعها لا يتفقون الا على كره الدولة التي هم تحت حمايتها . اما السلطان عبد الحميد فلم يكن يرسل اليها من الولاة الا من كان اسماً بلا مسمى كما كان شأنهم قبل ظهور علي . فكان الباشا من هولاء آلة يديرها البكوات كيف شاؤا ولم يكن لديه من الاعمال الا مخابرة القسطنطينية سرًّا بما كان يقع بين هولاء البكوات من الخلاف وما كانوا يتداعون اليه من الخصام . وواجباته المهمة ان يستلم الجزية من الحكومة المصرية ويرسلها الى الاستانة اذا تمكن من قبضها

ابو طبق وعزل الباشوات

فكانت ولاية مصر منصباً يستحي العقلاء من قبوله لانهم كانوا يعتبرونها منفى استحقه الباشا او الوزير الذي يرسل اليها وكان يعلم قبل خروجه من الاستانة انه اذا لم يكن راضياً بما يرضاه شيخ البلد لا يلبث ان يصله منه رسالة ينقلها ناقل يقال له الاوطه باشي وفيها الامر بعزله امراً لا مرد له ولا مجال للمدافعة بعده . وكيفية ذلك ان شيخ البلد ورجاله اذا راوا في تصرف الباشا ما يوجب الشك اجتمعوا اجتماعاً عمومياً في الديوان وقرروا عزله وكتبوا بذلك امراً يسلمونه الي الاوطى باشي ليوصله الى الباشا فيحمله ويسير على حمار (لان القانون لا يسمح له بركوب الخيل او البغال) وبين يديه فرمان العزل فاذا مر في الاسواق على هذه الصورة علم الناس انه ساع في امر هام فيه عزل فيهرولون وراءه . ولا يزال سائراً في عرض الطرق قائداً لتلك الجماهير نحو القلعة . ومن واجبات اي جندي لقيه في تلك الحال ان يرافقه اتقاء ما يخشى حدوثه عند وصوله الى القلعة

فاذا وصل القلعة يدخل على الباشا ثم يجثو امامه باحترام ووقار وعند ما ينهض يطوي السجادة التي كان جاثياً عليها وينادي باعلى صوته « انزل يا باشا » وعند طي السجادة والتلفظ بهذه العبارة تسقط كل حقوق ذلك الباشا ولا يعود له اقل سلطة

على الجنود التي كانت قبل بضع دقائق تنتظر اشارته . وتصير تحت اوامر الاوطه باشي وكانوا يسمون الاوطه باشي ابا طبق لانه كان يلبس على راسه قبعة مثل الطبق والباشا يقف ممتثلاً يسمع تلاوة الفرمان سواء كان منطوقه بعزله او بقتله فلا يسعه الا الطاعة التامة . على مثل ذلك كانت معاملة باشوات مصر — فانهم كانوا عرضة لاوامر العزل التي اذا لم تكن من الاستانة كانت من مصر



ش٢٥ : ابو طبق في موكبه

فلما مات علي بك اختلف اعداؤه في القاهرة على الاجتزاء من انتصاراتهم فكان كل منهم يظن لنفسه الحق بالتمتع باثمار الانتصار كغيره او اكثر فاختلفت الاحزاب من بينهم . اما من بقي من رجال علي فلم يجدوا مكاناً فيه راحة لهم وكانوا في عكا عند الشيخ ضاهر على ماتقدم فذهب ابو الذهب لانه كان يحب الانتقام حبا يفوق التصديق وقد آلى على نفسه الا يبقى على احد من رجال علي

اما الشيخ ضاهر امير عكا فلم يعد يطيب له السكون بعد ان خسر ابنه في سبيل نصرة علي بك فثارت في خاطره بواعث الانتقام . ولكن ابا الذهب لم يعد يستطيع صبراً على ذلك فاسترحم من الباب العالي ان يؤذن له بالمسير لاخضاع سوريا ولا سيما عكا واتهم اميرها الشيخ ضاهراً بالعصيان وانه ساع ضد الدولة . فاجاب الباب العالي بفرمان يثبته في مشيخة البلد مع لقب باشا ورتبة والي القاهرة مكافأة لما اتاه من كسر

شوكة علي واحزابه واذن له ان يتبع ذلك الشيخ العاصي . فلما وصل الفرمان الى ابي الذهب كاد يطير من شدة الفرح واعد جيشاً تحت قيادته واستخلف في مصر اسماعيل بك وعهد حكومة مدينة القاهرة الى ابراهيم بك . وسار في جيشه الى سوريا ولم تنته سنة ١١٨٩ هـ حتى دخل فلسطين . وكان لشدة عجبه بما اوتيه من الالقاب والرتب وما وعده به الباب العالي من المساعدات لا يزيد الا كبراً حتى جعل خيمته التي يستريح فيها من اثمن ما يمكن وزينها ابدع زينة . فمر بخان يونس فالرملة ولم يلاق مقاومة . اما يافا فكان عليها الشيخ كريم صهر الشيخ ضاهر فدافعت قليلاً ثم فتحت عنوة فدخلها رجال ابي الذهب عنوة وقتلوا القسم الاعظم من سكانها رجالاً ونساء شيوخاً واطفالاً

فبلغت تلك الفواحش مسامع الشيخ ضاهر وهو في عكا فخاف ان يصيبه ما اصابها ففر بعائلته وبمن هاجر اليه من المصريين ولم يترك في المدينة الا ابنه عليا ولما علم هذا باقتراب جيوش ابي الذهب اخلى القلعة وانسحب منها لاعتقاده انه اذا حاول الدفاع انما يحاول عبثاً . فوصلها ابو الذهب وابوابها مفتوحة فدخلها ولم يبق عليها وفي هذه المدينة انتهت فظائع هذا الرجل لانه بينما كان عازماً على العود الى مصر اصبح القوم فوجدوه ميتاً في خيمته ولم يعرفوا القاتل رغم ما اتخذوه من الاحتياطات وما كان لديهم من القرائن الكثيرة . فقال بعضهم انه اصيب بنقطة وهي داء السكتة وقال آخرون انه مات مقتولاً بيد عدو فاتك والله اعلم . و بعد موت ابي الذهب عادت الجيوش المصرية تحت قيادة مراد بك الى مصر ومعهم جثة رئيسهم فدفنوها بالقرب من مدفن علي بك . ومات ابو الذهب بعد موت علي بك بسنتين ولقب « بالخائن »

مشيخة اسماعيل بك

وتولى مشيخة البلد بعده اسماعيل بك ولم يبق غيره من رجال ابراهيم كخيا . وهو من الذين نالوا البكوية بواسطة علي بك وكان لا يزال على دعوته وانما انضم الى ابي الذهب خوفاً . وقلبه لم يفتر لاهجاً بالمدافعة عن رئيسه لانه لم يأت نحوه الا ما يستدعي نصرته فضلاً عن انهما من طائفة واحدة

فلما استلم زمام الاحكام نسج على منوال علي بك فبعث الى رجال حزبه الذين كانوا لا يزالون في سوريا فاستقدمهم اليه واقرهم في اماكنهم وطيب خاطرهم استعداداً لمقاومة مراد وابراهيم مناظريه على مشيخة البلد . وكانا قد اتحدا على خلع اسماعيل بك

،طلبا اولا طرد حسن بك الجداوي صديق اسماعيل بك فلم يفوزا لكنهما تمكنا من احتلال القلعة فاتحد اسماعيل بك وحسن بك واخرجاهما منها ففرا الى الصعيد . ثم جمعا حزباً كبيراً واستعدا لقتال اسماعيل فبعث جيوشاً لتخمد انفاسهما فعادت على اعقابها وفاز الاميران .فاضطر اسماعيل بك الى مغادرة القطر المصري فيمم الاستانة . اما حسن بك فقبض عليه ونفي الى جدة بحراً فاحتال في اثناء الطريق فارضى رئيس المركب الذي نقله فانزله في القصير على سواحل القلزم ومن هناك قطع الصحراء غرباً حتى اتى الصعيد فاستكن في اعلاه

مراد بك وابراهيم بك

فلما خلا الجو لمراد بك وابراهيم بك اقتسما الاحكام فتعين الاول اميراً للحج والثاني شيخاً للبلد ورقيا كثيرين من مماليكهما الى رتبة البكوية وقلداهم مصالح البلاد وكانت الاحكام في عهدهما كما كانت في ايام اسلافهما من المظالم والاستبداد . وبلغهما بعد مدة ان اسماعيل بك عاد من الاستانة وجاء حلوان فبعثا اليه فرقة من المماليك فتكت بكل من كان معه من عائلته ورجاله . اما هو فتمكن من النجاة باختبائه في بعض الكهوف ثلاثة ايام .ثم خرج طالباً الشلال اجتمع وهناك بصديقه حسن بك الجداوي وسارا معاً واويا الى الجنادل في السودان

فاختلف مراد بك وابراهيم بك على ارسال حملة للقبض على الهاربين فارتاى احدهما وجوب التجنيد وخالفه الآخر حتى آل الامر الى الخصام وخروج ابراهيم بك مغتاظاً من القاهرة الى المنيا في الصعيد . فارسل اليه مراد بك بعض الاختيارية يسكنون من غضبه فارضوه واعادوه الى مركزه في القاهرة . الا ان العلاقات الودية ظلت متكدرة بين الاثنين ولم تمض مدة حتى خرج مراد بك الى المنيا غيظاً من زميله لانه اتحد مع خمسة من بيت عدوهما القديم وهم البكوات عثمان الشرقاوي وايوب الصغير وسليمان وابراهيم الصغير ومصطفى الصغير

ولبث مراد بك بعيداً عن القاهرة خمسة اشهر وابراهيم يظن انه لا يلبث ان يسكن غضبه ويعود اليه فلما استبطأه ارسل اليه الاختيارية كما فعل ذاك معه . فابى مراد بك ورد الاختيارية خائبين . ثم جند جنداً من اتباعه المماليك وسار على الضفة الغربية للنيل حتى اتى الجيزة مقابل مصر القديمة وعسكر هناك . وهمَّ بقطع النيل فعلم ابراهيم بك بذلك فجند في الجهة المقابلة على البر الشرقي ليمنعه من المرور ولبث الجانبان على تلك الحال ثمانية عشر يوماً لا يتحاربان الا على سبيل المناوشة باطلاق مدفع



ش ٢٦ : مراد بك

و مدفعين ولم يقتل الا رجل او فرس . فمل مراد بك من تلك الحال فعاد الى المينا

اما ابراهيم بك فكان كثير الرغبة في مصالحة زميله فانفذ اليه بعد خمسة اشهر من خروجه وفداً ثانياً من كبار البلاد ومشائخها يطلبون اليه الرجوع الى القاهرة فوافقهم لكنه اشترط عليهم ان يسلموه الخمسة البكوات المتقدم ذكرهم حال وصوله الى القاهرة . فقبلوا بذلك الشرط فنزل معهم فعلم اولئك البكوات سرًّا من ابراهيم بك بما اشترطه مراد بك فخرجوا من القاهرة نحو القليوبية على نية الشخوص الى الصعيد عن طريق الاهرام . فاتصل ذلك بمراد بك فجعل عند الجسر الاسود قرب الاهرام عصابة من العربان تترصد مرورهم ولم يستطع صبراً على ذلك فقطع النيل ببعض رجاله فالتقى بالمنهزمين عند رأس الخليج فتلاحموا فجرح مراد بك ونجا اولئك فلاقاهم العربان عند الجسر الاسود فاسروهم وجاؤا بهم الى مراد بك فنفاهم الى المنصورة

وفرسكور ودمياط تفريقاً لكلمتهم وبعد مدة يسيرة عادوا واجتمعوا في اخر سنة ١١٩٧ واتفقوا ان يفروا الى الصعيد ويجمعوا اليهم عصابة يقاومون بها عدوهم ولم يباشروا ذلك حتى توسط شيخ جامع الازهر في امرهم وحصل لهم العفو من مراد بك فصفح عنهم واعادهم الى القاهرة بكل اكرام واعاد اليهم رتبهم وامتيازاتهم

حملة عثمانية لحرب المماليك

مضى بعد ذلك ثلاث سنوات على ابراهيم بك ومراد بك وهما على وفاق وسكينة يقتسمان ايراد البلاد بينهما بالسواء لا يقدمون عنه حساباً او اذا قدموه كان حبراً على ورق . فوشى بهما محمد باشا والي مصر اذ ذاك الى السلطان وبما كانا فيه من الاستئثار بمالية البلاد . فامر السلطان عبد الحميد سنة ١١٩٩ ﻫ ان يرسل الى مصر جيش لايقافهما عند حدهما . فسار الجيش في عمارة بقيادة حسن قبطان باشا فوصلت الاسكندرية في ٢٥ شعبان سنة ١٢٠٠ ﻫ فخاف البكوات خوفاً شديداً واجتمعوا اجتماعاً عاماً في الديوان وتباحثوا في ما يجب اجراؤه . فكثر اللغط واختلفت المقاصد والاراء فلم يقروا على شيء واخيراً ارتأوا طلب توسط محمد باشا ولما عرضوا عليه رايهم رفض . فطلبوا من الشيخ احمد العريشي شيخ الجامع الازهر والشيخ محمد المهدي — الذي تعين في زمن الفرنساوية كاتم سر الديوان الخصوصي كما سيجيء — وغيرهما ان يسيروا الى رشيد ويستعطفوا القبطان باشا وترى في شكل ٢٧ صورة ختم الشيخ المهدي وتوقيعه الرسمي وفيه لقبه كما يكتبه بيده



ش ٢٧ : ختم محمدي المهدي وامضاؤه

فركبوا من بولاق في زورق فاخر وما زالوا حتى بلغوا رشيداً فلاقاهم القبطان باشا بما يليق من الاحترام . اما هم فلعلمهم ان الاميرين ابراهيم ومراداً لا يثبتان على راي خافوا اذا طلبوا لهما العفو وحصلوا عليه ان ينكث ذانك فتكون الملامة عليهم . فقال الشيخ العروسي «يامولانا ان رعية مصر ضعفاء وبيوت الامراء مختلطة ببيوت الناس»

فقال الباشا « لا تخشوا بأساً فان اول ما اوصاني به مولانا السلطان هو قوله « ان الرعية وديعة الله عندي وانا استودعك ما اودعنيه الله تعالى »

فدعوا له بطول العمر ثم قال لهم « كيف ترضون ان يملككم مملوكان كافران

يسومونكم سوء العذاب لماذا لا تخرجونهما من بلادكم ؟ »

فاجابه احدهم بقوله « ياسلطانم هؤلاء عصبة شديدو البأس لا نقوى على دفعهم » فطيب خاطرهم ووعدهم بالحماية . وبالحقيقة ان هذا الوفد تصرف بالحكمة لانهم لم يكادوا يخرجون من حضرة القبطان حتى سمعوا بقدوم مراد بك ومعه عشرة من البكوات وبعض الكشاف والمماليك . ثم شاع انهم نزلوا في الرحمانية عند منشأ الترعة المحمودية الاسكندرانية . وسبب ذلك ان مراد بك بعد ما ارسل الوفد خطر له الدفاع بالسيف فجمع اليه ذوي شوراه وفاوضهم فاقروا على الدفاع وان يسير مراد لذلك ويبقى ابراهيم للمحافظة على القاهرة

فسار مراد بمن معه ونزلوا في الرحمانية كما قدمنا فلاقتهم الجنود العثمانية وجرت بينهما واقعة لم تطل الا يسيراً فانذعرت جنود المماليك من قنابل العثمانيين التي كانت تتدافع بين حوافرخيلهم فتشتت شملهم وفاز العثمانيون . ففر مراد بك ومن معه حتى اتوا القاهرة فاجتمعوا بابراهيم بك وخرجوا جميعاً الى الصعيد ومكثوا ينتظرون هجمات العثمانيين . فلما راى محمد باشا الوالي خلو القاهرة من المماليك جمع اليه الوجاقات ونزل بهم من القلعة لاستقبال الجنود العثمانية

ففي ٥ شوال سنة ١٢٠٠ هـ دخل حسن باشا القاهرة بعد ان اخربت جيوشه كل ما مروا به من المدن والقرى ونهبوها ولولاه لم يبقوا على شيء اصلاً . لكنه كان يمنعهم من ذلك بالقوة وقتل منهم كثيرين عبرة للباقين فكفت الايدي فسكنت الناس فلما وصل القاهرة نزل في بيت ابراهيم بك عند قصر العيني على النيل . ثم عرض امتعة البكوات المنهزمين للمزاد العمومي وفي جملتها حريمهم واولادهم ومماليكهم فاسترحم المشائخ ان يخرج الاولاد والنساء الحوامل من معرض البيع لان ذلك فضلاً عن مخالفته للعواطف الانسانية فهو مغضب لله

فانتهرهم القبطان باشا قائلاً « سأكتب الى الاستانة بانكم تعارضون في بيع امتعة اعداء جلالة السلطان » فاجابه الشيخ السادات قائلاً « قد ارسلت الينا لمعاقبة شخصين مجرمين وليس لهتك شرائعنا والطعن في عاداتنا فاكتب الى الاستانة ما شئت »

فعند ذلك امر الباشا باستثناء المحظيات الحوامل من البيع . وبعد ان بيعت سائر الامتعة عكف حسن باشا على اصلاح الادارة فاصلحها على ما يوافق الارادة الشاهانية وكان قد استقدم اسماعيل بك وحسن بك الجداوي من الصعيد فارسلهما في جيش بقيادة عابدين باشا ودرويش باشا قائدي الحملة العثمانية التي جاءت مصر عن طريق البر

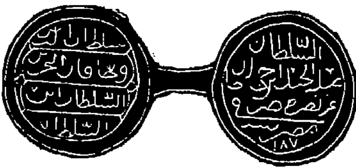
(فضلاً عن العمارة البحرية المتقدم ذكرها) وسار في تلك الحملة ايضاً نحو الف مقاتل من رجال الشام تحت قيادة امير كبير من امراء شين اغلي فاجتمعت هذه الحملة وسارت نحو الصعيد لمحاربة مراد بك ورجاله



ش ٢٨ : الشيخ ابو الانوار السادات

فحصلت هناك واقعة عظيمة شفت عن عدة قتلى من الجانبين وانهزم مراد بك ورجاله الى الشلالات ورجعت الجنود العثمانية ظافرة الى القاهرة . ثم جاءت الاوامر الشاهانية بعزل محمد باشا وتولية عابدين باشا مكانه

وهنا تنتهي مهمة حسن قبطان باشا فاستدعي الى الاستانة بسبب الحرب مع روسيا . ولكن مصر لم تنج من البكوات وكانوا لا يزالون في مصر العليا كما رايت . والمسيحيون يشكون من معاملة حسن باشا بانه اخذ متاعهم وباعه على مشهد من الناس فضلا عن الاهانة التي سامهم اياها وعلى الخصوص المعلم ابراهيم الجوهري امين احتساب مصر فانهم قبضوا على امرأته واجبروها ان تخبرهم بمخابئ زوجها من النقود فاخبرتهم فاستخرجوها واخذوها . ولما برح حسن باشا القاهرة اقام عليها اسماعيل بك شيخ البلد فعهد هذا الى صديقه القديم حسن بك الجداوي امارة الحج واتفقا معاً على اقتسام الايراد

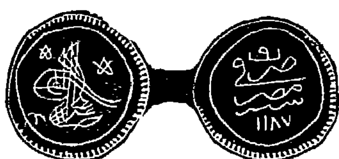


ش٢٩ : نقود السلطان عبد الحميد الاول

وفي سنة ١٢٠٣ هـ توفي السلطان عبد الحميد الاول

وترى في الشكلين ٢٩و٣٠ صورتي النقود

الذهبيــة التي ضربت على عهد السلطان عبد الحميــد الاول بن احمـد في القـاهرة بتاريخ ١١٨٧ هـ الاولى تدعى نصف زر محبوب والثانية فندقلي



[ش ٣٠: نقود السلطان عبد الحميد الاول

سلطنة سليم الثالث



ش ٣١ : السلطان سليم الثالث

من سنة ١١٧١ — ١١٧٨ هـ او من ١٧٥٧ — ١٧٧٤ م

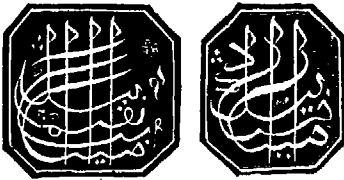
فبويع السلطــان سليم الثالث بن مصطفى فاقر اسماعيل بك في مركزه فتعاطى الاحكام بدراية وحكمة الى سنة ١٢٠٤ هـ وفي هذه السنة طرأ على الديار المصرية ولاسيما القاهرة وباء شديد الوطأة لم تقاس مثله قبله حتى بلغ عدد الموتى به نحو الالف في اليوم

بالقاهرة وحدها وتقلب على حكومتها في يوم واحد ثلاثة حكام . وسبب ذلك ان اسماعيل بك اصيب بالوباء فاقيم آخر مكانه فآخر حتى فني كل من كان من بيت اسماعيل بك الا واحداً يدعي عثمان بك الطبل . ولا يزال هذا الوباء مشهوراً بفتكه ويعرف بطاعون اسماعيل . فتولى عثمان بك الطبل المذكور مشيخة البلد ولم يكن قادراً على ادارة الاعمال التي عهدت اليه فاستدعى ابراهيم بك ومراد بك فدخلا القاهرة في ٢١ ذي القعدة من تلك السنة ففر حسن بك الجداوي الى مصر العليا قانطاً

فاستلم ابراهيم ومراد ازمة الاحكام وجعلا يعيثان فيها وكانا يتناوبان مشيخة البلد وامارة الحج سنوياً بعد ان افنيا كل من كان على غير دعوتهما فصفا الجو لهما . اما قلباهما فكانا لا يخلوان من الضغائن المتبادلة لما طبع عليه كل منهما من حب الاثرة وقد اختلفا في الطباع والمناقب : كان مراد بك شديد البطش مقداماً لايهاب الموت وكان ابراهيم بك اكبر سناً واكثر اختباراً ربعاً ضخم القامة حسن الطلعة حاد البصر وكان يتربص لمراد محاذراً بطشه لئلا يطلبه للنزال ولولا ذلك لم يرض معه بالاجتزاء من الدخل اجتزاء سوياً . وكان لايعارضه في ما يأتيه من الاستبداد ووضع الضرائب وسلب اموال الناس لانه شريكه في الارباح الناتجة من ذلك . وكان في ابراهيم رياء يظهر غير ما يضمر اذا استصرخ وعد مع العزم على الاخلاف . وكان جباناً فاذا اراد امراً لايتظاهر به وانما يسعى اليه بالدسائس والمكائد

اما مراد بك فلم يكن يعرف المكر وانما كان يسعى في اغراضه بالقوة والحزم وكان طويل القامة عضلي البنية شديد البأس يقطع عنق الثور بضربة من سيفه وعلى وجهه ملامح الاسود فاذا غضب يهابه ويخاف منه كل من يراه حتى احب اصدقائه (انظر ش ٢٦) . وكان كريم النفس لا يبيت على غيظ حر الضمير لا ينكر الحق ولو كان عليه مخاصاً لاصحابه مقيماً على قوله . وكان طمعه بمقدار سخائه وحبه لذاته بمقدار حرية مباديه . وكان سريع الغضب شديده لايراعي في حال غضبه امراً من الامور وربما فتك بمصلحة نفسه او اضر بشخصه

وترى في شكل ٣٢ صورة كل من ختمي مراد بك وابراهيم بك محفورة على شكل جميل


ش٣٢ : ختم مراد بك وختم ابراهيم بك

والم بالبلاد بعد عود هذين الاميرين الى مصر جوع هائل ويقال انه حصل من كثرة ما

ضبطاه من الحبوب في مصر العليا طمعاً بالكسب . ثم الغيا النظامات التي وضعها حسن باشا قبطان وابدلاها بما يوافق مطامعهما الشخصية . فكثرت تعديات مماليكهما وعلى الخصوص تعديات احدهم محمد الالفي [1] فثار الاهلون ثورة عامة لم يسعهما معها الا توقيف تلك الاجرآات وقتياً فخمدت الثورة فعادا الى ما كانا عليه فعاد الناس الى الاضطراب وكسدت سوق التجارة لقلة الامنية

نسخة قديمة من القرآن

يحكى ان مراد بك اظهر يوماً انه عازم على تجديد الملابس والامتعة العسكرية وطلب ما يقوم بنفقاتهـا ففرض على الاسرائيليين مبلغاً كبيراً اعانة لهذا المشروع فاجتمع رؤساؤهم وتخابروا في ماذا يصنعون لينجوا من هذه الضريبة فاقروا على ان ينفذوا اليه اثنين من كبرائهم يسعيان في ما ينجيهم من هذه الضريبة فسارا ولما مثلا بين يدي مراد بك قالا له « ايها الامير انا فقراء ولو بعنا ممتلكاتنا ونساءنا واولادنا وانفسنا لا نجمع عشر ما تطلبه منا فاذا اعفيتنا من هذه الضريبة التي يستحيل علينا دفعها نطلعك على مخبأة تكفيك مؤنة هذه المطالب . وهذه المخبأة لا يعلم بها احد سوانا وقد تنوقل هذا السر في عائلتنا حتى وصل الينا ونحن نوصله لاولادنا عند ما تحضرنا الوفاة»

فلما سمع كلمة « مخبأة » فتح اذنيه وقاطعهما قائلاً « هلم بنا لنرى تلك المخباة فاني اذا رأيتكم صادقين اعفيكم وطائفتكم من كل ضريبة . هلم بنا الى المخباة اين هي ؟ » فاجابا « ان هذه المخباة ايها الامير في جامع عمرو بن العاص في مصر القديمة جعلها ذلك الفاتح هناك في صندوق من حديد في دهليز لا يعرف مقرّه الا نحن »

فتأكد مراد بك انهما يتكلمان الصدق فصرفهما . ثم سار في اليوم التالي مظهراً للصيد في البرية فمر بجامع عمرو فدخله كانه يريد الصلاة ثم نظر الى الجامع فاذا به قد تداعت اركانه فالتفت الى شيخه قائلاً « بما ان الله قد ادخلني هذا المسجد المبارك وجب علي ان اسعى في اصلاحه لكي يذكر اسمي في الصلاة مع اسم مؤسسه الفاتح عمرو بن العاص وغدا ان شاء الله ارسل اليكم الفعلة يباشرون العمل »

وفي اليوم التالي ارسل الفعلة بمراقبة احد ثقاته وبدلاً من ان يبداوا بهدم القسم المتساقط من الجامع بداوا بالقسم القائم وبعد بضع ساعات جاء مراد بك بنفسه فراهم قد وصلوا الى دهليز فيه صندوق من الحديد فتحقق ما قاله له الاسرائيليان وكانا بين الجماهير فامر فاخرج الصندوق ثم امر بفتحه فاذا هو ملآن رقوقاً عليها ايات بالقلم الكوفي ثم علموا بذلك انه القرآن الشريف

---

[1] سمي بهذا الاسم لانه بيع بالف دينار

وترى في شكل ٣٣ رسم كلمات من فاتحة القرآن مثالاً لنوع كتابته الكوفية . وكان يظن انه كتب في ايام عمرو بن العاص

فلما راى الاسرائيليان ذلك فرّا من بين الجماهير . اما مراد فاستشاط غيظاً ولما عاد الى القاهرة ضاعف الضريبة على الاسرائيليين واصرّ الا ان يدفعوها حالاً واستعمل الكرباج لحثهم على ذلك . اما تلك الرقوق الثمينة فالقيت في الدهليز بغير اعتناء وتركت هناك عرضة للشمس والماء ففسد بعضها ولما كانت الحملة الفرنساوية التقط ما بقي منها المسيو مارسل مدير مطبوعات تلك

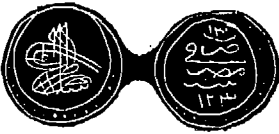
ش ٣٣ : كلمات من فاتحة القرآن الشريف

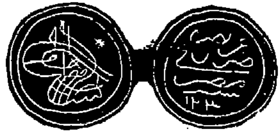
الحملة وحفظها عنده في متحفه الخصوصي . وفي المكتبة الخديوية نسخة من القرآن يقال انها وجدت في جامع عمرو فلا يبعد ان تكون هي التي التقطها مارسل . وهي من اقدم نسخ القرآن الموجودة في العالم اليوم والغالب انها كتبت في اوائل القرن الثاني للهجرة



ش ٣٤ : نقود السلطان سليم بن مصطفى

وعاد مراد بك ورفيقه الى ما كانا عليه من اختلاس اموال الاهلين واموال الاجانب بالضرائب الفاحشة . وضربا على التجار الاجانب في الاسكندرية والقاهرة ورشيد ضرائب ما انزل الله بها من سلطان فرفعوا شكواهم الى قناصلهم فلم تكن النتيجة الا زيادة الاضطهاد . اما توسط الباشا في مثل هذه الامور فكان عديم الفائدة على الاطلاق فرفع المتظلمون شكواهم الى الاستانة فكان جوابهم الصمت ولم يزدد مراد بك الا عتوًّا وعسفاً ولم يكن يبالي بما يقوله القائلون او يتظلم منه المتظلمون من سائر ساكني القطر . كل ذلك جرى على عهد السلطان سليم بن مصطفى وهو من اكثر السلاطين رغبة في الاصلاح ولكنه غلب على امره





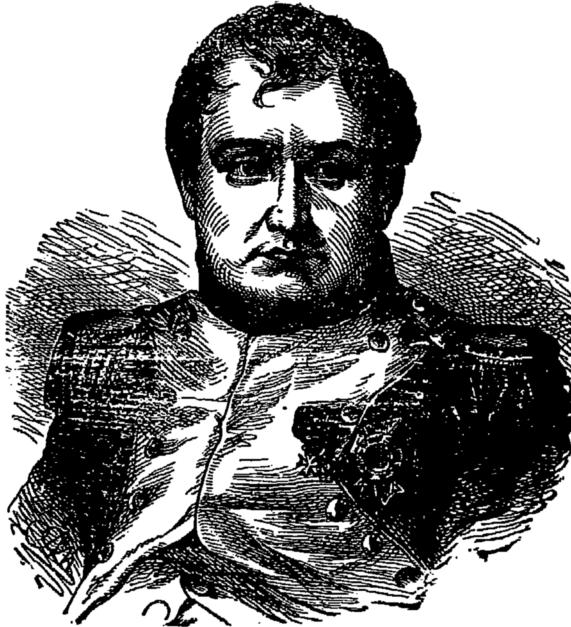
ش ٣٥ : نقود السلطان سليم بن مصطفى

وترى في الشكلين ٣٤ و٣٥ صور نقود السلطان سليم مضروبة بتاريخ سنة ١٢٠٣ هـ

الحملة الفرنساوية

تمهيد

قد رايت ما كان من انغماس مراد بك ورفيقه في المظالم واختلاس الاموال بغير الحق . وكيف انهما تطرقا بتصرفهما هذا الى الاجانب القاطنين في هذا القطر تحت حماية دولهم فانهما لم يكونا يراعيان حرمة ولا ذمة . وكان اولئك الاجانب يتحملون تلك التعديات بالصبر الجميل لانهم رفعوا شكواهم الى دولهم مراراً فاوعزت الى الظالم أن يرعوي فلم يرعو . وما زال الحال كذلك حتى جاء نابوليون بونابرت الرجل العظيم برجاله لافتتاح هذه الديار . وقبل الخوض في تفاصيل تلك الحملة نشرح للقارىء . اولاً ما الداعي الذي حمل الفرنساويين الى تجريدها . ثانياً كيف كانت مصر عند وصول تلك الحملة اليها



ش٣٦ : نابوليون بونابرت

لماذا جرّد الفرنساويون الى مصر

لما قتل الفرنساويون ملكهم لويس السادس عشر وتخلصوا من الحكم الاستبدادي اقاموا عليهم نوعاً من الحكومة دعوها « الادارة » وهي عبارة عن لجنة مؤلفة من خمسة اعضاء يسمون كلاًّ منهم « مديراً » وذلك سنة ١٧٩٥ للميلاد (١٢١٠ هـ) ثم جعلوا يحملون على ممالك الارض يفتحونها بهمة كبير قوادهم الرجل العظيم بونابرت فحاربوا النمسا ثم ايطاليا فغيرها ولم يبق في سبيلهم الا دولة انكلترا واقفة لهم بالمرصاد وهي على جانب عظيم من القوة ولاسيما في البحار . فتباحثت ادارة فرنسا بذلك مراراً لكنها لم تستطع مناهضة تلك الدولة لما كانت تعلمه من قوتها ومناعة جانبها

وكان بونابرت قد مرَّ في البحر المتوسط وضم قسماً عظيماً من شواطئه الى فرنسا فطمع بمصر وقد اعجبه شأنها وما فيها من الخيرات وما بها من التعزيز لدولته والارهاب لانكلترا . الا ان الادارة لم تكن على بينة من الامر فعرض بونابرت رأيه هذا عليها وشرح لها شرحاً مستوفياً كيف كان هذا الوادي منذ القدم منشأً لخيرات العالم المتمدن ثم امسى موضوعاً لمطامع الدول العظيمة . وشاغلاً لرجال الفتوح من الاسكندر الى الايام الاخيرة ثم قال مخاطباً الادارة :

« ان مصر ايها السادة اكثر بقاع الارض خصباً . كانت اهراء لرومية قديماً وللقسطنطينية الآن . وفيها الحنطة والارز وسائر انواع البقول والسكر والنيلة والقطن والسنا والخيارشنبر والنطرون والكتان والقنب وفيها صنوف الماشية والطيور الداجنة وقد اشتهرت على الخصوص بحسن حميرها وقوة جمالها . نعم ان مواد الاشتعال والزيت والبن والتبغ نادرة فيها لكن ذلك مستدرك لان الشرق لا يستغني عن هذا الوادي وهو مركز متوسط بين افريقيا واسيا . فالقوافل تحط رحالها في القاهرة كما ترسو المراكب عند الشواطئ بعد سفر طويل . وهذه القوافل مؤلفة من مئات واحياناً الوف من الجمال قادمة من بلاد العرب او سوريا اوسواحل المغرب او الحبشة او اواسط افريقيا او من راس الرجاء الصالح او السنغال تحمل انواع التجارة من الخشب والفحم والزيت والتبغ والبن والاثمار ومن الرقيق والتبر والعاج والريش والصمغ والاطياب والعطور والشالات وكل محاصيل الهند فتبيعها في مصر وتأخذ بدلا منها احمالا من مصنوعات اوربا

« فما برحت مصر ايها السادة منذ القدم موصلاً تجارياً بين اوربا والشرق وهذه

تجارتنا مع الهند قد كانت قبل اكتشاف راس الرجا الصالح تأتينا عن طريق مصر ترسو السفن عند برنيس من سواحل البحر الاحمر ومنها تنقل السلع على الجمال في الصحراء ٢٤ مرحلة الى طيبة (الاقصر) ومنها في النيل الى مصر وتتوزع فيها ومنها تنقل الى اوربا . وكانت تنقل احياناً الى القصير في البحر الاحمر ومنها الى السويس ثم على الجمال الى منف ومنها الينا . واذا اغضينا عن اهمية مصر بالنسبة لتجارة الهند فان لها اهمية عظمى بالنظر لتجارتها الخصوصية

فاذا فتحنا هذه البلاد واعتنينا بادارتها خمسين سنة فقط يبلغ عدد سكانها اضعاف اضعاف ما هو عليه الآن . كان سكان هذا الوادي في الازمنة الخالية بين ١٢و١٥ مليوناً وهم الآن لا يبلغون ربع هذا القدر لسوء الادارة . فضلاً عما تقدمه مصر لعاملنا من حاصلاتها وما نبيعه فيها وفي جوارها من مصنوعات بلادنا . فما هي مستعمراتنا بالنسبة الى هذه البلاد الخصبة الشاسعة الاطراف ؟ هلم اليها فنستغل من ارزها وسكرها وقطنها كما فعل غيرنا وهي تغنينا عن حاصلات اميركا وتكفينا مؤونة الارتباط معها

« ولا يخفى عليكم ايضاً اننا اذا ثبتنا قدمنا في مصر لاتبقى انكلترا طويلاً في الهند او نجعل على سواحل البحر الاحمر حاميات نقيمها في معاقل منيعة ندخر فيها نتاج ذلك القطر ونحول التجارة الهندية اليه . ولو فرضنا بقاءها عن طريق راس الرجا الصالح كما هي الآن فاننا نقيم بيننا وبينها باباً للمنافسة ونشق ترعة بين السويس والنيل . ولا شك اذا فعلنا ذلك اننا نحبط مساعي انكلترا جملة لان التجارة تتحول الينا . اما هذه الترعة فقد كانت محفورة منذ القدم ولا يصعب علينا اعادة حفرها . فاذا فتحنا مصر لا يقتصر نفعها لنا مثل نفع سائر المستعمرات العظيمة لكننا نعرقل مساعي انكلترا بها فنكتفي موءنة مقاومتها — هذا اذا لم نذهب بها الى الحضيض »

فترددت الادارة بقبول مشروعه لكنه ما زال يستحث اعضاءها حتى اشتدَّ الجدال بينه وبينهم فراى فيهم اصرارا على مقاومته فعرَّض بذكر استقالته فنهضوا اليه واوقفوه واعادوا النظر في ما عرضه ووافقوه على رايه بشرط ان يكون ذلك سرًّا لئلاَّ تتصل مقاصدهم بمسامع انكلترا فتسعى ضدهم . فانحصر هذا المشروع بين بونابرت والخمسة المديرين فقط — حتى الكاتب الذي كتب الامر باعداد الحملة لم يكن يفهم حقيقته لانه امر ان يكتبه بصورة مبهمة في ٥ مارس سنة ١٧٩٨

ومن مقتضى هذه الاوامر السرية ان تكون هذه الحملة موءلفة من اربعين الف

مقاتل عليهم اربعون قائداً يختارهم بونابرت وطائفة من رجال العلم لا يقل عددهم عن المائة بين مهندسين وجغرافيين وطبيعيين وكيماويين ولغويين وفلكيين ونحو ذلك العدد من سائر الصناع . وعمارة بحرية بقيادة الاميرال برويس يضاف اليها المراكب الراسية عند طولون . وان يقبض في مدة عشرة ايام من الخزينة مليون وخمسماية الف فرنك فضلاً عن ثلاثة ملايين من خزينة بارن وان يتصرف بهذه المبالغ حسب حكمته والاوامر السرية المعطاة له

فبذل بونابرت جهده لتعزيز هذه الحملة والاسراع في اعدادها . فشاعت الاقاويل عن هذه الاعدادات وكثرت الظنون فقال بعضهم انها حملة تعدها فرنسا لمحاربة انكلترا وقال آخرون انها تفعل ذلك لافتتاح مدن جديدة في اسيا وافريقيا وقال اخرون غير ذلك

وبونابرت لم يأل جهداً في اعداد المهمات وترتيب امور الحملة فجعل المراكب المعدة لنقل الجند اربعمائة مركب تسير في اربع فرق من اماكن مختلفة الفرقة الاولى تسير من طولون والثانية من جينوا والثالثة من شيفيتافكيا والرابعة من جاكسيو ثم تجتمع وتتحد وتسير الى مصر . وان تنقل على هذه المراكب ايضاً مطبعة عربية كانت في البروباغندا برومية مع ما يلزمها من العمال . وعلى انقاض هذه المطبعة اقيمت مطبعة بولاق الاميرية ونقلوا ايضاً كل ما يلزم من الادوات الكيمية والطبيعية والرياضية وانضم الى طائفة العلماء كثير من مشاهير علماء فرنسا وصناعهم متطوعين ومثل ذلك القواد . فكأن فرنسا بجملتها تاقت الى مرافقة هذا القائد العظيم فانضم الى حملته كثير من ابطالها وعلمائها وصناعها بقلب واحد . وهم لا يعلمون الى ابن تذهب بهم الاقدار

اما الجيوش فجعل فيهم الفين وخمسمائة من الفرسان والفاً من الطبجية والمهندسين ومن بقي (من الاربعين الفاً) من المشاة وكان من جملة القواد الذين رافقوا تلك الحملة كلابر وديزه ورينير وبون ومينو وهم قواد الخمس الفرق من المشاة . وكان مورات قائداً للفرسان وكافرللي قائداً لفرقة المهندسين ودومارتين على الطبجية

هذا من قبيل الحملة البرية اما الحملة البحرية فكانت مؤلفة (اولاً) من ١٥ مركباً حربياً من جملتها « الشرق » محمولها ماية وعشرون مدفعاً ومركبان محمول الواحد منهما ثمانون مدفعاً وعشرة مراكب محمول الواحدة منها ٧٤ مدفعاً . واثنان محمول كل منهما ٦٤

(ثانياً) من اربع عشرة مدرعة في بعضها اربعون مدفعاً وفي بعضها ٣٦ وفيها بريقان

(ثالثاً) من ٧٢ مركباً حربياً صغاراً على اشكال مختلفة . هذه هي الحملة البحرية وهي كما رايت اكثر من ماية قطعة ومعها سبعمائة مركب لنقل العساكر البرية ومهماتهم وخيولهم واسلحتهم بقيادة برويس وبلغ عدد الملاحين نحو عشرة آلاف

اما الحملة العلمية المرافقة لتلك الحملة العسكرية فكانت مؤلفة من فرق لكل من العلوم او الصنائع وجملة اعضائها مائة فيهم فرقة للهندسة واخرى للفلك وفرق اخرى للميكانيكيات وللكيميا والمعادن والحيوان والنبات . ومثل ذلك للجراحة والطب والاقتصاد السياسي والانشاء والجغرافيا وعلم الآثار والبناء والتصوير والرسم والنقش والحفر والموسيقى الخ . وقد اختير لهذه الفنون اشهر من اشتغل بها ومعهم المطبعة المتقدم ذكرها وعدة مترجمين . وجميع هذه المعدات كانت على اهبة السفر في ٢٠ افريل سنة ١٧٩٨ اي بعد صدور الامر ببضعة اسابيع . ومن الغريب انه مع تعداد الرجال الذين ساعدوا في تنفيذ اوامر الادارة وفيهم القواد العظام ورجال العلم والصناع لم ينكشف لاحد منهم حقيقة المقصود من هذه الحملة الا لتاليران وهو الرجل السياسي الذي ارسلته الادارة الى الاستانة لمخابرة الباب العالي بشأنها وطلب مصادقته على تجريدها

وفي ٩ مايو سنة ١٧٩٨ م وصل بونابرت الى طولون والجند في انتظاره كأنهم على جمر الغضا فخطب فيهم فزادهم حماسة ورغبة في الحرب . وفي ١٩ منه ودع بونابرت امراته وركب على الدارعة « الشرق » وهي اكبر دوارع الاسطول ومعه اركان حربه كأنهم ذاهبون الى نزهة او غنيمة باردة . واقبلت سائر المراكب من النقط الاخرى حتى اتحدت وعددها جميعاً يزيد على الخمسمائة فسارت تخترق عباب البحر وعليها خمسون الف نسمة . وفي ٩ يونيو سنة ١٧٩٨ وصلوا الى مالطة ومنها ساروا يطلبون الاسكندرية

فاوجست انكلترا خيفة من هذه الحملة فانفذت نلسون احد كبار قوادها البحريين في اسطول وعهدت اليه ان يقتص آثار الاسطول الفرنساوي في البحر المتوسط وان يكون ساهراً على اجرآاته وان يقاومه اذا راى منه مساً لحقوق انكلترا فسار نلسون طاف البحر المتوسط ثم تنبأ ان الاسطول الفرنساوي لا يقصد الا مصر او سوريا فسار نحوهما . فبلغ ذلك بونابرت فامر الاسطول ان يقيم غربي الاسكندرية ببضعة مراحل وان يكون دائماً في استعداد للدفاع

حالة مصر عند قدوم الحملة الفرنساوية

لم يكن في وادي النيل اذ ذاك اكثر من ثلاثة ملايين من السكان يتألفون من ثلاث طوائف كبرى وهم اولاً الاقباط سكان مصر الاصليون لايزيدون عن مائتي الف نفس ثانياً العرب الذين افتتحوها ثالثاً الاتراك وفيهم المماليك . وشرذمات من طوائف اخرى

والباشا هو الحاكم المرسل من الاستانة لتأييد سلطة السلطان كان يقيم في قلعة الجبل في القاهرة لا فائدة من وجوده هناك الا اثبات سلطة جلالة السلطان على مصر ويقوم ذلك بالخطبة له في الصلاة وضرب النقود باسمه. اما المماليك فكانوا اخلاطاً من الاتراك والشراكسة والكرج وجميع ثروة البلاد وادارتها في ايديهم . على انهم مع ذلك يكن لهم في البلاد عصبية لانهم لم يكونوا يتوارثون الحكم الا نادراً . وانما كان يتولى نهم من يمتاز بالقوة او الاحتيال او المحسوبية وما شاكل . وقلما ارتقوا منصة الحكم الحكمة والدراية وحسن السياسة ولذلك كانت احكامهم عرضة للفساد وداعية للخلل . كان مقرهم في بهو كبير مختص بهم في قلعة الجبل وفيها اصطبلات كبيرة لخيلهم ومخازن لاسلحتهم ومعداتهم . اما مساكنهم الخصوصية فكانت غالباً في حي قيسون وحي بركة الفيل ودرب الجبانية في اجمل مايكون من البناء مرصفة بالرخام والفسيفساء وفيها الرياش من المخمل المزركش بالحرير . وفي بعضها حدائق غناء تزينها السراري الجميلات من نساء الكرج وغيرهن

اما الجنود فكانوا لايزيد عددهم على الثمانمائة او الالف من المماليك الاشداء وقلما يكونون على شيء من الفنون الحربية واكثرهم من الفرسان اما المشاة فقليلون بينهم . فاذا امتطى المملوك صهوة جواده تقلد القربينة بمنكبيه والطبنجات في منطقته والسيف على يساره وهراوة في قربوزة وقضيباً من الفولاذ امام انفه ممتداً من جبهته الى ذقنه . وقد يتفق ان يتمرن احدهم على الحركات العسكرية اما الجماعات فلايعرفون شيئاً عن المربعات او الخطوط الحربية وانما كانوا يتقنون الفروسية . وفي يوم قدوم الفرنسويين الى مصر كان على الاحكام ابراهيم بك ومراد بك كما مر بك الاول شيخ البلد والثاني اميرالحج وبايديهما الحل والعقد . وكان ابراهيم بك مشهوراً بالغنى والطمع والاحتيال. وكان مراد يفوقه اقداماً وحزماً وفيه كرم وسخاء . وكلاهما لم يؤيدا سلطتهما الا بالقتل والنهب والاحتيال وقد اتفقا على اقتسام ايراد البلاد

اما العرب فمنهم فئة العلماء والفقهاء وفي ايديهم ادارة المعابد والتكيات وهم في الغالب

من عائلات قديمة متصلة بالصحابة او غيرهم من اصحاب البيت وكانت معيشتهم غالباً في ترف ورخاء وان لم يبلغوا في ذلك مبلغ البكوات المماليك . وكانوا محترمين لدى الاهلين احتراماً دينيا وادبيا . اما نفوذهم السياسي فكان ضائعاً في جانب استبداد المماليك

وكانت التجارة رائجة في مصر واصحابها من ثقات العرب واصحاب الامانة ولذلك قلت بينهم التفاليس . وكانت فرضة القاهرة بولاق وفيها كانت ترسو المراكب حاملة البضائع على اختلاف الانواع قادمة من اقطار شتى من العالم . ومن بولاق تحمل الى الخانات او الوكالات كخان السبع قاعات وخان التركماني وتباع فيها بالاجمال . اما البيع بالمفردات فكان في الاسواق الى شمال المدينة من باب زويلة الى الباب الذي يشرف على الصحراء

اما جباية جمع الخراج فكانت موكولة الى فئتين من المصريين هما المسلمون والاقباط . فمن المسلمين كان الروزنامجية وعندهم تقاويم الارضين وسجلات الاملاك وكانوا ممتازين عن سائر الاهلين ومحافظين على انسابهم لا يتزوجون الا من بنات اكفائهم وكانوا على جانب من الثروة ولهم عقارات واسعة يضرب بهم المثل في ذلك . اما الاقباط فكانوا يقتصرون على ضبط الحسابات في القبض والصرف كسائر الحساب الا فيما ندر . وكانت مساكن الاقباط في القاهرة شمالي المدينة وغربيها فيما كان يعرف بباب المقس حيث تمن الازبكية الآن وفي باب البحر ولذلك دعي بعض احيائها بحارة النصارى واكثرهم من متوسطي الثروة . اما اصحاب المصارف والمداينون والصيارف فكانوا من اليهود ويقيمون عائلات كثيرة في بيت واحد بحارة اليهود ويضطهدهم المماليك اضطهاداً شديداً

اما الاجانب في القاهرة فاكثرهم من الفرنساويين وكانوا يلبسون اللباس العربي ويتكلمون اللغة العربية جيداً ويقيمون في جهة الموسكي وكانوا يتزاوجون مع المسيحيين من السوريين وهؤلاء كانوا يقيمون غالباً في درب الجنينة . وكان في وادي النيل جماعة كبيرة من السوريين يقيمون غالباً في السواحل وفي المدن الكبيرة مثل دمياط ورشيد واسيوط يتعاطون التجارة اما ببضائع اوروبا او بحاصلات السودان من العاج والريش والصمغ او ببضائع بلاد اخرى . اما علاقة مصر مع الدول الاجنبية في ذلك العهد فكانت قاصرة على التجارة . والبندقية « فنيس » امتن علاقة معها من سائر الامم ولها قنصل مقيم في الاسكندرية فضلاً عن علاقات اخرى مع تجار فرنسا وانكلترا

هذا ملخص حالة مصر عند قدوم الفرنساويين اليها

الحملة الفرنساوية

من سنة ١٢١٣ — ١٢١٦ هـ او من ١٧٩٨ — ١٨٠١ م

مر بك في الفصل السابق ان الاسطولين الفرنساوي والانكليزي سارا في البحر المتوسط قاصدين شواطىء الدلتا

ففي يوم الاحد الواقع في ١١ محرم سنة ١٢١٣ هـ ظهر في ميناء الاسكندرية اسطول مؤلف من خمسة وعشرين مركباً انكليزياً. وكان متسلم الاسكندرية « حاكمها » السيد محمد كريم احد اعيان الوطنيين . فلما علم بقدوم الاسطول جعل يراقب حركاته وسكناته واهل المدينة يتساءلون فيما بينهم عن امره وبعد قليل اقترب من الثغر قارب فيه عشرة من الافرنج طلبوا مقابلة الحاكم فجيء بهم الى السيد محمد كريم وهو في مجلسه وحوله رجال حكومته فسألهم عما جاؤا من أجله فقالوا « ان ما ترونه في هذا البحر اسطول انكليزي جاء للتفتيش عن عمارة فرنساوية عظيمة خرجت مؤخراً تريد جهة من الجهات فربما داهمتكم فلا تقوون على دفعها فنكون لكم نصراء عليها » فظن السيد محمد كريم ذلك مكيدة فاغاظ لهم بالقول فقالوا « اننا نرسو في هذا البحر نحافظ عليه لا نطلب منكم الا المدد بالماء والزاد بثمنه »

فاجابوهم « ان هذه البلاد بلاد السلطان ولا يد للفرنساويين فيها فاذا جاؤا فلا نبالي بهم فاذهبوا انتم عنا » فعادوا ثم اقلعت المراكب تخترق عباب البحر . اما السيد محمد كريم فانفذ الى مراد بك في القاهرة حال وصول الاسطول يخبره بما كان وارسل الى كاشف البحيرة يأمره بجمع العربان وان يأتي بهم للمحافظة على الثغر. فلما اتصل ذلك بمسامع الامراء والبكوات لم يكترثوا بهِ وقالوا « لا نبالي بمن تحدثه نفسه بمداهمتنا واننا ندوسه تحت حوافر خيولنا » اما الشعب فاضطرب وخاف . ثم جاء خبر آخر باقلاع الانكليز فسكن الجأش

وفي يوم الاثنين في ١٨ منه وصلت ثغر الاسكندرية العمارة الفرنساوية فارسلت احد قواربها تطلب القنصل فمانع السيد محمد كريم في اول الامر بتسليمه . ثم اذن له فنزل حتى اتى الدارعة التي عليها بونابرت فسأله عن حال المدينة فاخبره بما كان من امر الاسطول الانكليزي وان الاهلين في يقظة واستعداد للدفاع جهاداً في سبيل الدين

تدابير المماليك لرد الفرنساويين

وكانت حامية الاسكندرية لا تزيد على خمسمائة من الانكشارية معظمهم يتعاطون التجارة او يشتغلون بالصناعة وكانوا مع ذلك في استعداد للدفاع . وكتب السيد محمد كريم الى مراد بك وابراهيم بك في القاهرة بما جرى الى ان قال « ان العمارة التي ظهرت في هذا اليوم لا يعرف اولها من آخرها » فلما تلا مراد بك الرسالة استشاط غيظاً ورمى بالكتاب الى الارض . ثم ركب جواده قاصداً ابراهيم بك في سراي قصر العيني على ضفة النيل المطلة على جزيرة الروضة . فلما اجتمعا قررا عقد جمعية عمومية فبعثا الى كبراء البلاد ورجال الدولة وفيهم بكير باشا الوالي فاجتمعوا اجتماعاً حافلاً وتباحثوا في ما جاءهم من الانباء الاخيرة . فقال مراد بك وهو ينظر الى بكير باشا شزرا « لا ريب ان الفرنساويين لا يجسرون على القدوم الى مصر من تلقاء انفسهم فلعلهم جاؤا بامر من الباب العالي .. ولكن الله قادرٌ ان ينصرنا على الاثنين »

فاجابه بكير باشا « ان هذا الكلام لا يليق صدوره منك وكيف يخال لك ان الباب العالي يسلم بدخول امة غريبة الى بلاده دع عنك ذلك وهلم الى سيفك ورجلك لدفع العدو الذي داهمك » . وبعد المفاوضة اقروا على المود الآتية :

١ ان يسير مراد بك في فرقة من الفرسان على الضفة الغربية لفرع رشيد من النيل نحو الاسكندرية لايقاف الفرنساويين عن التقدم

٢ ان يعسكر ابراهيم بك بمن يبقى من الجند على الضفة الشرقية عند بولاق لحماية القاهرة

٣ ان يرسل بكير باشا الى الاستانة يستمد الباب العالي « بالترياق من العراق »

ثم شاع في اسواق القاهرة خبر قدوم الفرنساويين فكثر الهرج وازداد الاضطهاد على المسيحيين . وعبثاً حاول ابراهيم بك وبكير باشا اقناع المسلمين ان هؤلاء المسيحيين من جملة رعايا الدولة العلية

فتح الاسكندرية

أما بونابرت فبعد ان استوعب كلام القنصل اقرَّ على النزول الى البر حالاً فاعترضه الاميرال برويس بما يحول دون ذلك من بعد المسافة وصعوبة المسلك فاصرَّ على النزول وكانت قيادة القوتين البحرية والبرية بيده فوافقه برويس مكرهاً فسار بالمراكب الى جهة العجمي وبرج مرابوت على مسافة قصيرة جدًّا من الاسكندرية غرباً . وقضوا النهار بطوله يستعدون للنزول . وفي الساعة العاشرة مساءً باشروا النزول بالسرعة

الممكنة وما زالوا مجدين في ذلك الى الساعة الاولى بعد نصف الليل وقد نزل منهم اربعة آلاف وثلاثمائة رجل فنزل بونابرت وكانت الليلة مقمرة فنـام نحو ساعتين على الرمال . ثم ارسل طلائعه وسار بمن بقي مشاةً مستترين بجنح الليل ومستنيرين بالقمر وفي الصباح التقى بونابرت بقبائل من عرب البحيرة « ولد علي » تحت قيادة اميرهم فتبادلوا طلقات قليلة . ثم فرّ العربان وتقدم بونابرت برجاله حتى اشرفوا على الاسكندرية يستدلون على مكانها بعمود السواري

ثم وقف بونابرت على مرتفع اشرف منه على الاسكندرية فرآها وفيها المآذن والمنائر تناطح السحاب . فجعل رجاله فرقاً بين الواحدة والاخرى مرمى رصـاص وخطب فيهم وحرضهم ان يتجنبوا اهراق الدماء ما استطاعوا الى حجبها سبيلاً فهاجم الفرنساويون المدينة ودخلوها عنوة وقد اصيب الجنرال كلابر برصاصة في راسه لم تمته فاستلمت الجنود الفرنساوية الاسوار وفرت الحاميـة المصرية تطلب ملجأً في الابراج لقديمة وسقط الجنرال مينو عن احـد الاسوار التي استلمها هو فجرحت نخده . اما الجنرال مرمون فدخل المدينة من بابها بعد ان حطمه بالفؤوس . وخرق باقي الجيش الاسوار ودخلوا منها لانها لم تكن متينـة البناء

ثم ارسل بونابرت احد ضباط جيشه الى سكان المدينـة يخبرهم انهم في مأمن على ارواحهم واموالهم وان الفرنساويين لم يأتوا لمحاربتهم وانمـا جاؤا لمحاربة المماليك

اما السيد محمد كريم والعساكر الاتراك ففروا الى حصن فرعون فاضطر الاهلون الى التسليم قهراً فدخل بونابرت ورجاله الاسواق . وبلغ ذلك السيد محمد كريم فجاء بمن معه وسلم سلاحـه وفعل مثل ذلك المشايخ والعلماء فاكـرمهم بونابرت اكراماً خصوصياً . ثم التفت الى السيد كريم قائلاً « قد اخذت سلاحك بالسيف وكان لي ان اعاملك معاملة الاسير لاني اخذتك بعد ان دافعت عن نفسك ما استطعت . ولـكن الشجاعة حليفة الشرف ها اني اعيد اليك سيفك على امل ان تكون مسـاعداً اميناً للجمهورية الفرنساوية كما كنت للحكومة السابقة على عتوها وظلمها » ثم سأله اذا كان يرغب في معاضدة مساعيهم وهي تأييد سلطة الباب العالي وقمع المماليك . فاجاب بالايجاب فاقره على الاسكندرية تحت مناظرة الجنرال كلابر وكان قد اضطر الى البقاء في الاسكندرية بسبب الجرح الذي اصابه

ثم اباح بونابرت للمسلمين المحافظة على معتقداتهم وصلواتهم كما كانوا قبلاً . وجرد الاهلين من السلاح وامرهم ان يجعلوا على صدورهم الجوكار وهو علامة مصنوعة من

الجوخ او الحرير مستديرة بقدر الريال مؤلفة من ثلاث قطع كحلية وبيضاء وحمراء توضع بعضها فوق بعض بحيث تظهر الالوان الثلاثة ـ شارة العلم الفرنساوي ذي الثلاثة الالوان

منشور بونابرت الى المصريين

ولما رسخت قدم الفرنساويين في الاسكندرية نزل للبر بعض رجال الحملة العلمية ومعهم المطبعة العربية وجعلوا ينقبون في آثار الاسكندرية البنائية والجيولوجية . ثم امر بونابرت ان تنزل جميع المهمات العسكرية من خيول واسلحة ومدافع وغيرها الى البر سريعاً وان يطبع منشور بالعربية يفرق في البلاد فكتب وطبع وهذا نصه بالحرف الواحد :

« بسم الله الرحمن الرحيم . لا اله الا الله لا ولد له ولا شريك في ملكه . من طرف الجمهور الفرنساوي المبني على اساس الحرية والمساواة السر عسكر الكبير بونابرت امير الجيوش يعرف اهل مصر جميعهم ان السناجق الذين يتولون مصر منذ زمن مديد يعاملون الملة الفرنسوية بالاحتقار والاعتداء وقد حضرت الان ساعة عقوبتهم واحسرتاه انه منذ ايام وعصور هؤلاء المماليك المجلوبون من بلاد الاباظة والكرج يفسدون في احسن اقاليم الكرة الارضية ولقد حتم رب العالمين القادر على كل شيء بانقضاء دولتهم . فيا ايها المصريون وقد يقال لكم انني مانزلت هذه الجهة الا بقصد ازالة دينكم فذلك كذب صريح لاتصدقوة وقولوا لاخوانكم انني ماقدمت اليكم الا لاخذ بحقكم من الظالمين وانني اكثر من المماليك عبادة لله سبحانه وتعالى واحتراماً لنبيه محمد « صلعم » وللقرآن العظيم . وقولوا لهم ايضاً ان جميع الناس شرع عند الله وان الذي يميز بعضهم عن بعض هو العقل والفضائل والعلوم . واي شيء في المماليك يميزهم عن غيرهم ويستوجب ان يكون لهم وحدهم كلما تجلب به الحياة الدنيا . فحيثما تكون ارض مخصبة فهي للمماليك ومثل ذلك احسن الجواري واكرم الخيل واجمل المساكن. فان كانوا قد اخذوا الارض المصرية التزاماً فليظهروا لنا الحجة التي كتبها لهم الله . ولكن رب العالمين رؤوف على الناس وبعونه تعالى من اليوم فصاعداً لايستثنى احد من اهالي مصر عن الدخول في المناصب السامية وعن اكتساب المراتب العالية فالعقلاء والفضلاء والعلماء بينهم يفوض اليهم تدبير الامور والمهام وبذلك تصلح حال الامة كلها في الاراضي المصرية كالمدن العظيمة والخلجان الواسعة والمتجر الواسع الذي اضاعه طمع المماليك وظلمهم . فياايها القضاة والمشايخ والائمة ويا ايها الشربجية واعيان البلاد قولوا لامتكم ان الفرنسويين هم ايضاً مسلمون مخلصون . واثباتاً لذلك قد نزلوا رومية الكبرى واخربوا فيها كرسي البابا الذي كان دائماً يحث النصارى على محاربة

المسلمين ثم قصدوا جزيرة مالطا وطردوا منها الكفاليرية الذين كانوا يزعمون ان الله تعالى يطلب منهم محاربة المسلمين . ومع ذلك فان الفرنسويين في كل وقت احباء حضرة سلطان العثمانيين واعداء اعدائه ايد الله ملكه وبعكسهم المماليك فانهم خرجوا عن طاعة السلطان غير ممتثلين لاوامره ولم يطيعوه الا عن طمع في قلوبهم كمين . فطوبى ثم طوبى لاهالي مصر الذين يتفقون معنا بلا تأخير فتصلح حالهم وترفع مراتبهم وطوبى للذين يقعدون في اما كنهم غير مائلين لاحد الفريقين المتحاربين. لكن الويل ثم الويل للذين يتحدون مع المماليك ويساعدونهم في الحرب علينا فلا يجدون طريق الخلاص ولا يبقي لهم اثر

« المادة الاولى . جميع القرى الواقعة في دائرة قريبة على مسافة ثلاث ساعات عن المواضع التي يمر بها العسكر الفرنساوي يجب ان ترسل للصاري عسكر بعض وكلاء من عندها لكي يعرفوا المشار اليه انهم اطاعوا وانهم نصبوا العلم الفرنساوي الذي هو ابيض وكحلي واحمر

« المادة الثانية . كل قرية تقوم على العساكر الفرنسوية تحرق بالنار

« المادة الثالثة . كل قرية تطيع العساكر الفرنسوية يجب عليها ان تنصب العلم الفرنساوي كذلك علم سلطان العثمانيين محبنا دام بقاؤه

« المادة الرابعة . على المشايخ في كل بلد ان يختموا حالاً جميع الارزاق والبيوت والاملاك خاصة المماليك وعليهم الاجتهاد الزائد لكي لايضيع ادنى شيء منها

« المادة الخامسة . يجب على المشايخ والقضاة والائمة ان يلازموا وظائفهم وعلى كل واحد من اهل البلد ان يبقى في مسكنه مطمئناً كذلك تقدم الصلاة في الجوامع على العادة . وعلى المصريين جميعاً ان يشكروا فضل الله سبحانه وتعالى على انقراض المماليك قائلين بصوت عال ادام الله اجلال سلطان العثمانيين . ادام الله اجلال العسكر الفرنسوي لعن المماليك واصلح حال الامة المصرية

« تحريراً في معسكر الاسكندرية في ١٣ شهر مسدور من السنة السابعة من الجمهورية الفرنساوية يعني اواخر شهر محرم سنة ١٢١٣ هـ » اهـ

زحف بونابرت على القاهرة

وامر بتوزيع هذا المنشور في البلاد المصرية . ثم فكر في امر التوجه الى القاهرة واخضاع سائر القطر . وكان من الاسكندرية الى القاهرة طريقان الواحد يمرُّ بدمنهور وهو طريق الصحراء على البر الغربي والثاني طريق رشيد في النيل . فراى الطريق

الثاني اصعب مسلكاً عليه لان رشيد كانت لاتزال في حوزة المماليك فاقرّ ان يسير عن طريق دمنهور في الصحراء وكان قد انفذ الجنرال ديزه عند استلام الاسكندرية ليسير في ذلك الطريق وارسل عمارة بحرية لتحتل رشيد ثم تتقدم في النيل لملاقاته في الرحمانية

وفي ٢٤ محرم سنة ١٢١٣ﻫ (٧ يوليو سنة١٧٩٨ م) برح بونابرت الاسكندرية في الساعة الخامسة مساء اتقاء الحر تاركاً كلابر فيها . وما زال سائراً بحملته الى منتصف الليل فنزلوا للراحة فرقدوا ساعتين ثم نهضوا وما زالوا يواصلون السير ليلاً ونهاراً وقد قاسوا عذاباً شديداً من قلة الماء حتى وصلوا دمنهور فوجدوا خيرات كثيرة وماءً غزيراً فمكثوا هناك يومين وليلتين . ثم شخصوا الى الرحمانية في صباح ٢٨ محرم سنة ١٢١٣ ﻫ (١١ يوليو سنة ١٧٩٨ م)

وفي اليوم الثاني من سيرهم لاقتهم شرذمة من الفرسان المماليك فجرت بين الفريقين مناوشة شفت عن انهزام المماليك وقد قتل منهم نحو خمسين فارساً . فواصل بونابرت سيره حتى وصل الرحمانية وقابل النيل فتواثب العساكر على مائه كأنهم ذئاب خاطفة فشربوا وتركوا خيولهم للمرعى . وعسكر بونابرت ومن معه طلباً للاستراحة على اثر ماقاسوه من مشاق السفر والعطش ريثما تصلهم العمارة البحرية التي بعثوها الى رشيد . وبعد ليلتين من مكوثهم هناك اتت العمارة وقد استولت على رشيد وجعلت فيها حاميه تحفظها . وكانت الجيوش قد استراحت فتأهبت للرحيل الى القاهرة فسارت المشاة والفرسان على الضفة الغربية حذاء النيل والى يسارها العمارة سائرة في النيل وما زالوا يجدون السير حتى اتوا محلة سلامة عند المساء فلم يمكنهم استطلاع حالة العدو تلك الليلة

خطة مراد بك في الدفاع

اما ما كان من امر مراد بك فلما عهد اليه المسير الى الاسكندرية كما تقدم جمع اليه فرسانه وقبل خروجهم من القاهرة صاروا يصادرون الناس ويأخذون مايحتاجون اليه بلا ثمن . ثم سار بهم الى الجسر الاسود في البر الغربي فمكث يومين ريثما تكامل العسكر وسناجقه وفيهم علي باشا الطرابلسي وناصيف باشا وكانا من اخصائه المقيمين معه في الجيزة . واخذ معه كثيراً من المدافع والبارود . وجعل الرجالة وهم اسراب من الالداشات والغليونجية والاروام والمغاربة حملة بحرية تسير في النيل على الغلايين الصغار التي انشأها هو

ولما برح الجسر الاسود ارسل الى مصر باشارة علي باشا الطرابلسي بأمر باصطناع سلسلة من الحديد في غاية الثخن والمتانة طولها مايه وثلاثون ذراعاً تنصب بعرض البوغاز عند برج مغيزل من البر الى البر لتمنع مراكب الفرنساويين من المرور وان يشاد عندها جسر من المراكب عليها المتاريس والمدافع ظناً منه ان الفرنساويين لايناهضون المصريين في البر ولا بد من قدومهم بحراً وانهم يطاولونهم ويصابرونهم في القتال حتى تأتيهم النجدات . وما زال مراد بك سائراً فيمن معه على ضفة النيل الغربية والى يمينه الغلايين وفيها من ذكرنا من الرجال قاصداً الجيوش الفرنساوية فوصل الى قرية شبرايس وعسكر هناك بفرسانه وارسل عمارته لملاقاة عمارة الفرنساويين فالتقت بها على مسافة قصيرة من منية سلامة وقد تجاوزت جنود البر بسبب الريح الشديدة التي طلعت عليها ذلك اليوم

التقاء الجيشين

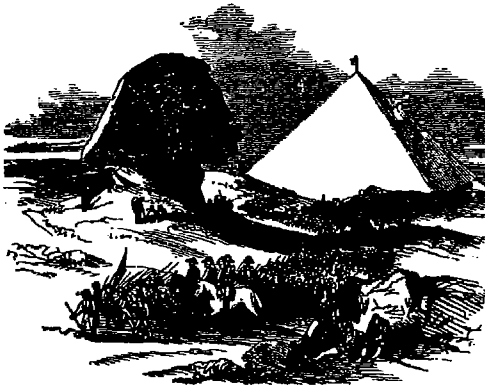
فبغت الفرنساويون لذلك الاتفاق فاطلقوا نارهم فاجابهم المماليك وكان على قيادة العمارة المصرية علي باشا الطرابلسي المتقدم ذكره فاحتدمت الحرب بين الفريقين وكادت تدور الدائرة على الفرنساويين وقد يئسوا لدخول عدة من مراكبهم في حوزة المماليك فارسل بيريه قائد العمارة الفرنساوية رسولاً يوصل الخبر الى بونابرت ليسرع الى امدادهم . ثم اتفق ان احدى قنابل الفرنساويين اصابت المركب الذي فيه زخائر المماليك فاحرقتها وتطايرت اجزاؤها في الفضاء فانذعر المماليك وخابت آمالهم . ثم وصل بونابرت بمن معه لخمد الاتفاق الذي نجى عمارتهم وامر ان تجعل عساكره مربعات منتظمة لملاقاة المماليك في البر ايضاً فالتقى الفريقان وبعد الاخذ والرد عاد المماليك على اعقابهم يطلبون النجاة وفر كل من كان في القرى المجاورة فدخلها الفرنساويون فلم يجدوا فيها احداً فواصلوا السير حتى اتوا وردان فعسكروا للاستراحة ثم بلغهم ان مراد بك ورجاله تحصنوا في امبابه مقابل القاهرة

وفي ٧ صفر سنة ١٢١٣ هـ خرج بونابرت من وردان بجيشه قاصداً القاهرة وما مشى يسيراً حتى ظهرت له الاهرام العظيمة وراء الافق. وما زال اهل القاهرة منذ سفر مراد بك لملاقاة الفرنساويين في اضطراب يجتمع علماؤهم وفقهاؤهم في الجامع الازهر يقدمون الصلوات والتضرعات الى الله ان ينصره على اعدائه ومثل ذلك كان يفعل القراء وتلامذة المدارس . اما باقي الاهلين فكانوا في اضطراب عظيم ولا سيما عندما كانوا يسمعون بتقهقر المماليك

معركة امبابة

اما ابراهيم فكان معسكرا في بولاق كما تقدم . فلما بلغه تقهقر مراد بك من شبرايس بمدافعه خابر رجال حكومته فاقروا على بناء الطوابي عليها المدافع من بولاق الى شوبرا تعزيزاً للقاهرة . اما سكان القاهرة فمن يسكن جاشهم وقد وقع في قلوبهم الرعب ؟ وكان مراد بك قد تحصن في امبابه على ان يقابل الفرنساويين هذه المرة بالمدافع وليس بالفرسان كما فعل في شبرايس . وفي صباح يوم السبت في ٨ صفر بلغ الفرنساويون الجسر الاسود ثم ام دينار . وفي صباح ٨ منه (٢١ يوليو) غادر الفرنساويون ام دينار ونزلوا على ميلين من امبابه في حقل من البطيخ . فكان النيل عن يسارهم والاهرام وسلسلة جبال ليبيا عن يمينهم وامبابه امامهم وفيها مراد وجنوده وعليهم الالبسة والدروع من الحديد المصقول تتلألأ في اشعة الشمس . والوان ملابسهم تزيدها رونقاً واصوات خيولهم قد ملات الفضاء

ونظر بونابرت الى معسكر العدو فرآه حصيناً وفي مقدمته اربعون مدفعاً معدة لاطلاق القنابل على الفرنساويين عند اول حركة يتحركونها نحوهم .فالتفت الى رجاله واشار الى الاهرام قائلاً « اعلموا ان خمسين جيلاً من الناس تنظر اليكم من قمم هذه الاهرام وتراقب حركاتكم تنظر ما يأول اليه امركم مع هؤلاء المماليك »


ش ٣٧ : الجيوش الفرنساوية بجوار الاهرام

وترى شكل ٣٧ الجيوش الفرنساوية بجوار اهرام الجيزه

ثم امر فرقة الجنرال ديزه ان تتقدم نحو اليمين والفرق الاخرى نحو اليسار تجنباً لنيران تلك المدافع . فادرك مراد بك مرادهم من هذه الحركات فامر ايوب بك الدفتردار ان يطلق القنابل على فرقه الجنرال ديزه ويوقفها عن المسير . فوقفت على شكل مربع تنتظر هجوم المماليك فهجم ايوب بك هجمة الاسود وتبعته السناجق بالسيوف فلاقاه مربع ديزه بنار كالصواعق المتساقطة فلم ينفك ايوب بك هاجماً وهو ينادي باعلى صوته « ويل لكم ايها الكفار الملاعين قد ساقتكم كبرياؤكم الى ارضنا مهلا اننا سنملا القبور باجسادكم

. نجعل هذا اليوم يوماً تذكره اعقابكم من بعدكم . اما نحن فاذا مت احدنا فانه يذهب شهيداً الى النعيم والذي يبقى حياً فله السعادة الى آخر ايامه »

هجمت الفرق الفرنساوية من على اليسار واشتد القتال وما زالت الحرب سجالاً حتى تقهقر المماليك وقتل ايوب بك وفر مراد بك بمن بقي من رجاله قاصداً الصعيد واستولى الفرنساويون على امبابه

خوف اهل القاهرة

فلما اتصلت تلك الاخبار بالقاهرة ضجت العامة وكثرت الغوغاء من الرعية واخلاط الناس بالصياح منادين « يا رب يا لطيف يا رجال‌الله » كأنهم يقاتلون ويحاربون بصياحهم وجلبتهم والعقلاء منهم ينادونهم ان يتركوا ذلك الصياح قائلين « ان الصحابة والمجاهدين انما كانوا يقاتلون بالسيف والحراب وضرب الرقاب لا برفع الاصوات والصراخ والنباح » فكانوا لا يسمعون ولا يرجعون

ثم ركبت طائفة من الامراء والاجناد من المعسكر الشرقي في بولاق وفيهم ابراهيم بك وشرعوا في التعدية امداداً لمراد فتزاحموا على المعادي لان التعدية من محل واحد والمراكب قليلة فلم يصلوا الى البر الثاني حتى وقعت الهزيمة على المحاربين وريح النكباء يشتدُّ هبوبها وامواج البحر في قوة اضطرابها والرمال يعلو غبارها وتنسفها الريح في وجوه المصريين فلم يستطع احدهم ان يفتح عينيه من شدة الغبار . وكان ذلك من اعظم اسباب الهزيمة حتى خيل للناس ان الارض زلزلت والسماء ساقطة عليها . والهزيمة مع ذلك متواصلة حتى انهزم ابراهيم بك وبكير باشا . وجعل اهالي المدينة يأخذون ماخفَّ حمله وغلا ثمنه ويفرون من وجه الموت جنوباً وشرقاً الى الصعيد او الى السويس وبلبيس . اما ابراهيم بك فسار نحو الشرق . كل ذلك ظناً منهم ان الفرنساويين قد عدوا الى البر الشرقي ولاسيما عند ما راوا الدخان يتصاعد من جهة بولاق وقيل لهم ان الفرنساويين قد احرقوها وجاؤا ليحرقوا المدينة وينهبوا ويفتكوا

وفد العلماء الى بونابرت

ولما اصبح القوم تبين لهم ان الفرنساويين لا يزالون في البر الغربي فاجتمع المشائخ والعلماء في الازهر وتشاوروا في ما يفعلونه واقروا على مخابرة الفرنساوية للتفاهم في ما يأول اليه امرهم . فبعثوا وفداً ينوب عنهم في ذلك فاغتنم بونابرت تلك الفرصة واجابهم بخطاب فحواه « اننا ما حضرنا الا بقصد ازالة المماليك الذين يعاملون الفرنساوية بالذل والاحتقار واخذ مال التجار ومال السلطان . ولما حضرنا الى البر

الغربي خرجوا الينا فقابلناهم بما يستحقونهُ وقتلنا بعضهم وامرنا آخرين ونحن في طلبهم حتى لا يبقى احد منهم بالقطر المصري . وأما المشائخ والعلماء وأصحاب المراتب والرعية فيكونون مطمئنين في مساكنهم »

ثم قال « فليأت الينا المشائخ لنؤلف لهم ديواناً ننتخبه من عشرة اشخاص عقلاء يدبرون الامور »

فلما عاد الوفد الى المشائخ وبلغوهم ما قاله بونابرت اطمأنوا وركب جماعة منهم الى معسكر بونابرت في الجيزة فتلقاهم بالترحاب وطمأنهم وطلب اليهم ان يستدعوا كبارهم ليؤلف منهم ديواناً

الديوان العمومي

ثم دخل بونابرت القاهرة وجمع المشائخ وطلب اليهم ان ينتخبوا منهم عشرة اشخاص فوقع الانتخاب على الاسماء الآتية :

الشيخ عبد الله الشرقاوي	الشيخ موسى السرسي
« خليل البكري	« مصطفى الدمنهوري
« مصطفى الصاوي	« احمد العريشي
« سليمان الفيومي	« يوسف الشبرخيتي
« محمد المهدي الكبير	« محمد الدواخلي

هؤلاء العشرة هم اعضاء الديوان الوطني . وبعد ان تم انتخابهم انتخبوا رئيساً عليهم منهم بالقرعة فوقع الانتخاب على الشيخ عبد الله الشرقاوي

واحتفل بونابرت بافتتاح الديوان وبالغ في اكرام اعضائه وامر بعض المصورين فصوروهم كل واحد على حدة ولا تزال هذه الصور محفوظة في معرض فرسايل . وترى في ما يلي نسخاً من بعضها . وهو اول ديوان وطني تألف بمصر — لم ينتخبه الشعب لان الشعب لم يكن له ذكر ولكن العلماء انتخبوه وهم نواب الشعب بحكم العرف فكان ذلك فاتحة السلطة النيابية الانتخابية

واعضاء هذا المجلس هم خيرة علماء مصر في ذلك العصر : فالشيخ عبد الله الشرقاوي هو ابن ابراهيم الشافعي الازهري الشهير بالشرقاوي ولد سنة ١١٥٠هـ وتربى بالقرين ثم نقل الى الازهر وقرا على اعلم مشائخ عصره في الازهر وغيره وله مؤلفات اسلامية مفيدة منها الحاشية على التحرير ومتن العقائد وشرحها وشروح ومختصرات



ش ٣٨ : الشيخ عبد الله الشرقاوي

كثيرة في الفقه واللغة والتاريخ . وكان في صباه في قلة من العيش ثم اتسعت حاله بالهدايا التي كانت تأتيه من بعض التجار . ولما مات الشيخ العروسي تولى بعده مشيخة الجامع الازهر ووقع بينه وبين والي مصر اختلاف وتغاضبا حيناً ثم تصالحا بشرط ان يلزم الشرقاوي داره فلما جاء بونابرت الى مصر سنة ١٢١٣ هـ والف الديوان الذي نحن في صدده جعله رئيساً عليه . واكتسب في ايام الفرنساويين مالاً كثيرة فاتسعت عليه الدنيا فاشترى الابنية والقصور والحمامات والحوانيت حتى توفي سنة ١٢٢٧ هـ

والسيد خليل البكري من سلالة ابي بكر الصديق وتولى نقابة الاشراف بمصر ومشيخة السجادة . وتأيد منصبه بها بعد مجيء بونابرت فاستولى على اوقافها وانتخبوه من جملة اعضاء الديوان كما رأيت . وكان وافر الحرمة مقبول الشفاعة عندهم فكان امراء المماليك الهاربون يوسطونه لدى الفرنسوية في العفو عنهم . ولما خرج الفرنساويون عادت نقابة الاشراف الى السيد عمر مكرم . وتوفي سنة ١٢٢٣ هـ

والشيخ المهدي الكبير يختلف في نسبه عن سائر اولئك العلماء فقد ولد قبطياً وابوه اسمه ابيفانيوس فضل الله . ولما ولد سمي هبة الله وكان ابوه كاتباً في بيت سليمان كاشف او مباشراً لاموره ولما ترعرع هبة الله اعجب به الكشف واحب ان يجعله



ش ٣٩ : السيد خليل البكري

من ضمن مماليكه ولم يكن له ميل الى العسكرية فادخله في مصاف طلبة الازهر ولم يكن يقبل فيه غير المسلمين فاعتنق الاسلام وسمي محمد المهدي وكان زكياً فما زال يرتقي حتى صار من كبار العلماء والفقهاء ودرس في الازهر والف كتباً كثيرة ونال حظاً من الوجهاء واتسعت حاله ونال الاقطاعات والهدايا من الكشاف وغيرهم فبنى الدور واقتنى الخدم وشارك في التجارات حتى اصبح من اهل الثروة. ولما دخلت الفرنساوية مصر قربوه وسايرهم في اغراضهم ووثقوا بقوله فكان موضع ثقتهم الواسطة العظمى بينهم وبين الناس حتى لقبوه كاتم السر ولما رتبوا الديوان انتخب من اعضائه وصار اليه النفوذ الاكبر وله تاريخ طويل لا محل له هنا

والشيخ سليمان الفيومي اصله من الفيوم . اتى الى مصر وهو رقيق الحال وتلقى العلم في الازهر وتقرب من الامراء المماليك لحسن انشاده وقراءة الاشعار . وتقرب من بعض الامراء البرقوقية وتعرف الى الاغوات وتوسط بهم الى التوكل بالقضايا والدعاوي واكتسب الاموال الطائلة وتحسنت حاله فتجمل بالملابس وركب البغال وتعين استاذاً في الازهر برواق الفيمة وكان للامراء المماليك ثقة فيه فانفذوه بمهمة خصوصية الى الاستانة . ولما عاد الى مصر توالت عليه الهدايا من الامراء والاعيان وغيرهم فاتسعت حاله وصار منزله ملجأ للناس على اختلاف الطبقات. ولما دخلت



ش ٤٠ : الشيخ محمد المهدي الكبير

الفرنساوية مصر وهرب الامراء جاءت نساؤهم الى دار الشيخ الفيومي ووسطوه فدافع عنهن لدى الفرنساوية وتوسط في العفو عن بعض رجالهن وكان في جملة من تعينوا في الديوان كما رأيت



ش ٤١ : الشيخ سليمان الفيومي

الديوان الخصوصي

على ان الفرنساويين شعروا ان هذا الديوان لا يمثل كل عناصر الامة وطبقاتها فعمدوا الى تشكيل مجلس عام يؤلف من الطوائف القاطنة في مصر على اختلاف عناصرها وطبقاتها ومذاهبها . ومتى اجتمعوا ينتخبون من بينهم ديواناً يسمى الديوان الخصوصي او الديوان الدئومي اي يشتغل دائماً والديوان الآخر يجتمع عند الاقتضاء. فنشروا منشوراً على اهل القطر طلبوا فيه الى اعيان البلاد من المشائخ والتجار واهل الوجاهة من كل الطوائف والملل ان يحضروا الى دار الحكومة . فجاء كثيرون وانتخبوا منهم ستين شخصاً ممن ثبتت لهم صفة تميزهم عن العامة بالعلم او الثروة اوغيرهما وهذه اسماؤهم باعتبار طوائفهم :

مشايخ وعلماء : السيد البكري . السيد الدمرداشي . السيد حسين رفاعي . الشيخ عبد الله الشرقاوي . الشيخ محمد المهدي . الشيخ مصطفى الصاوي . الشيخ موسى السرسي . الشيخ محمد الامير . الشيخ سليمان الفيومي . الشيخ احمد العريشي . الشيخ ابراهيم بن المفتي . الشيخ صالح الحنبلي . الشيخ محمد الدواخلي . الشيخ مصطفى الدمنهوري

وجاقلية : محمد اغا شوربجي فلاح . علي كخيا الجدلي . خليل اغا شوربجي فلاح . احمد ذو الفقار اوطه باشي فلاح

انكشارية : يوسف شوربجي باش جاويش توزنكجيان . يوسف شوربجي باش جاويش جمليان . مصطفى افندي شرا كسة . امير سليم شرابجي

عرب : مصطفى افندي عاصي . مصطفى كخيا باش اختيار . حسن شوربجي بركاوي

تجار الغورية : الحاج محمد الاشوبي شيخ الغورية . الحاج محمد ابو النصر . الحاج سيد شيخ المغاربة

تجار البهار : الحاج احمد محرم . الحاج احمد المحروقي . ابراهيم افندي . قاضي البهار الحاج حسين جار ابراهيم . المعلم ميخائيل كحيل . المعلم يوسف فرحات . الحاج احمد حسين

تجار البضايع التركية : السيد احمد العقاد المحروقي . الحاج مصطفى شيخ العقادين الحاج احمد القازانجي

تجار العطور : السيد محمد شيخ العطارين

تجار السكر : درويش عبد القاهر البغدادلي . ابراهيم قرموط . محمد همشري

تجار النحاس : السيد مصطفى مصباح . الحاج حسين النحاس
صياغ وجوهرجية : الحاج سالم الجوهرجي . محمد البغدادلي
تجار ورق : علي بن الحاج خليل الوراق
تجار اقمشة : الحاج ابراهيم المصري . علي الصلانجي شيخ القهاحين
تجار صابون : السيد احمد زرو . سيد يوسف نخر الدين
تجار دخان واقمشة سورية : احمد نظام
مشايخ الاقسام : شيخ جزاري الحسينية . شيخ العطوف
الاقباط : المعلم لطف الله المصري . المعلم ابراهيم جر العايط . المعلم ابراهيم مقار . ابراهيم كاتب الصرة
الفرنساويون : دلمار . وكاف . وبوديف

هؤلاء اعضاء المجلس العام او الديوان العام وهو منتخب من اعيان البلاد . وقد اصدروا بتعيينه امراً رسمياً مؤرخاً في رجب سنة ١٢١٣ ﻫ واشترطوا في ذلك الامر ان يكون في الديوان المذكور مندوب فرنساوي اسمه جلوتيه ومندوب مسلم اسمه ذو الفقار كخيا وان يجتمعوا في يوم عينه في الامر المومأ اليه لينتخبوا منهم ديواناً مؤلفاً من ١٤ عضواً يسمى « الديوان الخصوصي » ويكون الانتخاب بالقرعة وبالاكثرية المطلقة . وعين لاجتماع الديوان الكبير ثلاثة ايام متوالية ثم لايجتمع الا عند الحاجة . ومتى تم انتخاب الديوان الخصوصي يصادق عليه السر عسكر (بونابرت) . ثم ينتخب له رئيس يوالي اجتماعاته كل يوم لمساعدة الحكومة في النظر في مصلحة الوطنيين . ويعين له كاتب وترجمان ومحضر وعشرة حجاب يقومون بخدمته . وختم الامر بتعيين رواتب اعضاء المجلس الخصوصي واتباعهم وهي مائة ريال في الشهر للرئيس وثمانون ريالا لكل عضو . وللمحضر ٦٠ بارة في اليوم وللحاجب ٤٠ بارة

فاجتمع الديوان العام المشار اليه وانتخب من اعضائه ١٤ عضواً يتألف منهم الديوان الخصوصي وهو غير الذي تقدم ذكره . فان هذا لم يكن فيه من المشايخ الا الشرقاوي والمهدي والصاوي والبكري والفيومي . وباقي الاعضاء من سائر الطوائف على هذه الصورة . من التجار المحروقي واحمد محرم ومن النصارى القبط لطف الله المصري ومن السوريين يوسف فرحات وميخائيل كحيل ومن الانكليز « رواحة » ومن الفرنساويين بودني وموس . فهو مجلس وطني مختلط تشكل من نواب يمثلون اهم العناصر التي تتألف منها الامة المصرية — بعضهم من الوطنيين الاصليين المسلمين

والاقباط والبعض الآخر من الجالية السورية والافرنجيـة . فهو كثير الشبه بالمجلس النيابي الذي اشار اللورد كرومر بتشكيله من العناصر التي تتألف منها الامـة المصرية الآن وجعل ذلك شرطاً لاستقلالها ونجاحها



ش ٤٢ : الديوان الخصوصي
اول مجلس شوروي وطني في مصر انشأه بونابرت سنة ١٧٩٨

ولما تم تأليف المجلس الخصوصي على هذه الصورة كتب بونابرت بذلك مناشير علقوها في الاسواق ضمنها التهديد المشوب بالتزلف مثل سائر منشوراته بمصر . وقد صوروا هذا الديوان في احدى جلساته وفيه بونابرت قاعداً على دكة والعلم الفرنساوي بجانبه وقد قعد الاعضاء بين يديه وفيهم الكاتب والترجمان والمحضر وبعض الحجاب كما ترى في الشكل ٤٢

واخذ الديوان المذكور يوالي اجتماعاته ولا يبرم بونابرت امراً مهما بمصر الا شاوره واخذ رأيه فيه وانما كان شغله بالاكثر النظر في المسائل الوطنية . فالديوان الخصوصي هذا خطوة اخرى نحو السلطة النيابية في مصر لانه منتخب من وجهاء البلاد من كل الطوائف واذا لم تشترك العامة في انتخابه فالانتخاب حتى في الحكومات الدستورية اليوم يتم بالحقيقة على ايدي الوجهاء والخاصة الذين تنتخبهم العامة

وشكل الفرنساوية مجلساً آخر او ديواناً سموه محكمة القضايا موءلفاً من ١٢ عضواً ستة من الاقباط وستة من التجار المسلمين وجعلوا قاضيه الاكبر اورئيسه المعلم ملطي القبطي وفوضوا اليه النظر في القضايا التي تقع بين التجار والعامة وفي المواريث ونحوها فهو شبيه بمحكمة اهلية مختلطة . وكانت تلك القضايا تنظر الى ذلك الحين في المحاكم الشرعية . فكان بونابرت اول من اسس المحاكم النظامية بمصر

نزول الفرنساويين القاهرة

وفي يوم الثلاثاء ١١ صفر عدت الجيوش الفرنساوية الى القاهرة ونزل بونابرت في بيت محمد بك الالفي واخذت العساكر الذين دخلوا القاهرة من الفرنساويين يعاملون الباعة باللين ويبتاعون ما يحتاجون اليه ويدفعون فيه ثمناً غالياً فاحبتهم الناس وارتاحوا اليهم

ثم اخذت العساكر الفرنساوية تعدي للبر الشرقي شيئاً فشيئاً حتى كثر عددهم في القاهرة فامتلأت منهم الاسواق وسكنوا في البيوت ولكنهم لم يشوشوا على احد وكانوا يأخذون مايحتاجون اليه بزيادة في الثمن ففجر السوقة وصغروا اقراص الخبز وطحنوا الحنطة بترابها وكثرت باعة المأكولات وفتح الاروام عدة حوانيت لبيع الاشربة وحانات وقهوات وفتح بعض الافرنج المتوطنين بيوتاً لصنع الاطعمة والاشربة على النمط الافرنجي (اي لوكاندات افرنجية ولم يكن ذلك معروفاً في مصر الى ذلك العهد ولذلك وصفها الموءرخ عبد الرحمن الجبرتي كأنها شيء جديد دخل عليهم فقال « وفتحوا بيوتاً لصنع الاطعمة والاشربة على طرائقهم في بلادهم وجعلوا على ابوابها علامات يعرفونها بينهم فاذا مرت طائفة تريد الاكل بذلك المكان دخلوه وهو يشتمل على عدة مجالس بين دون وعال ووسط وعلى كل مجلس علامة ومقدار الدراهم التي يدفعها الداخل . وفي تلك المجالس موائد من الخشب عليها الطعام وحولها الكراسي فيجلسون اليها ويأتيهم الفراشون بالطعام على قوانينهم فياكلون ويشربون على نسق لا يتعدونه ثم يدفعون ما وجب عليهم من غير نقص ولا زيادة ويذهبون لحالهم »

وفي اليوم السبت ١٥ صفر سنة ١٢١٣ اجتمع الديوان المتقدم ذكره وتباحث في احتياجه الى النقود فقرر استدانة خمسمائة الف ريال من التجار المسلمين والنصارى والقبط والسوريين والافرنج واخذوا في تحصيلها وقرروا ان ينادى في الاسواق ان من اخذ شيئاً من نهب البيوت عليه ان يحضر به الى بيت القائمقام وان لم يفعل وظهر بعد ذلك يشتد عقابه . وان ينادى على نساء الامراء والبكوات بالامان وان يسكن بيوتهن وان كان عندهن شيء من امتعة ازواجهن يصالحن على انفسهن . فجاء كثيرات منهن وصالحن ودفعن مبالغ عظيمة

وفي يوم الاحد في ١٦ منه طلب بونابرت الخيول والجمال والاسلحة فجمعوا شيئاً كثيراً منها وكذلك الابقار والثيران واشاعوا التفتيش وكسروا عدة دكاكين بسوق السلاح وغيره واخرجوا ما وجدوه فيها من الاسلحة واخرجوا كثيراً من الخبايا والودائع بواسطة البنائين والمهندسين والخدم الذين يعرفون بيوت اسيادهم . فكانوا يطلعونهم على اماكن الخبايا ومواضع المدافن تقرباً من الفرنساويين . وفي ذلك اليوم قبضوا على شيخ الجعيدية « الرعاع » ورموه بالرصاص ببركة الازبكية مع رفيق له ثم قبضوا على آخرين في الرميلة فخاف الناس وصار يأتي الذين عندهم منهوبات ويقدمونها للديوان

وفي يوم الثلاثاء ١٨ منه طلبوا اهل الحرف والتجار وضربوا عليهم مالاً على سبيل القرض لم يستطيعوا دفعه فامهلوهم ستين يوماً لدفعه فاستغاثوا وذهبوا الى الجامع الازهر والمشهد الحسيني واستشفعوا المشايخ فتكلموا بامرهم امام الديوان فلطف المطلوب الى نصفه ووسعوا لهم في الاجل . وكان بكل عطفة او حارة من عطف القاهرة وحاراتها باب كبير مصفح بالحديد يقفل ليلاً . فامر بونابرت بنزع ابواب الدروب والعطف والحارات واستمروا في ذلك عدة ايام فخاف الناس وكثرت ظنونهم في المقصود من تلك الاعمال . فظن بعضهم ان الفرنساويين عازمون على قتل المسلمين وهم في صلاة الجمعة وقال آخرون غير ذلك . وكان في القاهرة دار لضرب النقود تضربها باسم السلطان فامر بونابرت ان يستمر الضرب كما كان وعهد ذلك الى احد رجاله . وكان في نيته انشاء بريد (بوسطة) بين مصر والاسكندرية لكنه لم يستطع ذلك لكثرة الاخطار التي تحيط برسل البريد في اثناء الطريق

وفي ٢٠ منه وردت الى الديوان كتب من قافلة الحج بالعقبة فذهب ارباب الديوان الى السر عسكر بونابرت واعلموه بذلك وطلبوا منه اماناً لامير الحج فامتنع

لئلا يكون في كثرة من الحجاج فيحدث ما يكدر الراحة . وقال « لا اعطيه ذلك الا اذا جاء في قلة ولا يدخل معه المماليك » فقالوا « ومن يخفر الحجاج » قال انا ارسل لهم من عساكري اربعة آلاف يوصلونهم الى مصر » فكتبوا الى امير الحج كتاباً لطيفاً واوعزوا اليه ان يحضر بمن معه الى الدار الحمراء وانه متى وصل الى هناك يدبرون ما فيه الخير . فلم يصله ذلك الكتاب حتى خابره ابراهيم بك وكان في بلبيس يطلب اليه ان يوافيه الى هناك حالاً . فسار الى بلبيس فعلم بونابرت باقامة ابراهيم بك في بلبيس فارسل اليه فرقة من جيوشه تحت قيادة الجنرال لاكلارك فسار وعسكر في الخانقاه وراء المطرية ومكث هناك يومين ولم يصادف اقلّ مقاومة

وفي اليوم الثالث هجم عليه وعلى رجاله قبائل من العرب بينهم عدد كبير من المماليك وبعد محاربة شديدة تقهقرت الجيوش الفرنساوية نحو القاهرة لعجز خيولهم فعلم الجنرال مورات بذلك فاستمد بونابرت فامده فاجتمعت الجيوش الفرنساوية ثانية الى الخانقاه وتبعهم بونابرت بنفسه خيفة ان يكونوا في ارتباك فينكسروا وتعود العائدة عليهم فاتحدت جميع الجيوش الفرنساوية في الخانقاه وساروا جميعاً في اثر العربان والمماليك حتى الصالحية وهناك كان ابراهيم بك بمن معه ثم علموا انه ترك الصالحية فاراً نحو سوريا ملتجئاً الى الجزار في عكا وانضم كثيرون من رجاله الى عسكر الفرنساويين وسلمت الصالحية بمن فيها

واقعة ابي قير

فلما رأى بونابرت ذلك اسرع بالعود الى القاهرة . وبينما هو في الطريق قابله رسول بكتاب مفضوض فتلاه فاذا به خبر قدوم عمارة نلسون الانكليزية الى الاسكندرية وحصول واقعة كبيرة في ابي قير شفت عن تحطم العمارة الفرنسارية برمتها . فانذعر لذلك الخبر ولكنه تجلد وقال لاركان حربه وكان قد فض الكتاب وتلاه قبله « دع هذا الخبر في سرك الآن لنرى ماذا يأتي به الغد »

وتفصيل تلك الواقعة ان نلسون بعد ان برح الاسكندرية علم بقدوم الفرنساويين اليها ودخولهم القطر المصري فعاد بعمارته ثم جاء الاسكندرية في ١٩ صفر سنة ١٢١٣هـ (أول اغسطس سنة ١٧٩٨ م) وكانت العمارة الفرنساوية راسية في جون ابي قير على خط واحد مستقيم من الشمال الغربي الى الجنوب الشرقي تحت قيادة الاميرال برويس وكانت قد ارسلت في ذلك الصباح خمسة وعشرين نفراً من كل دارعة من دوارعها الى البر لخفر الفعلة المرسلين لاحتفار الآبار . فلما استكشفوا العمارة الانكليزية نادوا

بالرجال ان يعودوا الى المراكب

ثم تداول الاميرال برويس مع ضباطه في كيف يقابلون العمارة الانكليزية فاشاروا عليه ان يخرج من الجون ويستقبلها في ظهر البحر فاصر على بقائه في مكانه لان عدد رجاله لا يسمح له بقبول مشورتهم فبقيت العمارة في الجون بانتظار الانكليز



ش ٤٣ : الاميرال نلسن

أما نلسون فكان منذ عام باحتلال الفرنساويين مصر وهو يعمل فكرته في كيفية ملاقاتهم . فلما صار على مشهد من عمارتهم فكر في احسن اسلوب يأخذهم به فاقرّ على ان يرسل قسماً من مراكبه يدخل بين سفن الفرنساويين والبر والقسم الآخر يأتيهم من الامام فيجعلهم هدفاً لنارين حاميتين وكان عالماً بما يحيط بهذا العمل من الخطر لكنه كان ممن يستسهلون الصعب . فسارت بعض مراكبه من وراء الفرنساويين بينهم وبين البر وتقدمت بقية المراكب من الامام وكانت الشمس قد مالت الى الغروب وابتدأ نلسون باطلاق المدافع فاجابه الفرنساويون بنار مثل ناره . وبعد ١٢ دقيقة انكسرت دارعة فرنساوية ثم انكسرت دارعتان اخريان ولم يأت العشاء حتى استولى الانكليز على عدة دوارع فرنساوية غير التي كسرت

وكان الاميرال برويس عَلَى الدراعة « الشرق » ذات المائة والعشرين مدفعاً وعليها نحو الف رجل . وكان نلسون من الجهة الاخرى عَلَى احدى دوارعه يراقب حركات الفرنساويين و يعطي الاوامر فاصابته رصاصة في جبهته فوق احدى عينيه فتدلى الجلد حتى غشى بصره فرفعه بيده غير مبال وهو ينظر الى ما يكون من حركات الدوارع وكان بجانبه احد ضباطه فامسكه بيده فانتبه كانه كان في غفلة وناداه قائلاً « قد قتلت فارجو ان تذكرني امام امرائي »

وحملوه الى غرفته واحاط به الاطباء و بعد ان كشفوا عن جروحه طيبوا خاطره وطمأنوه ان الجرح لا يؤذن بالخطر السريع اما هو فلم يكن ينتظر الشفاء ولكنه مع ذلك لم يشغل عن اصدار الاوامر الى ضباط الدوارع وكان يتتبع حركاتها وهو عَلَى فراشه . ثم ضمدوا جرحه وهو يخاطب كاتب سره ان يكتب حالاً لنظارة البحرية في لندن عن هذه المعركة . فلم يستطع احد من الحضور ان يمسك القلم من شد التأثر فاخذ نلسون قلماً وكتب ما اوتيه من النصر

اما الاميرال برويس فأصيب اولاً ببعض الجراح ثم اصابته قنبلة قطعت احشاءه فسقط عَلَى الارض فارادوا حمله الى اسفل الدارعة فاشار ان يتركوه يفارق الحياة عَلَى ظهرها فتركوه . وبعد العشاء بيسير اصاب « الشرق » الدارعة الفرنساوية العظيمة احتراق تطرق الى جارتها فبلغ ذلك الاميرال نلسون فطلب ان يحملوه الى ظهر دراعته ليشاهد ذلك فحملوه . فلما راى تلك المشاهد تأثر منها كثيراً فامر ان يسير احد الضباط في سرب من العساكر لمساعدة الفرنساويين في انقاذ الدارعة « الشرق » من الحريق ولم ينج من رجالها الا القليل . واشتد الحريق حتى رآه اهل الاسكندرية ورشيد . وما زال الاطلاق متواصلاً والاضطراب متسلطاً الى ظهيرة اليوم التالي وقد فاز الانكليز فوزاً مبيناً

وكان كلابر ورجاله في الاسكندرية باثناء المعركة في خوف واضطراب وكانوا جميعاً تحت السلاح . وفي الصباح وردت لهم الاخبار بانكسار العمارة الفرنساوية . ثم جاءت مكاتبات اخرى ان اسرى الفرنساويين وجرحاهم محفوظون بكل اكرام عند الانكليز وفي نية نلسون ان يبعث بهم الى البر يقيمون في المستشفيات تحت معاينة بعض اطبائه . فلما وصل خبر انكسار الفرنساويين الى رشيد والاسكندرية خاف الفرنساويون وانحط قدرهم في اعين الوطنيين . واضطر الرشيديون منهم الى مواصلة المخابرة مع الاسكندرانيين فاقاموا قافلة تنقل البرد وفيها الكتب والرسائل والاخبار لاجل المفاوضة في امر الدفاع اذا اراد الانكليز محاربتهم . فكتب كلابر الى بونابرت

بواقعة الحال وما انتهت اليه العمارة الفرنساوية فوصله الكتاب في اثناء عوده من الصالحية كما مر بك . اما العمارة الانكليزية فاقلعت عن الاسكندرية

فسار بونابرت حتى اتى بلبيس فرأى ضباطه واركان حربه على المائدة صباحاً فرحين بانتصارهم على المماليك في الصالحية لا يعلمون بشيء من واقعة ابي قير فقال لهم ضاحكاً « افرحوا ولتنشرح صدوركم واجتهدوا ان تعتادوا على هواء هذا الاقليم فاننا اصبحنا لا مراكب لدينا تنقلنا الى اوربا » فاضطربت قلوبهم عند ذلك فطلب اليهم ان لا يذيعوا الخبر ثم ساروا حتى وصلوا القاهرة مساء الخميس ٤ ربيع اول

فتح الخليج والمولد النبوي

وفي اليوم التالي كان يوم وفاء النيل (١٣ مسري) فامر بونابرت ان يحتفل بفتح الخليج كالعادة فزينوا عدة غلايين (مراكب) ونادوا في الناس الخروج للنزهة في النيل والمقياس والروضة على عادتهم . وارسل بونابرت دعوة رسمية الى كخيا الباشا والى القاضي وارباب الديوان واصحاب الشورى وارباب المناصب وغيرهم للحضور في صبحها وركب هو معهم في موكبه وزينته وعساكره وطبوله وزموره الى قنطرة السد وكسروا الجسر بحضورهم واطلقوا المدافع اطلاقاً متوالياً واحرقوا النفوط حتى جرى الماء في الخليج ثم ركب وهم معه حتى اتى الى داره . اما اهل المدينة فلم يخرج منهم تلك الليلة للنزهة في المراكب كالعادة الا الافرنج والسوريون والقبط وقليلون غيرهم

ثم جاء المولد النبوي ولم يكن في نية العلماء الاحتفال به فاستفهم بونابرت عن سبب ذلك فاعتذر الشيخ البكري بتوقف الاحوال وتعطل الامور وعدم امكانهم القيام بما يقتضيه ذلك الاحتفال من النفقات . فقال لا بدّ من الاحتفال كالعادة ودفع في الحال ثلثمائة ريال فرنساوي وامر بتعليق قناديل واحمال وتعاليق واجتمع الفرنساويون يوم المولد ولعبوا ميادينهم وضربوا طبولهم وارسل بونابرت طبلخانته الكبري (الموسيقى) الى بيت الشيخ البكري واستمروا يضربونها طول الليل والنهار بالبركة تحت داره واحرقوا في اثناء الليل نفوطاً وشواريخ كثيرة . وفي ذلك اليوم البس الشيخ خليل البكري فروة وتقلد نقابة الاشراف ونودي في المدينة بان كل من كان له دعوى على شريف فليرفعها الى النقيب

ثم جاء يوم احتفال الفرنساويين بجمهوريتهم للسنة السابعة فاحتفلوا به غاية الاحتفال وشخصوا فيه معركة امبابه وانكسار المماليك ونصبوا شجرة الحرية فدهش منها الوطنيون ولم يكونوا يفهمون المقصود بها . ثم ارسل بونابرت مندوباً ينصب العلم الفرنساوي ذي الثلاثة الالوان على قمة احد الاهرام العظمى وحفروا هناك اسماء الضباط الذي قتلوا في واقعة امبابه

قتل السيد محمد كريم

قد تقدم ان السيد محمد كريم بقي في الاسكندرية كما كان فيها قبل مجيء الفرنساويين . وقبل واقعة ابي قير بيسير عثر الفرنساويين عَلَى كتاب مرسل من محمد كريم المذكور الى مراد بك يتواطأ معه عَلَى تسليم الاسكندرية . فاستحضر الى القاهرة فحكم عليه ان يدفع ثلاثمائة الف فرنك غرامة عَلَى خيانته وانه اذا لم يدفع المبلغ في خمسة أيام يقطع راسه . فقال له التراجمة « انت رجل غني فافد نفسك بهذا المبلغ » فتبسم وقال « لا لا ادفع شيئاً لاني اذا قدر لي الموت لا يدفع الدفع مقدوراً واذا قدرت لي الحياة فانا حيٌّ بلا دفع » . ثم استحضر وسئل عن تلك الخيانة فانكر فابرزوا له الكتاب فافحم فارسله بونابرت الى شيخ البلد فطلب العلماء من بونابرت ان يعفو عنه فاطلعهم عَلَى كتابه واصرَّ عَلَى قتله وما انفك حتى اذاقه الموت وطوف راسه بالمدينة مكتوباً فيه « هذا جزاء الخائن »

الشارة الفرنساوية او الجوكار

وفي ٢٠ منه استدعى بونابرت مشائخ القاهرة وعلماءها الى بيته فلما استقر بهم الجلوس خرج ثم عاد وبيده طيالسة ملونة بثلاثة الوان كل طيلسان ثلاثة عروض ابيض واحمر وكحلي فوضع واحداً منها عَلَى كتف الشيخ الشرقاوي رئيس الديوان . فرمى به الى الارض واستعفى وتغير مزاجه واخذ منه الغيظ مأخذاً عظيماً . فقال الترجمان الذي كان مرافقاً لبونابرت « يا مشائخ ما بالكم لا تزالون في نفرة من حضرة الصاري عسكر فقد صرتم من احبائه وهو يقصد بالباسكم هذه الطيالسة تعظيمكم وتشريفكم بزيه وعلامته فانكم اذا تميزتم بها عظمتكم العساكر واكثرت من احترامكم » فقالوا « لكنَّ قدرنا ينحط عند الله وعند اخواننا المسلمين » فاغتاظ بونابرت وانتهر الشرقاوي قائلاً « ان مثلك لا يصلح للرئاسة » فنهض بقية الجماعة وجعلوا يلطفون من غضب بونابرت و يطلبون اليه ان يعفيهم مما اراد فقال « ان لم يكن هذا فلا بد من وضع الجوكار في صدوركم وهي العلامة التي يقال لها الوردة وقد تقدم ذكرها فقالوا « نستمهلك ريثما نتروى في الامر » وانصرفوا

ثم استدعى بونابرت الشيخ السادات اليه فحضر فلاطفه في القول واعرب له عن محبته له « كل ذلك بواسطة الترجمان » ثم ناوله خاتماً من الالماس هدية وطلب اليه ان يحضر في اليوم التالي فحضر . فاتى له بجوكار وعلقه بفرجيته فسكت ولما انصرف نزعه . وفي ذلك اليوم نودي بالمدينة بوجوب نقل هذه العلامة وانها هي علامة الطاعة والمحبة فانف الناس على ان بعضهم علم انها لا تخل بالدين وخاف العقاب فوضعها . وفي العصر نادوا بعدم اعطائها الا لبعض الاعيان اما الباقون فيضعونها اذا جاءوا لمقابلة رسمية

سياسة نابوليون في مصر

ومن الغريب ان بونابرت مع رغبته في الاستيلاء على مصر وسروره على ذلك لم يحسن التصرف كما يجب . فقد رايناه يصرح باحترامه الديانة الاسلامية وتامين الاهلين على عاداتهم واديانهم وارزاقهم واعراضهم • واظهر تقربه من المصريين حتى قيل انه كان يتزيا بزيهم في الاحتفالات الوطنية فيلبس القفطان والجبة والعمامة ــ وهو لباس امراء الشرق او سلاطينه — وقد مثله بعضهم بصورة نقلناها في الشكل ٤٤ عن كتاب نوابغ الاقباط ومشاهيرهم — كل ذلك يوجب الثناء عليه الا اننا لا نرى وجهاً يصوب ادعاءه الاسلام ادعاء لم يصدقه احد من المصريين ولم يزدد الناس بسببه الا حذراً من الفرنساويين لانهم لم يدعوا غير دينهم الا تقرباً منهم لغرض في نفوسهم يحاولون نيله



ش ٤٤ : بونابرت بلباسه الشرقي

على انه لو ادعى تلك الدعوى ثم تظاهر بما يثبتها لكان خيراً لكننا رأيناه من الجهة الاخرى يأمر بالمساواة في الارث بين الانثى والذكر امراً يخالف نص القرآن مخالفة صريحة كما لا يخفى وقد تجاهل العادات الشرقية واراد ان يجعل الشعب المصري يفعله

ما قاساه في ايام المماليك ان يسير على خطوات الشعب الفرنساوي بعاداته وشرائعه وازيائه.. فكانت العساكر الفرنساوية تدخل بيوت الهوانم اللواتي لم يجسر الباشا ان يدخلها — وكان السبب في ذلك ان بونابرت اجاز لرجاله الدخول في بيوت النساء للتفتيش عن اسلحة او مخبآت اوامور اخرى — ولايخفى ما في ذلك من تنفير القلوب وكل منا يعلم ان الشرقي أشد حرصاً على عرضه منه على حياته . ناهيك بما كان يأتيه الجند الفرنساوي من الفواحش التي تأباها النفوس الشرقية

على اننا لا ننكر على هذا الرجل العظيم ما ادخله بواسطة هذه الحملة من الاصلاح في احوال الامة المصرية صحياًوادبياً وشرعياً ولكننا لا نعجب بعد ان علمنا من سوء تصرفه اذا رأينا الاهلين بعيدين عن الاخلاص له ـ رغم قرب الشعب المصري من الطاعة والانقياد . ولا غرو بعد هذا اذا رايناهم يشتفون بمصائبه ويترقبون فرصة لشق عصا الطاعة وتفضيل سلطة المماليك على تمكنها من العسف والظلم لانهم شركاؤهم بالدين وهو أكبر رابط بين المشارقة . وقد خدع بونابرت بقبول العلماء الاجتماع في ديوان تحت حمايته وما علم ان قبولهم ذلك وغيره من مثله انما جرى رغم ارادتهم وامتثالاً لقول القائل « اذا لم يكن ما تريد فارد ما يكون »

ومن الامور المغايرة التي اتاها الفرنساويون واستوجبوا من اجلها نفور الناس زيادة الضرائب والشدة في تحصيلها واستحداث القوانين على الموتى والضرائب على المواريث وعلى المسافرين من بلد الى آخر فتعطى لهم تذكرة مرور بثمنها واباحة بيع المسكر في الشوارع وهدم بعض الجوامع والمنائر وتخريب بعض الترب باسم الاصلاحات الصحيه وبناء القلاع والاستحكامات على التلال خارج القاهرة وقطع ارزاق الاوقاف عن اهلها وتسليمها لغير المسلمين

منشور آخر

وفي خاتمة الجميع وردت العلماء والمشائخ تحارير سرية من ابراهيم بك واحمد باشا الجزار حاكم عكا في ٣ ربيع آخر مآلها ان السلطان قد ارسل قوة عسكرية ستصلهم قريباً لانقاذهم من نير الفرنساويين ـ علم بونابرت بذلك فجمع العلماء والفقهاء واعيان البلاد وخاطبهم يحاول اقناعهم ان خطابات المماليك لهم كاذبة

وفي ١٨ ربيع آخر استكتب بونابرت المشائخ كتاباً ارسل منه نسخة لجلالة السلطان ونسخة لشريف مكة وطبعوا منها عدة نسخ الصقوها بالشوارع جعله عن

لسان المشائخ يتكلمون عن اعمال الفرنساويين بمصر ومفاده

« ان الفرنساويين قد قاتلوا المماليك وهزموهم وانهم انما اتوا مصر وتكبدوا ما تكبدوه في سبيل حبهم للباب العالي لانهم من اخصاء جلالة مولانا السلطان واعداء اعدائه وان السكة والخطبة لا تزالان باسمه وشعائر الاسلام قائمة على ما كانت عليه وانهم هم انفسهم مسلمون يحترمون النبي والقرآن الشريف وانهم اوصلوا الحجاج المتشتتين واكرموهم واركبوا الماشي منهم واطعموا الجائع وسقوا الظمآن واعتنوا باقامة الزينة يوم جبر البحر استجلاباً لسرور المؤمنين وانفقوا اموالاً برسم الصدقة على الفقراء واعتنوا كذلك بالمولد النبوي وانفقوا المال في شأن انتظامه وعلو شأنه وانهم قد اتفقوا رأياً على لبس الجناب الاكرم مصطفى اغا كخيابكير باشا والي مصر حالاً وانهم (المشائخ) استحسنوا ذلك لبقاء علاقة الدولة العلية وانهم مجتهدون في اتمام مهمات الحرمين ـ وقد امرونا ان نعلمكم بذلك والسلام » . وارسلوا من هذا المنشور نسخة الى احمد باشا الجزار والي عكا واخرى الى والي سوريا

ثورة اهل القاهرة

وفي اول جمادى الاولى سنة ١٢١٣ هـ (٢١ اكتوبر « ت ١ » سنة ١٧٩٨) جاء الى الشيخ البكري جم غفير من اولاد المكاتب والفقهاء والعميان والمؤذنين وارباب الوظائف والمستحقين من خدمة الاوقاف وشكوا من قطع مرتباتهم وخبزهم لان الاوقاف تعطل ايرادها واستولى على نظارتها غير المسلمين فوعدهم انه اذا قدموا شكواهم الى الديوان يساعدهم في تحصيل حقوقهم

وفي اليوم التالي اجتمع المشائخ في الجامع الازهر وارسلوا القراء يطوفون الاسواق ينادون قائلين « فليذهب كل من يوحد الله الى الجامع الازهر هذا هو يوم الجهاد في محاربة الكفار واخذ الثار » فعج الناس واقفلوا حوانيتهم وتقلدوا اسلحتهم وكانوا قد خبأوها في اماكن معلومة وساروا نحو الجامع افواجاً يزاحم بعضهم بعضاً وفي مقدمتهم السيد بدر وبعض رعاع الحسينية ينادون باعلى اصواتهم « نصر الله دين الاسلام » وساروا توًّا الى بيت قاضي العسكر فوجدوا هناك كثيرين اخرين ممن سبقوهم على شاكلتهم . فخاف القاضي واغلق بابه واوقف حجابه فضربوهم وحاول هو الهرب فامسكوه . وكان قد توجه القسم الاعظم من الجماهير الى الجامع الازهر . ثم سارت فرقة منهم الى بيت الجنرال كافارلي وفيه بعض الادوات فنهبوه واخربوه ولم يكن الجنرال فيه

وكان الجنرال ديبوي قائمقام القاهرة مقيماً عند بركة الفيل وشاهد في الصباح بعض الجماهير مارين في الاسواق فلم يعبأ بحركاتهم وعند الظهيرة راى الجماهير تعاظمت والاسواق ازدحمت فركب في جماعة واسرع الى بيت الشيخ الشرقاوي رئيس الديوان بقرب الغورية فلم يجده فسار نحو بيت القاضي وهو يرى الجماهير تزداد والاصوات تتعاظم فمر بين القصرين فراى جمهوراً كبيراً اوقفه عن المسير فكلمهم بواسطة الترجمان فلم يسمعوا فامر رجاله بالهجوم عليهم فرماه بعض الناس من احد الشبابيك على عنقه بحربة مشدودة براس عمود فقطعت له وعاء دموياً كبيراً وكانت القاضية عليه

وتعاظمت الجماهير على الخصوص بجوار الجامع الازهر اما اهالي مصر القديمة وخط كة الفيل فلم يتجرأوا على ذلك وكانت الجيوش الفرنساوية على غير استعداد لمثل هذه ورة وحصونهم على سفح المقطم والربى خارج القاهرة خالية من الجنود فلم يكونوا تطيعون تهديد المدينة . وجعل الثائرون يطوفون الاسواق يقتلون المسيحيين على تلاف نزعاتهم بين الافرنج واقباط وسوريين ويونانيين وينهبون مساكنهم

دفاع الفرنساويين

فلما اتصل ذلك ببونابرت ركب في ٣٠ من دواليه وسار الى اكثر الاماكن تعرضاً للنهب والسلب فانتعشت جنوده بوجوده فعهد قيادة المدينة الى الجنرال بون وفرق الطوبجية عند مجتمعات الثائرين . واصبح القوم في اليوم التالي واذا بسفح المقطم والربى خارج القاهرة مرصعة بالمدافع وقد ارسل بونابرت وفداً الى المشائخ يطلب اليهم ان يوقفوا الرعاع عن التجمهر فلم يفعلوا . وفي الساعة التاسعة (افرنجية) من الصباح بلغ بونابرت ان بعض العربان قادمون الى القاهرة يريدون الدخول اليها من باب النصر فبعث اركان حربه سالكوسكي لينظر في امر ذلك فبينما كان ماراً عند باب العدوي هجم عليه بعض الثائرين وقتلوه وكان بونابرت يحبه فاسف عليه كثيراً

وهم في ذلك وصل الجنرال كلابر بجيشه من الاسكندرية بعد ما شفي من جراحه فاشتد ازر الجنود الفرنساوية وتألفوا للمحاربة بقلب واحد فقبضوا على جمهور عظيم من الثائرين بجهة الازبكية . وفي الساعة الثالثة بعد الظهر اطلقت المدافع من الحصون خارج القاهرة على خط الجامع الازهر بؤرة الثورة وفيه زعماؤها وما زال الضرب الى المساء فاضطرب الناس ووقع في قلوبهم الرعب فاجمع المشائخ على التسليم فركبوا خيولهم وساروا الى بونابرت يطلبون الامان فوبخهم على ما اتوه من سفك الدماء ثم

امنهم واوقف الضرب . اما سكان خط الحسين ومعظمهم من الجزارين فلم ينفكوا عن الضرب حتى فرغت جعبهم من البارود فهدأوا

دخول الجامع الازهر

فدخلت الجنود الفرنساوية واخذوا في تسكين الناس وتفريق الجموع وفرقوا الخيالة في الاسواق للخفر فادخلوا خيولهم الى الجامع الازهر وكسروا قناديله ومحوا بعض ما كان مكتوباً عليه من الايات القرآنية . وفي يوم الثلاثا ٤ جمادى الاولى خرج المسلمون للصلاة في الجامع الازهر فاذا بالخيول تعج فيه عجيجاً . وفي صباح الاربعاء ٥ منه بعث المشائخ الى بونابرت يلتمسون اخراج الخيول من الجامع فسألهم عن زعماء الثورة ومنشطيها فلم يجيبوه فرفض طلبهم . ثم تداخل محمد الجوهري من اعيان القاهرة وفضلائها في الامر وكان ممن لازموا الحياد فوافقه بونابرت على اخراج الخيالة من الجامع على ان يجعل في ذلك الخط خفراً من سبعين رجلاً . ثم جاء السوريون واليونانيون الذين نهبت بيوتهم بسبب الثورة الى بونابرت وشكوا اليه خسائرهم . فعكف على الاقتصاص من زعماء الثورة . فجعل يقبض على من تقع عليهم الشبهة رجالاً ونساء حتى قتل منهم ١٢ شيخاً دفعة واحدة وجعل جثثهم في اكياس القاها في النيل وعزم من ذلك الحين على الصرامة في معاملته المصريين فمنع المشائخ من المباحثة في الديوان وحصر شغلهم في نشر المنشورات على الشعب لاجل تسكين الثورة فسكن روع الشعب حسب الظاهر

فرمان السلطان

وفي ليلة السبت ٢٤ جمادي الاولى جاء الى القاهرة هجان بكتابات من احمد باشا الجزار وفيها فرمان عليه الطغراء العثمانية وكتابات اخرى من بكير باشا وابراهيم بك وجميعها معنونة باسم مصطفى بك فلما تناولها وقراها لم يسعه من خوفه الا ان يسلمها الى بونابرت فترجمت له وهاك ترجمتها بعد الاستهلال « ان الفرنساويين ابادهم الله وغشى اعلامهم غشاء العار لانهم كفار معاندون لا يؤمنون برسالة النبي (صلعم) ويسخرون بجميع الاديان ويجحدون البعث وما قدره الله فيه من الثواب والعقاب وهم يعتقدون ان الصدفة العمياء هي المتسلطة على الحياة والموت وان النفس مادة وان الاجسام بعد انحلالها في الارض لا تعود الى الحياة ثانية ولا يلحقها حساب ولا دينونة

وبناء على هذا الاعتقاد قد وضعوا ايديهم على هيا كلهم وطردوا منها قسسهم ورهبانهم وعندهم ان الكتب المنزلة خزعبلات واكاذيب ملفقة وان القرآن والتوراة والانجيل خرافات وان موسى وعيسى ومحمداً رجال مثل سائر الرجال وان الناس جميعاً خلقوا سواء لا شيء يميز بعضهم من بعض . وان كلاً منهم يعتقد بما يخطرله وعلى هذه المعتقدات قد بنوا جميع اعمالهم ووضعوا شرائع جهنمية وقد اهتزت اوربا لاجرآتهم هذه وسفكت في سبيل ذلك دماء غزيرة . وانتم تعلمون ما يأمركم به الدين الاسلامي الحنيف فعليكم الانتباه للافاقة ما يبثونه بينكم لان غرضهم هدم مكة والمدينة واورشليم وذبح من فيها من الاطفال واقتسام تركاتهم واراضيهم اما من يبقي منهم حياً فيجبرونهم على اتباع مباديهم وتعلم لغتهم فيذهب الاسلام من الارض . فافهموا اذاً ما تكون النتيجة اذا لم ينهض كل واحد لنصرة الاسلام ويجاهد ضد هؤلاء المعطلين فانتبهوا اذاً الى الشراك التي نصبت لكم . والاسد لا يكترث بالثعالب كثر عددها او قل الخ »

منشور آخر لاهل مصر

فلما فهم بونابرت فحوى هذا الفرمان اجتهد ان يغرس في اذهان المشائخ انها فتنة قد سعى بها اعداء الدولة والدين وما زال حتى استكتبهم منشوراً امضوه وفرقوه في البلاد وهذا نصه بالحرف الواحد :

« نعوذ بالله من الفتن ما ظهر منها وما بطن ونبرا الى الله من الساعين في الارض بالفساد . نعرّف اهل مصر قاطبةً انه حصل بعض الخلل في مدينة المحروسة من طرف الجعيدية واشرار الناس فحركوا الشرور بين الرعية وعسكر الفرنساويين بعد ان كانوا اصحاباً واحباباً وترتب على ذلك قتل جملة من المسلمين ونهب بعض البيوت ولكن بلطف الله سكنت الفتنة بسبب شفاعتنا عند امير الجيوش بونابرته وارتفعت هذه البلية لانه رجل كامل العقل ذو رحمة وشفقة على المسلمين ومحبة الى الفقراء والمساكين ولولاه لكانت العساكر احرقت جميع المدينة ونهبت جميع الاموال وقتلت كامل اهل مصر فعليكم ان لا تثيروا الفتن ولا تطيعوا المفسدين ولا تسمعوا كلام المنافقين ولا تتبعوا الاشرار ولا تكونوا مع الخاسرين سفهاء العقول الذين لا يفتكرون بالعواقب لكي تحفظوا اوطانكم وتطمئنوا على عيالكم واديانكم فان الله سبحانه وتعالى يوتي ملكه من يشاء ويحكم من يريد . ونخبركم ان كل من تسببوا في اثارة هذه الفتنة قتلوا عن آخرهم واراح الله منهم البلاد والعباد ونصيحتنا لكم ان لا تلقوا بايديكم الى

التهلكة واشتغلو باسباب معايشكم وامور دينكم وادفعوا الخراج الذي عليكم والدين النصيحة والسلام » وهذا المنشور ممضى من علماء مصر كافة طبعوه بالمطبعة التي اتت بها الحملة كما تقدم

نصيحة العلماء

ثم شاع بين الاهالي امر الفرمان الذي ورد من جلالة السلطان فاضطربوا فاصدر المشائخ والعلماء منشوراً يبرئون به الفرنساويين مما جاء بحقهم في ذلك الفرمان ونصه حرفياً :

« نصيحة من علماء الاسلام بمصر . نخبركم يا اهل المدائن والامصار من المؤمنين ويا سكان الارياف من العربان والفلاحين ان ابراهيم بك ومراد بك وبقية دولة المماليك ارسلوا عدة من المكاتبات والمخاطبات الى سائر الاقاليم المصرية لاجل تحريك الفتنة بين المخلوقات وادعوا انها من حضرة مولانا السلطان ومن بعض وزرائه بالكذب والبهتان . وسبب ذلك انه حصل لهم الغم الشديد والكرب الزائد واغتاظوا غيظاً شديداً من علماء مصر ورعاياها حيث لم يوافقوهم على الخروج معهم وان يتركوا عيالهم واوطانهم فارادوا ان يوقعوا الفتنة والشر بين الرعية والعسكر الفرنساويين لاجل خراب البلاد وهلاك كامل الرعية وذلك لشدة ما حصل لهم من الكرب الزائد بذهاب دولتهم وحرمانهم من مملكة مصر المحمية . ولو كانوا في هذه الاوراق صادقين بانها من حضرة سلطان السلاطين لارسلها جهاراً مع اغوات معينين . ونخبركم ان الطائفة الفرنساوية بالخصوص عن بقية الطوائف الافرنجية دائماً يحبون المسلمين وملتهم ويبغضون المشركين وطبيعتهم وهم احباب لمولانا السلطان قائمون بنصرته واصدقاء ملازمون له لمودته وعشرته ومعونته يحبون من والاه ويبغضون من عاداه . ولذلك بين الفرنساويين والمسكو غاية العداوة الشديدة ومن اجل هذا يعاونون حضرة السلطان على اخذ بلاد الموسكو ان شاء الله ولا يبقون منهم بقية . فننصحكم يا اهالي الاقاليم المصرية ان لا تحركوا الفتن ولا الشرور بين البرية ولا تعارضوا العسكر الفرنساوي بشيء من انواع الاذية فيحصل لكم الضرر والهلاك والبلية . ولا تسمعوا كلام المفسدين ولا تطيعوا امر المسرفين الذين يفسدون في الارض ولا يصلحون والا فتصبحون على ما فعلتم نادمين وانما عليكم دفع الخراج المطلوب منكم لكامل الملتزمين لتكونوا في اوطانكم سالمين وعلى عيالكم واموالكم آمنين مطمئنين لان حضرة صاري عسكر الكبير امير الجيوش بونابرته اتفق معنا على انه لا ينازع احداً

في دين الاسلام ولا يعارضنا فيما شرعه الله من الاحكام ويرفع عن الرعية سائر المظالم ويقتصر على اخذ الخراج ويزيل ما احدثته الظلمة من المغارم فلا تعلقوا آمالكم بابراهيم ومراد وارجعوا الى مولاكم مالك الممالك وخالق العباد . فقد قال نبيه ورسوله الاكرم الفتنة نائمة لعن الله من ايقظها بين الامم عليه افضل الصلاة والسلام ختام »

ولصقوا نسخاً من هذين المنشورين في اسواق القاهرة وفرقوا منها في سائر بلاد القطر

اصلاحات الفرنساويين بمصر

واقام بونابرت على القاهرة الجنرال استنك عوضاً من ديبوي الذي تقدم انه قتل ثم عمد الى مداخل القطر المصري الاسكندرية ورشيد ودمياط فحصنها تحصيناً منيعاً وجعل في القاهرة وضواحيها استحكامات تمنع ثورة الاهالي مرة اخرى . وانشأ في القاهرة مطاحن هواء ومطاحن ماء لاجل طحن الحنطة واقام في الروضة مستشفى (اسبيتالية) يسع خمسمائة مريض

واقام مطاحن ومستشفيات ايضاً في الاسكندرية ورشيد ودمياط وانشىء في القاهرة اذ ذاك مدرسة لتعليم اولاد الفرنساويين المولودين في مصر وجريدتان فرنساويتان الواحدة تدعى « دكاد اجبسيان » والاخرى « كوريه ديجيبت » ومرسح للتشخيص ومعامل للاقفال والاسلحة والنجارة . ومعامل للمدافع وتوابعها وآلات الهندسة والورق والاقمشة وسائر احتياجات البلاد . واستحدث فيها ايضاً اماكن للهو وحدائق للنزهة وانشأ مجمعاً علمياً مصرياً (انستيتي ديجيبت) وبالنتيجة ان الجيش الفرنساوي لم يكن ينقصه من داعيات الراحة الا البريد

وكان بونابرت لا يغفل عن شيء يرى فيه راحة جيشه ورفاهية البلاد . فسكنت الاحوال مدة شهرين تمكن الفرنساويون في اثنائها من اجراء بعض الاصلاح في المدينة فردموا ما جاور بركة الازبكية والاماكن المجاورة لمسكن بونابرت فجعلوها رحبة واسعة . وجددوا قنطرة المغربي وبنوا جسراً ممتداً من الازبكية الى بولاق حيث ينقسم الى فرعين يسير احدهما الى طريق ابي العلاء والآخر الى جهة التبانة وضفة النيل وجعلوا بجانبي ذلك الجسر خندقين وغرسوا على جانبيه اشجاراً وسيسباناً واحدثوا طريقاً آخر بين باب الحديد وباب العدوي عند المكان المعروف بالشيخ شعيب ومهوا جسراً آخر من هناك الى خارج الحسينية وازالوا ما يتخلل ذلك من

الابنية وهدموا الابنية التي بين باب الحديد والرحبة التي بظاهر جامع المقس ومهدوا الارض بينها . فعلوا ذلك كله ولم يسخروا احداً بل كانوا يدفعون الاجور فوق الاستحقاق . وجعلوا جامع الظاهر خارج الحسينية على طريق العباسية قلعة ومنارته برجاً فصار يعرف بقلعة الظاهر



ش ٤٥ : جرجس الجوهري احد رؤساء القبط وكتابهم في زمن الفرنساوية (١)

وبنوا اماكن للارصاد الفلكية والرياضيات والنقش والرسم والتصوير . في حارة الناصرية حيث الدرب الجديد ورمموا ما فيه من بيوت الامراء واستخدموها لتلك الغاية وجعلوا بيت حسن كاشف جركس في تلك الخطة مكتبة للمطالعة يحضرها من يريد المطالعة منهم في اوقات معينة من النهار واذا دخلها احد الوطنيين رحبوا به واذا اراد التفرج اطلعوه على ما اراد او المطالعة سلموه ما اراد من الكتب ولا سيما التي تدهش البسطاء بما فيها من الرسوم البديعة وفي جملتها رسم للنبي ورسوم اخرى للخلفاء الراشدين وغيرهم من الايمة والاماكن المهمة . وكان في مكتبتهم هذه كتب كثيرة

(١) نقلت هذه الصورة بالفوتوغراف عن رسم له بباريس لكنها أخذت من موقف منحرف فظهرت كما ترى

عربية . وافردوا للاشتغال بكل علم داراً ولا سيما الكيميا فانهم خصصوا معملاً كبيراً للتقطير والتصعيد واستحضار الخلاصات وسائر الاعمال العقارية وكانوا يجرون امام الاهالي بعض التجارب الكيماوية التي تدهش غير العارفين بنواميس الكيمياء وقد ذكر المؤرخ عبد الرحمن الجبرتي بعض تلك التجارب واظهر دهشته منها . وافردوا ايضاً اماكن للتجارة والصناعة وطواحين هوائية واستخدموا العربات . وقرروا اطلاق مدفع كل يوم عند الزوال

منشور بونابرت عن تجديد الديوان

وفي ١٦ رجب سنة ١٢١٣ هـ (٢٥ دسمبر (ك ١) سنة ١٧٩٨ م) امر بونابرت بترتيب الديوان على نظام جديد كما تقدم في الكلام عن هـذا الديوان عند انشائه وكتب بذلك منشوراً ارسله الى الاعيان والصق منه نسخاً في الاسواق ونصه :

« من بونابرته اميرالجيوش الفرنساوية خطاباً الى جميع اهل مصر الخاص والعام. نعلمكم ان بعض الناس الضالي العقول الخالين من المعرفة وادراك العواقب اوقعوا الفتنة سابقاً بين اهل مصر فاهلكهم الله بسبب فعلهم ونيتهم القبيحة والباري سبحانه وتعالى امرني بالشفقة والرحمة للعباد فامتثلت امره وصرت رحيماً بكم شفوقاً عليكم . ولكن كان حصل عندي غيظ وغم شديد بسبب تحريك هذه الفتنة بينكم ولاجل ذلك ابطلت الديوان الذي كنت رتبته لنظام البلد واصلاح احوالكم من مدة شهرين والآن توجه خاطرنا الى ترتيب الديوان كما كان لان حسن احوالكم ومعاملتكم في المدة المذكورة انسيانا ذنوب الاشرار واهل الفتنة التي وقعت سابقا

« فيا ايهـا العلماء والاشراف اعلموا امتكم ومعاشر رعيتكم بان الذي يعاديني ويخاصمني انما خصامه من ضلال عقله وفساد فكره فلا يجد مخلصاً ولا ملجأ ينجيه مني في هذا العالم ولا ينجو من يد الله لمعارضته مقاديره سبحانه وتعالى . والعاقل يعرف ان ما فعلناه بتقدير الله تعالى وارادته وقضائه ومن يشك في ذلك فهو احمق واعمى البصيرة . واعلموا ايضاً امتكم ان الله قدر في الازل هلاك اعداء الاسلام وتكسير الصلبان على يدي . وقدَّر في الازل ان اجيء من ارض المغرب الى ارض مصر لاهلاك الذين ظلموا فيها واجراء الامر الذي امرت به . ولا يشك العاقل ان هذا كله بتقدير الله وارادته وقضائه . واعلموا ايضاً امتكم ان القرآن العظيم صرح في آيات كثيرة بوقوع الذي حصل وأشار في آيات اخرى الى امور اخرى تقع في المستقبل وكلام الله في كتابه صدق وحق لا يختلف . واذا تقرر هذا وثبتت هـذه

المقالات في آذانكم فلترجع امتكم جميعاً الى صفاء النية واخلاص الطوية فان منهم من يمتنع من لعني واظهار عداوتي خوفاً من سلاحي وشدة سطوتي . ولم يعلم ان الله مطلع على السرائر يعلم خائنة الاعين وما تخفي الصدور والذي يفعل ذلك يكون معارضاً لاحكام الله ومنافقاً وعليه اللعنة والنقمة من الله علام الغيوب . واعلموا ايضاً اني قادر على اظهار ما في نفس كل منكم لانني اعرف احوال الشخص وما انطوى عليه بمجرد نظري اليه وان كنت لا اتكلم ولا انطق بالذي عنده ولكن يأتي وقت ويوم يظهر لكم عياناً ويتضح ان ما فعلته وحكمت به هو حكم الهي لا يرد . وان اجتهاد الانسان بغاية جهده لا يمنعه من قضاء الله الذي قدره واجراه على يدي فطوبى للذين يسارعون في اتحادهم وهمتهم مع صفاء النية واخلاص السريرة والسلام »

ترعة السويس

وفي ذلك اليوم (١٦ رجب) برح بونابرت القاهرة في سرب من رجال معيته وبعض المهندسين قاصداً برزخ السويس لاستطلاع آثار الترعة التي حفرت قديماً بين البحر المتوسط والنيل فوصل السويس في ١٨ منه وفي ٢١ منه قطع البحر الاحمر الى آبار موسى فجعل يتأمل ويتذكر ما قيل عنها من المعجزات . وفي ذلك اليوم عاد بمن معه قاصداً السويس خوضاً في البحر مثل ما فعل موسى فاخطأوا الطريق حتى كادت المياه تغمر خيولهم وبعد المشقة وصلوا السويس في اوائل الليل وفي الصباح التالي اتم بونابرت استكشافه وبرح السويس قاصداً القاهرة فمر ببلبيس فاستولى عليها وسار منها حتى اتى القاهرة في ٢٥ منه (في ٣ يناير سنة ١٧٩٩)

وفي يوم وصوله لاقاه الجنرال كلابر قادماً من الاسكندرية ومعه كتب وجرائد واردة من فرنسا وغيرها تنبيء بتغير الباب العالي على الجمهورية الفرنساوية لافتتاحها مصر واستقلالها باحكامها . فاندع بونابرت يطالع كتبه وجرائده ولنلتفت الى الجنرال ديزه وحملته الى الصعيد بعد واقعة امبابه

حملة ديزه في الصعيد

لما عدّى الجيش الفرنساوي البر الشرقي ودخل القاهرة بعد واقعة امبابه عهد بونابرت الى الجنرال ديزه ان يسير جنوباً لتعقب المماليك واخضاع الصعيد . فسار في ١٦ محرم سنة ١٢١٣ هـ حتى أتى بني سويف فلاقاه مراد بك برجاله وطال الحرب بينهما وكثر الاخذ والرد وانتهت الوقائع بتقهقر المماليك وامعانهم في داخلية الصعيد

وفي ١٣ جمادى الاخرى برح الجنرال ديزه بني سويف فاتى المنيا في ١٨ منه وتربص هناك ينتظر الدوارع القادمة على النيل لنجدته فتأخر وصولها بسبب الريح المعاكسة لسيرها . ثم سار من المنيا وما زال يتعقب مراد بك واتباعه حتى اتى اصوان في البر الغربي فعسكر هناك . وكان كلما مر بأثر من الآثار المصرية القديمة حفر عليه اسمه واسماء المدن التي افتتحها . وقد شاهدنا مثل هذه الكتابة على جانبي باب من ابواب هيكل الكرنك بجوار الاقصر

واستطلع ديزه اخبار العدو في اصوان فعلم انه معسكر فوق الشلال الاول بمسافة قصيرة فاحتل جزيرة فيلوي وحصن اصوان لدفع المماليك اذا قدموا اليها لانه لم يرَ فائدة من تتبعهم الى ما وراء ذلك وقد حفر على صخر فوق الشلال جميع فتوحه على مثل ما تقدم . وهناك آخر ما وصله الفرنساويون في حملة بونابرت . ولم يكد يتم ديزه تحصين اصوان حتى سمع باحتلال الفي بك جهات طيبة فعاد اليه وحاربه وهزمه . فاذعنت الصعيد وهدأت احوالها

حملة بونابرت على سوريا

اما بونابرت فانه علم من مطالعة تلك الجرائد ومن قرائن اخرى ان الدولة العلية تسعى في استرجاع مصر من الفرنساويين وقد بعثت بمنشورات رسمية الى سائر بلادها طعناً بالجمهورية الفرنساوية وامرت احمد باشا الجزار والي عكا ان يبعث جيشاً لاحتلال العريش ففعل . فبعث اليه بونابرت ان يخلي تلك المدينة لانها من حدود مصر فلم يطعه فامر باعداد حملة يسير بها ليس للمدافعة عن مصر فقط بل لافتتاح سوريا ايضاً . فاعد حملة من اثني عشر الفاً بينها الف ومائتان من الطبجية وسار قاصداً سوريا بعد ان عهد بقيادة القاهرة الى الجنرال دوغا وبقيادة الصعيد الى الجنرال ديزه وقيادة الاسكندرية الى الجنرال مرمون وامر بتحصين دمياط . وجعل في تلك الحملة بعض مشائخ القاهرة ليستعين بنفوذهم الديني . وفي ٢١ شعبان اصدر منشوراً مطبوعاً فرقه في الناس وهاك نصه بالحرف الواحد :

« الحمد لله وحده . هذا خطاب الى جميع اهل مصر من خاص وعام من محفل الديوان الخصوصي من عقلاء الانام وعلماء الاسلام والوجاقات والتجار الفخام

« نعلمكم معاشر اهل مصر ان حضرة صاري عسكر الكبير بونابرته امير الجيوش الفرنساوية صفح الصفح الكامل عن كل الناس والرعية بسبب ما حصل من اراذل

الناس اهل البلد والجعيدية من الفتنة والشر مع العساكر الفرنساوية وعفا عفواً شاملاً واعاد الديوان الخصوصي في بيت قائد آغا بالازبكية ورتبه مع اربعة عشر شخصاً اصحاب معرفة واتقان انتخبوا بالقرعة من ٦٠ رجلاً حصل انتخابهم بموجب فرمان وذلك لاجل قضاء مصالح الرعايا وحصول الراحة لاهل مصر من خاص وعام وتنظيمها على اكمل نظام واحكام . كل ذلك من كمال عقله وحسن تدبيره ومزيد حبه لمصر وشفقته على سكانها من صغير القوم حتى كبيرهم . ورتبهم بالمنزل المذكور كل يوم لاجل خلاص المظلوم من الظالم وقد اقتص من عسكره الذين اساؤا بمنزل الشيخ محمد الجوهري وقتل منهم اثنين في قره ميدان وانزل طائفة منهم عن مقامهم العالي الى ادنى مقام لان الخيانة ليست من عادة الفرنساويين خصوصاً مع النساء الارامل فان ذلك قبيح عندهم لا يفعله الا كل خسيس . وقبض بالقلعة على رجل نصراني مكاس لانه بلغه انه زاد المظالم في الجمرك بمصر القديمة على الناس . ففعل ذلك بحسن تدبيره ليمتنع غيره من المظالم ومراده رفع الظلم عن كامل الخلق ودائماً يفكر في فتح الخليج الموصل من بحر النيل الى بحر السويس لتخف اجرة الحمل من مصر الى قطر الحجاز وتحفظ البضائع من اللصوص وقطاع الطرق وتكثر عليهم اسباب التجارة من الهند واليمن وكل فج عميق . فاشتغلوا في امر دينكم واسباب دنياكم واتركوا الفتنة والشرور ولا تطيعوا شيطانكم وهواكم وعليكم بالرضى بقضاء الله وحسن الاستقامة لاجل خلاصكم من اسباب العطب والوقوع في الندامة رزقنا الله واياكم التوفيق والتسليم . ومن كان له حاجة فليأت الديوان بقلب سليم الا من كان له دعوى شرعية فيتوجه الى قاضي العسكر المتولي بمصر المحمية بخط السكرية والسلام على افضل الرسل الى الدوام »

فتح العريش وغزة

وفي ٢٥ شعبان (اول فبراير (شباط) سنة ١٨٩٩ م) سار الجنرال كلابر والجنرال رينر في مقدمة الحملة نحو العريش وفي ٥ رمضان او ١٠ فبراير (شباط) سافر بونابرت بمن بقي منها . وكان على العريش قاسم بك من قبل الجزار وقد عسكر خارج المدينة . ففي صباح ٨ منه كانت مقدمة الفرنساويين على مقربة من معسكر قاسم وفي المساء هاجموه بغتة فقتلوه وشتتوا جيشه واستولوا على الذخائر والمهمات وساروا نحو المدينة . اما بونابرت فوصل الصالحية في ٧ منه وفي ١١ منه وصل المسعودية فطلعت ريح شديدة نسفت عليه وعلى رجاله الرمال احمالا وكانت المياه قليلة فعطشت

العساكر عطشاً عظيماً فعسكر هناك وبعث الخبراء يستطلعون خطوات كلابر وجهة مسيره فعادوا واخبروه فنهض وما زال حتى اتى العريش في ١٢ رمضان فراى كلابر قد حاصرها وامتنع عليه فتحها لقلة الطبجية ونفاد المؤن . فلما وصل بونابرت ارسل الى حامية العريش كتاباً يطلب اليهم التسليم ويهددهم فسلموا بعد بضعة ايام فدخل الفرنساويون العريش وامنوا اهلها على حياتهم وقبضوا على خمسة كشاف كانوا هناك من قبل المماليك وارسلوهم الى القاهرة تحت الحجز ثم جعلوا في العريش حامية وساروا الى غزة فاستولوا عليها بغير قتال وجعلوا فيها حامية وديوانا وطنياً لتنظيم الاحوال

فتح يافا وقتل حاميتها

وفي ٢٣ رمضان سنة ١٢١٣ هـ (٢٨ فبراير (شباط) سنة ١٧٩٩ م) ساروا الى يافا فلما وصلوها امر بونابرت الجنرال كلابر ان يتقدم في فرقته الى عكا ففعل . وكانت حامية يافا اخلاطاً من الاتراك والمغاربة والارناوط والاكراد فلم يرَ بونابرت محاصرتها فامر بالهجوم عليها في ٢٧ منه ٤ مارس (اذار) فهجم الفرنساويون عليها وما زالوا حتى خرقوا الاسوار ودخلوها ففرت الحامية فتتبعوها وقد تحصنت في بعض الخانات الكبيرة فالحوا عليها فقال الارناوط ومنهم تتألف معظم الحامية « نحن نسلم لكم انفسنا اذا أمنتمونا على حياتنا » وكان على قيادة الهاجمين من الفرنساويين احد اركان حرب بونابرت فوعدهم بالامان فسلموا فقادهم موثقين وعددهم نحو اربعة الاف حتى اتى بهم المعسكر الفرنساوي فلما رآهم بونابرت قال للقادم اليه « ما هذه الجماهير » قال « هي حامية هذه المدينة قد سلمت وجئنا بها اليك » قال « ماذا تريدون ان افعل بهذا العدد اعندكم زاد يكفيهم او مراكب تنقلهم الى مصر او فرنسا واذا ارسلناهم في البر فمن يتولى خفارتهم ؟ » فاجابه قائلاً « انا قد قبلنا تسليمهم حجباً للدماء » فقال بونابرت « نعم يجب ان تفعلوا ذلك ولكن مع الاطفال والنساء والشيوخ وليس مع مثل هذا القدر من الرجال الاشداء المجندين » ثم امرهم بالجلوس مكتوفي الايدي امام المعسكر . وفي اليوم التالي فرقوا فيهم شيئاً من البقسماط الجاف والماء

ثم عقد بونابرت مجلساً في خيمته للمفاوضة في ماذا يجب ان يفعل بهؤلاء الاسرى وبعد الاجتماع عدة جلسات لم يقروا على شيء فانزعج بونابرت لكثرة التردد في الامر وبعد التفكير والتأمل راى انه لا يستطيع استبقاءهم معه لعدم وجود ما يكفيهم من الزاد ولا ارسالهم الى مصر لعدم استغنائه عن رجال يسيرون لخفارتهم ولا اطلاق سبيلهم لئلا يرتدوا عليه فاقر على اعدامهم . وفي ٤ شوال (١٠ مارس (اذار) سنة

٩٩) بعد الظهيرة قادوهم موثقين الى صحراء رملية خارج يافا ثم جعلوهم فرقاً ساقوا كلاً منها الى ناحية وقتلوا الجميع بالرصاص قتلاً ما أنزل الله به من سلطان . فلما بلغت هذه الفعلة مسامع الجزار ورجاله في عكا اصروا على الدفاع الى آخر نسمة من حياتهم لئلا يصيبهم اذا سلموا ما اصاب اولئك

منشور بونابرت بفتح يافا

ولما استلم بونابرت يافا امر بترميم حصونها وبعث الى الاسكندرية يأمر العمارة الباقية هناك ان توافيه الى يافا . ثم فشا الطاعون في يافا وضواحيها لفساد الهواء من الجثث التي ملأت تلك الجهات . وكتب بونابرت الى جند بيت المقدس يطلب اليهم التسليم فاجابوا انهم تابعون لولاية عكا وحالما تسلم عكا يسلمون . ثم كتب الى القاهرة منشوراً باستيلائه على يافا وكان قد ارسل مثل هذا المنشور عند ما استولى على العريش وغزة ولنذكر هنا منشوره من يافا فقط على سبيل النموذج وفيه تفصيل ما تقدم عن فتح يافا وهاك نصه بالحرف الواحد :

« بسم الله الرحمن الرحيم سبحان مالك الملك يفعل في ملكه ما يريد . هذه صورة تمليك الله سبحانه وتعالى جمهور الفرنساويين لبندر يافا من الاقطار الشامية . نعرف اهل مصر واقاليمها ان العساكر الفرنساوية انتقلوا من غزة ثالث وعشرين شهر رمضان ووصلوا الرملة في ٢٥ منه في امن واطمئنان وشاهدوا عسكر احمد باشا الجزار هاربين بسرعة قائلين الفرار الفرار ووجدوا في الرملة ومدينة اللد مقداراً كبيراً من مخازن البقسماط والشعير ووجدوا ايضاً ١٥٠٠ قربة مجهزة جهزها الجزار ليسير بها الى اقليم مصر مسكن الفقراء والمساكين ومراده التوجه اليها مع العربان الاشرار من سفح الجبل ولكن تقادير الله تفسد المكر والحيل . وما كان قصده سوى سفك الدماء مثل عادته في اهل الشام وناهيكم ما هو مشهور عنه من التجبر والظلم والجور فانه تربية المماليك الظلمة المصريين وفاته ان الامر لله وكل شيء بقضائه وتدبيره

« وفي السادس والعشرين حلت طلائع الفرنساويين ببندر يافا من الاراضي الشامية واحاطوا بها وحاصروها من الجهة الشرقية والغربية وارسلوا الى حاكمها وكيل الجزار ان يسلمهم القلعة قبل ان يحل بهم وبعسكرهم الدمار لكنه لخشونة عقله وفساد رايه وسوء تدبيره لم يرد . وفي ذلك اليوم اي ٢٦ من شهر رمضان تكامل العسكر الفرنساوي على محاصرة يافا وانقسم ثلاث فرق توجهت فرقة منهن على طريق عكا على مسافة اربع ساعات من يافا وفي ٢٧ امر حضرة صاري عسكر الكبير بحفر

خنادق حول السور لعمل متاريس متينة واستحكامات حصينة اذ عرف ان سور يافا ملآن بالمدافع الكثيرة مشحون بعساكر الجزار الوفيرة

« وفي ٢٩ ناهز حفر الخنادق النهاية وصار على مسافة ١٥٠ خطوة في السور فامر صاري عسكر ان تنصب المدافع على المتاريس وان توضع اهوان القنابر باحكام وامر بنصب مدافع اخرى بجانب البحر لمنع الصلة بين عسكر البر والمراكب التي اعدها عسكر الجزار في المينا للهرب والفرار . ولما راى عسكر الجزار المحاصرون في القلعة ان عديد الفرنساويين قليل غرهم الطمع فخرجوا اليهم من القلعة مسرعين ظناً منهم انهم يغلبون على الفرنساويين فهجم عليهم الفرنسيس وقتلوا منهم كثيرين واجبروهم على الدخول الى القلعة ثانية

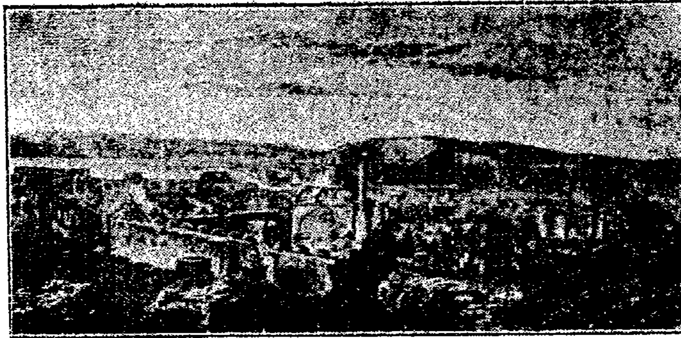
« وفي يوم الخميس غاية شهر رمضان اشفق حضرة صاري عسكر وخاف على اهل يافا اذا دخلت عساكره بالقهر والقوة فارسل اليهم مع رسول خطاباً هذا مضمونه : « لا اله الا الله وحده ولا شريك له . باسم الله الرحمن الرحيم . من حضره صاري عسكر برتبه كتخدا العسكر الفرنساوي الى حضرة حاكم يافا . نخبركم ان حضرة صاري عسكر الكبير بونابرته امرنا ان نعرفكم في هذا الكتاب ان سبب مجيئه الى هذا الطرف هو اخراج عسكر الجزار فقط من هذا البلد لانه تعدى بارسال عسكره الى العريش ومرابطته فيها والحال انها اقليم مصر التي انعم الله بها علينا فلا تجوز له الاقامة بالعريش لانها ليست من ارضه فقد تعدى على ملك غيره . ونعرفكم يا اهل يافا اننا حصرنا بندركم من جميع اطرافه وجهاته وضيقنا عليه بآلات الحرب والحصار والمدافع الكثيرة والكلل والقنابر وفي برهة ساعتين يخرب سوركم وتبطل آلات حربكم . ونخبركم ان حضرة صاري عسكر لمزيد رحمته وحنوه خاف عليكم من سطوة عساكره المحاربين فانهم اذا دخلوا عليكم بالقوة والقهر اهلكوكم جميعاً ولذلك امرنا ان نرسل اليكم هذا الخطاب تأميناً لاهل البلد ولاسيما الضعفاء والفقراء والغرباء وان نؤخر ضرب المدافع واطلاق القنابر ساعة واحدة واني لكم لمن الناصحين وهذا آخر خطاب بيننا » . فجعلوا جوابنا حبس الرسول مخالفين بذلك الشريعة المطهرة المحمدية والقوانين الحربية . فتميز صاري عسكر من الغيظ وهاج واشتد غضبه وامر باطلاق المدافع والقنابر . ولم يمض الا اليسير حتى خرست مدافع يافا وانقلب عسكر الجزار في وبال وخسران وعند الظهر انخرق سور يافا وارتج له القوم ونقب من الجهة التي ضربت منها المدافع ولا مرد لقضاء الله ولا مدافع . وفي الحال امر حضرة صاري عسكر بالهجوم وفي اقل من ساعة ملكت

العساكر الفرنساوية جميع البندر والابراج ودار السيف في المحاربين وحمي الوطيس وكثر القتل

« وفي يوم الجمعة غرة شوال وقع الصفح الجميل من حضرة صاري عسكر الكبير ورق قلبه لا سيما على من كان في يافا من اهل مصر فاعطاهم الامان وامرهم بالعود الى الاوطان . وكذلك امر اهل دمشق وحلب بالرجوع الى بلادهم ليعرفوا مقدار رحمته ومزيد رافته . وقتل في هذه الوقعة اكثر من ٤٠٠٠ من عسكر الجزار بالسيف . اما الفرنساويون فلم يقتل منهم الا القليل وسبب ذلك ان سلوكهم الى القلعة كان في طريقة امينة خافية عن العيون واخذوا ذخائر كثيرة واموالاً غزيرة واستولوا على المراكب التي في الميناء ووجدوا في القلعة نيفاً وثمانين مدفعاً وقد فات الجزار وعساكره ان آلات الحرب لا تدفع مقادير الله . فاستقيموا عباده وارضوا بقضاء الله ولا تعترضوا على احكام الله وعليكم بتقوى الله واعلموا ان الملك لله يؤتيه من يشاء والسلام عليكم ورحمة الله »

حصار عكا

ثم سار بونابرت برجاله قاصداً عكا تاركا في يافا حامية كافية فقابله في الطريق بعض العصاة من المماليك فحصلت بينهما مناوشات شفت عن فرار المماليك فواصل السير حتى اتى سفح الكرمل واذا بعكا قد تحصنت تحصناً منيعاً بهمة واليها احمد باشا الجزار وهو الرجل الوحيد الذي كان يعتمد عليه الباب العالي في حماية سوريا



ش ٤٦ : مدينة عكا

فعبروا النهر وعسكروا في البر الآخر . وفي ٢ شوال صعد بونابرت الى رابية وجعل يتأمل حصون عكا بالنظارة المكبرة ثم امر ان يسير بعض العساكر الى المدينة وكانت في مياهها عمارة انكليزية بقيادة السير سدني سميث قد زادت الجزار تمسكاً بالدفاع . ففي اليوم التالي استطلعوا الحصون واستكشفوا قوات العدو . وفي ٤ شوال او ٢٠ مارس (اذار) بداوا بالمحاربة وكانت الدوارع الانكليزية تساعد الجزار من البحر وقد اظهر هذا الرجل بسالة عظيمة لكنه اضطر اخيراً الى استنجاد قوات صيدا ودمشق وحلب

اما بونابرت فابقى الحصار على عكا وحول شكيمة فتوحاته نحو جهات اخرى من سوريا فارسل فرقاً استولت على صفد وصور وطبريا واماكن اخرى واتوا منها بمؤن كثيرة . وبعد يسير وصلت الدوارع الفرنساوية من الاسكندرية ومعها المدافع والمؤن . وفي ٤ ذي القعدة سنة ١٢١٣ هـ (٩ افريل (نيسان) سنة ١٧٩٩ م) قتل الجنرال كافارلي

وفي ٥ ذي الحجة ٩ مايو (ايار) وهو اليوم الخمسون لحصار عكا اقرّ بونابرت على الهجوم النهائي فهجموا عليها هجمة اليأس بقلوب لا تهاب الموت ولم تكن عكا لتقف في طريقهم لولا العمارة الانكليزية وهي التي اخرت الفتح بدفاعها عنها بالبر والبحر ثم جاءتهم نجدة من الاستانة تحت قيادة حسن بك فازداد المدافعون قوة ومضى ذلك اليوم ولم ينل الفرنساويون شيئاً . وفي اليوم التالي هجموا هجمة اخرى لم ينالوا منها الا التقهقر لانهم لاقوا مقاومة عنيفة قتل فيها الجنرال بون فيئس بونابرت لحبوط مساعيه وفشل حملته السورية على انه كان يتعزى بما سبق استيلاؤه عليه من المدن والقرى السورية الا ان تلك الاماكن حالما سمعت بما الم بجيشه من الفشل انحازت الى الباب العالي هرباً من العقاب . وزد على ذلك ان السير سدني سميث كتب منشورات وزعها على المشائخ والامراء في لبنان يدعوهم الى الاتحاد مع الباب العالي وارسل الى سراة المسيحيين ايضاً صورة منشور بونابرت الذي يقول فيه انه هدّ اركان الديانة المسيحية فامتنع اللبنانيون عن توريد الخمر والبارود للفرنساويين فاصبح بونابرت في حالة اليأس الشديد لا يدري ماذا يصنع وقد خابت آماله . فكتب الى ديوان مصر انه قد هدم اسوار عكا واخرب بيوتها بالقنابل وجرح واليها الجزار وانه سيبرحها بعد ثلاثة ايام عائداً الى مصر ومتى جاءها يقتص من الباغين . ثم استقدم حاميات صفد وطبرية وغيرها

رجوع حملة بونابرت الى مصر

وفي ٢١ ذي الحجة أو ٢٣ مايو (أيار)) امر بونابرت بالمسير الى مصر بكل رجاله وفيهم الجرحى فقاسوا عذاباً مرّاً من العطش وفشا فيهم الوباء فزادهم عناء فامر بونابرت ان يسير الرجال الاصحاء على اقدامهم وان تعطى الخيول والجمال للمرضى والجرحى. وزادهم شقاء ان العمارة الانكليزية كانت تتعقبهم في البحر والعربان يتعرضون لهم في البر والجنود العثمانية تسوقهم من وراءهم . اما هم فكانوا يخربون كل ما يمرون به من المدن والقرى . وفي ٦ ذي الحجة أو ٢ يونيو (حزيران) وصلوا العريش فامر بونابرت بتحصينها تحصيناً منيعاً واشتد عليهم القيظ وكان في الماء الذي يشربونه علق يمتص الدم فكان يعلق بحلقهم عند الشرب فيعذبهم عذاباً اليماً

ثم واصلوا المسير الى القاهرة رغم الحر والوباء حتى وصلوها فخرج المشائخ والاعيان الى خارج المدينة لاستقبالهم فدخلوها ولم يصدقوا انهم تخلصوا من حملة سوريا ومما مروا به من الصحاري الحارة . فاخذ بونابرت في تنظيم العساكر وتطبيب الجرحى واعادة النظام واكتساب ثقة الاهلين ولم يكد يفعل حتى بلغه تقدم المماليك من جهة الصعيد . وسبب ذلك ان مراد بك كان في اعلى الصعيد فبلغه قدوم حملة عثمانية لاخراج الفرنساويين من مصر فجمع اليه رجاله وسار ببعضهم على الضفة الغربية للنيل وارسل البعض الآخر على الضفة الشرقية للاتحاد مع ابرهيم بك القادم من جهة سوريا فعلم بونابرت بذلك فانفذ جنداً على كل من الضفتين لمحاربة الفرقتين فالتقى جند الضفة الشرقية بفرقة ابراهيم بك وراء المقطم فشتتها واخذ امتعتها والتقى جند الضفة الغربية وفيه بونابرت بمراد بك في الجيزة فانتشبت الحرب فانكسر المماليك وتشتت شملهم فعادت الجنود الفرنساوية ظافرة

حملة عثمانية لاخراج الفرنساويين من مصر

وفي ٦ محرم سنة ١٢١٤ هـ أو ١٥ يوليو (تموز) سنة ١٧٩٩ م وردت لبونابرت رسالة من الجنرال مرمون في الاسكندرية تنبئه بمجيء الحملة العثمانية ونزولها ابي قير في ١١ الجاري فانزعج بونابرت من هذا الخبر فامر باعداد حملة تسير الى الاسكندرية وبعث الى الحصون في رشيد ودمياط ان تكون على يقظة واستعداد

وسبب قدوم الحملة العثمانية ان الباب العالي بعث الى الفرنساويين مراراً يقيم الحجة على استقلالهم باحكام مصر ويطلب اليهم الانسحاب منها ولم يكن الجواب الا المماطلة وكانت انكلترا في الوقت عينه تستحث الباب العالي على هذه المطاليب واخيراً اتفقت معه ان يرسل كل منهما عمارة الى ابي قير حيث تتحد العمارتان وتخرجان

الفرنساويين من مصر بالقوة . فسارت العمارة العثمانية تحت اميرالية باترونا بك وعليها ثمانية آلاف من الجنود البرية بقيادة مصطفى باشا سرعسكر ومعهم حسن بك ورجاله وسارت العمارة الانكليزية باميرالية السير سدني سميث المتقدم ذكره والتقت العمارتان في ابي قير واتحدتا فاسرع الجنرال مرمون الى اعلام بونابرت

فبرح بونابرت القاهرة برًّا ثاني يوم وصول الرسالة صباحاً فسار من الجيزة الى الرحمانية ومن هناك كتب الى القاهرة كتاباً يضرب به على وتر الدين حيث يقول « ان بين الذين قدموا للمحاربة رجالاً روسيين لا يؤمنون بالله واحد وانما يعبدون آلهة ثلاثة » ثم برح الرحمانية فوصل الاسكندرية في ٢٤ محرم او ٢٣ يوليو (تموز) فلاقاه مرمون فعنفه لغفلته عن حصن ابي قير حتى احتله العثمانيون وفي اليوم التالي استكشف استحكامات العدو ثم سار برجاله نحو ابي قير فاذا بالجنود العثمانية تحت قيادة مصطفى باشا على مسافة ميل ونصف وراء ابي قير ومنهم نحو الف رجل في حصن على رابية من الرمال في اليمين بجوار الشاطىء وجماعة آخرون في اليسار في حصن على رابية اخرى وهاتان الرابيتان بمثابة جناحي الجيش

فهاجم بونابرت اولاً الرابية اليمنى ففرَّ من كان فيها الى قرية وراء قلب الجيش فارسل كوكبة من الفرسان لملاقاة الفارين وفعل مثل ذلك بالرابية اليسرى ثم هجم على قلب الجيش فتقهقرت الجنود العثمانية الى طابية كانوا قد جعلوها وراءهم فتشجع الفرنساويون وتعقبوا الهاربين لكنهم لم يسيروا يسيراً حتى سمعوا دوي المدافع الانكليزية ووزيز قنابلها فارتدوا الى الوراء . فارتد العثمانيون عليهم وتعقبوهم حتى كادوا يظفرون بهم لكنهم شغلوا بتقطيع رؤوس القتلى فاغتنم احد قواد الفرنساويين فرصة تغافلهم وسار في فرقته عن اليسار قاصدًا الطابية الخلفية وسار قائدٌ آخر من اليمين فدخلا الطابية وقطعا على العثمانيين خط الرجوع واسرع احدهما « الجنرال مورات » بنفسه للقبض على مصطفى باشا في خيمته فاطلق عليه الباشا عيارًا نارياً فلم يعبأ به وهجم عليه بسيفه فقطع اصبعيه وامر اثنين من رجاله فاوثقاه وارسلاه الى معسكر الفرنساويين . واخذت العساكر الفرنساوية بالنهب فلم يغادروا في معسكر العثمانيين شيئاً من المؤن والذخائر وفرَّ من بقي من العثمانيين الى البحر في قوارب ارسلها لهم السير سدني الابعض الحامية في حصن أقاموه هناك فهجم عليه الفرنساويون وبعد دفاع سبعة ايام هدموه واسروا من كان فيه فشاع خبر انتصار الفرنساويين في القطر المصري فعظموا في عيون الاهلين

عود بونابرت الى فرنسا

ثم ورد لبونابرت من فرنسا رسائل منبئة باضطرابهم هناك وبثقل اليد عليهم وفيه الحاح كلي عليه ان يسير حالاً الى فرنسا بعد ان يجعل في مصر حامية منتظمة فكتم الامر ولم يكاشف به احداً الا الاميرال غانتوم لانه لم يرَ بدًّا من مكاشفته لكي يعدّ له دارعتين تنقلانه ومعيته الى فرنسا . ولكي لا يجعل للمصريين شبهة بمقاصده عاد الى القاهرة بما يلزم من احتفال النصر فوصلها في ١٣ صفر فخرج الاعيان لملاقاته بالموسيقى

وبعد قليل نزل الى الاسكندرية مظهراً التجول في الوجه البحري فلما وصل الاسكندرية كتب الى الجنرال كلابر وكان على مديرية الغربية يوليه القيادة العامة على مصر ويبين له وجوب المحافظة على الاحتلال لئلا تأتي دولة اخرى تحتل هذا القطر بعد ان بذلوا فيه ما بذلوه من المال والرجال ووعده بنجدة يبعث بها اليه حال وصوله الى فرنسا واخبره اخيراً عن الداعي الذي حمله على هذه السرعة . وكتب كتاباً آخر الى عساكره يشجعهم على الثبات والصبر وكتاباً الى علماء مصر ومشائخها يطلب اليهم ان يعتبروا الجنرال كلابر مكانه جاعلاً السبب في سفره انه ذاهب لقهر من بقي من اعدائه في اوروبا لانه ان لم يفعل ذلك لا يطمئن باله على مصر ويعدهم انه لا يغيب عنهم اكثر من ثلاثة اشهر وارسل هذه الكتب معاً الى كلابر واوصاه ان يطلع اصحابها عليها في الوقت المناسب

ثم بعث يستقدم الجنرال مينو اليه فجاءه حالاً وهو على اهبة السفر في ٢٥ صفر او ٢٢ اوغسطس (آب) فعهد اليه قيادة الاسكندرية ورشيد والبحيرة وسلمه كتب كلابر واوصاه ان يوصلها اليه حالاً . ثم ركب جواده وسار مساء بمن معه الى جهة مرابوت او العجمي وكان الاميرال غانتوم ودارعتاه بانتظاره هناك وفي الساعة العاشرة من تلك الليلة نزل بمن معه الى البحر . وفي صباح اليوم التالي ودعوا سواحل الدلتا واقلعوا قاصدين فرنسا

اما اهل الاسكندرية ولا سيما الخفر خارج المدينة فانهم شاهدوا في ذلك الصباح غباراً عجاجاً بجهة حصن العجمي فخافوا ان تكون كتيبة من العربان قادمة على المدينة ثم تبين لهم انها خيول مسرجة ولا راكب عليها فسألوا لمن هذه الخيول فقيل لهم انها الخيول التي نقلت بونابرت ومعيته الى البحر وقد سافر الى فرنسا فاندعر

القوم لتلك الاخبار وكادوا لا يصدقونها حتى بلغهم مينو رسمياً ما عهد اليه بونابرت قبل ذهابه

ثم ارسل مينو الاوامر والكتب التي بيده الى كلابر فوصلته وهو في رشيد قادماً لمقابلة بونابرت . فذهب الى القاهرة وبلغ المشائخ والعلماء ما امره به بونابرت وتلا عليهم كتابه اليهم وهؤلاء بلغوا الاهلين وهكذا ذاع خبر بونابرت في سائر القطر . وكان كلابر بالحقيقة اولى من سائر قواد تلك الحملة بذلك المنصب لانه كان افضلهم حزماً وعقلاً وهيبة وانفة وبسالة



ش ٤٧ : الجنرال كلابر

فقد ظهر لك مما تقدم ان الحملة الفرنساوية لم يكن القصد منها غير الاحتلال الدائم - ذلك كان قصد بونابرت اما كلابر فلم يكن ذلك رايه وانما كان ينظر الى مصر نظره الى بلاد لا تصلح لسكنى الفرنساويين لما بينها وبين بلادهم من اختلاف الهواء والعادات والاخلاق فضلاً عن انه لم يكن يرى امكان استمرار الحال على ما تركها بونابرت ولذلك بادر عند استلامه ازمة القيادة الى اطلاع فرنسا على حالة مصر عند خروج بونابرت فكتب اليها يقول :

راي كلابر بمصر

«قد سافر بونابرت الى فرنسا في الفروكتيدور السادس بدون ان يعلن احداً لكنه ارسل الي كتاباً وآخر للصدر الاعظم ارسله الى الاستانة مع علمه انه وصل الى دمشق . اما إعداؤنا الان فليسوا المماليك فقط وانما هم ثلاث دول عظمى : الباب العالي وانكلترا وروسيا . اما جنودنا فقد اصبحوا نصف ما كانوا يوم قدومهم الى مصر مبعثرين في انحاء القطر من العريش والاسكندرية الى اصوان . اما معداتهم فغير كافية لهم لان معامل الاسلحة والبارود معطلة . ومثل ذلك الالبسة فقد اصبحت رجالنا لاحتاجهم الى الالبسة معرضين لاوبئة البلاد . وزد على ذلك اننا خسرنا ١٢ مليوناً من الفرنكات بسبب تضمين الضرائب غير الاعتيادية بامر بونابرت . نعم ان المماليك تشتتوا لكنهم لم يبيدوا . هذا مراد بك ما انفك في مصر العليا في كثرة من الرجال يمكنه بهم ان يشغل قسماً من جنودنا لمدة طويلة . وهذا الصدر الاعظم جاء بحملة عثمانية لمناهضتنا وقد سار من دمشق الى عكا . اما حصوننا واستحكاماتنا فلا تزيدنا قوة — ان حصن العريش لا يدفع مهاجماً والاسكندرية اشبه بمعسكر محاط بزريبة . فافضل ما يمكنني اجراؤه والحالة هذه مخابرة الباب العالي لعلنا نصل الى وفاق فيه خير لنا . وقد علمت الان ان عمارة عثمانية رست امام دمياط »

حملة اخرى لاخراج الفرنساويين

الا ان كلابر مع ذلك لم يتقاعد عن تنظيم الاحوال واكتساب ثقة الاهلين وجمع العوائد والمكوس لدفع مرتبات الجند على حين انه لم يكن ممن يريدون احتلال مصر او استعمارها بل كان يفضل الانسحاب منها على شروط لا يكون فيها عارٌ على دولته ولكن الاحوال لم تنله ما نواه لان الدولة العلية عادت الى استخراج هذا القطر السعيد من ايدي الفرنساويين بالقوة فارسلت الصدر الاعظم يوسف باشا بنفسه الى دمشق يجند جنداً عظيماً يسير به عن طريق البر الى القاهرة وجنداً اخر يسير بحراً في عمارة السير سدني سميث باتفاق مع انكلترا لمطاولة الفرنساويين من جهة البحر ليسهل على حملة البر المسير في داخلية القطر . . فسار جند البحر الى دمياط ونزل في قلعة قديمة شرقي البوغاز فاخرجتهم منها الجنود الفرنساوية

اما الصدر الاعظم يوسف باشا فقدم يافا بحملته ثم جعل يتخابر مع كلابر في وفاق ينتهون اليه فانتهت المخابرة بمؤتمر عقد في العريش مؤلف من الصدر الاعظم من العثمانيين والجنرال ديزه والمسيو بوسيلك من الفرنساويين اقرَّ على معاهدة صلح

امضيت في ١٢ جمادى الاخرة سنة ١٢١٤ ه او ٣ دسمبر (ك ١) سنة ١٧٩٩ م

غير ان هذه المعاهدة لم يطل بقاؤها لان العثمانيين خرقوها بهاجمتهم العريش في ٢ رجب او ٢٣ دسمبر (ك ١) وهي تحت قيادة الكولونيل كازال وكان من البسالة على جانب عظيم فاحب الاهلون التسليم فابى واصرَّ على الدفاع الى اخر نسمة من حياته ولم تكن العريش من المناعة على شيء فدخلها العثمانيون واستولوا عليها فاتصل ذلك بالجنرال كلابر فاغتاظ جدًّا وكتب الى السير سدني يعنفه مع علمه ببراءته

معاهدة الصلح

فعادت المخابرات وعقد مؤتمر ثان في ٤ شعبان سنة ١٢١٤ او ٢٤ يناير (ك ٢) سنة ١٨٠٠ م في العريش مؤلف من ديزه وبوسيلك من الفرنساويين واثنين من العثمانيين واقروا على معاهدة عرفت بمعاهدة العريش مقتضاها انسحاب الفرنساويين بمؤنهم وذخائرهم عن طريق رشيد والاسكندرية وابي قير الى فرنسا انسحاباً قانونياً بكل ما لديهم

فسر كلابر لتلك المعاهدة لاعتقاده ان انسحابه على هذه الصورة لا يمس شرف دولته . ولما شاع خبر تلك المعاهدة بمصر فرح الاهلون عموماً وكذلك الجنود الفرنساوية لانهم لم يكونوا راضين بالمقام في بلاد تخالف بلادهم اقليماً واخلاقاً ومعيشة فضلاً عما كانوا يقاسونه من عصيان الاهلين وسفك الدماء . فضرب كلابر على البلاد ضريبة غير اعتيادية مقدارها ثلاثة الاف كيس لنفقات الجيش في نقل المهمات وصدرت الاوامر بالتأهب للرحيل . فباع الفرنساويون كل ما يصعب حمله من متاعهم وبعث كلابر الى الجنود المتفرقة في جهات الصعيد بالقدوم الى مصر . واطمأن المماليك الذين كانوا قد فروا من وجه الفرنساويين فعادوا الى القاهرة بنسائهم واولادهم . ثم نهض الصدر الاعظم بجيشه نحو القاهرة حتى اذا اتى بلبيس سار علماء مصر ومشائخها باذن من كلابر لملاقاته وتقديم واجب العبودية لجلالة السلطان فسر الصدر الاعظم بهم وخلع عليهم

نقض المعاهدة

وبينما الحال كذلك ورد للجنرال كلابر كتاب من السير سدني مآله نقض معاهدة العريش وتعريبه ملخصاً :

« سيدي . اعلم حضرتكم اني قد تشرفت باوامر شاهانية تمنع عقد اية معاهدة مع الجيوش الفرنساوية التي هي تحت قيادتكم في مصر وسوريا الا اذا سلموا انفسهم وسلاحهم كما يفعل اسراء الحرب مع التخلي عن كل المراكب والمؤن التي لهم في الاسكندرية »

على ان السير سدني نفسه لم يكن يرى الا البقاء على المعاهدة لكن دولته حملت الباب العالي على اصدار هذه الاوامر . وقد كتب السير سدني الى دولته يظهر رايه ويبين اوجه الخطأ التي اتتها بذلك النقض ولم تحصل نتيجة . اما كلابر فاستشاط غضباً لذلك ولم يكن جوابه الا الحرب فاسرع الى احتلال الطوابي على الروابي خارج القاهرة وتعزيزها بما يلزم من العدة والرجال . وكان يوسف باشا قد اصبح على مقربة من القاهرة ومعه الجيوش العثمانية فكتب الى المشائخ والعلماء يستحثهم على اخراج الفرنساويين من بلادهم

فعقد الجنرال كلابر مؤتمراً حربياً قال فيه « ان الدولة العثمانيــة قد سهلت انسحابنا فوقف الانكليز في طريقنا فعلينا محاربتهم » ثم بعث الى الصدر الاعظم بعزمه على الحرب وحشد جيشه خارج القاهرة وكانت مقدمة الجنود العثمانية بقيادة ناصيف باشا احد قواد الحملة معسكرة في المطرية النيل الى يمينها والصحراء الى يسارها ووراء ذلك الخانقاه وفيها باقي الجيش بقيادة يوسف باشا وعددهم نحو من اربعين الفاً او تزيد وانضم اليهم الانكشارية والمماليك تحت قيادة ابراهيم بك . فالتقى كلابر بمقدمة العثمانيين فتقهقرت بعد الدفاع الحسن وفر ناصيف باشا وبعض المماليك لجهة القاهرة فقدم كلابر برجاله فظهر له عن بعد غبار عجاج في سهل بين قريتين وهما سرياقوس الى اليسار والمرج الى اليمين ثم انقشع الغبار عن الجنود العثمانيـة قادمة من الخانقاه لملاقاة الفرنساويين فالتقى الفريقان وانتشبت الحرب فدافعت الجنود العثمانية دفاعاً حسناً معهوداً بالرجال العثمانيين الا انهم اضطروا اخيراً الى التقهقر نحو الخانقاه فتبعهم الفرنساويون فخرجوا منها وما زالوا حتى تجاوزوا الصالحية فوصلها كلابر فرآها خالية فاستولى على ما كان فيها

ثورة اهل القاهرة

اما اهل القاهرة فلما علموا بمسير كلابر الى المطرية ثاروا على من بقي في مصر من الفرنساويين وبعد الظهيرة اتاهم ناصيف باشا ومعه جماعة من المماليك المتقدم ذكرهم وقالوا انهم غلبوا الفرنساويين وجاؤا لاستلام المدينة باسم جلالة السلطان . فأمر ناصيف باشا ان يقتلوا من بقي في مصر من المسيحيين رغم كونهم من رعايا الدولة العليــة . اما العساكر الفرنساويون الباقون في القاهرة فكانوا يدافعون بالامر الممكن . وطالت المذبحة في احياء المسيحيين من الاقباط والسوريين والافرنج الى ان جاء عثمان بك احد ضباط العثمانيين الى ناصيف باشا قائلاً « ليس من العدالة ان تهرقوا دماء رعايا الدولة

العلية فان ذلك مخالف للارادة السنية » وبث رجاله في المدينة لايقاف القتل

ثم تمكن الفرنساويون من احتلال القلعة وباقي الطوابي ولبثوا ينتظرون مايكون من ناصيف باشا. فهجم عليهم فاطلقوا عليه وعلى رجاله ناراً ارجعتهم الى اماكنهم حتى لم يبق منهم في الازبكية رجل واحد واستمر اطلاق النار على المدينة من القلعة وباقي الطوابي الى منتصف الليل فوقع الرعب في قلوب الاهلين وهمّ المشايخ بالفرار فامسكتهم الرعية قهراً . وكان في بعض بيوت المدينة مدافع فاخرجها الاهلون ورتبوها على هيئة بطارية احاطوها بطابية وحظروا على الناس الخروج من تلك الطابية ولم يكن عندهم قنابل فاستخدموا عيار الموازين عوضاً عنها . وبعد مضي يومين على تلك الحال انبىء ناصيف باشا بقدوم جند فرنساوي من جهة المطرية لنجدة حامية القاهرة فبعث اليهم سرية من الفرسان فلم ينالوا منهم مأرباً فوصل الفرنساويون منادين بانتصارهم في مواقعهم مع العثمانيين . وكانت المدينة برمتها في يد الوطنيين فعجز الفرنساويون عن الدخول اليها ثم جاءت نجدة اخرى ولم يستطيعوا اخماد الثورة . ثم جاء الجنرال كلابر وقد كانت مؤن جيوشه في القاهرة تنفد وخرج جميع المسيحيين من الاقباط والسوريين فارين من على السور طالبين الالتجاء الى معسكر الفرنساويين ثم تضايق الاهلون لقلة الماء لان الفرنساويين قطعوه عنهم

وفي ٢٧ شوال او ١٤ ابريل (نيسان) طلب كلابر الى سكان بولاق ان يسلموا فأجابوا انهم تابعون للمدينة بما يلحق بها فاطلق عليهم قنابل لاتزال بعض آثارها باقية الى هذه الغاية فسقطت البيوت ودخل الفرنساويون بولاق ولم يبقوا عليها نهباً وقتلاً فلما تأتى ذلك لكلابر غرج نحو المدينة بالمدافع والحراريق وكانت ليلة ليلاء ممطرة اختلطت فيها اصوات المدافع بقصف الرعد وشرارها بلمع البرق وهجمت العساكر على المدينة خائضين في الاوحال يثبون من حائط الى آخر بين البيوت التي هدمتها مدافعهم وفي ايديهم خرق مبتلة بالزيت مشتعلة يرمونها ذات اليمين وذات اليسار لاحراق المدينة فعلا الصياح من النساء والاطفال خوفاً من النيران حتى كانوا يلقون بانفسهم عن الجدران والسطوح تخلصاً من اللهيب

فهم ناصيف باشا بالفرار فتتبعوه فدخل بيتاً لبعض ذويه واختفى . فامر كلابر ان ينادى في الناس « وما النصر الا من عند الله وهو سبحانه وتعالى قد امر الظافرين بالرفق وعليه فان الصاري عسكر يعفو عن اهل القاهرة وسائر البلاد المصرية عموماً ولو اتحدوا مع الاتراك فليرجع كل الى شأنه » فكف الناس عن القتال وهدات الاحوال

فبعث كلابر ان تنظف الاسواق وترفع الجثث وامر ان تنوّر المدينة ثلاثة ايام احتفالا بالنصر ودعا اليه العلماء والمشايخ واعدّ لهم وليمة حافلة وبعد يومين جمعهم في مجلسه واخذ يعنفهم على ما اتوه من الخيانة فاجابه الشيخ المهدي « انا لم نأتِ خيانة اما اتحادنا مع العثمانيين فكان بامر منك » وحجر كلابر على خمسة عشر شيخاً لم يتركهم حتى اخذ منهم غرامة مقدارها ١٢ مليوناً من الفرنكات . وسكنت بعد ذلك الاحوال واطمأنت القلوب

ثم علم مراد بك بما حل بالمدينة وما كان من نصرة الفرنساويين فاحب الانحياز الى الجانب الاقوى فجاء الى ضواحي القاهرة وكتب الى كلابر ثم اجتمع معه وتفاوضا فتعاهدا على الاتحاد وتهاديا هدايا فاخرة فولاه مصر العليا مكافأة لصداقته

مقتل كلابر

فاطمأن كلابر من قبيل مصر بعد اتحاده مع المماليك وعظم في عيون الاهلين وسكن في بيت مراد بك في الجيزة وامر بترميم الاماكن التي هدمت بسبب تلك الثورة وفي جملتها ديوان الجيش غربي الازبكية في اول شارع بولاق الى اليمين . وفي ١٤ يونيو (حزيران) سنة ١٨٠٠ م دعي كلابر الى غداء عند اركان حربه الجنرال داماس في منزله قرب ديوان الجيش . فبعد مناولة الطعام خرج كلابر والموسيو بروتين مهندس الحملة يتمشيان في رواق (ممشى) موصل بين بيت الجنرال داماس والديوان نحو الساعة الثانية بعد الظهر. فبينما كانا يتحادثان وثب رجل من آخر الرواق عليه ثوب خلق وفي يده خنجر طعن به صدر الجنرال كلابر فنادى الحرس وهجم بروتين على الرجل فنال منه مثلما نال من كلابر فسقط بروتين على الارض فتركه ذلك الشقي وعاد الى كلابر وطعنه ثانيةً وثالثةً حتى اجهز عليه ثم سمع ضجة ففرّ الى حديقة بالقرب من ذلك المكان واختبأ وراء الحائط فلما اتى الخفر لم يروا الا ذينك الرجلين يتخبطان بدمهما فحملاهما الى البيت واتوا لهما بالطبيب فمات كلابر حالاً اما بروتين فبقي تحت المعالجة

ونودي في المدينة بالقبض على ذلك الفاعل حيثما وجد وكان بروتين قد افهمهم شيئاً عن ملابسه وشكله . وبعد يسير جيء برجل عليه لباس رث واوقفوه امام بروتين فعرفه وقال هذا هو الجاني . ثم قرّر آخرون انهم راوه منذ بضعة ايام يتردد بين البيوت ويختلط بخدمة الديوان



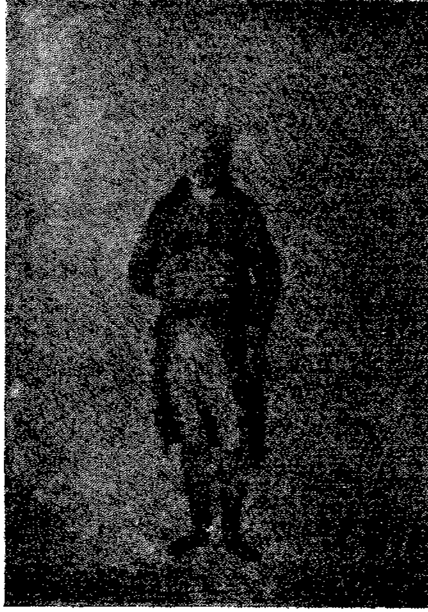
ش ٤٨ : سليمان الحلبي قاتل الجنرال كلابر

وبعد استنطاقه بسبل مختلفة وجد ان اسمه سليمان الحلبي التقى به احد اغوات الانكشارية في بيت المقدس وكان قد ذهب الانكشاري اليها للتفتيش عن رجل يقدم على قتل كلابر . فخاطب سليمان الحلبي بذلك فاجاب على شرط ان ينجي اباه في حلب من ضرائب فادحة يطلبها منه والي تلك الولاية . فجاء به الى غزة وهناك اتاه بكتب توصية من آغا غزة لعلماء الازهر. فبرح سليمان غزة في ٨ مايو فوصل القاهرة في ١٤ فنزل في بيت مصطفى افندي ليلة ثم تمشى الى بعض العلماء فابوا مشاركته بالجناية

اما هو فلم ينفك حتى اغتنم تلك الفرصة وفعل ما فعل فاستدعي المشائخ المتهمون وهم ثلاثة وبالاستفهام منهم اجابوا انهم لم يروا الرجل ولم يعرفوه قبل تلك الساعة . ثم عين الجنرال مينو لجنة لفحص القضية فحكمت باعدام المشائخ الثلاثة لانهم عرفوا عزم القاتل على القتل ولم يخبروا عنه . اما القاتل فحكم عليه بالاعدام على الخازوق لكنهم اوقفوا تنفيذ الحكم لبعد دفن الفقيد . فشيعوا جنازته باحترام واحتفال ولما واروه التراب جاءوا بالجانين واعدموهم

الجنرال مينو

واقاموا على القيادة العامة بدلا من كلابر الجنرال مينو وكان ممن يرغبون في البقاء بمصر فاسلم ودعى نفسه عبد الله وولد له غلام دعاه سليمان . ثم ظهر من تصرفه بالاحكام انه ليس على شيء من الهمة والدراية فسخر به الفرنساويون وكرهوه



ش ٤٩ : الجنرال مينو

وكان ديوان القاهرة مؤلفاً من طائفتي المسلمين والمسيحيين فجعله من المسلمين فقط وهذه اسماء المشائخ الذين تألف منهم الديوان بامر الجنرال مينو وهم تسعة مع من يلحقهم :

الشيخ الشرقاوي رئيس الديوان والشيخ المهدي كاتب السر والشيخ الامير والشيخ الصاوي وكاتبه والشيخ موسى السرسي والشيخ خليل البكري . والسيد علي الرشيدي نسيب ساري عسكر والشيخ الفيومي والقاضي الشيخ اسماعيل الزرقاوي. وكاتب سلسلة التاريخ السيد اسماعيل الخشاب. والشيخ علي كاتب عربي. وقاسم افندي كاتب افرنجي وترجمان كبير القس رفائيل . وترجمان صغير الياس نخر الشامي . والوكيل الكمشاري فوريه ويقال له مدبر سياسة الاحكام الشرعية . ومقدم وخمسة قواسه

واخذ منو جانب المسلمين فمهد اليهم جباية الخراج بعد ان كانت في ايدي الاقباط على ان ذلك كله لم يغير شيئاً من كره الوطنيين لتلك الامة الاعجمية التي جاءت لامتلاك بلادهم ومن جملة ما جرّهم الى ذلك انه اعلن حماية فرنسا على مصر . وان مصر قد اصبحت مستعمرة فرنساوية . وشق ذلك على قواد الحملة فجاءوا اليه بصفة رسمة وبلغوه ان الجيش الفرنساوي غير راض عن هذه البدع وان الجمهورية الفرنساوية ولا تقصد بحملتها على مصر ما قد صرح به هو فلم يجبهم بشيء وانما وعدهم انهُ سينظر في ما قالوا

وكانت انكلترا لا تنفك عن السعي في اخراج الفرنساويين من مصر صيانة لمصالحها في الهند على الخصوص . فاعدت عمارة بحرية مؤلفة من ١٧٥ مركباً وخمسة عشر الفاً من الرجال وارسلتها الى مصر بقيادة السير رلف ابركرومبي فسار اليها ودخل جون ابي قير في ٢ مارس (اذار) سنة ١٨٠١م فشاهد آثار العمارة الفرنساوية التي حطمتها عمارة نلسون . وفي ٧ منه نزل السير رلف المذكور في قارب لاستكشاف الشاطىء ليختار محلاً ينزل فيه الجيش . وفي ٩ منه شرعت الجنود الانكليزية بالنزول الى البر فاطلق عليهم من الرمل عدة قنابل من طابية تحصن فيها متسلم الاسكندرية بالف وخمساية رجل اما الانكليز . فلم يكترثوا بذلك بل استمروا على النزول بسرعة والقنابل تتساقط حول قواربهم حتى امتلكوا البر ولم يلحقهم الا ضرر يسير

ثم شخصوا الى الاسكندرية فلاقاهم الفرنساويون باربعة آلاف وخمسمائة مقاتل وفيهم حامية الرحمانية . وانتشبت الحرب بين الطرفين طول ذلك النهار ولم يظهر احد منهما . وكانت خسائر الفرنساويين خمساية رجل والانكليز الفاً ومائة . ومما اعاق الانكليز قلة فرسانهم فعسكروا بجوار الاسكندرية وبنوا الطوابي والخنادق وحفروا اباراً لاستخراج الماء . اما القاهرة فكانت على عهدك بها لفساد سياسة مينو . وفي ٤ مارس وصلته الاخبار بوصول العمارة الانكليزية الى ابي قير فبدلاً من الاسراع في النجدة جعل يتوهم اوهاماً لا طائل تحتها . وبعد اللتيا والتي بعث فرقة الى بلبيس واخرى الى دمياط واخرى الى ابي قير براً واخرى في النيل

مجيء الانكليز الى مصر

وفي ١١ منه جاءته الاخبار باحتلال الانكليز ابا قير وهجومهم على الاسكندرية فارتبك في امره فجمع اليه مشايخ الديوان وقال انه ذاهب الى السواحل وقد استخلف الجنرال بيليارد مكانه وزعم ان سبب ذهابه قدوم بعض المالطية والايطاليين الى ابي قير .

ثم استقدم الفرقة التي ارسلها الى بلبيس وامر من بقي من الجيش في مصر ان يسيروا الى الرحمانية . فبرح مينو القاهرة في ١٢ منه لـكنه لم يصل الاسكندرية الا في ١٩ منه وقد تحصن الانكليز تحصناً لا يقوى هو على مقاومتـه فاستشار قواده فاشاروا عليه بالهجوم على ذلك الحصن الايمن لانه اقوى حصونهم لكنـه لم يجسر على ذلك نهاراً فهجم ليلاً فلم ينجح

وفي اليوم التالي ٢١ مارس (اذار) امر ان تهجم الجيوش كلها دفعة واحدة باكراً بلا ضرب النفير وكان الانكليز في يقظة تامة ففي الساعة الثالثة بعد نصف الليل سمعوا دوي المدافع عن يسارهم فوجهوا نيرانهم نحوها ثم سمعوا مثلها عن يمينهم فاجابوا بمثلها وبعد معركة كبيرة تقهقر الفرنساويون مجانبة ففهم ابركرومبي غرضهم من ذلك فعزز ميمنة معسكره واتخذ قيادتها بنفسه فاصيب بجرح قتال القاه على الصعيد فقدم السير سدني سميث وانهضه وما زالت الحرب قائمة حتى الساعة الحادية عشرة قبل الظهر وقد قتل كثير من الضباط الفرنساويين . فامر الجنرال مينو بالراحة فعادت رجاله وعدد قتلاهم وجرحاهم نحو الفين اما خسائر الانكليز فكانت ٢٤٠ قتيلاً و ١٢٥٠ جريحاً من جملتهم السير رلف ابركرومبي فنقلوه الى احدى الدوارع فعاش بضعة ايام وتوفي فتحولت قيادة العمارة الى الجنرال هتشنسون

وفي ٢٥ مارس (اذار) جاءت الانكليز نجدة عثمانية بقيادة حسين قبطان باشا . فراى الجنرال هتشنسون ان يبعث اربعة آلاف من الجنود العثمانيين وفرقتين من الانكليز وثمانية مدافع بقيادة الكولونل سبنسر لاحتلال رشيد . فاتصل ذلك بالجنرال مينو فارسل اركان حربه لاستطلاع قوة تلك التجريدة فقدرها اقل مما هي كثيراً فاستخف بها فلم ينجد رشيداً

اما الكولونل سبنسر فما زال سائراً حتى اتى رشيداً فدخلها بسلام ولما استقر بها بعث الطوبجية بمدافعهم لضرب حصن جوليان وفيه حامية من الفرنساويين فضيقوا عليهم حتى سلموا فامنوهم ثم اخرجوهم من الحصن . فاتصل ذلك بحامية الرحمانية فاستمدت الجنرال بيليارد في القاهرة فاجاب معتذراً بعدم امكانه الاستغناء عمن لديه من الجنود فبعثت الى مينو في الاسكندرية فامدها بما استطاع

نجدة العثمانيين للانكليز

فاصبحت الجيوش الفرنساوية بذلك اقساماً متفرقة لاتقوى على دفاع : الجنرال بيليارد بالقاهرة في خمسة آلاف يتأهب لدفاع الجيوش العثمانية القادمة بطريق الصحراء بقيادة الصدر الاعظم يوسف باشا . وحامية الرحمانية لما بلغها سقوط رشيد خارت قواها

والجنرال مينو كان محاصراً في الاسكندرية لايبدي حراكاً وقد ضايقه الانكليز بقطع الجسر الفاصل بين الملاحة وبحيرة مريوط وزد على ذلك انهم قطعوا المياه عن الاسكندرية فلم يبق عنده الا مياه الصهاريج

اما الجنود العثمانية والانكليزية فبعد ان احتلوا رشيداً صعدوا في النيل في ٨ مايو (ايار) حتى اتوا العطف فاستلموها ثم ساروا الى الرحمانية واستولوا عليها ايضاً ففرت الجنود الفرنساوية الى القاهرة واعلموا بيليارد بما كان فامر بعقد مجلس حربي للمفاوضة بالدفاع النهائي لان العدو تكاثر عليهم : هتشنسون من الجهة الواحدة والصدر الاعظم يوسف باشا من الجهة الاخرى وكان قد استولى على دمياط وسار قاصداً القاهرة في ثلاثين الف مقاتل حتى عسكر في بلبيس في ١١ مايو (ايار) . اما مراد بك فبعد محالفته الفرنساويين على ماتقدم توفي وتولى مكانه على الصعيد عثمان بك البرديسي فلما علم هذا بقدوم العثمانيين والانكليز نقض المحالفة

فلما اجتمع المجلس الحربي تفاوضوا في جميع ذلك فراوا ان الجيوش الفرنساوية الموجودة في القاهرة وفي جملتها حامية الرحمانية لاتزيد على اثني عشر الفاً نصفهم جرحى ومرضى وليس لديهم من المال الا اليسير . فلم ير بيليارد لحل هذا المشكل الاوجهين اما ان يسير بما لديه من الجند في النيل لملاقاة مينو فيتكاتفان على الدفاع او ان يسير الى دمياط . ولم ير بدًّا على الحالين من اخلاء القاهرة وكان يفضل المسير الى دمياط لانها تصلح للحصار اذا طال . وفيها من الحاصلات مايقوم باحتياجات جيشه وهو في الحالين عالم بعجزه عن مناهضة عدوه

ثم حدثته نفسه ان يلاقي الجنود العثمانية والانكليزية جميعاً عند اقترابهم من القاهرة . فخرج في خمسة آلاف في ١٦ مايو (ايار) متمثلاً بكلابر وعسكر في نقاب فوصلت اليه مقدمة جيوش يوسف باشا فلم يستطع الوقوف امامها فعاد الى القاهرة

انسحاب الفرنساويين من مصر

وفي ٢٣ مايو وصل هتشنسون الى طرامة فقطع ترعة منوف وسار بنفسه الى معسكر يوسف باشا وفاوضه في الطريقة التي يجب اتخاذها لاتمام مشروعهم فاقروا على طريقة . ثم عاد هتشنسون الى طريقه وسار في رجاله على فرع النيل الغربي حتى اتى الجيزة في ٣٠ منه وواصل يوسف باشا سيره من الجهة الاخرى فانحصر بيليارد في القاهرة لايستطيع حراكاً فعقد مجلساً حربياً اقرَّ فيه على تسليم المدينة والانسحاب نحو الاسكندرية او دمياط فبعث الى معسكر الانكليز مندوباً بشأن ذلك وبعد المخابرة تقرر

ان تنسحب الجيوش الفرنساوية الموجودة في القاهرة انسحاباً قانونياً بما لديهم من المهمات والاسلحة الى فرنسا وان يكون ذلك على نفقة الانكليز وكتب بذلك معاهدة امضيت في ٢٥ يونيو (حزيران) سنة ١٨٠١ وتثبتت في ٢٦ منه على ان تنفذ بعد ١٥ يوما

ففي ١٠ يوليو (تموز) (٤ ربيع اول سنة ١٢١٦ هـ) برح بيليارد القاهرة ومعه ١٣٧٣٤ من العساكر والضباط قاصدين رشيداً على ان يسافروا منها الى فرنسا فاندهل هتشنسون لما اوتيه من الفوز العظيم وكاد لايصدق به حتى ٧ اوغسطس (آب) عند ما علم بركوب الجيوش الفرنساوية راجعين الى بلادهم

اما مينو فكان في الاسكندرية ومعه عشرة الاف مقاتل فتفاوض مع من كان باقياً لديه من القواد فأصروا على المخابرة وفي ٢ نوفمبر من تلك السنة عقدوا معاهدة الانسحاب وانسحبوا في اثناء ذلك الشهر مثل انسحاب بيليارد . واذا امعنت النظر رايت هذه المعاهدة ومعاهدة العريش التي عقدت في ٢٤ يناير (ك ٢) سنة ١٨٠٠ م شيئاً واحداً ولم تكن نتيجة ذلك التأخير الا سفك الدماء

وكانت الحكومة الانكليزية قد امرت الجنرال برد ان يقدم من الهند في ٦ الاف من الجنود الهندية المنظمة الى مصر امداداً لابركرومبي في البر فجاء الى القصير على سواحل البحر الاحمر ومنها سار في الصحراء الى قنا ثم نزل الى القاهرة فوصلها بعد التوقيع على الانسحاب فنزل الى الاسكندرية وحضر انسحاب مينو وجماعته

هذه هي الحملة الفرنساوية فتأمل كيف كانت نهايتها وكيف انها بعد قضاء ثلاث سنوات ونيف كلها حروب ومقاومات عادت بخفي حنين . وقد ذكر الجبرتي في حوادث سنة ١٢١٥ هـ ما احدثه الفرنساويون من العماير وغيرها وما غيروه او اخربوه فليراجعها من شاء



من انسحاب الفرنساويين الى ولاية محمد علي باشا

من سنة ١٢١٦ — ١٢٢٠ هـ او من ١٨٠١ — ١٨٠٥ م

فبعد انسحاب الفرنساويين استلم يوسف باشا الصدر الاعظم زمام الاحكام في القاهرة باسم جلالة السلطان بمساعدة الجنرال هتشنسون وكان حسين قبطان باشا اميرال العمارة العثمانية لايزال في ابي قير والاسكندرية بعد سفر مينو . اما الانكليز فلم يكن غرضهم الاتثبيت سلطة الباب العالي والانسحاب فجعلوا معسكرهم في مصر القديمة . وكان المماليك لايزالون يحاولون التسلط ولم تزل بقية منهم بقيادة اثنين من كبارهم وهما عثمان بك البرديسي ومحمد بك الالفي وكان معسكرهم في الجيزة

الكيد بالمماليك ولم ينجح

فاخذ القائدان العثمانيان يوسف باشا وحسين قبطان باشا يدبران مكيدة تذهب بمن بقي من المماليك فاتفقا على ان يدعو قبطان باشا بعض امرائهم الى حفلة يعدها لهم في ابي قير وان يهجم يوسف باشا على من بقي منهم في الجيزة فيأتيان على اهلاكهم . فبعث قبطان باشا الى بعض امراء المماليك يدعوهم الى وليمة وقال انه اعدها لهم في معسكره بابي قير وان غرضه من ذلك الاجتماع المفاوضة معهم فيما يجب اتخاذه من الوسائل لاصلاح البلاد . فاجابوا دعوته وهم في ريب من مقاصده على انهم لم يكونوا يستطيعون رفض الدعوة خيفة ان يجعلوا للقوتين العثمانية والانكليزية باباً للارتياب بمقاصدهم

فلما وصلوا اباقير رحب بهم حسين باشا ودعاهم الى النزول معه في قاربه الخصوصي ليسيروا معا الى القومندان الانكليزي على احدى الدوارع للمفاوضة معه ببعض الشؤون . فركبوا حتى صاروا على مسافة من البر فالتقوا بقارب آت من الدوارع قال من فيه ان لديهم كتباً باسم قبطان باشا ومخابرات اخرى مهمة . فوثب القبطان عند ذلك الى القارب الاخر وامره ان يسير فسار وبقي المماليك وحدهم فاوجسوا خيفة ثم سمعوا اطلاق المدافع عليهم من قارب العثمانيين فتأكدوا انها مكيدة فحاولوا الرجوع الى البر ولم يصلوه حتى قتل عثمان بك الطمبورجي وثلاثة آخرون وجرح عثمان بك البرديسي واثنان آخران . وفي نحو ذلك الوقت ارسل يوسف باشا في القاهرة فرقة من رجاله يهاجمون المماليك في الجيزة فوثبوا عليهم واحرقوا بيوتهم فالتجأ كبارهم الى الانكليز فحموهم رغم اصرار يوسف باشا على طلبهم

ثم انسحبت الجيوش الانكليزية من مصر بامر الاميرال كيت وبقيت مصر يتنازعها الجنود العثمانية والمماليك . وكان يوسف باشا في القاهرة نائباً عن الباب العالي . ولم يكن بد من تولية والٍ عثماني يقوم باعباء الولاية فسعى يوسف باشا بمساعدة حسين قبطان باشا في تولية خسرو باشا كخيا حسين قبطان باشا فكتبا بذلك الى الاستانة فاجاب الباب العالي طلبهما وبعث لهما الفرمان المؤذن بذلك

ولاية خسرو باشا

فتولى خسرو باشا على مصر في ١٢ جمادى الاولى سنة ١٢١٦ هـ ولم يكن ينقصه لاستتباب الراحة الا ابادة من بقي من المماليك . وكانوا مع ما الم بهم منذ قدوم الفرنساويين لا يزالون قادرين على المقاومة نظراً لمعرفتهم باحوال البلاد واحزابها . وبعد وفاة مراد بك واعتزال ابراهيم بك عن الاعمال اصبحوا تحت قيادة عثمان بك البرديسي ومحمد بك الالفي كما تقدم وقد دانت لهم مصر العليا . فناهضهم خسرو باشا فلم ينجح ولم يكن اذ ذاك في سلطة الباب العالي الا القاهرة والاسكندرية وما بينهما

ولم يستطع خسرو باشا تحصيل ما يقوم بدفع مرتبات العساكر فثاروا في ٢ مايو سنة ١٨٠٣ م واحاطوا بالخزندار وحبسوه في بيته . فامر خسرو باشا ان تطلق عليهم المدافع حتى علت الضوضاء واشتد الخصام فتوسط طاهر باشا اركان حرب خسرو باشا في صرف ذلك المشكل فلم يوافقه خسرو على قصده واتهمه باتحاده مع العصاة . فاغتاظ طاهر باشا واخذ جانب العصاة وامرهم ان يهدموا الاسوار فخاف الباشا ولم يرَ الا الفرار بحريمه وحاشيته على ضفة النيل الشرقية نحو المنصورة . ثم سار منها الى دمياط وحاصر هناك . فاغتنم طاهر باشا تلك الفرصة وجمع اليه القضاة وارباب الديوان فاقروه على مصر بصفة قائمقام موقتاً لبينما ترد الارادة السنية بتولية من يتولى عوضاً من خسرو باشا

ففي ٢٥ مايو (ايار) سنة ١٨٠٣ م لاقى طاهر باشا من القوة العسكرية ما لاقاه خسرو باشا — وذلك ان اثنين من الاغوات وهما موسى واسماعيل تشكيا اليه من تأخر الرواتب فانتهرهم فاغلظوا له فاشتد الخصام فجردا السيف وقطعا رأسهُ ورمياه من الشباك وانتهى الخصام باحتراق القصر

فاصبحت مصر بغير والٍ يدير اعمالها . وفي هذه الفرصة تأتى لذلك الرجل العظيم محمد علي باشا ارومة العائلة الخديوية اظهار ما اختص به من البسالة وعلو الهمة وما جعله الله فيه من الفضائل التي قدّر له ان يبثها في هذا القطر السعيد

الاسرة المحمدية العلوية

من سنة ١٨٠٥ ولا تزال



ش ٥٠ : محمد علي باشا

مؤسس الاسرة الخديوية بمصر



محمد علي باشا

من سنة ١٨٠٥ — ١٨٤٨ م

اولاً — صبوته وشبيبته

انظر الى خارطة بلاد الروملي في سواحلها الجنوبية على مسافة ٣٢٠ كيلو متراً من الاستانة غرباً ترَ قرية اسمها قواله لا يزيد عدد سكانها على الثمانية آلاف نفس . وكان في تلك القرية في اواسط القرن الماضي رجل اسمه ابراهيم آغا كان متولياً خفارة الطرق ولد له سبعة عشر ولداً لم يعش منهم الا واحد . وفي سنة ١٧٧٣ توفي هذا الرجل وامراته عن ذلك الولد وسنه اربع سنوات واسمه محمد علي

فاصبح الغلام يتيماً ليس له من يعوله الا عماً اسمه طوسون آغا وكان متسلماً على قواله فجاء به الى بيته شفقة عليه . غير ان المنية عاجلت طوسون فقتل بامر الباب العالي بعد ذلك بيسير فاصبح الغلام يتيماً قاصراً وليس من ينظر اليه

وكان لوالده صديق يعرف بجربتجي براوسطة فشفق على الغلام وجاء به اليه وعني بتربيته مع اولاده . غير ان ذلك لم ينسه حاله من اليتم فكان يشعر بالذل وضعة النفس . ويروى عنه بعد ان ارتقى ذروة المجد واعتلى منصة الاحكام انه كان يحدث عما قاساه في صبوته من الذل الى ان يقول :

« وُلد لابي سبعة عشر ولداً لم يعش منهم سواي فكان يحبني كثيراً ولا تغفل عينه عن حراستي كيفما توجهت . ثم توفاه الله فاصبحت يتيماً قاصراً وأُبدل عزي بذل وكثيراً ما كنت اسمع عشرائي يكررون هذه العبارة التي لا انساها عمري وهي (ماذا عسى ان يكون مصير هذا الولد التعس بعد ان فقد والديه) فكنت اذا سمعتهم يقولون ذلك اتغافل عنه ولكنني اشعر باحساس غريب يحركني الى النهوض من تحت هذا الذل . فكنت اجهد نفسي بكل عمل استطيع معاطاته بهمة غريبة حتى كان يمرُّ عليَّ احياناً يومان ساعياً لا آكل ولا انام الا شيئاً يسيراً . وفي جملة ما قاسيته اني كنت مسافراً مرة في مركب فتعاظم النوء حتى كسره وكنت صغيراً فتركني رفاقي وجدي وطلعوا الى جزيرة هناك على قارب كان معنا فجعلت اجاهد في الماء وسعي تتقاذفني الامواج وتستقبلني الصخور حتى تهشمت يداي وكانتا لا تزالان يانعتين وما زلت حتى اراد الله ووصلت الجزيرة سالماً وقد اصبحت هذه الجزيرة الآن قسماً من مملكتي »

ومما يحكى عنه في ايام صبوته انه كان يتردد على رجل فرنساوي مقيم في قواله اسمه المسيو ليون وكان من كبار التجار محبًّا للفضيلة . وحالما رأى محمد علي للمرة الاولى أشفق عليه واحب مساعدته لما توسم فيه من الفطنة والنباهة فكان يقدم له كثيراً من حاجياته ويسعفه بكل ما في وسعه حتى ألفه محمد علي كثيراً — وهذا هو سبب وثوقه بالامة الفرنساوية بعد توليه الاحكام في مصر واستخدامه افراداً منهم في مصلحة البلاد . ويقال انه رحمه الله بعث سنة ١٨٢٠ الى الموسيو ليون المشار اليه يدعوه الى مصر يقضي فيها زمناً في ضيافته فاجاب دعوته ولكنه مات قبل قدومه فاسف عليه محمد علي كثيراً وبعث الى شقيقته هدية تساوي عشرة آلاف فرنك

قلنا انه ربي في صبوته ببيت جربتجي برواسطة وتعلم في صغره ما يتعلمه ابناء تلك البلاد من العاب السيف والجريد والحكم وماشاكل فنبغ فيها حتى اذا بلغ اشده انتظم في سلك الجهادية تحت ادارة مربيه فاظهر في جباية الضرائب مهارةً وبسالة عجيبتين فرقاه الى رتبة بلوك باشي وزوجه احدى ازواج قرابته وكانت مطلقة ولها مال وعقار فترك الجهادية وتعاطى التجارة وعلى الخصوص في صنف التبغ لانه اكثر اصناف التجارة في بلاده . وقد برع في تلك التجارة حتى اكتسب شهرة واسعة وثقة عظمى لدى عملائه . وكان قد ذاق لذة التجارة واحبها مذ كان يتردد على المسيو ليون المتقدم ذكره ولذلك رأيناه بعد ان تولى مصر يوجه انتباهه بنوع خاص لتنشيط التجارة

وما زال يتعاطى التجارة الى سنة ١٨٠١ حينما عزم الباب العالي على اخراج الفرنساوية من مصر بمساعدة انكلترا . فبعثت الحكومة العثمانية اليهم عمارة قوية تحت قيادة حسين قبطان باشا وفيها قوات انكليزية وبعثت الصدر الاعظم في حملة من جهة البر كما تقدم

ثانياً — ارتقاؤه منصة الاحكام

وكان محمد علي في جند القوة البحرية وقد تجند اليها في جملة من تجند في براوسطة بصفة معاون لعلي آغا بن مربيه على ثلاثمئة جندي الباني (ارناؤوط)

فجاءت العمارة الى ابي قير وكانت الغلبة هناك للفرنساويين ثم عاد علي آغا الى بلاده تاركاً رجاله تحت قيادة محمد علي وكان هذا قد ترقى الى رتبة بيكباشي

ثم تغلب العثمانيون بمساعدة العمارة الانكليزية وحملة الصدر الاعظم ودخلوا البلاد واخرجوا الفرنساويين وجعلوا يهتمون في تأييد سلطة الباب العالي فيها

وكان في الجنود العثمانية جماعات من الارناؤوط والانكشارية والغليونجية فتفرقت هذه الجنود لحماية مصر السفلى وبعض مدن الصعيد . اما الانكليز فكانوا تحت قيادة الجنرال هتشنسون فنزلوا الاسكندرية ريثما يقيمون في القطر المصري والياً عثمانياً يؤيد سلطة الباب العالي ويكبح جماح المماليك الذين كانوا لا يزالون يحاولون الاستقلال

فاقاموا محمد خسرو باشا المتقدم ذكره وكان في الاصل من مماليك حسين قبطان باشا وهو الذي سعى له في هذه الولاية . فجاء القاهرة وقاص الذين كانوا فيها من محالفي الفرنساوية . وكان في يده اوامر سرية باعدام المماليك باي وسيلة كانت فبعث الى محاربتهم وكانوا في الصعيد فتضايقوا ولم يروا وسيلة الا الالتجاء الى فرنسا فكتبوا اليها يستنجدونها متعهدين باجراء كل ما تطلبه منه فلم يسعدهم الحظ بمساعدتها

محمد علي وخسرو باشا

اما الحملة التي بعثها خسرو باشا الى الصعيد فانها عادت ولم تأت بفائدة ثم حاربهم مراراً في اماكن مختلفة . وفي جملتها واقعة بعث اليها حملة من جنده وكان محمد علي قد ترقى الى رتبة سرششمة وصار قائداً لاربعة الاف من الالبانيين فامره ان يسير في رجاله مدداً لتلك الحملة فسارت الحملة وحاربت المماليك وانكسرت قبل وصول محمد علي ورجاله . فنسب قائدها انكساره الى تأخر محمد علي عن المجيء وابلغ ذلك لخسرو باشا . وكان هذا حاقداً على محمد علي فاستقبل ذلك البلاغ بالصدق واقرّ على اعدامه سرًّا . وكتب اليه ان يوافيه في منتصف الليل للمخابرة ببعض الشؤون فادرك محمد علي مراده ولم يجب الدعوة

ولم ير وسيلة لنجاته من مكيدته وعدوانه الا بالالتجاء الى المماليك فانحاز اليهم واخذ في مخابرتهم سرًّا وجهراً فتمكنوا بذلك التحالف من اخراج خسرو باشا من القاهرة قهراً . ففر الى دمياط واقاموا مكانه طاهر باشا . ولما قتل طاهر احتل محمد علي القلعة برجاله فقام احمد باشا والي الشرطة اذ ذاك يطلب الولاية فاخرجه المماليك من القاهرة ذليلاً ثم اتحد الجميع وساروا لمحاربة خسرو باشا في دمياط فاسروه وجاؤا به الى القاهرة وحجروا عليه في القلعة

اما الباب العالي فلما بلغه ما حصل في مصر بعث اليهم والياً اسمه علي باشا الجزائرلي فلم يصل القاهرة الا بعد شق الانفس ولما وصلها عمد الى الكيد بالمماليك ومحمد علي فعادت العائدة عليه

الالفي والبرديسي

وكان الالفي والبرديسي زعيما المماليك يتنازعان السلطة . وكان الالفي قد سار الى انكلترا يطلب مساعدتها على رفيقه للاستئثار بالسيادة . فلما عاد من سفرته اغتنم محمد علي تلك الفرصة واوغر صدر مناظره البرديسي عليه فنصب له مكيدة لم يقع فيها ولكنه فر الى الصعيد . فظن البرديسي ان جو القاهرة قد خلا له ولكن محمد علي كان له بالمرصاد فحرك الالبانيين عليه واوعز اليهم ان يثيروا ويطالبوا بمرتباتهم فقاموا وهددوا البرديسي بالاذى اذا لم يدفع اليهم المتأخرات . فضرب على اهل القاهرة اموالاً واستبد في تحصيلها بقساوة فثاروا جميعاً عليه فاضطر الى مغادرة القاهرة ولم يعد يرجع اليها . وكل ذلك سنة ١٨٠٤

فلما فر الاميران لم يبق في القاهرة من رجال السلطة الا محمد علي وقد فرغت حاجته الى المماليك بعد ان كاد لهم كيداً وشتت شملهم فراى ان يستعين بالاهلين في نيل ماتتوق اليه نفسه من المطالب فجمع اليه العلماء والمشائخ وتفاوضوا في اخلاء سبيل خسرو باشا فاقروا على ذلك وان يعود الى منصبه فاعادوه ولكنه لم يمكث فيه الا يوماً واحداً ثم اخرجوه من القاهرة الى رشيد ومنها الى الاستانة . وكل ذلك بمساعي محمد علي وحسن درايته واتقان سياسته

خورشيد باشا

ثم تظاهر ان الامور لا تستقيم في مصر الا بتنصيب وال عثماني حر واشار بتنصيب خورشيد باشا وكان في الاسكندرية . فوافقه العلماء والمشائخ في ذلك على ان يكون هو نائباً عنه في الاحكام بصفة قائمقام وبعثوا الى الباب العالي يخبرونه بذلك ويسترحمونه بتثبيت انتخابهم فاجيب طلبهم بفرمان مؤرخ في مارس سنة ١٨٠٤ هذا نصه :

« اننا كنا صفحنا ورضينا عن الامراء المصرلية (المماليك) على موجب الشروط التي شرطناها عليهم بشفاعة علي باشا والصدر الاعظم فخانوا العهود ونقضوا الشروط وطغوا وبغوا وظلموا وقتلوا الحجاج وغدروا علي باشا المولى عليهم (يريد علي باشا الجزائرلي) وقتلوه ونهبوا امواله ومتاعه فوجهنا عليهم العساكر في ثمانين مركباً حربية وكذلك احمد باشا الجزار بعساكر برية للانتقام منهم ومن العسكر الموالين لهم فورد الخبر بقيام العساكر عليهم ومحاربتهم لهم وقتلهم واخراجهم فعند ذلك رضينا عن العسكر لجبرهم ما وقع منهم من الخلل الاول وصفحنا عنهم صفحاً كليا واطلقنا لهم السفر والاقامة متى شاؤا واينما ارادوا من غير حرج عليهم وولينا حضرة احمد باشا خورشيد كامل

الديار المصرية لما علمنا فيه من حسن التدبير والسياسة ووفور العقل الخ »

ثم جرت بعد ذلك وقائع كثيرة بين محمد علي والمماليك في اماكن مختلفة من القطر فاصبحوا بعد ما قاسوه من الحروب المتواترة مدة سنين على غير ما كانوا عليه من النفوذ قبلاً واصبحت قوتهم لا تزيد عن خمسة او ستة الآف من الفرسان وكانت ماليتهم آخذة في الانحطاط



٥١ — ارناؤط محمد علي

وكانت العساكر مؤلفة من الالبانيين (الارناوط) وهؤلاء قضوا تحت قيادة محمد علي مدة طويلة وكانوا يحبونه فشق ذلك على خورشيد باشا وصار يخاف هؤلاء الالبانيين فاستقدم اليه جنداً من الدلاة (المغاربة) فوصلوا مصر في اول سنة ١٢٢٠هـ وكان محمد علي يوم وصولهم في جهات الصعيد يحارب المماليك فبلغه ان احمد باشا خورشيد استقدم هؤلاء الدلاة يستعين بهم على الارناوط فعاد الى القاهرة برجاله مظهراً طلب العلوفة ولولا ذلك لمنعه الدلاة من الدخول اليها اما خورشيد فاوجس خيفة من قدومه فجعل يراقب حركاته . اما الدلاة فانتشروا في البلاد ينهبون ويقتلون ويصادرون الناس وياخذون اموالهم فاشتكوا الى خورشيد باشا اولاً وثانياً وثالثاً وهو يعدهم بكف هؤلاء ثم يخلف ولا تزيد الاحوال الا اضطراباً فشق ذلك خصوصاً على علماء البلاد ومشائخها وكرهوا خورشيد باشا كرهاً شديداً وصاروا يتوقعون تاخرهم منه وعلم هو بذلك فلم يزدد الا فجوراً

الاجماع على تولية محمد علي

وفي ٢ صفر سنة ١٢٢٠ ورد لمحمد علي باشا خط شريف بولاية جدة فالبسه خورشد باشا الفروة والقاووق المختصين بهذه الرتبة وقد توسم قرب تخلصه منه فخرج محمد علي باشا يريد الذهاب الى جدة وفي نفسه ان لا يخرج من مصر فقامت العساكر وطالبوه بالعلوفة فقال « هـذا هو الباشا طالبوه بها » وسار الى منزله في الازبكية (قرب اوتيل شبرد) وهو ينثر الذهب على الناس فازدادوا له حبا ولخورشد باشا كرهاً

وبعد ثلاثة ايام (لا ندري ما دار في اثنائها بينه وبين علماء البلاد ومشائخها) سار المشائخ والعلماء جميعاً الى محمد علي في منزله ينادون بصوت واحد « لا نقبل خورشيد باشا والياً علينا » فقال « ومن تريدون اذاً » قالوا « لانريد احداً سواك » فامتنع اولاً وجعل يرغبهم في خورشيد ويحملهم على الاذعان والسكينة وهم لايزدادون الا اصراراً على طلبهم فوافقهم فاحضروا له الكرك والقفطان والبسوه اياهما وبعثوا الى خورشد ان ينزل من القلعة فابى فحاصروه فيها وكتبوا الى الباب العالى بذلك فورد الفرمان بولاية محمد علي في ١١ ربيع آخر سنة ١٢٢٠ هـ (٩ يوليو) تموز ١٨٠٥) وعزل خورشد باشا فخرج هذا من القلعة بامر من الاستانة وغادر البلاد وفي نفسه من الغيظ على محمد علي ما ليس وراءه غاية

الالفي ومحمد علي

وكان المماليك لا يزالون منتشرين في جهات القطر يحكمون ويستبدون وكان الالفي مقيماً في الصعيد وقد التف حوله جمهور من المماليك وحالما علم بتولية محمد علي باشا نزل بفرسانه طالباً خلعه وتخابر مع خورشيد باشا ليساعده في غرضه وتعهد انه اذا فعل ذلك يعيد الاحكام ليده ويكون بعد ذلك خاضعا لاوامر الدولة العثمانية ضارباً بسيفها هذا اذا كانت تخلع محمد علي باشا . وخابر من الجهة الثانية دولة انكلترا ووعدها انها اذا عضدت مشروعه هذا يكون مستعداً ان يسلمها ابواب القطر المصري حالاً . فعلم بذلك قنصل فرنسا فعرقل مسعاه فعكف على مصالحة محمد علي باشا على شيء يرضى به الاثنان فحصلت المخابرات فلم يتفقا فعاد الالفي الى مسعاه ثانية بواسطة سفير انكلترا في مصر فطلب هـذا الى الباب العالي بالنيابة عن دولته ارجاع سلطة المماليك الى البلاد وتعهد بامانة الالفي وخضوعه لاوامر الدولة . فقبل الباب العالي بذلك فاصدر عفوا عاماً عن المماليك باسم اميرهم الكبير الالفي فوصله في غرة ربيع

آخر سنة ١٢٢١ هـ وفي ١٤ الشهر المذكور وصل القاهرة خبر قدوم عمارة عثمانية تقلُّ موسى باشا مرسلاً من قبل الباب العالي والياً على مصر ومعه عدة من العساكر المنظمة على النظام الجديد و خط شريف الى محمد علي باشا ان ينتقل الى ولاية سلانيك وان يرجع المماليك المصرية الى مراكزهم في الامارات والاحكام

سعي محمد علي وحزمه

نخاف محمد علي من حبوط المسعى فاخذ الامر بالحزم والحكمة فراى ان احزاب المشائخ والعلماء جميعها معه وانضم اليهم بعض المماليك الذين كانوا في الاصل من الجيش الفرنساوي وظلوا في مصر بعد سفر الحملة لعدم امكانهم مرافقتها واعتنقوا الديانة الاسلامية وانضموا الى المماليك فاستكتبهم كتاباً الى الباب العالي يطلبون فيه استبقاء محمد علي باشا وارجاع موسى باشا ويبينون الاسباب الموجبة لذلك . فكتبوه وامضوه وارسلوا منه نسخة الى الاستانة واخرى الى قبطان باشا قائد العمارة التي اتت بموسى باشا . فاجابهم القبطان ان ما قدموه من الاعذار غير مقبول ولا بد من خروج محمد علي باشا من مصر حالاً . وكان لسفير فرنسا في الاستانة رغبة شديدة في بقاء محمد علي باشا على مصر لما علم من عزم الالفي على تسليم البلاد للدولة الانكليزية فسعى جهده مع قبطان باشا في بقاء محمد علي باشا وعلم بعد ذلك ان المماليك لم ينفكوا منذ وجودهم في مصر عثرة في سبيل حقوق الدولة وانهم منقسمون فيما بينهم لا يتفقون على امر

فرأى طلب اهل البلاد اقرب الى الصواب فكتب اليهم ان يعيدوا طلبهم وان يبعثوا الطلب مع ابن محمد علي باشا . فكتبوه وارسلوه مع ابنه ابراهيم بك على يد قبطان باشا . وفي ٥ شعبان سنة ١٢٢١ برحت العمارة العثمانية الاسكندرية وعليها قبطان باشا وموسى باشا وابراهيم بك

وفي اواخر شعبان (نوفمبر (ت ٢) سنة ١٨٠٦ م) وردت الاوامر الشاهانية بتثبيت محمد علي باشا على ولاية مصر مع الايعاز اليه ان لا يتعرض للمماليك بعد ذلك لصدور العفو عنهم قبلا . وفي الشهر التالي مات عثمان البرديسي . وفي ١٩ ذي القعدة سنة ١٢٢١ هـ (يناير (ك ٢) سنة ١٨٠٧ م) توفي محمد الالفي وهما زعيما احزاب المماليك فولوا عليهم شاهين بك رئيساً الا انهم مع ذلك لم تعد تقوم لهم قائمة وقد خلا الجو لمحمد علي باشا

مقاومة الانكليز لمحمد علي

ثم ان الحكومة الانكليزية اعتبرت تثبيت محمد علي مخلاً بنفوذها ومضرًّا بمصالحها فجردت حملة من ثمانية آلاف مقاتل تحت قيادة الجنرال فرازر لارجاع سلطة المماليك وكانوا قد تبعثروا في البلاد فوصل الانكليز الاسكندرية في ٩ محرم سنة ١٢٢٢ هـ (١٧ مارس (اذار) سنة ١٨٠٧ م) مظهرين حماية القطر من الفرنساوية فاستولوا على المدينة في ٢١ محرم وظلوا فيها ستة اشهر لا يستطيعون انتقالاً الى ما وراءها. وكانوا قد ارسلوا فرقة منهم الى رشيد فمزّقتها سيوف الارناؤوط كل ممزّق. وفي يوم الخميس ٥ جمادى الآخرة سنة ١٢٢٣ هـ استقال السلطان مصطفى وسنهُ ٢٣ سنة فبويع السلطان محمود بن عبد الحميد (محمود الثاني)



ش ٥٢ : السلطان محمود الثاني

وفي ١٣ رجب سنة ١٢٢٢ هـ (١٤ سبتمبر (ايلول) سنة ١٨٠٧) انسحبت الجيوش الانكليزية باتفاق صلح مع القطر فاستتبت القوة لمحمد علي باشا وقد رضي جلالة السلطان عنه ودخلت الاسكندرية في ولايته. ثم سعى بعضهم في المصالحة بينهُ وبين المماليك فتمَّت بقدوم شاهين بك الى مصر بالهدايا الثمينة فاكرمه محمد علي وبنى له قصراً نفيساً لسكناهُ في الجيزة ثم تبادلوا الزيارات وكل علائق المودّة وهكذا فعل سائر المماليك

ثالثاً — اعماله الحربية

١ — الحملة على الوهابيين

فلما رسخت قدم محمد علي باشا في مصر اخذ في تسليم مصالح حكومته الى من يثق بهم من ذوي قرباه لانه كان شديد المحبة لعائلته ولا شك ان ازره اشتد بهم . ثم استفحل امر الوهابيين في شبه جزيرة العرب فارسل السلطان محمود يعهد الى محمد علي باشا امر اخضاعهم وتخليص البلاد من ايديهم



ش ٥٣ : زعيم الوهابيين

والوهابيون طائفة من المسلمين تذهب الى اغفال الكتب الدينية الاسلامية الا القرآن والحديث . زعيمها الاول محمد بن عبد الوهاب ولد في العيينة من اقليم العارض من نجد سنة ١١٠٦ هـ (١٦٩٦) وكان ابوه شيخاً فقيهاً فربي في حجره على المذهب الحنبلي ثم انتقل لاتمام دروسه في البصرة وهم بزيارة مكة والمدينة وعاد الى بلده . ثم تزوج في الحريملة بالعارض واقام فيها واشتهر بين قومه بالتقوى وصدق التدين . وانحى عليهم باللائمة لتقاعدهم عن الفروض الدينية واهمالهم قواعد الدين الاساسية وبالغ في تعنيفهم

حتى تآمر بعضهم على قتله وتربصوا له في مكمن فادرك غرضهم ففر الى بلده العيينة واخذ يجتذب الاحزاب اليه من اهله وابناء قبيلته بالوعظ والمراسلة والاقناع فالتف حوله جماعة من الانصار في بلدته وما يحيط بها من البلاد

وجاءته امرأة عاهرة تلتمس التوبة على يده فردها اولاً وثانياً . فجاءته ثالثة فاستغرب امرها وسأل القوم اذا كانت مجنونة فقالوا انها في كمال عقلها لكنها شردت عن طريق التقوى وتريد الرجوع اليها. فحكم عليها بالاعدام لان ضميرها لم يوبخها يوم ارتكبت تلك الرذائل . وعلم بهذا الحكم الجائر امير الحسا فبعث الى شيخ العيينة ان يقتل محمد بن عبد الوهاب او ينفيه . فامر باخراجه من بلده على ان يدس له من يقتله

وبلغ نفيه مسامع بعض اتباعه في الدرعية من اقاليم العارض المذكور واميرهم يدعى محمد بن سعود فتقدموا اليه ان يأذن باستقدامه اليهم فاذن لهم بذلك فبعثوا الى شيخ العيينة ان يوجههُ اليهم . فبعثه في خفارة فارس اسرَّ اليه ان يقتله غيلة في اثناء الطريق . فهمَّ الفارس ان ينفذ ذلك الامر مراراً وهو يؤجله واتفق انه همَّ بالعمل اخيراً وهو على مقربة من الوفد الذي ارسله ابن سعود لاستقبال ذلك المنفي . ولم يكد الفارس يطعنه حتى جاء اولئك للدفاع عنه وقد كاد يقتل

فدخل محمد بن عبد الوهاب الدرعية فاحسن ابن سعود وفادته اكراماً لاتباعه ووعد بمحاربة ممن يناوئه واذن له في نشر تعاليمه . ففعل ونفوذه يزداد وانصاره يتكاثرون وشهرته تتسع . فاخذ يكاتب مشائخ القبائل يدعوهم الى نبذ الرذائل والرجوع الى الكتاب والسنة وانهم اذا لم يفعلوا حمل عليهم باهل درعية جهاداً في سبيل الحق . فاذعن له كثيرون وقاومه آخرون فمن وافقه انتقل اليه في درعية . فتزايد انصاره فيها وفي غيرها من اقليم العارض واكثرهم في العيينة وحريملة ودرعية والعمارية والمنفوحة

تعاليم الوهابية

واساس مذهب ابن عبد الوهاب انهُ لا يعرف الا الله ولا يتوسل الى سواه — واهم تعاليمه :

١ الصلاة خمس مرات في اليوم

٢ الصوم في رمضان

٣ الامتناع عن المسكرات

٤ منع البغاء

٥ « الميسر والسحر

٦ تفريق جزء من مئة من الاموال زكاة على الفقراء
٧ التشديد في عقاب شهادة الزور
٨ ابطال الربا
٩ الحج مرة على الاقل
١٠ منع التدخين
١١ منع الرجال من لبس الحرير او التزين لانه من شأن النساء
١٢ هدم المزارات وقباب الاولياء لانها من ظواهر الوثنية وتشغل الناس عن مخاطبة الله رأساً

هذه خلاصة تعاليم محمد بن عبد الوهاب اخذ ينشرها بالاقناع والموعظة ومحمد بن سعود ينشر معها نفوذه وسلطانه في نجد . فعارضه اهل الرياض من ذلك الاقليم بقيادة اميرهم دهيم بن دواس وحمل برجاله على المنفوحة فعادوا خائبين . فتشدد ابن سعود وشيخه ابن عبد الوهاب وتمكنا من الثبات في الدعوة . فتزوج ابن سعود ابنة محمد بن عبد الوهاب فولدت عبد العزيز فخلف اباه عند موته سنة ١٧٦٥ وكان الوهابيون قد تكاثروا وصاروا جنداً كبيراً فحمل بهم على اطراف جزيرة العرب

وكان عبد العزيز شجاعاً حازماً شديد البطش مع تقوى وورع فغدره رجل من فارس بطعنة خنجر وهو يصلي فقتله سنة ١٨٠٣ فخلفه ابنه سعود وكان قد تعود الحرب من صغره فقاد بعض رجال ابيه وهو لا يزال في الثانية عشرة من عمره . ثم ما زال يقود الجند في الحروب حتى هدد الدولة العثمانية في الشام والعراق . وكان جميل الخلقة عاقلاً حكيماً وقد قام في اعتقاد العرب انه لا يلبث ان ينشر هذا المذهب في العالم كله فحاموا حوله . فخافت الدولة العثمانية بطشه فجندت اليه حملة بقيادة سليمان باشا فقهرها ثم حمل بعشرين الف مقاتل على كربلاء وفيها قبور ائمة الشيعة وصاح برجاله « اقتلوا هؤلاء الكفار الذين يشركون بالله » فاخذوا في هدم المزارات كلها من قبر الحسين الى اقل الابنية . فلم يتركوا حجراً على حجر واستولوا على ما كان هناك من التحف والاموال واستعانوا بها على امورهم

وفي السنة التالية فتحوا مكة ودخل سعود الكعبة رسمياً في ٢٧ افريل سنة ١٨٠٣ واستولى على ما فيها من التحف وشدد في نشر تعاليمه هناك . فبطل التدخين وكف الناس عن تعاطي المسكرات وعكفوا على الصلوات . وبادر سعود فكتب الى السلطان سليم الثالث وهو يومئذ على العرش العثماني كتاباً هذا معناه :

« من سعود الى سليم : اما بعد فقد دخلت مكة في الرابع من المحرم سنة ١٢١٨ هـ وامنت اهلها على ارواحهم واموالهم بعد ان هدمت ما هناك من اشباه الوثنية والغيت الضرائب الا ما كان منها حقاً وثبتُّ القاضي الذي وليته انت طبقاً للشرع الاسلامي فعليك ان تمنع والي دمشق ووالي القاهرة من المجيء الى هـذا البلد المقدس بالمحمل والطبول والزمور فان ذلك ليس من الدين في شيء وعليك رحمة الله وبركاته »

ولم تمض تلك السنة حتى دخلت المدينة في حوزة الوهابيين واجرى سعود فيها اصلاحه الديني فهدم قبة القبر النبوي ونزع الستائر التي كانت هناك . واخذ في نشر سياداته على بلاد العرب فاصبحت حدود مملكته سنة ١٨٠٩ من الشمال صحراء سوريا ومن الجنوب بحر العرب ومن الشرق خليج العجم ومن الغرب البحر الاحمر وقد استفحل امرهم ولم يرَ الباب العالي بدًّا من تكليف بطل مصر ومحيي معالمها رحمه الله

فاجاب محمد علي مطيعاً وجعل يجمع القوات اللازمة لتلك الحملة لكنه فكر في امر المماليك فخشي اذا سارت الحملة ان لا تكون البلاد في مأمن منهم فيجمعوا كلمتهم ويعودوا الى ما كانوا عليه من القلاقل فعمد الى اهلاكهم قبل مسير الحملة . لكنه في الوقت نفسه اخذ في اعداد المهمات لجند اربعة الاف مقاتل تحت قيادة ابنه طوسون باشا ثم طلب الى الباب العالي ان يبعث الى السويس بالاخشاب لبناء المراكب اللازمة لنقل الجند ومعدات الحرب فارسل اليه ما طلب فابتنى ثمانية عشر مركباً واعدها عند السويس في انتظار الحملة

مذبحة المماليك

اما المماليك فكانوا قد يئسوا من الاستقلال بالاحكام بعد ان رأوا ما حل بسلفائهم وما عليه محمد علي باشا من العزيمة فكفوا عن مطامعهم واكتفوا بالتمتع بارزاقهم وممتلكاتهم في حالة سلمية . فقطن بعضهم الصعيد وبعضهم القاهرة وتشتتوا في انحاء القطر . وكان شاهين بك وهو الذي تولى رئاستهم بعد وفاة الالفي قد اذعن لمحمد علي باشا كما تقدم. فاقطعه ارضاً بين الجيزة وبني سويف والفيوم فاوى اليها . وفي محرم سنة ١٢٢٦ هـ (فبراير (شباط) سنة ١٨١١م) سار قواد الحملة من القاهرة وعسكروا في قبة العزب في الصحراء ينتظرون سائر الحملة ومعها طوسون باشا . وتعين يوم الجمعة لوداع طوسون والاحتفال بخروجه ورجاله الى قبة العزب فاعلن ذلك في المدينة ودعي كل الاعيان لحضور ذلك الاحتفال وفي جملتهم المماليك وطلب اليهم ان يكونوا بالملابس الرسمية

ففي يوم الجمعة ٥ صفر سنة ١٢٢٦ هـ (اول مارس (اذار) سنة ١٨١١ م)

احتشد الناس الى القلعة وجاء شاهين بك في رجاله فاستقبلهم الباشا في قصره بكل ترحاب . ثم قدمت لهم القهوة وغيرها ولما تكامل الجمع وجاءت الساعة امر محمد علي بالمسير فسار الموكب وكل في مكانه منه جاعلين المماليك الى الوراء يكتنفهم الفرسان والمشاة . حتى اذا اقتربوا من باب العزب من ابواب القلعة في مضيق بين هـذا الباب والحوش العالي امر محمد علي فاغلقت الابواب واشار الى الالبانيين (الارناؤوط) فهجموا على المماليك بغتة فانذعر اولئك وحاولوا الفرار تسلقاً على الصخور ولكنهم لم يفوزوا لان الالبانيين كانوا اكثر تعوداً على تسلقها . واقتحم المشاة المماليك من



ش ٥٤ : امين بك (المملوك الشارد)

ورائهم بالرصاص فطلب هؤلاء الفرار بخيولهم من طرق اخرى فلم يستطيعوا لصعوبة المسلك على الخيول ولما ضويق عليهم ترجل بعضهم وفروا سعيا على اقدامهم والسيوف في ايديهم فتداركتهم الجنود بالبنادق من الشبابيك فقتل شاهين بك امام

ديوان صلاح الدين . وحاول بعضهم الالتجاء الى الحريم او الى طوسون باشا بدون فائدة . ثم نودي في المدينة ان كل من يظفر باحد المماليك في اي محل كان يأتي به الى كخيا بك فكانوا يقبضون عليهم ويأتون بهم اليه افواجاً وهو يقتلهم

وكان عدد المماليك المدعوين الى الوليمة اربعمئة فلم ينج منهم الا اثنان احدهما احمد بك زوج عديلة هانم بنت ابراهيم بك الكبير كان غائباً بناحية موش والثاني امين بك اتى القلعة متأخراً فرأى الموكب سائراً نحو باب العزب فوقف خارج الباب ينتظر خروج الموكب. ثم لما اقفلت الابواب بغتة وسمع اطلاق النار ادرك المكيدة فهمز جواده وطلب الصحراء قاصداً سوريا . والمتناقل على الالسنة ان امين بك هذا كان داخل القلعة فعند ما حصلت المعركة همز جواده فوثب به من فوق السور لجهة الميدان فقتل جواده وسلم هو وقد صوروا تلك الاشاعة في الرسم (ش ٥٤) والاقرب للحقيقة ان هذه الاشاعة مختلقة او مبالغ فيها . ثم نودي في الاسواق ان شاهين بك زعيم المماليك قتل فخافت الناس ثم طافت العساكر في المدينة ينهبون بيوت المماليك ويأخذون حريمهم وجواريهم وعلا الصياح

وفي اليوم التالي نزل الباشا من القلعة وطوسون معه وطاف المدينة يأمر الناس بايقاف النهب وقتل كل من حاول ذلك ولكنه حرض على قبض من يظفرون به من المماليك في سائر انحاء القطر فكانوا يأتون بهم افواجاً يسوقونهم كالغنم الى الذبح . فبلغ عدد من قتل من البكوات ٢٣ بيكاً . وفي اليوم التالي نزل طوسون باشا الى الاسواق في فرقة من الجند لتسكين القلوب وايقاف النهب . اما الجثث التي كانت في القلعة فاحتفروا لها حفراً جعلوا فوقها التراب وصرح محمد علي باشا بحماية نساء المماليك ولم يسمح بتزويجهن الا الى رجاله

عود الى الوهابيين

ولما خلت البلاد من المماليك عكف محمد علي على المهام الاخرى واخصها مسألة الوهابيين فكتب الى غالب شريف مكة يخبره باعداد حملة تنقذه من الوهابيين فيفتح طريق الحرمين لجميع المسلمين وطلب اليه ان يمهد له السبيل . فاجابه شاكراً ووعد بالمساعدة

اما سعود امير الوهابيين فانبأته الجواسيس بما نواه محمد علي فأمر فاجتمع حوله خمسة عشر الفاً ليدفع بهم جنود مصر . اما حملة طوسون فركبت البحر من السويس حتى اتت ينبع على الساحل الشرقي من البحر الاحمر ومنها يتصل الى المدينة فتملكوا

ينبع وساروا منها الى صفر وفيها معسكر الوهابيين وقد تأهبوا للدفاع فهجم طوسون باشا فتقهقر سعود ورجاله اولاً ثم ارتدوا على الجيوش المصرية فانهزموا وتركوا مؤنهم وذخائرهم وجمالهم وعادوا الى ينبع . فعلم محمد علي باشا بذلك فجند جنداً كبيراً مدداً لابنه فاشتد ازر طوسون وجمع اليه القوتين وسار حتى اتى المدينة فاطلق عليها القنابل فهدم بعض السور ثم دخلها واثخن في حاميتها حتى سلمت فكف السيف عنها . فانتشر خبر افتتاح المدينة في سائر الحجاز فخاف الوهابيون وفرح اعداؤهم ولا سيما الشريف غالب . وقد كان في جدة لايدري ماذا يكون من امر تلك الحملة فلما علم بانتصارها كاد يطير من الفرح

واجلى الوهابيون عن مكة خوفاً من اهلها فجاءها طوسون واحتلها وكتب الى ابيه ففرح فرحاً لا مزيد عليه لما اتاه الله من النصر على يد ابنه نصراً لم يتأتَّ لغيره من القواد العثمانيين وجيء اليه بقائد حامية المدينة من الوهابيين فارسله في خفر الى الاستانة فقتلوه حال وصوله اليها . اما من بقي من دعاة الوهابيين فكانوا لا يزالون في أمن خارج مكة تحت قيادة كبيرهم سعود

فلما جاء صيف سنة ١٨١٣ (سنة ١٢٢٨هـ) علموا ان جنود طوسون لا يحتملون حر تلك البلاد وانهم اذا ناهضوهم اذ ذاك ربما تغلبوا عليهم فجندوا وساروا الى تربة شرقي مكة فحاربوها واستولوا عليها ثم ساروا الى المدينة وهددوها بعد ان استولوا على كل ما بين هاتين المدينتين من القرى والمدن . فاتصل الخبر بمحمد علي فلم يرَ بدًّا من ذهابه بنفسه لنصرة الجنود المصرية وقد اصبحت مصر في مأمن من المماليك وغيرهم فسار في جند عظيم حتى اتى جدة فنزلها في ٣٠ شعبان سنة ١٢٢٨ هـ (٢٨ اغسطس (آب) سنة ١٨١٣ م) فلاقاه الشيخ غالب شريف مكة ورحب به . وبعد ان ادى فروض الحج راى ان الشريف ليس ممن يعول عليهم في الدفاع فعمد الى خلعه بطريقة تضمن حقن الدماء ففاز ثم وضع يده على ممتلكاته وبعث به وبعائلته الى الى القاهرة ومنها الى سالونيك فعاش فيها اربع سنوات ومات

اما الوهابيون فمات قائدهم سعود في درعية في ٢٦ ربيع آخر سنة ١٢٢٩ هـ (١٧ افريل (نيسان) سنة ١٨١٤ م) فانحطت سطوتهم فاقاموا عليهم ابنه عبد الله ولم يكن كفوءًا فحصلت بينه وبين الجنود المصرية مناوشات كثيرة لم تأت بنتيجة . وفي ٢٨ محرم سنة ١٢٣٠ هـ (١٠ يناير (ك ٢) سنة ١٨١٥ م) حصلت معركة كبيرة بين جنود محمد علي والوهابيين تحت قيادة فيصل اخي عبدالله شفت عن انتصار

المصريين فتقدم طوسون الى نجد الا انه اضطر اخير الى التوقف لقلة المؤن وهو لم يبلغ درعية

ثم اقتضت الاحوال عود محمدعلي الى مصر فعاد وقد فتح طريق الحرمين ولكنه لم يبد جميع الوهابيين . فوصل القاهرة في ٤ رجب سنة ١٢٣٠ه فاهتم بتدريب الجند على نظام جند اوربا وهو اول من فعل ذلك في مصر فاصدر امراً عالياً في شعبان سنة ١٢٣٠ه مؤداه ان الجنود المصرية ستدرب على النظام الحديث وهو النظام الفرنساوي فعظم على الجهادية ولا سيما الارناؤط الامتثال الى هذه الاوامر فراى ان يدخل هذا النظام اولاً بين الجنود الوطنية لانهم اقرب الى الطاعة من هؤلاء الالبانيين ومن كان على شاكلتهم — وسنعود الى ذلك

وفي اثناء ذلك عاد طوسون باشا من الحجاز فخرج الناس لملاقاته بالاحتفال والاكرام ثم نزل الاسكندرية حيث كان ابوه مقيما فوجد امراته قد وضعت في اثناء غيابه غلاماً دعته عباساً . وبعد يسير اصيب طوسون بألم شديد في راسه وحمى لم يعش بعدها الا قليلاً واختلفت الروايات في اسباب موته وكيفيته ومكانه ولكنهم اتفقو ان موته كان شديد الوطأة على ابيه . ونقلت جثة طوسون باشا الى القاهرة ودفنت قرب مسجد الامام الشافعي وراء جبل المقطم حيث مدفن العائلة الخديوية اليوم

وبعد قليل عاد محمد علي الى روعه فاخذ يهتم في امر الوهابيين خشية ان يعودوا الى ما كانوا عليه فكتب الى عبدالله بن سعود ان يأتي اليه بالاموال التي استخرجها الوهابيون من الكعبة وان يتأهب متى قدم للمسير الى الاستانة . فاجابه يعتذر عن الشخوص وقال «ان تلك الاموال قد تفرقت على عهد ابيه» وارسل له هدايا فاخرة فارجع اليه محمد علي تلك الهدايا واوسعه تهديداً . ثم جرد اليه حملة عهد قيادتها الى ابنه ابراهيم باشا وكان باسلاً مقداماً وقائداً مجرباً لا يهاب الموت شديد الغضب سريعه . ولكنه كان سليم القلب حرّ الضمير ولذلك كانت احكامه عادلة صارمة

وفي ١٠ شوال سنة ١٢٣١ ه سار ابراهيم باشا بجملته من القاهرة في النيل الى قنا ومنها في الصحراء الى القصير على شاطىء البحر الاحمر ومنها بحراً الى ينبع ثم الى المدينة وتربص هناك بجميع قواته يستعد لهجوم شديد امتثالاً لمشورة ابيه . فالتف حوله عصبة جديدة من القبائل المتحابة ولما تكاملت قواته اقام الحرب سجالا وما زال بين هجوم ودفاع حتى فاز وقبض على زعيم الوهابيين عبد الله فاوصله الى ابيه فوصل القاهرة في ١٨ محرم سنة ١٢٣٣ ه فاذن له بالمثول بين يدي الباشا وتقبيل يديه فرحب

به كثيراً لانه كان يعجب بشجاعة الوهابيين . ثم سأله ما ظنه بابراهيم فاجابه قائلا « انه قد قام بما عليه ونحن قمنا بما علينا وهكذا اراد الله » . وفي ٢٠ محرم ارسل الى الاستانة وطافوا به في اسواقها ثلاثة ايام ثم قتلوه . وخلع السلطان على ابراهيم باشا خلعة شرف مكافأة له وسماه والياً على مكة . فاتصلت هذه الاخبار



ش ٥٥ : ابراهيم باشا بلباسه العسكري

بدرعية فخاف اهلها فهدموا المدينة وفروا من وجه الموت فاحتلتها الجنود الظافرة وانتهى امر الوهابيين . اما محمد علي باشا فانه نال من انعام السلطان لقب خان مكافأة لاخلاصه وبسالته وهو لقب لم يمنح لاحد من وزراء الدولة الا حاكم القرم

٢ — فتح السودان

ولما انتهى هذا الرجل الخطير من حروبه في بلاد العرب فكر في فتح السودان على امل ان يلاقي فيها الكنوز الثمينة من مناجم الذهب بجوار البحر الازرق ناهيك بما هنالك من المحصولات والواردات العجيبة من الصمغ والريش والعاج والرقيق وغير ذلك . فجند خمسة آلاف من الجند النظامي وبعض العربان وثمانية مدافع وجعل الجميع تحت قيادة اسماعيل باشا احد اولاده . فسارت الحملة من القاهرة في شعبان عام

١٢٣٥ هـ (يونيو (حزيران) ١٨٢٠ م) في النيل فقطعت الشلال الاول فالثاني فالثالث حتى السادس فاتت شندي والمتمة وقد اخضعت كل ما مرت به من القرى والبلدان بدون مقاومة . ومن شندي سارت الى سنار على البحر الازرق وراء الخرطوم . ولم يكن من القبائل التي يعتد بها هناك الا الشائقية فقاوموا قليلاً ثم سلموا ودخلت سنار وكوردوفان في املاك مصر. فسار اسماعيل باشا في جنوده الى فزغل وهناك ظن نفسه اكتشف معادن الذهب . ثم فشا في رجاله الوباء فمات منهم كثيرون واتته نجدة من ثلاثة الاف رجل بقيادة صهره احمد بك الدفتردار فاشتد ازره فاقام صهره هذا على كردوفان وسار في جيش الى المتمة على البر الغربي من النيل ثم عدى الى شندي في البر الشرقي لجباية المال وجمع الرجال . فاستدعى اليه ملكها واسمه النمر وقال له « اريد منك ان تأتي الي قبل خمسة ايام بملء قاربي هـذا من الذهب والفين من العساكر » فجعل ذلك الملك يستعطف اسماعيل باشا ليتنازل عن ذلك القدر فقبل منه اخيراً عوضاً عن الذهب مبلغ عشرين الف ريال من الفضة

فأجابه الى ما اراد ولكنه لم يكن يستطيع جمعها في تلك المدة فطلب اليه تطويل الاجل فضربه اسماعيل بالشبق (الغليون) على وجهه قائلاً « لا . ان كنت لاتدفع المال فوراً ليس لك غير الخازوق جزاء » . فسكت الملك النمر وقد اضمر له الشر وصمم على الانتقام فطيب خاطره ووعده باتمام ما يريد . وفي تلك الليلة جعل يرسل التبن الجاف احمالاً الى معسكر اسماعيل علفاً للجمال ولكنه اقامه حول المعسكر كانه يريد اشعاله . وفي المساء اتى الى اسماعيل في سرب من الاهلين ينفخون بالمزمار ويرقصون رقصة خاصة بهم . فطرب اسماعيل وضباطه لذلك ثم اخذ عدد المتفرجين من الوطنيين يتزايد شيئاً فشيئاً حتى اصبح كل اهل المدينة هناك . فلما تكامل العدد امرهم ملكهم بالهجوم فهجموا بغتة على اسماعيل ورجاله ثم داروا بالنيران على التبن فاشعلوه فمات اسماعيل باشا وكثيرون ممن كانوا معه بين قتل وحرق . وفي اليوم التالي اتموا على الباقين وساقوا سلبهم الى المدينة

فاتصل الخبر باحمد بك الدفتردار فاشتعل غيظاً واقسم انه لايقبل اقل من عشرين الف رأس انتقاماً لاسماعيل فنزل بجيشه القليل حتى انفذ قسمه فقتل ذلك العدد من الرجال متفنناً في طرق قتلهم على اساليب مختلفة . فهدأت الاحوال بعد ذلك وهكذا تمّ افتتاح السودان . وما زال احمد بك الدفتردار على حكومة سنار وكردوفان الى عام ١٢٤٠هـ (عام ١٨٢٤ م) ثم ابدل برستم بك

٣ — حرب المورا

وفي عام ١٢٣٩ هـ ارسل محمد علي باشا بامر الباب العالي حملة مصرية تحت قيادة ابنه ابراهيم باشا لمحاربة المورا في بلاد اليونان فسار وحارب واظهرت العمارة المصرية في تلك الحروب شجاعة الابطال ولولا اتحاد الدول مثنى وثلاث على الجنود العثمانية والمصرية لما قامت لليونان قائمة في تلك الحرب ولكننا نقول ان ابراهيم باشا عاد عود الظافرين بعد ان بذل في سبيل ذلك عشرين مليون فرنك وثلاثين الف مقاتل

٤ — فتح سوريا

ثم كانت حملة ابراهيم باشا على سوريا لافتتاح عكا لاسباب ترجع الى مطامع محمد علي في توسيع مملكته وانشاء دولة مستقلة . واما البواعث الظاهرة لتلك الحملة فهي ان الامير بشيراً الشهابي الكبير امير لبنان جاء مصر سنة ١٨٢١ يلتمس من محمد علي التوسط لدى الباب العالي في العفو عن عبد الله باشا والي عكا لان الدولة كانت تحب محمد علي باشا وتعد خاطره على اثر ما اوتيه من النصر في حرب الوهابيين بعد ان تعبت هي في قهرهم

وكان محمد علي باشا اذ ذاك في شاغل من امر الحرب في المورا وكانت الدولة قد بعثت اليه ان يجند جنداً لمحاربتها فلما جاءه الامير بشير مستنجداً طيب خاطره ووعده بالمساعدة وكتب الى الباب العالي بذلك واسكن الامير في بني سويف ريثما يرد الجواب وشدد في طلب العفو تشديداً كبيراً لانه كان راغباً في امتلاك قلب الامير ولسانه ليكون له عوناً في ما نواه من فتح الشام

ولبث الامير في مصر حتى وردت الاوامر بالعفو عن عبد الله باشا فحملها شاكراً بعد ان تداول مع محمد علي باشا سرًّا بشؤون كثيرة تعود الى مقاصد الباشا في بر الشام . وسار الامير من مصر الى عكا بكل اكرام مصحوباً بسلاحدار الباشا حاملاً الفرمان بالعفو فوصلوا عكا فسر عبد الله باشا بفوزه ولكن الجنود العثمانية . في الشام طلبت النفقات المعينة في مثل هذا الصلح ولم يكن عند عبد الله باشا نقود وكان الامير قد جاء بنحو نصف القدر اللازم من محمد علي فضرب عبد الله باشا الباقي على المقاطعات واخذ بعضها من الامير

وجرت حوادث كثيرة انتهت بالتباعد بين الامير وعبد الله باشا . وكان محمد علي لما جاءه الامير بشير بواسطة العفو عن عبد الله باشا اسر اليه عزمه على فتح الشام وطلب نصرته فوعده سرًّا ولبث ينتظر فرصة او حجة . وكان يظن أن صنعه

الجميل مع عبد الله باشا والامير يكفي لبلوغ امانيه ولكنه راى من عبد الله باشا اعوجاجاً عن غرضه . والغالب ان عبد الله كان طامعاً بمثل مطامع محمد علي فلما علم بما نواه هذا صار يحاذره



ش ٥٦ : الامير بشير الشهابي الكبير

وادرك محمد علي ذلك فعزم على اختباره والتعويل على تنفيذ مقاصده بالقوة فبعث الى الامير بشير ان يبعث اليه بجانب من الاخشاب التي يحتاج اليها في بناء المراكب . فباشر الامير اجابة طلبه فمنعه عبد الله باشا فشق ذلك على محمد علي واعتبره بظاهر الامر مخالفاً لاوامر الدولة العلية لان تلك المراكب انما هي للحكومة السنية فجرد لمقاصته حملة بقيادة ولده ابراهيم باشا

جرد محمد علي باشا عام ١٢٤٧ ﻫ (١٨٣١ م) حملة في البر والبحر فارسل البيادة والطبجية عن طريق العريش براً وسار ابراهيم باشا في رجاله بحراً . اما حملة البر فاستولت على غزة ويافا بغير شديد مقاومة . ثم وصل ابراهيم باشا الى يافا وسار في جيشه الى عكا فوصلها في ٢١ جمادى الاولى سنة ١٢٤٧ ﻫ فحاصرها براً وبحراً الى ٢٦ ذي القعدة منها فهجم عليها هجمة نهائية شفت عن تسليمها . ثم سار قاصداً دمشق فاخضعها ولم تدافع الا يسيراً وبرحها الى حمص حيث كانت تنتظره الجنود العثمانية تحت قيادة محمد باشا والي طرابلس فوصلها في ٨ يوليو (تموز) سنة ١٨٣٢ م وبعد الاخذ والرد استولى ابراهيم باشا على حمص نخافت سوريا سطوة هذا

القائد العظيم فسلمت له حلب وغيرها من مدن سوريا . فتغير وجه المسألة باعتبار الباب العالي فبعث حسين باشا السر عسكر بجيش عثماني لايقاف ابراهيم باشا عند حده فجاء وعسكر في اسكندرونة فلاقاه ابراهيم باشا وحاربه وانتصر عليه ولم يعد يلقى بعد ذلك مقاومة تستحق الذكر . ثم تقدم في اسيا الصغرى تاركاً طورس وراءه وكان الباب العالي قد ارسل رشيد باشا في جيش لملاقاته فجند ابراهيم باشا جنداً كبيراً من البلاد التي افتتحها وسار نحو الاستانة لملاقاة رشيد باشا فالتقى الجيشان في دسمبر (ك ١) سنة ١٨٣٢ م في قونية جنوبي اسيا الصغرى فتقهقر رشيد باشا برجاله واخترق ابراهيم اسيا الصغرى حتى هدد الاستانة

فتوسطت الدول وفي مقدمتهن الدولة الروسية فانفذت الى مصر البرنس مورافيف لمخاطبة محمد علي باشا بذلك وتهديده فبعث الى ابراهيم باشا ان يتوقف عن المسير . ثم عقدت بمساعي الدول معاهدة من مقتضاها ان تكون سوريا قسماً من مملكة مصر وابراهيم باشا حاكماً عليها وجابياً لخراج اذنه . وقد تم ذلك الوفاق في ٢٤ ذي القعدة سنة ١٢٤٨ (١٤مايو (ايار) سنة ١٨٣٣ م) وهو المدعو وفاق كوتاهيا . فعاد ابراهيم باشا الى سوريا واهتم بتدبير احكامها وجعل مقامه اولاً في انطاكية وابتنى فيها قصراً وقشلاقات وولى اسماعيل بك على حلب واحمد منكلي باشا على اذنه وطرسوس اما الاجراآت العسكرية فلم يكن يسوغ لاحد سواه ان يتولاها

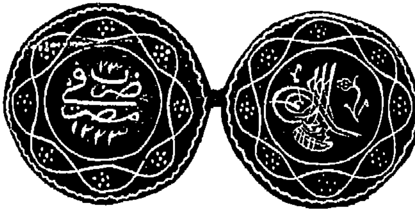
وكان ابراهيم باشا سائراً بالاحكام بكل دراية وحكمة خشية سوء العقبى الا انه مع ذلك لم ينج من ثورة ظهرت في ضواحي السلط والكرك في اواخر سنة ١٢٤٩ هـ (منتصف عام ١٨٣٤ م) وامتدت الى اورشليم وبعد الاخذ والرد اضطر ابراهيم باشا الى المحاصرة في اورشليم لانها ذات اسوار منيعة ثم امتدت الثورة الى السامرة وجبال نابلس

وفي ١٦ يونيو (حزيران) منها هجم المسلمون على صفد وفيها جماهير من اليهود فهدموا منازلهم وقتلوا رجالهم وفتكوا بنسائهم واصبحت تلك المدينة في حوزتهم ثم اجروا مثل هذه التعديات على المسيحيين في الناصرة وبيت لحم واورشليم ولكنهم لم يتمكنوا مما تمكنوه بصفد . ويقال بالجملة ان سوريا اصبحت بسبب ذلك شعلة ثورية فاتصل الخبر بمحمد علي باشا فبرح الاسكندرية الى يافا فتقرب منه وجهاء البلاد وسراتها ثم عمدت الجيوش المصرية الى قمع الثائرين فتشتت العصاة الا النابلسيين فانهم قاوموا طويلاً لكنهم اذعنوا اخيراً . ثم هاجم المصريون السلط والكرك وهدموهما . وبعد

قليل عادت الثورة الى جبال النصيرية فاعترض اهلها فرقة من الجند كانت سائرة من اللاذقية الى حلب واعادوها الى حيث اتت . فارسل المصريون سبعة آلاف مقاتل اتحدوا بثمانية آلاف من الدروز والمارونيين بقيادة الامير خليل بن الامير بشير امير لبنان وسار الجميع الى النصيرية واخضعوهم . ثم سعى ابراهيم باشا في تجريد السوريين من السلاح خوفاً من عودهم الى الثورة ففعل لكنه لم يستطع تجريد اللبنانيين . وكان الامير بشير وابراهيم باشا على وفاق تام كأنهما خلقا ليتحدا

وبعد ان اتم ابراهيم باشا جمع سلاح السوريين بمساعدة الامير بشير هجم برجاله على اهالي الشوف والمتن من لبنان وجمعوا ما استطاعوا من الاسلحة وحملوا كل ما جمعوه منها الى عكا وكانوا يصطنعون منها نعالاً لخيولهم . فاستتبت الراحة في سوريا واذعنت البلاد . الا ان محمد علي باشا لم يقف عند هذا الحد فاحب استخدامها لتوسيع دائرة حكمه فجعل يجمع منها الرجال والخيل بطرق قهرية فغضب الباب العالي فعقد مجلساً في يناير سنة ١٨٣٩ للنظر في مقاصد المصريين فاقر المجلس على تجريد حملة من ثمانين الف مقاتل منهم خمسة وعشرون الفاً من الباشبوزق طبقاً لارادة السلطان محمود وان تسير تحت قيادة حافظ باشا لمحاربة المصريين

وكان محمد علي باشا قد سار الى السودان تاركاً القاهرة بقيادة حفيده عباس باشا . فلما عاد علم باعدادات الباب العالي فانذعر لها فكتب الى ابنه يستحثه فاخذ ابراهيم في الاستعداد للدفاع فحشد جيوشه في حلب لدفع الجنود العثمانية القادمة براً . ثم علم ان معظم الاهلين راغبون في دولتهم الاصلية ومستعدون للتسليم وعلى الخصوص الدروز تحت قيادة شبلي العريان احد ابطالهم المعدودين . فحصلت مواقع شديدة بين الجيوش العثمانية والجيوش المصرية في نزيب انتهت بانهزام الاولى الى مرعش . وكان السلطان محمود قد ارسل عمارة بحرية لمحاربة المصريين فجاءت الاسكندرية فاصابها ما اصاب الحملة البرية ولكنه توفي قبل بلوغه خبر تلك الوقائع فخلفه السلطان عبد المجيد سنة ١٨٣٩


ش ٥٧ : نقود السلطان محمود الثاني

ثم توالت الحوادث الى ١٥ يوليو (تموز) سنة ١٨٤٠ م فانعقدت معاهدة لندرا تقضي باعتبار محمد علي باشا من تابعي الدولة العثمانية . الا ان ذلك لم يكن ليوقفه

عن مقاصده ولديه اذ ذاك نحو ١٤٦ الفاً من الجنود النظامية و ٢٢ الفاً من الباشبوزق منها ١٣٠ تحت قيادة ابنه ابراهيم في سوريا والباقون متفرقون في الحجاز وسنار وكريد ومصر . لكنه علم بعد ذلك ان هذه القوات قليلة في جانب ما يلزمه لاتمام مشروعه فجعل يضم اليها تلامذة المدارس حتى استخدم المرضى والجرحى . ثم عمد الى انشاء خفر وطني احتياطاً ولكنه لم ينجح به كل النجاح على انه مع ذلك لما عرضت عليه معاهدة لندرا لم يصادق عليها فعرض عليه ان يأخذ ولاية عكا ترضية له ويضمها الى مصر وينسحب من سوريا فرفض ايضاً

خروج ابراهيم باشا من سوريا

وبعد ذلك بيسير جاءت الجيوش الانكليزية الى صيدا وفر ابراهيم الى الجبل . وكان الكومودور نابيه قد سار في عمارة بحرية انكليزية لمحاصرة بيروت وكانت تحت قيادة سليمان باشا الفرنساوي وقد حصنها تحصيناً منيعاً ومعه فرقتان من الجند . ولكن لسوء الحظ جاءته الانباء ان ابراهيم قتل وتشتت رجاله فخاف سليمان وراى ان لا بد له من تأكيد حقيقة ذلك الخبر حتى اذا تحقق موت ابراهيم يضم اليه ما بقي من الجيوش المدافعة فبرح بيروت بعد ان جعل عليها صادق بك احد امير الالايات الفرقتين . اما هذا فلما راى نفسه منفرداً في بيروت خاف وترك المدينة وفر فاستولى عليها الانكليز ثم اتصل به من سليمان ان ابراهيم باشا لا يزال حيا ويأمره بالثبات امام العدو ريثما يحضر. فخاف صادق بك الوقوع في شر اعماله فانضم الى الانكليز هو ورجاله . ثم سار نابيه من بيروت الى عكا وحاصرها ففر اسماعيل بك ومن فيها من الرجال وسلمت المدينة

ثم سار نابيه الى الاسكندرية بست سفن وعرض على محمد علي باشا الصلح فقبل وعقدوا معاهدة وقع عليها الطرفان ولما ارادوا تثبيتها مانعت الدول في ذلك وبقيت الامور على حالها حتى دارت المخابرات بين الباب العالي ومحمد علي باشا فأراد السلطان ارضاء محمد علي فاعطاه ان تكون ولاية مصر وراثية لنسله بشرط ان يكون لجلالة السلطان الحق المطلق ان يختار من عائلة محمد علي من يريد لتوليتها . فتردد محمد علي في بادىء الراي . ثم امر جيوشه ان تنسحب من سوريا وكان عددها عند ذهابها اليها مئة وثلاثين الفاً فلم يرجع منها الا خمسون الفاً وقد اخذ التعب منهم مأخذاً عظيماً فلم ير بداً من قبول انعام السلطان . فبعث الى الباب العالي بذلك فأرسل اليه خطاً شريفا بتاريخ ١٣ فبراير سنة ١٨٤١ م بتثبيته على مصر مع حقوق الوراثة لاعقابه وان يكون لجلالة السلطان ان يختار منهم من يريد لهذا المنصب هذا نصه :

فرمان ولاية محمد علي على مصر

« راينا بسرور ما عرضتموه من البراهين على خضوعكم وتأكيد امانتكم وصدق عبوديتكم لذاتنا الشاهانية ولمصلحة بابنا العالي . فطول اختباركم وما لكم من الدراية باحوال البلاد المسلمة ادارتها لكم من مدة مديدة لايترك لنا ريباً بانكم قادرون بما تبدونه من الغيرة والحكمة في ادارة شؤون ولايتكم على الحصول من لدنا الشاهاني على حقوق جديدة من تعطفاتنا الملوكية وثقتنا بكم . فتقدرون في الوقت نفسه احساناتنا اليكم قدرها وتجتهدون ببث هذه المزايا التي امتزتم بها في اولادكم . وبمناسبة ذلك صممنا على تثبيتكم في الحكومة المصرية المبينة حدودها في الخريطة المرسومة لكم من لدن صدرنا الاعظم ومنحناكم فضلاً عن ذلك ولاية مصر بطريق التوارث بالشروط الآتي بيانها :

« متى خلا منصب الولاية المصرية تعهد الولاية الى من تنتخبه سدتنا الملوكية من اولادكم الذكور وتجري هذه الطريقة نفسها بحق اولاده وهلم جرًّا . واذا انقرضت ذريتكم الذكور لايكون لاولاد نساء عائلتكم الذكور حق ايا كان في الولاية وارثها . ومن وقع عليه من اولادكم الانتخاب لولاية مصر بالارث بعدكم يجب عليه الحضور الى الاستانة لتقليده الولاية المذكورة . على ان حق التوارث الممنوح لوالي مصر لايمنحه رتبة ولا لقباً اعلى من رتبة سائر الوزراء ولقبهم ولا حقاً في التقدم عليهم بل يعامل بذات معاملة زملائه . وجميع احكام خطنا الشريف الهمايوني الصادر عن كلخانة وكافة القوانين الادارية الجاري العمل بها او تلك التي سيجري العمل بموجبها في ممالكنا العثمانية وجميع العهود المعقودة او التي ستعقد في مستقبل الايام بين الباب العالي والدول المتحابة يتبع الاجراء على مقتضاها جميعها في ولاية مصر ايضاً . وكلما هو مفروض على المصريين من الاموال والضرائب يجري تحصيله باسمنا الملوكي . ولكي لايكون اهالي مصر وهم من بعض رعايا بابنا العالي معرضين للمضار والاموال والضرائب غير القانونية يجب ان تنظم تلك الاموال والضرائب المذكورة بما يوافق حالة ترتيبها في سائر الممالك العثمانية وربع الايرادات الناتجة من الرسوم الجمركية ومن باقي الضرائب التي تتحصل في الديار المصرية يتحصل بتمامه ولايخصم منه شيء ويؤدي الى خزينة بابنا العالي العامرة والثلاث الارباع الباقية تبقى لولايتكم لتقوم بنفقات التحصيل والادارة المدنية والجهادية وبنفقات الوالي وباثمان الغلال الملزمة مصر بتقديمها سنويا الى البلاد المقدسة مكة والمدينة . ويبقى هذا الخراج مستمرًّا دفعه من الحكومة المصرية بطريقة تأديته المشروحة مدة

خمس سنوات تبتدي من عام ١٢٥٧ﻫ اي من يوم ١٢ فبراير سنة ١٨٤١ ومن الممكن ترتيب حالة اخرى بشأنهم في مستقبل الايام تكون اكثر موافقة لحالة مصر المستقبلة ونوع الظروف التى ربما تجدُّ عليها . ولما كان من واجبات بابنا العالي الوقوف على مقدار الايردات السنوية والطرق المستعملة في تحصيل العشور وباقي الضرائب وكان الوقوف على هذه الاحوال يستلزم تعيين لجنة مراقبة وملاحظة في تلك الولاية فينظر في ذلك فيما بعد ويجري مايوافق ارادتنا السلطانية . ولما كان من اللزوم ان يعين بابنا العالي ترتيباً لسك النقود لما في ذلك من الاهمية بحيث لايعود يحدث فيها خلاف لامن جهة العيار ولا من جهة القيمة اقتضت ارادتي السنية ان تكون النقود الذهبية والفضية الجائز لحكومة مصر ضربها باسمنا الشاهاني معادلة للنقود المضروبة في ضربخاناتنا العامرة بالاستانة سواء كان من قبيل عيارها او من قبيل هيئتها وطرزها

«ويكفي ان يكون لمصر في اوقات السلم ثمانية عشر الف نفر من الجند للمحافظة في داخلية مصر ولا يجوز ان تتعدى ولايتكم هذا العدد . ولكن حيث ان قوات مصر العسكرية معدة لخدمة الباب العالي كسائر قوات الممالك العثمانية فيسوغ ان يزاد هذا العدد في زمن الحرب بما يرى موافقاً في ذلك الحين . على انه بحسب القاعدة الجديدة المتبعة في كافة ممالكنا بشأن الخدمة العسكرية بعد ان تخدم الجند مدة خمس سنوات يستبدلون بسواهم من العساكر الجديدة . فهذه القاعدة يجب اتباعها ايضا في مصر بحيث ينتخب من العساكر الجديدة الموجودة في الخدمة حالاً عشرون الف رجل ليبتدئوا الخدمة فيحفظ منها ثمانية عشر الفاً في مصر وترسل الالفان لها لاداء مدة خدمتهم . وحيث ان خمس العشرين الف رجل واجب استبدالهم سنوياً فيؤخذ سنوياً من مصر اربعة آلاف رجل حسب القاعدة المقررة من نظام العسكرية حين سحب القرعة بشرط ان تستعمل في ذلك مواجب الانسانية والنزاهة والسرعة اللازمة فيبقى في مصر ثلاثة آلاف وستماية من الجنود الجديدة والاربعماية يرسلون الى هنا ومن اتم مدة خدمته من الجنود المرسلة الى هذا الطرف ومن الجنود الباقية في مصر يرجعون الى مساكنهم ولا يسوغ طلبهم للخدمة مرة ثانية . ومع كون مناخ مصر ربما يستلزم اقمشة خلاف الاقمشة المستعملة لملبوسات العساكر فلا بأس من ذلك فقط يجب ان لاتختلف هيئة الملابس والعلامات التمييزية ورايات الجنود المصرية عن مثلها من ملابس ورايات باقي الجنود العثمانية . وكذا ملابس الضابطان وعلامات امتيازهم وملابس الملاحين وعساكر البحرية المصرية ورايات سفنها يجب ان تكون مماثلة لملابس ورايات وعلامات رجالنا وسفننا . وللحكومة المصرية ان

تعين ضباطاً برية وبحرية حتى رتبة الملازم اما ماكان اعلى من هذه الرتبة فالتعيين اليها راجع لارادتنا الشاهانية . ولا يسوغ لوالي مصر ان ينشيء من الآن فصاعداً سفنا حربية الا باذنتا الخصوصي . وحيث ان الامتياز المعطى بوراثة ولاية مصر خاضع للشروط الموضحة اعلاه ففي عدم تنفيذ احد هذه الشروط موجب لابطال هذا الامتياز والغائه للحال . وبناء على ذلك قد اصدرنا خطنا هــذا الشريف الملوكي كي تقدروا انتم واولادكم قدر احساناتنا الشاهاني فتعتنوا كل الاعتناء باتمام الشروط المقررة فيه وتحموا اهالي مصر من كل فعل اكراهي وتكفلوا امنيتهم وسعادتهم مع التحذر من مخالفة اوامرنا الملوكية واخبار بابنا العالي عن كل المسائل المهمة المتعلقة بالبلاد المعهودة ولايتها لكم » اه

فرمان ولايته على السودان

ثم صدر فرمان آخر يثبت ولايته على النوبة ودارفور وكردوفان وسنار هذا نصه :

« ان سدتنا الملوكية كما توضح في فرماننا السلطاني السابق قد ثبتتكم على ولاية مصر بطريق التوارث بشروط معلومة وحدود معينة . وقد قلدتكم فضلاً عن ولاية مصر ولاية مقاطعات النوبة والدارفور وكوردوفان وجميع توابعها وملحقاتها الخارجة عن حدود مصر ولكن بغير حق التوارث . فبقوة الاختبار والحكمة التي امتزتم بهما تقومون بادارة هاته المقاطعات وترتيب شؤونها بما يوافق عدالتنا وتوفير الاسباب الآيلة لسعادة الاهلين وترسلون في كل سنة قائمة الى بابنا العالي حاوية بيان الايرادات السنوية جميعها . وحيث انه يحدث من وقت لآخر ان تهجم الجنود على قرايا المقاطعات المذكورة فياسرون الفتيان من ذكور واناث ويبقونهم في قبضة يديهم لقاء رواتبهم وحيث ان هذه الامور مما تقتضي معها الحال ليس فقط لانقراض اهالي تلك البلاد وخرابها بل انها امور مخالفة للشريعة الحقة المقدسة وكلا هاتين الحالتين ليست اقل فظاعة من امر آخر كثير الوقوع وهو تشويه الرجال ليقوموا بحراسة الحريم ذلك مما ليس ينطبق على ارادتنا السنية مع مناقضته كل المناقضة لمباديء العدل والانسانية المنتشرة من يوم جلوسنا المأنوس على عرش السلطنة السنية . فعليكم مداركة هذه الامور بما ينبغي من الاعتناء لمنع حدوثها في المستقبل ولا يبرح عن بالكم ان فيما عدا بعض اشخاص توجهوا الى مصر على اسطولنا الملوكي قد عفوت عن جميع الضابطان والعساكر وسائر المأمورين الموجودين في مصر . نعم بموجب فرماننا السلطاني السابق ان تسمية الضابطان المصرية لما فوق رتبة المعاون تستلزم العرض عنها لاعتابنا الملوكية الا

انه لا بأس من ارسال بيان باسماء من رقيتم من ضباط جنودكم الى بابنا العالي كي ترسل لهم الفرمانات المؤذنة بتثبيتهم في رتبهم. هذا ما نطقت به ارادتنا السامية فعليكم الاسراع في الاجراء على مقتضاها » اه

فاصبحت حكومته بعد ذينك الفرمانين محصورة في مصر والسودان . وبمقتضى ذلك تنازل محمد علي باشا عن عشرة آلاف من جنود سوريا فلم يبقَ عنده الا ثمانية عشر الفاً بين مشاة وفرسان وغيرهم . فاضطر اذ ذاك الى الاقتصاد لاصلاح مالية البلاد فاوقف كثيرًا من المدارس العمومية التي كان قد خصص مبالغ معلومة للنفقة عليها ومن ضمنها مدرسة شبرا الزراعية وابدل الاساتذة الاوروباويين لما بقي من المدارس باساتذة اتراك او وطنيين وسار من ذلك الحين في خطة الاصلاح قانعاً بما قسم له من البلدان فعمل على ارضاء جلالة السلطان فانفذ الى جلالته ابنهُ سعيد باشا لتقديم فروض العبودية

اواخر ايامه

ثم اصيب ابراهيم باشا بانحراف في صحته فسار الى اوربا لقضاء فصل الصيف سنة ١٨٤٥ فاصاب ترحابا عظيماً في سائر الممالك الاوربية ولا سيما في فرنسا وانكلترا وعاد الى مصر في اواخر صيف عام ١٨٤٦ م وكان والده قد توجه قبل وصوله بيسير الى الاستانة بدعوة رسمية ليقدم عبوديته لجلالة السلطان فوصلها في ١٩ يوليو (تموز) عام ١٨٤٦ م ونزل في سراي رضا باشا ثم تشرف بالمثول بين يدي جلالة السلطان فرحب به . ولما اراد تقبيل الاعتاب الشاهانية امسكه جلالته واجلسه بجانبه ومكثا ساعة يتحادثان . ثم انصرف شاكراً وزار عدوَّهُ القديم خسرو باشا وتصافيا . وفي ١٧ اوغسطس من تلك السنة برح الاستانة قاصداً قواله مسقط راسه فاقام فيها عدة ابنية لتعليم الفقراء واعانة الضعفاء والمساكين ثم برحها الى الاسكندرية فقوبل بالانوار وسار منها الى القاهرة فتقاطر اليه المهنئون من الاصدقاء افواجاً فكان يستقبلهم وعلى صدره الطغراء الشاهانية تتلألأ كالشمس

وفي منتصف عام ١٨٤٨ توعك مزاج محمد علي باشا وازدادت فيه ظواهر الخرف فلم يعد ثم بدَّ من تولية ابراهيم باشا فتوجه هذا الى الاستانة في اوغسطس من تلك السنة لاجل تثبيته على ولاية مصر خلفاً لابيه فثبته السلطان بنفسه فعاد لمعاطاة الاحكام . ثم راجعه العياء واشتد عليه بغتة ففارق هذا العالم في ١٠ نوفمبر عام ١٨٤٨ م وبعد وفاته باحدى عشرة ساعة دفن في مدفن العائلة الخديوية بجوار

الامام الشافعي بالقاهرة

وكان عباس باشا غائباً في مكة فاستقدم حالا لاستلام زمام الاحكام فوصل القاهرة في ٢٤ دسمبر بعد ان قضى فروض الحج ولم يكن ثم اعتراض على توليته فجاء الفرمان الشاهاني من الاستانة مؤذناً بذلك فتولى الامور

كل ذلك ومحمد علي باشا في الاسكندرية وقد اخذ منه المرض مأخذاً عظيماً وما زال يهزل جسداً وعقلا الى ٢ اوغسطس عام ١٨٤٩ م فتوفي ولم يستغرب الناس وفاته لانه مكث في حالة النزاع مدة طويلة . وفي ٣ منه تقاطر الناس من الاعيان والقناصل الى سراي راس التين في الاسكندرية لحضور مشهد ذلك الرجل العظيم . فاذا هو في قاعة الاستقبال في تابوت تغطيه شيلان الكشمير وعلى صدره سيفه والقرآن الكريم وعلى راسه طربوشه الجهادي احمر تونسي وحوله العلماء في الملابس الرسمية يتلون القرآن بانغام التجويد . وكان سعيد باشا اكبر من وجد في الاسكندرية من عائلة الفقيد فكانت توجه نحوهُ خطابات التعزية . ونقلت جثة الفقيد ودفنت في جامعه في القلعة ولا تزال هناك الى الآن

اصلاحاته

استولى محمد علي على مصر وهي في معظم الخراب والفساد سياسيًّا وتجاريًّا وزراعيًّا وادبيًّا فاخذ على نفسه اصلاح شؤونها وبذل في ذلك من الجهد والعناية ما ليس وراءه غاية وقد فاز بما اراد فاحيا الديار المصرية وانعشها وانماها من سائر الوجوه حتى اصبحت تجاري ممالك اوروبا ولذلك لقبه كتاب عصره بموجد الديار المصرية يريدون انه اوجدها من العدم وهذه اهم اصلاحاته :

١ — الاصلاح الاداري

واول شيء باشره من الاصلاح مسح الارضين والانتفاع بزرعها وتوزيعها . وتفصيل ذلك ان الديار المصرية كانت منقسمة من حيث ملكها الى قسمين احدهما الارضون التي كاد يكون لواضع اليد عليها الحق في ملكها ملكاً مطلقاً وكانت معفاة من الضرائب والقسم الثاني التي لم يكن لزارعها الا حق التمتع بريعها وهي الارض التي كانت عليها الضريبة الخراجية . اما نفس العقار في هذين القسمين فكان ملك بيت المال او الحكومة او السلطان

هذا كان شأن الارضين المصرية قبل الفتح العثماني وبعده الى القرن السابع عشر

حينما استأثر الامراء المماليك بالقوة والسلطة واختل نظام الارضين وصار الناس يهاجرون فاهملت الاشغال العمومية وقل ريع الارض فاصبحت الحكومة في عجز كلي عن استحصال النقود فالتجأت الى تلزيم الخراج – وذلك ان الحكام كانوا يضمنون خراج النواحي والبلاد لاناس وكان ذلك الضمان او الالتزام يقرَّر اما بالمزايدة او بالاتفاق بين الملتزم من جهة والرزنامة بالنيابة عن الحكومة من جهة اخرى . حتى اذا تم الامر اعطت الرزنامة للملتزم تقسيطاً اي عقد تلزيم يصدق عليه شيخ البلد وهو كبير امراء المماليك

فاذا دفع الملتزم الضريبة يعطى له حق التصرف في تحصيل المال الذي عجله وعلى فوائده التي كان يقرر سعرها هو بنفسه كما يريد . وكانت الحكومة تتعهد بمساعدته في التحصيل وتجعل له في مقابل ماينفقه ويكابده في ذلك التحصيل بقاعاً غير التي التزمها معفاة من كل ضريبة تعرف بالاواسي . اما الفلاحون فلم يكونوا يملكون ارضاً قط على ان الملتزمين انفسهم كانت تنزع منهم الالتزامات اذا تصدى لهم من كان اكثر صولة منهم واشد بطشاً . ولا يخفى ماكان ينجم عن هذا التصرف من الاختلال وضياع الحقوق والاتعاب

فلما استقام الامر لمحمد علي باشا امر بمسح كل ارض مصر المزروعة ثم قسمها الى مديريات والمديريات الى مراكز او اقسام وهذه الى نواحي وعين فيها من يقوم بادارة امورها وآخرين لجباية الضرائب وابطل الالتزامات جملة ووزع ارض كل ناحية بين اهل تلك الناحية نفسها بحيث يصيب كل فلاح قادر على الشغل جانب من الارض بقدر جانب الآخر فبلغ نصيب كل فلاح ثلاثة افدنة وبعضهم اربعة او خمسة وجعل لمشائخ البلاد جانباً من الارض اعفاه من الضريبة في مقابل نفقات ضيافة جباة الاموال الاميرية الذين كانوا يمرون في بلادهم وماكانت الحكومة تكلفهم به من المهام ودعا تلك العطايا مسموح المشائخ او مسموح المسبطة وهي تقابل الاواسي المتقدم ذكرها

ثم رأى رحمه الله ان الفلاح لا يستطيع من نفسه امراً يكفل اخراجه مما هو فيه من الضيق الذي تراكم عليه بمرور الاجيال وكان قد انتهى من اعماله الحربية ولم يعد ثم حاجة الى بقاء ضباط الجهادية منقطعين الى وظائفهم العسكرية مع رواتبهم جارية عليهم في حالة السلم وان ليس من التدبير والحكمة ان يتناولوا معيناتهم وهم عطل من الاعمال . ورأى من الجهة الثانية ان الفلاح يحتاج الى مرشد يهديه الى الطرق اللازمة لاستقامة امره ووازع يدفعه الى النهوض بواجباته . وعلم ايضاً ان المرء مهما

كان صادقاً في خدمة الحكومة يشتغل لنفسه اكثر مما يشتغل لغيره فارتأى ان يعهد بأمر البلاد من حيث الزراعة الى أولئك الضباط ففوض اليهم تعميرها واصلاحها بأنفسهم ولم يحرم الفلاح مع ذلك من ثمرة اتعابه بل جعل لهذه الطريقة التي اعتمدها اصولاً وقوانين تقضي بأن لا تعطى الاطيان للمتعهد ما دامت رائجة ومقتدرة على اداء ما عليها من الاموال في اوقاتها . اما الاطيان غير الرائجة فتحال الى عهدته باختيار اربابها وهو يتعهد باداء المال المطلوب للحكومة وبهذه الواسطة نشطت الزراعة وتحسنت تحسناً عظيماً وما زالت تلك الارضين في يد المتعهدين الى ايام المغفور له عباس باشا وهو الذي استردها

مساحة الارض الزراعية في ايامه

كانت الارض الزراعيـة في عهد المماليك لا تزيد على مليون فدان وبعض المليون فلما تولى محمد علي مسحها سنة ١٨١٣ واعطاها الى الفلاحين كما تقدم واخذت مساحة ما يزرع منها يزداد حتى بلغت سنة ١٨٢١ نحو مليوني فدان متفرقة في المديريات على هذه الصورة نقلا عن فيلكس منجن في كتابه المنشور سنة ١٨٢٣

	فدان		
منوف	١٩٤ ١٥٠	الفيوم	٧٠ ٢٠٠
غربية	٢٢٥ ٩٦٠	الاطفيحية	٥٥ ٠٠٠
البحيرة	١٠٠ ٧٩٢	بني سويف	١٦٦ ٤٦٠
الشرقية	١٦١ ٢٠٤	المنيا	١٤٨ ٣٤٠
المنصورة (الدقهلية)	١٥٥ ٨٦٠	اسيوط	١٧٨ ٥٨٤
القليوبية	٨٠ ٠٠٠	جرجا	١٩٠ ٤٠٠
الجيزة	٨٥ ٩٠٠	اسنا	١٤٣ ٩٩٠
		الجملة	١ ٩٦٦ ٨٤٠

ثم اخذت مساحة الارض الزراعية تتسع تدريجاً بالاسباب التي اتخذها محمد علي من تحريض الناس على الزراعة وتسهيل الري حتى بلغ ما احتفره من الترع نحو اربعين ترعة بين كبيرة وصغيرة مجموع مكعبها جميعاً ١٠٤ ٣٦٦ ٦٦٧ متراً مكعباً ناهيك بما بذله من العناية في انشاء الجسور والقناطر والسدود وغيرها . فلا عجب اذا بلغت مساحة الاطيان المزروعة التي كانت تأخذ عليها الحكومة الاموال حوالي سنة ١٨٤٠ ضعفي

ما كانت عليه قبل بضع عشرة سنة واليك تفصيل ذلك عن كتاب الدكتور كلوت بك :

فدان		فدان	
٣٠٠ ٠٠٠	منوف	١٢٤ ٠٠٠	الفيوم
٤٥٠ ٠٠٠	الغربية	١٤٨ ٢٠٠	بني مزار
٢٤٥ ٠٠٠	البحيرة	١٣٩ ٤٠٠	بني سويف
٣٦٠ ٠٠٠	الشرقية	١٥٢ ٨٠٠	المنيا
٣٢٠ ٠٠٠	المنصورة	١٦١ ٠٠٠	الفشن
٢٩٠ ٠٠٠	القليوبية	٨٤٦ ٨٢٦	اسيوط وجرجا واسنا
٢٥٤ ٠٠٠	الجيزة	٣ ٧٩١ ٢٢٦	(الجملة)

وبمقابلة مساحة اطيان كل مديرية على حدة بين ما كانت عليه سنة ١٨٢١ وما صارت اليه سنة ١٨٤٠ يتضح لك مقدار ذلك النجاح

ومن اعماله الادارية انشاء الدواوين ومنها ديوان المعاونة وفائدته النظر في ما يعرض من الدواوين الاخرى والمديريات وسائر الجهات . ثم الديوان الخديوي وكان يقوم باشغال ديواني الداخلية والخارجية والضابطة . ثم ديوان الاشغال وديوان المبيعات وديوان الفردة ثم انشأ بعد ذلك ديوان الخارجية خاصة وديوان العسكرية ثم الخزانة المالية وما يتعلق بها وديوان الاوقاف وديوان المعامل وديوان التفتيش والحقانية والترسخانة والابنية وديوان المدارس . وجميع ذلك او معظمه عهد بادارة اعماله الى مديرين ورؤساء من ابناء هذا القطر وكلها ترجع باحكامها الى ديوان المعاونة

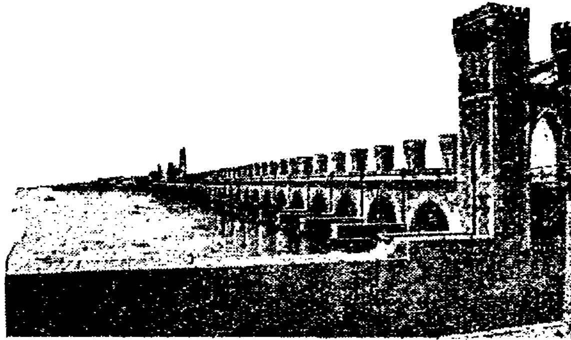
ثم أنشأ مجالس للقضاء وما يقتضي لها من القوانين والاحكام ورتب البريد يحمل على يد السعاة براً وبالسفن بحراً . وانشأ ما يقوم مقام التلغراف الآن من الاشارات بواسطة ابنية مرتفعة ممتدة على خط واحد بين المدن الكبيرة بين البناء والآخر مسافة تكفي لفهم الاشارة لا يزال بعضها منها قائماً أثراً لهمة ذلك الرجل

وانشأ لتأييد السلم وتوطيد الامن فرقة الضابطة وفرقهم في انحاء البلاد فأمن الناس غائلات السبل ولا سيما الاوربيون فانهم كانوا يقاسون في اثناء تجوالهم في القطر اهانات ومشاق جسيمة فاصبحت السبل في مأمن وتسهلت الصلات التجارية على الخصوص بين انكلترا والهند على طريق البحر الاحمر فاستعاضوا بها عن طريق راس الرجاء الصالح في امور كثيرة

٢ ـ الاصلاح الزراعي

ولم تقف اصلاحاته عند هذا الحد ولكنه راى خصب التربة المصرية وامكان استخدامها لغير انواع المزروعات المعروفة بمصر فجاء اليها بالقطن البذار (التقاوي) الاميركي وجاء بنبات النيلة من جهات الهند وبنبات الافيون من اسيا الصغرى . وجاء بغير ذلك من انواع المغروسات المفيدة وجاء بأناس عالمين بكيفية زراعتها واستغلالها . واكثر من غرس الحدائق والاشجار في القاهرة وضواحيها تلطيفاً لحرارة الهواء واستزادة للغيث ـ من جملة ذلك مغارس الليمون في شبرا والحدائق في الروضة وحديقة الازبكية فقد كان في مكانها قبل ايامه بركة كبيرة يتصل اليها الماء من النيل ايام فيضانه وكان الناس يأتون اليها في المواسم والاعياد في قوارب عليها الانوار وسائر الزخارف فاحتفر محمد علي حولها ترعة ينصرف اليها الماء فظهرت ارض البركة فجعل حول هذه الترعة صفوفاً من الاشجار تحيط ببقعة كلها غرس طيب . اما الحديقة التي نراها الآن فهي من آثار الخديوي الاسبق اسماعيل باشا

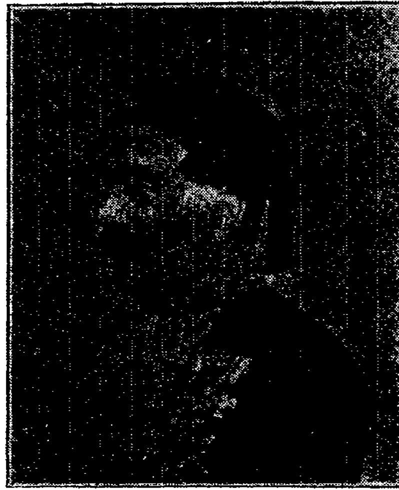
ومن آثاره الزراعية السدود التي اقامها في ابي قير وترعة الفرعونية واشتوم الديبة واشتوم الجميل وغيرها . وانشأ كثيراً من الجسور والترع ونظر في تطهيرها وانشأ الترع الصيفية لانماء الزراعة الصيفية وابدل الخول بالمهندسين في اعمال الري وبعث كثيراً من ابناء البلاد الى اوروبا لدرس فن الزراعة واتقانه ليخدموا بلادهم به



ش ٥٨ : القناطر الخيرية

ومن مشروعاته الخطيرة من هذا القبيل القناطر الخيرية القائمة عند رأس الدلتا والسبب في بنائها انه راى النيل لما يصل الى راس الدلتا ينفصل الى فرعين هما فرعا

رشيد ودمياط او الفرع الغربي والشرقي وراى ان الغربي اكبرهما ويمرُّ في بقاع معظمها لا يصلح للزراعة فيذهب كثير من مائه هدراً والشرقي يخترق ارضين واسعة الارجاء حسنة التربة فاذا كانت ايام التحاريق لا يبقى من مائه ما يكفي للري فاراد اتخاذ وسيلة ينتفع بها بما يزيد من ماء الفرع الغربي باضافته الى الشرقي . وراى الصعيد في زمن التحاريق يشح فيه الماء لارتفاع ارضه وقد لا يرتوي جيداً الا في زمن



ش ٥٩ : لينان باشا مهندس القناطر الخيرية

الفيضان فاقرَّ على بناء قناطر على عرض الفرعين عند اول تفرعهما عند راس الدلتا وان يجعل لهذه القناطر ابواباً من الحديد تغلق وتفتح عند الاقتضاء فاذا اقفل قناطر هذا الفرع انصرف جانب من الماء المنحدر اليه الى الفرع الآخر فيستطيع صرف المياه كيف شاء واذا كان الفيضان قليلاً يقفل قناطر الفرعين جملة فيرتفع الماء في الصعيد فيروي ارضيه ثم لا ينصرف منه الا ما يلزم لري الوجه البحري فاذا كانت ايام التحاريق تفتح القناطر فتفيض المياه والارض في حاجة اليها

فباشر هذا العمل الخطير ولم يضع الحجر الاول منه الا عام ١٢٥١ هـ (١٨٣٥م) ولم ينثن عن عزمه حتى اتم بناءه بدراية لينان باشا المهندس الفرنساوي . غير ان ذلك المشروع لم يأت بالفائدة المطلوبة تماماً بما يتعلق بارتفاع الماء في الصعيد ولكن الحكومة جعلت همها في السنين الاخيرة اصلاح ما هو فاسد منها وسد ما فيه من الخلل

٣ ـ الاصلاح العسكري

كانت القوة العسكرية في مصر لما تولاها محمد علي اخلاطاً من الالبانيين (الارناؤوط) والدلاة (المغاربة) والانكشارية ومن جرى مجراهم ونظامهم الحربي النظام القديم الذي كان متبعاً في الازمنة السالفة عند الدولة العلية قبل القرن الماضي . فراى رحمه الله ان يدربهم على النظام الفرنساوي الذي اتبعه بونابرت في غزواته واخذته عنه دول اوربا . فحاول ذلك مراراً فعظم على رجاله ولا سيما الارناؤوط وعصوا اوامره فيه لانهم اعتبروا ذلك بدعة وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار . ولما الحّ عليهم ثاروا وتجمهروا الى القلعة يطلبون الرفق بهم فراى من الدراية والحزم ان يعاملهم بالحسنى فاجابهم الى ما ارادوا واخذ يدخل ذلك النظام رويداً رويداً بالحيلة فانتخب فتياناً كان قد قبض عليهم في جملة ماقبضه من اموال المماليك الذين ذبحهم وكان قد جعل اولئك الفتيان من حراسه واستبقى صغارهم في القلعة يتربون فيها على جاري العادة من تربية الغلمان المماليك في ذلك العهد استعداداً للخدمة العسكرية اوغيرها . فكانوا يحفظونهم القرآن ويعلمونهم الخط واللغة التركية والرياضة البدنية

فلما عزم على تنظيم الجند انتخب اكبر اولئك المماليك وارسلهم الى الصعيد يتعلمون النظام العسكري الحديث على اساتذة من الافرنج . وعلم ان هؤلاء التلاميذ لايلبثون ان يصيروا جنداً فتفرغ اما كنهم من تلك المدرسة فانشأ في قصر العيني بمصر القديمة سنة ١٨٢٥ مدرسة اعدادية سماها المدرسة التجهيزية الحربية ادخل فيها نحو ٥٠٠ غلام بعضهم من صغار المماليك والبعض الآخر من ابناء الاتراك والاكراد والالبانيين والارمن واليونان وغيرهم ممن كانوا في خدمته وليس فيهم وطني . فكانوا يعلمونهم القرآن والنحو وآداب اللغة التركية والفارسية والعربية واما لغة التعليم فهي التركية . ونظراً لانهم ينوون ادخالهم المدرسة الحربية فكانوا يعلمونهم مبادىء الحساب والهندسة والجبر والرسم واللغة الايطالية لان اكثر اساتذة المدرسة الحربية كانوا يومئذ من الايطاليين

واستبطأ محمد علي ثمار هذه المدرسة لرغبته في سرعة تنظيم الجند فاوفد جماعة من اولئك المماليك الى ليفورن وميلان وفلورنسا ورومية لدرس الحركات العسكرية وبناء السفن والطباعة والهندسة وغيرها من الفنون الحربية ـ اشار عليه بذلك الاساتذة الايطاليان . ثم ارسل غلماناً آخرين الى انكلترا لدرس الميكانيكيات وسلك الابحر ونواميس السائلات . ولما تحقق فوزه بتنظيم الجند احسّ بحاجته الى مدرسة طبية تخرج الاطباء

لمعالجة الجند فانشأها سنة ١٨٢٥ واختار تلامذتها من الوطنيين ابناء الارياف او تلامذة الازهر خلافاً للمدرستين التجهيزية والحربية وسيأتي ذكرها

وتعجيلاً لثمار سعيه في اعداد الجند المنظم واطبائه اوفد سنة ١٨٢٦ اربعين من تلامذة المدرستين التجهيزية والطبية الى فرنسا لاتقان الفنون الحربية والطب والادارة الملكية والعسكرية وغير ذلك مما يحتاج اليه في ادارة حكومته ويفتقر فيه الى استخدام الافرنج لاقتصار الوطنيين الى ذلك الحين على درس العلوم الازهرية وهي يومئذ قاصرة على العلوم الدينية واللسانية وانشأ مدرسة للطبجية وجعل في القاهرة معامل لسكب المدافع واصطناع سائر حاجيات الجند

والفضل في تدريب الجند على النظام الجديد راجع لقائد من قواد الفرنساويين اسمه الجنرال « سيف » ولكنه اسلم ودعى نفسه سليمان باشا وقد خدم الحكومة المصرية خدمات صادقة في حروبها ببر الشام وغيرها



ش ٦٠ : سليمان باشا الفرنساوي

واصله من ليون في فرنسا ولد سنة ١٧٨٧ وسمي يوسف سيف وكان ابوه متوسط الحال يتعاطى الصناعة فلما بلغ يوسف اشده اراد والده ان يستعين به في اعماله ولكن

الغلام كان يشعر بانه ارفع من ذلك المكان فضلاً عن ميله الفطري الى التنقل فلم يستطع المواظبة فشق ذلك على ابيه فتوعده اذا لم يثابر على العمل بان يدخله في سلك الملاحة عقاباً له فكان ذلك موجباً لسروره فادخله في مهنة البحرية سنة ١٧٩٩ وهو لم يتم السنة الثالثة عشرة من عمره فاعجبه جوب البحار وركوب الاخطار في سفن كانت الى ذلك العهد تسير بلا بخار . حتى كانت حروب ترافالغار سنة ١٨٠٥ بين الاسطول الانكليزي بقيادة الاميرال نلسون الشهير والاساطيل المتحدة لدول فرنسا واسبانيا تحت قيادة الاميرال فيلينوف واميرالين اسبانيين وكان الفوز للانكليز لكن صاحب الترجمة اظهر على صغر سنه اعمالاً تدل على استعداده للشؤون الحربية . وكان المنتظر ان ينال في مقابل ذلك مكافأة تستحق الذكر فاتفق انه تخاصم واحد رؤسائه وكان سيف عنيفاً خشناً فجرتهما المعاتبة الى المضاربة فبدا الضابط فضرب سيف ضربة جرحته فلم يستطع صبراً على ذلك فهم بالضابط وما زال يضربه حتى قيل كفى فقبض عليه فحوكم فحكم عليه بالاعدام وهو حكم عسكري لا مرد له

ولكن العناية سخرت له رجلاً من الاشراف اسمه الكونت بول دي سيغور يقال ان سيف كان قد انقذه من الموت مرة فذكر له هذا الجميل فلما علم بالحكم عليه توسط في امره فانقذه وارسله الى الجيش الفرنساوي الذي كان اذ ذاك في ايطاليا

ولما شبت الحرب بين فرنسا والنمسا كان سيف في جملة الاسرى عند النمساويين وبقي مغترباً عامين حتى اذا كانت حملة نابوليون الشهيرة على روسيا سنة ١٨٠٢ فكان سيف في جملة جندها واظهر في اثناء وقائعها الهائلة بسالة اوجبت التفات نابوليون الخصوصي حتى اراد ان يقلده نشان اللجيون دونور فدعاه اليه بهذا الشأن فآنس منه استخفافاً فحنق عليه وحرمه من ذلك الشرف. على انه ما لبث ان رقي في الرتب العسكرية حتى بلغ رتبة كولونيل (اميرالاي) بعد رجوع تلك الحملة السيئة الحظ

ثم كانت الوقائع المشهورة التي قضت على رجل فرنسا (نابليون) بالاسر والنفي فقضي على الكولونيل سيف بالخروج من الجندية والانقطاع الى التجارة التماساً للتعيش ولكن انى للجندي المحارب ان يساوم امراة او غلاماً على مبيع سلعة فيبح صوته قبل اتمام المبايعة وخصوصاً صاحب الترجمة فقد كان قليل الصبر على مثل ذلك فأنفت نفسه التجارة ولم يفلح فيها . وسمع في اثناء ذلك ان شاه العجم في حاجة الى ضباط حاذقين في تدريب الجند فكتب الى صديقه الكونت دي سيغور المتقدم ذكره يلتمس كتاب توصية منه الى الشاه فنصح له الكونت ان يتوجه الى محمد علي باشا بمصر

فجاء مصر سنة ١٨١٩ ومعه كتاب توصية فاحسن محمد علي باشا مقابلته وكلفه بالبحث في جهات السودان عن معادن فحم الحجر ولكنه لم يعثر على شيء منا فعاد الى القاهرة واتفق وصوله اليها يوم الاحتفال بغلبة الجنود المصرية على الوهابية

وكان محمد علي قد شاهد الجنود الفرنساوية بمصر واعجبه نظامها وكانت الجنود المصرية عبارة عن فرق اووجاقات وفيهم الارناؤوط والانكشارية والمغاربة ونحوهم ولكل من هذه الفرق قائد فاذا نزلوا ساحة الوغى ركب كل جواده واستل حسامه أو بندقيته او رمحه وهجم على مايتراءى له

ففاوض محمد علي الكولونيل سيف في تنظيم الجند فرغبه فيه فعهد اليه تأليف الجند على هذه الصورة وتدريبه على الحركات العسكرية . وقد حارب سليمان باشا تحت علم الحكومة المصرية في المورة وسوريا وغيرها وتوفي بمصر سنة ١٨٦٠

وبنى محمد علي في الاسكندرية ترسانة اتى اليها بالسفن والدوارع من مرسيليا والبندقية واقام فيها مدرسة جاء اليها بالاساتذة من فرنسا وانكلترا وبنى حول الاسكندرية حصناً منيعاً وحصوناً اخرى في اماكن اخرى

٤ ــ الاصلاح التجاري

ولما اصلح الزراعة وكثرت حاصلات البلاد وجه التفاته الى تنشيط التجارة فأراد انشاء مينا امين تأوي اليه السفن التجارية فلم تعجبه رشيد ولا دمياط لخشونة مرساهما فاختار الاسكندرية فاحتفر ترعتها الموصلة بينها وبين النيل ودعاها ترعة المحمودية نسبة الى السلطان محمود الثاني فكثر نقل البضائع فيها بين الاسكندرية وداخل القطر فاكتسبت الاسكندرية بذلك اهمية كبرى وتقاطر اليها التجار من اماكن مختلفة من اوروبا وغيرها واقيمت فيها البنايات الكبيرة على النمط الافرنجي ووجدت فيها الفنادق والنزل للغرباء . واصلح مرفأ بولاق وغيره ووسع للاجانب في الاستيطان والاتجار فاتسعت التجاره وكثرت العلائق وعاد كل ذلك بالنفع الجزيل . وتوطيداً لاعماله هذه انشأ مجلساً تجارياً مؤلفاً من الوطنيين والاجانب للحكم في القضايا التجارية

حاصلات البلاد

قد رايت ان محمد علي عهد بالاطيان المهملة الى رجاله ليزرعوها ويستغلوها فاشتغل هو في تصريف حاصلاتها فاحتكر غلات هذا القطر ومصنوعاته وتولى بيعها راساً للتجار السوريين والافرنج واليونان والارمن . وكان يلاحظ سعر السوق ويهتم به مثل اهتمام سائر التجار في الاسعار . وكثيراً ماكان يربح الارباح الفاحشة وقد يخسر تبعاً لحال

السوق . وكان يبيع البضاعة تسليم الاسكندرية فينقلها هو على نفقته في اثناء الفيضان على السفن . وكان له في بولاق وكالات لخزن الاقطان والسكر والكتان والحناء التي ترد من الارياف وعلى تلك المخازن وكلاء لا يسلمون منها شيئاً الا بامر الباشا . وكان يتجر ايضاً بالتبر والعاج وغيرهما من واردات السودان واصناف اخرى كثيرة . ناهيك بارباح الجمارك وما يرد على مصر من تجارات اخرى . وكان يدون ارباحه من هذه التجارة في دفاتر حكومته . واليك ميزانية الحكومة المصرية لسنة ١٨٢١ وفيها اصناف التجارات ومقدار ارباحها وكيفية الانفاق منها وغير ذلك :

ميزانية الحكومة المصرية لسنة ١٨٢١

الدخل	كيس	قرش
مال الميري	١٣٢٣٠٨	١٣١
ارباح الاتجار بالقطن والشمع والسكر والكتان والنيلة والعسل والحنا وماء الورد وبزر الكتان والسمسم والقرطم وغيره	٢١٠٠٠	
ارباح المنسوجات الحريرية والقطنية	٢١٠٠٠	
ارباح من مبيع الجلود	٨٠٠٠	
» » » الحصر	١٢٠٠	
» » الرز	١٣٧١٤	٢٥٠
» » النطرون	٦٠٠	
» » الصودا	٩٠٠	
» » ملح النشادر	٢٨٠	
» » القصب (خيوط الذهب)	٤٥٠	
ارباح جمرك السويس	٥٠٠٠	
» » القصير	١٨	
عوائد بضائع سنار	٢٠٠	
» تجارة دارفور في اسيوط	٢٦٠	
» » » في مصر القديمة	٥٠٠	
» » » في بولاق	٣٠٠٠	

عوائد تجارة دارفور في دمياط	٣٦٠٠
« « « ترعة المحمودية	٥٠٠
« « « في الاسكندرية	٢٥٠٠
« « « على النقود	٣٥٠٠
ضمان الملح والمشروبات	٥٠٠٠
« المذبح	٣٧٠
« عوائد النمغة	٧٥٠
« السنا	١٢٠
أثمان الاسماك في المنزلة	٨٠٠
ضرائب بيع الاسماك بمصر وبولاق	١٥٠
« بيع الحيوانات في امبابه والرميلة	٥٠
« على الرقاصات والمشعوذين وغيرهم	٣٠٠
عوائد التوارث	٤٠٠
« المعديات	٦٠٠
اجرة نقل البضائع	٤٠٠
قبالة المشروبات بالصعيد	٣٥٠
عوائد الاسواق والوكالات في الصعيد وغيرها	١٤٠٠
عوائد النخيل	١٠٠٠٠
عوائد ادخال الحبوب للقاهرة	٧٢٠
(جملة الدخل)	٢٣٩٩٤٠

٣٨١

الخارج	كيس
نفقات الجند	١٠٠٠٠٠
المرسل الى الاستانة	١٢٠٠٠
على المعامل واجرة العمال	١٥٠٠٠
اجرة الموظفين الملكيين	١٦٠٠٠
نفقات على الملتزمين	٦٠٠٠
« الجوامع والمدارس الخ	١٨٠٠

مرتبات الملتزمين	١٢٠٠
نفقات بيت محمد علي باشا واولاده	٢٤٠٠٠
هدايا من المشايخ للعربان الخ	١٠٠٠٠
نفقات الحج	١٧٠٠
« الكسوة	٣٠٠
« على وادي الطملات للغرس وغيره	١٤٠٠
(جملة الخارج)	١٨٩٤٠٠

وكان ينفق الباقي في بناء الثكنات والمعامل والمنازل وغيرها . ولمعرفة حقيقة قيمة هذه المبالغ ينبغي تحويلها الى الفرنكات والكيس يومئذ عبارة عن ١٥٠ فرنكاً فيكون دخل الحكومة المصرية سنة ١٨٢١ نحو ٣٦٠٠٠٠٠٠ فرنك نحو ثلثها من الارباح التجارية . ونشر الدكتور كلوت بك ميزانية كهذه عن سنة ١٨٣٣ كان مجموع الدخل



ش ٦١ : بوغوص بك احد اعوان محمد علي في المسائل المالية

فيها ٧٥٠ ٧٧٨ ٦٢ فرنكاً منها نحو ٠٠٠ ٠٠٠ ١٥ فرنك من التجارة . وبلغ الخارج ٥٠٠ ٩٥١ ٤٩ فرنك ثلثها لنفقات الجيش

ومن اعوان محمد علي في المسائل المالية والتجارية بوغوص بك الارمني المتوفى سنة ١٨٤٤ وقد ترجمناه في الجزء الاول من تراجم مشاهير الشرق الطبعة الثانية

٥ ـ الاصلاحات الصناعية

اما الاصلاحات الصناعية فكثيرة ولكن لم يبق منها الى الآن الا آثار بالية مع ما توخاه رحمه الله من انشاء المعامل واستجلاب الصناع من اقطار اوروبا فانه انشأ في هذا القطر معامل عديدة لمعالجة القطن والنيلة واصطناع الطرابيش التونسية والورق والغزل وانواع الاقمشة من الحرير والكتان والقطن والصوف في سائر جهات القطر ومعامل الاسلحة على انواعها وغيرها . اما سبب حبوط معظم تلك المعامل فعائد الى عدم وجود معادن الفحم الحجري في القطر المصري

٦ ـ الاصلاحات الصحية

راى ذلك الرجل العظيم ان البلاد في احتياج كلي لهذه الاصلاحات لانتشار التدجيل والتطبيب بالكتابة والحجابة وماشا كل فاستقدم احد مشاهير الاطباء الفرنساويين واسمه الدكتور كلوت (ثم صار كلوت بك) واليه ينسب شارع كلوت بك في القاهرة . فأنشأ المدارس الطبية والمستشفيات وفي مقدمتها المدرسة الطبية في قصر العيني (وكان هذا القصر قبلاً مسكناً لابراهيم بك الكبير من امراء المماليك) يدرس فيها الطب والجراحة ومدرسة اخرى في فن القوابل ومستشفى كبيراً في ابي زعبل (قرب المطرية) وانشأ مجلساً صحياً ومدرسة بيطرية ورتب مستشفيات واطباء للعساكر واخرى للاهالي وعين اطباء لمراقبة الاحوال الصحية في المديريات وكان معوله في تلك الاصلاحات على الدكتور كلوت بك

وهو فرنساوي الاصل واسمه الاصلي انطون برطلمي كلوت ولد في غرينوبل بفرنسا سنة ١٧٩٣م من ابوين فقيرين وربي في شظف من العيش وضيق ذات اليد وكان على صغره ولعاً بتشريح الحشرات ودرس طبائعها . وتوفي والده سنة ١٨١١ م بعد ان نزح الى برينون وكان له صديق اسمه الدكتور سابيه فلما عاين ما في الغلام من المواهب على حاله من الفقر جعله مساعداً له يرافقه في اعماله الطبية ويتمرن في الجراحة وكان كلوت يطالع ذلك العلم بنفسه ساعات الفراغ حتى قرأ كتاب الجراحة تأليف (لافه) ثم راى ان برينول اصغرها لاتفي بما تجمح اليه نفسه ولا تروي مطامعه

فنزح الى مرسيليا رغم ارادة والدته التي كانت كثيرة التعلق بولدها هذا لانه كان وحيداً لها ولكنه اصر على عزمه وضغط على عواطفه طلباً للعلى وسعياً وراء العلم وهو لا يملك الا بعض الدريهمات وشيئاً من الثياب على انه لم يلاق في مرسيليا الا الخيبة فحدثته نفسه ان يسافر في سفينة جراحاً لبحارتها ويتحمل مشاق الاسفار واخطارها سدًّا لعوزه وهو في التاسعة عشرة من سنه فلم يقبله ربانها وكان ذلك لحسن حظ المترجم لان السفينة غرقت في ذلك السفر



ش ٦٢ : كاوت بك مؤسس الاصلاحات الطبية بمصر

فاضطره العوز لتعاطي مهنة الحلاقة فصار يختلف الى حلاق يعالج بالفصد والجراحة الصغرى . ثم عاد الى بلده ودخل المستشفى بعد عناء وتكرار الالتماس واكب على الدرس والمطالعة حتى نبغ بين اقرانه وفي سنة ١٨٢٠ نال شهادة الدكتورية . فعاد الى

مرسيليا وعين طبيباً ثانياً بمستشفى الصدقة ومستشاراً جراحياً بمستشفى الايتام فنم به بعض ذوي الحسد فأقيل من منصبه ولكنه لم يسع في الانتقام بل تضاعفت همته في العمل

وفي سنة ١٨٢٥ اجتمع به الموسيو تورنو وكان تاجراً فرنساوياً من نزالة مصر بعث به المغفور له محمد علي باشا لاختيار من يليق بمنصب طبيب لجيشه فحبب اليه المسير الى مصر في ذلك المنصب فقدم عن طيب خاطر فراى امامه باباً واسعاً للعمل لما علمت من حاجة البلاد الى الاصلاح الطبي فاخذ يعمل ليله ونهاره مفكراً في الوسائل المؤدية الى المراد . وكان محمد علي باشا يركن اليه ويثق برايه ويجيب مطاليبه فاسس اولاً مجلساً صحياً ليستعين باعضائه على الاجراء والتنفيذ وبث الوصايا الصحية فرتبه على مثال المجالس الصحية الفرنساوية ولاتمام النظام العسكري انشأ المستشفيات العسكرية ومصلحة الصحة البحرية . ولا يخفى ان المستشفيات تحتاج الى عملة من الاطباء والتومرجية وغيرهم ولم يكن في مصر شيء من ذلك فاضطر ان يعلم كلاً من هؤلاء واجباته من التطبيب وملاحظة المرضى وغير ذلك . واشهر المستشفيات التي بنيت بناء على اشارته مستشفى ابي زعبل وانشأ في المستشفى بستاناً للنبات

وفي نحو ١٨٢٦ م اسس المدرسة الطبية في تلك القرية ايضاً اراد بذلك ان لايقتصر الطب على الجيش بل يتعلمه ابناء البلاد حتى يفيدوا ابناء جلدتهم بتطبيبهم وتعليمهم وكان في السنين الاولى من تأسيس هذه المدرسة هو وحده يلقي الدروس بواسطة المترجمين تسهيلاً لفهمها فترجمت كتب عديدة اذ ذاك وفي جملتها قاموس نستين الطبي وغيره من كتب الطب والجراحة والعلوم الطبيعية . ومما كان عقبة في طريق التشريح العملي ان تشريح جثث الموتى كان امراً منكراً في عيون المشارقة فبذل كلوت جهده حتى ابيح له التشريح سراً على ان ذلك لم ينجه من غضب الاهالي عليه حتى ان احدهم جاءه يريد قتله خلسة بخنجر ولكنه لم يفز

وفي سنة ١٨٣٢ سار الدكتور كلوت بك في ١٢ تلميذاً من تلاميذ مدرسته هذه لامتحانهم في باريس فامتحنتهم الجمعية الطبية العلمية فحازوا استحسانها واظهروا كل نجابة وذكاء وبراعة . وهاك اسماء هؤلاء التلاميذ :

احمد الرشيدي	حسين الهبهاوي
حسن الرشيدي	عيسوي النحراوي
محمد منصور	مصطفى السبكي
ابراهيم النبراوي	محمد الشباسي

محمد السكري	محمد علي البقلي
« الشافعي	احمد بخيت

وقد كان نجاح هؤلاء المصريين في امتحانهم موجباً لسرور استاذهم كلوت بك سروراً زائداً لانهم سيكونون له عونا في نشر الفوائد الطبية والوصايا الصحية في هذه الديار وقد نبغ منهم غير واحد بالتأليف والتطبيب والجراحة وغيرها وترجمنا بعضهم في الهلال او مشاهير الشرق



ش ٦٣ : محمد علي باشا البقلي الجراح الشهير احد تلامذة الارسالية

وفي سنة ١٨٣٧ نقلت المدرسة الطبية من ابي زعبل الى القاهرة وهي المعروفة بمدرسة قصر العيني . ثم انشأ فيها فرعاً لدرس فن القبالة يتعلمها النساء لأن عوائد المشارقة لا تسمح بولادة النساء على ايدي اطباء من الرجال وانشأ لهن مستشفى خاصا بهن وكان لهذه الخدمة فائدة عظمى خصوصاً لان النساء لمبالغتهن في التحجب لايؤذن للطبيب بمساعدتهن في الولادة ولا الكشف عليهن في تشخيص بعض الامراض فكم كان يموت منهن لنقص المعالجة

٧ ـ الاصلاحات العلمية

اما الاصلاحات العلمية فلا تقلُّ اهمية عما تقدم لانه الف مجلساً للمعارف العمومية قصد به تعليم خدمة الحكومة الملكيين والجهاديين ما يؤهلهم للقيام بمهام اعمالهم وفتح مدارس كثيرة لتعليم الشبان من اهل البلاد وبعث بعضاً منهم الى اوربا لاتقان الدروس على مثال الارساليات العلمية بعد ذلك . وبلغ عدد التلامذة الذين ارسلوا الى اوربا في زمن محمد علي ٣١٩ تلميذاً انفق عليهم ٢٢٤٠٠٠ جنيه

وكان غرضه من الارساليات على الغالب تخريج شبان في الفنون العسكرية والاقتصاد والميكانيكيات والطب والتعدين والترجمة . وقد نشرنا اسماء تلامذة احدى الارسالية ومواطنهم والغرض من تعليمهم في السنة ١٥ من الهلال (صحيفة ٢٢٠)



ش ٦٤ : مختار بك اول ناظر للمعارف بمصر

وكانت المدارس المصرية في اول امرها تابعة للعسكرية فاغتنم رجوع جماعة من طلبة احدى الإرساليات من اوربا سنة ١٨٣٦ وانشأ مجلساً خاصا بالمدارس سماه ديوان المدارس برئاسة مختار بك احد الطلبة القادمين من اوربا وهاك اسماء اعضاء ذلك المجلس

كلوت بك	رفاعه بك
كياني بك	بيومي افندي
ارتين بك (والد يعقوب باشا ارتين)	لامبر
هكيكيان بك	هامون
وارين بك	دوزول (سكرتير)

فترى ان بعض هؤلاء الاعضاء من ابناء المصريين والارمن ممن تخرجوا في مدرسة باريس والبعض الآخر من الفرنساويين. فلا غرو اذا ساروا في التعليم على طرق فرنساوية ونشطوا اللغة الفرنساوية. وكان من جملة ما حملوه معهم من اوربا او تولد فيهم بعد الاطلاع على تواريخ الامم ان ينشئوا في مصر دولة اسلامية عربية تقابل الدولة الاسلامية التركية وكانت الحرب قائمة بينهما في الشام وما وراءها

فلما تألف ديوان المدارس وتحقق اعضاؤه حاجة الجيش الى ضباط لم يروا مندوحة عن الاستعانة بالوطنيين فاستأذنوا محمد علي في الاكثار من المصريين في المدارس وكانوا الى ذلك الحين لم يدخلوا منهم الا عدداً قليلاً فاذن لهم. فانشأوا مدارس ابتدائية وثانوية في انحاء القطر المصري على نمط المدارس الفرنساوية وهذه العلوم التي كانوا يعلمونها فيها:

القرآن	مباديء الحساب
الخط	« التاريخ
اللغة العربية	« الجغرافيا
« التركية	الرسم
« الفرنساوية	

ونظراً لتغلب العنصر العربي في هذه المدارس جعلوا التعليم كله في اللغة العربية واستقدموا لها الاساتذة في باديء الراي من تلامذة الازهر لتعليم القرآن واللغة واستعانوا بالمتقاعدين من ضباط الجيش القديم المتخرجين في اوربا لتعليم مباديء العلوم ثم نشأت طائفة من الاساتذة المبرزين في العلم — على ان روح الازهر ظلت سائدة عليها كلها مدة طويلة

ولم تمض بضع سنوات حتى اصبحت المدارس التابعة للديوان المذكور سبعين مدرسة منها ١٦ مدرسة كبرى وهي :

مدرسة الموسيقى العسكرية	تأسست	سنة	١٨٢٤
المدرسة الحربية في قصر العيني	«	«	١٨٢٥
مدرسة الطب والصيدلة	«	«	١٨٢٧
« الكيمياء العملية	«	«	١٨٢٩
« المشاة	«	«	١٨٣١
« الفرسان	«	«	١٨٣١
« الطبجية	«	«	١٨٣١
« البحرية	«	«	١٨٣١
« طب الحيوان	«	«	١٨٣١
« التعدين	«	«	١٨٣٤
« الهندسة	«	«	١٨٣٤
« الزراعة	«	«	١٨٣٧
« الولادة	«	«	١٨٣٧
« الادارة الملكية والحسابات	«	«	١٨٣٧
« الالسن والترجمة	«	«	١٨٣٧
« الصنائع والفنون	«	«	١٨٣٩



ش ٦ : رفاعة بك اول ناظر لمدرسة الالسن والترجمة

وبلغ عدد التلامذة في المدارس كلها نحو ٩٠٠٠ تلميذ تنفق الحكومة على تعليمهم ولبسهم وطعامهم وسكنهم . والسبب في مكابدتها الانفاق عليهم ان معظمهم في الاصل من غلمان المماليك فهم ملك الحكومة وهي بالطبع مكلفة باعالتهم فلما استكثرت الحكومة من التلامذة الوطنيين عاملتهم تلك المعاملة فجعلت تعليمهم مجاناً . ولم يكن لها بدٌّ من ذلك لانهم كانوا يدخلون تلك المدارس رغم ارادتهم وهم يكرهون التعليم فيها كما كانوا يكرهون الجندية . وظل ذلك شأن التعليم بمصر الى آخر ايام محمد علي سنة ١٨٤٨

المدرسة المصرية في باريس

ولما افضت ولاية مصر الى ابنه ابراهيم توقع الناس تغييراً في التعليم لانه كان قد اعدّ اصلاحاً مهماً على اثر رحلته في اوربا . ولكن الاجل عاجله قبل مباشرة العمل وكان ديوان المدارس قد نظر منذ تأسيسه سنة ١٨٣٦ في التعليم العالي وقرر عجز مصر عن القيام به لسببين : الاول خلوها من اساتذة قادرين على تدريس العلوم العالية والثاني خلو اللغة العربية من الكتب اللازمة لهذه العلوم — ولهذين السببين قررت الحكومة الاستمرار على ارسال التلامذة الى اوربا للتخرج بالعلوم العالية . ولكنها اصبحت لا ترسل غير النجباء المتخرجين من المدارس الكبرى . ولم يكن بدٌّ للتلامذة المشار اليهم من معرفة لغة البلاد التي سيتمون علمهم في مدرستها فانشأوا لهذه الغاية مدرسة مصرية في باريس يديرها رجل مصري اسمه اسطفان بك معه وكيل ارمني اسمه خليل افندي جراكيان . واما الاساتذة فعينتهم نظارة الحربية الفرنساوية من ضباط جندها

فارسلت الحكومة المصرية الى هذه المدرسة نحو اربعين طالباً فيهم جماعة من امراء العائلة الخديوية وفي جملتهم البرنسان حليم وحسين ابناء محمد علي والبرنسان احمد واسماعيل (الخديوي) ابناء ابراهيم . واتفق ان ابراهيم باشا مرّ بتلك المدرسة في اثناء سياحته باوربا ومعه سكرتيره نوبار باشا فاعجب بنجاحها من حيث التعليم ولكنه انتقد تقصيرها في التربية لان التلامذة كانوا يرسلون اليها وهم في حدود الشباب فارتأى ان يأتوها وهم صغار بين الثامنة والتاسعة من العمر ليتعلموا ويتثقفوا معاً . وعزم انه حالما يرجع الى مصر يأمر رجاله جميعاً بارسال اولادهم الى هذه المدرسة وهم احداث . ولكن المنية عاجلته والثورة الفرنساوية آلت الى اقفال المدرسة سنة ١٨٤٨

المطبعة الاهلية

وانشأ محمد علي المطبعة الاهلية في بولاق على انقاض مطبعة اتى بها بونابرت معه لما اتى لفتح مصر كما تقدم فلما خرجوا منها سنة ١٨٠١ اهملت تلك المطبعة ولم يلتفت احد اليها حتى تولى عرش الحكومة المصرية سنة ١٨٠٥ المغفور له محمد علي باشا مؤسس العائلة الخديوية وعمل على اصلاح هذا القطر وكان في جملة مساعيه العلمية احياء هذه المطبعة وتجديدها . فاستحضر لها العدد والحروف واستخدم العمال من اوربا وسوريا فاداروها واصطنعوا حروفاً جديدة تشبه حروفها الاصلية من وجه وتختلف عنها من وجه آخر . وهي قاعدة حروف بولاق المشهورة وقد طبعت بها كتب جمة طبية وتاريخية ودينية ما لا يحصى ولا يعد . وفي شهرة مطبعة بولاق ما يغني عن تعداد فضائلها

واما الذي اصطنع قاعدة تلك الحروف فجماعة من عمالها يومئذ لم نطلع الا على اسم واحد منهم وهو الياس مسابكي من اهل دمشق الشام . وكان في جملة حروف بولاق قاعدة فارسية جميلة اهملت الان

وامر بترجمة كثير من الكتب المفيدة في التركية والعربية والفارسية وانشأ الجريدة المصرية الرسمية (الوقائع المصرية) وديوان المهندسخانة وغير ذلك

صفاته ومناقبه

كان محمد علي متوسط القامة عالي الجبهة اصلعها بارز القوس الحاجبي اسود العينين غايرهما صغير الفم باسمه كبير الانف متناسب الملاح مع هيبة ووداعة . أبيض اللحية كثيفها مع استدارة وسعة . جميل اليدين منتصب القامة جميل الهيئة ثابت الخطوات منتظمها سريع الحركة . اذا مشى يجعل يديه متصالبتين وراء ظهره غالباً وعلى الخصوص اذ مشى في داره مفكراً في امر وكذلك كان يفعل بونابرت . وقلما كان يفاخر باللباس فكان لباسه غالباً على زي المماليك يلبس العمامة او الطربوش . وابدل اللباس العسكري في أواخر ايامه بلباس واسع بسيط لا يمتاز به عن بعض اتباعه

وكان يكره التفاخر بالحاشية فلم يكن على بابه الا رجل واحد يخفره . واذا استوى في مجلسه لا يتقلد السلاح بل يجلس وفي يده حقة العطوس والمسبحة يتلاهى بها وكان يحب العاب البليارد والداما ولا يأنف من مجالسة صغار الضباط . واما جلسائه العاديون فالقناصل وكبار السياح وكانوا يحبونه ويحترمونه ويلقبونه بمبيد المماليك او مصلح الديار

المصرية . وكان سليم القلب مع دهاء وسياسة سريع التأثر لا يعرف الكظم فكثيراً ماكان ينقاد بدسائس المفسدين . وكان كريم النفس سخي العطاء وفي بعض الاحوال مسرفاً . وكان يتفاخر بعصاميته ويرتاح للتكلم عن سابق حياته . وكان محباً للاطلاع ولا سيما على الاخبار السياسية وكان يجلّ الجرائد ويعتقد تأثيرها في الهيئة الاجتماعية فكانوا يترجمونها له فيطالعها بتمعن



ش ٦٦ : محمد علي باشا بالطربوش

اما هواجسه السياسية فكانت تقلق راحته فلا ينام الا يسيراً وقلما يرتاح في نومه ولا ينفك متقلباً من جانب الى آخر فكان يجعل عند فراشه اثنين من خدمته يتناوبان اليقظة لتغطيته اذا انكشف عنه الغطاء من التقلب . ويقال ان من جملة دواعي ارقه الشهقة المرتجفة التي كانت تتردد اليه كثيراً وكان قد أصيب بها في حملته على الوهابيين على أثر رعب شديد . على ان ذلك الارق لم يكن ليضعف شيئاً من سرعة حركته فكان يستيقظ نحو الساعة الرابعة من الصباح ويقضي نهاره في المشاغل المختلفة بين مفاوضة مع ذوي شوراه او مراقبة استعراضات العساكر او استطلاع امور اخرى تتعلق بمصالح الامة . وكان بارعاً في الحساب بغير تعلم لانه شرع بتعلم القراءة والكتابة وهو في الخامسة والاربعين من عمره . ويقال انه ابتدأ يتعلم احرف الهجاء على احد خدمة حريمه والكتابة على احد المشائخ وهذا مما يزيده شرفاً وفخراً ويبرهن على مافطر عليه

من قوة الادراك والحذاقة والمقدرة على المهام السياسية . وكان صارم المعاملة مع لين ورقة وحسن اسلوب . وكان متمسكاً بالاسلام مع احترام التعاليم الاخرى ولاسيما التعاليم المسيحية فكان يقرب اصحابها منه ويعهد اليهم اهم اعماله

ويقال انه كان بالاجمال اباً حنوناً لرعيته وصديقاً مخلصاً ونصيراً مسعفاً لذوي قرباه اباً حقيقياً ولاولاده ولذلك تراه بعد ان اصيب بفقد اكثرهم غلب عليه الحزن حتى أثر في صحته تأثيراً رافقه الى اللحد . اما حبه للرعية فلا يحتاج الى دليل فهذه الديار المصرية عموماً اذا قصرت السنة اهلها عن تعداد مآثره ينطق جمادها بمزيد فضله هذه الترع والجسور والبنايات والشوارع والجنائن. هذه المطابع والمدارس هذه النظامات الجهادية والملكية والقضائية هذه الزراعة والفلاحة هذه شبه جزيرة العرب تردد مالاقته من نجدته . وقد كان موضع احترام رعيته وذويه حتى الاجانب البعيدين منه وطناً ودبناً ومشرباً وكثيرا ماتقربوا اليه بالنياشين والهدايا اقراراً بفضله على العالم عموما بتمهيد سبل التجارة بين اوربا والهند على الخصوص



ابراهيم باشا بن محمد علي

ولد سنة ١٢٠٤ هـ وتولى وتوفي سنة ١٢٦٥ هـ



ش٦٧ : ابراهيم باشا في اواخر ايامه

هو نجل محمد علي باشا وقد تقدم في سيرة ابيه معظم سيرة حياته لانهما عملا معاً في مصر وكان ابراهيم ساعد ابيه الايمن في فتوحه وسائر اعماله العسكرية . ولد في قواله عام ١٢٠٤ هـ ومال من صغر سنه للاعمال الحربية وفيه مواهب اعاظم القواد يشهد بذلك ما اتاه من الاعمال العظمى في مصر والشام والمورة والسودان وغيرها مما فصلناه في ترجمة ابيه . وكان يعرف الفارسية والتركية والعربية وله اطلاع واسع في تاريخ البلاد الشرقية تولى الامارة المصرية بعد تنازل ابيه عام ١٢٦٥ فسار على خطواته سيراً حسناً وان كان في الحقيقة يختلف عنه بمواهبه الاصلية فقد كان ابراهيم صارم المعاملة صعب المراس شديد الوطأة كما يغلب ان يكون رجال العسكرية . وكان ابوه لين العريكة حسن السياسة ذا دهاء وحكمة . ولم يبق حكم ابراهيم الا ١١ شهراً وتوفي قبل والده

وكان ربع القامه ممتلىء الجسم قوي البنية مستطيل الوجه والانف اشقر الشعر في وجهه اثر الجدري وكان كثير اليقظة قليل النوم . وكان نقش خاتمه « سلام على ابراهيم »

عباس باشا الاول

لد سنة ١٢٢٨ ﻫ وتولى سنة ١٢٦٥ ﻫ وتوفي سنة ١٢٧٠ ﻫ



ش٦٨ : عباس باشا الاول

هو عباس باشا بن طوسون باشا بن محمد علي باشا ولد عام ١٢٢٨ ﻫ او ١٨١٣ م وربي احسن تربية وكان محباً لركوب الخيل فرافق عمه ابراهيم باشا في حملته الى الديار الشامية وشهد اكثر الوقائع الحربية وفي سنة ١٢٦٥ ﻫ تولى زمام الاحكام على الديار المصرية بعد وفاة عمه ابراهيم وكان على جانب من العلم والمعرفة لان المرحوم جده كان يحبه كثيراً فاعتنى بتعليمه في مدرسة الخانكاه

ومن مشروعاته المهمة الشروع في انشاء الخط الحديدي بين مصر والاسكندرية وتأسيس المدارس الحربية في العباسية ومد الخطوط التلغرافية لتسهيل سبل التجارة وغير ذلك

وكان له غلام يدعى البرنس ابراهيم الهامي كان على جانب عظيم من الجمال والذكاء واللطف والمعرفة والعلم زار الاستانة سنة ١٢٧٠ﻫ وتشرف بمقابلة السلطان عبد المجيد

فاحبه وزوجه بابنته وغمره بنعمه . فرجع الى مصر حامداً شاكراً والمرحوم الهامي باشا هو والد ذات العفاف والعصمة حرم المغفور له توفيق باشا الخديوي السابق ووالدة مولانا الخديوي الحالي

وعباس باشا هو الذي وضع الحجر الاول لمسجد السيدة زينب بيده وقد كان لذلك احتفال عظيم حضره كثير من الاعيان ورجال الدولة وذبحت فيه الذبائح وفرقت الصدقات على الفقراء كميات كبيرة

وفي ايامه كانت بين الدولة العلية والروسيين حروب فبعث لنجدة الدولة حملة كبيرة سارت عن طريق بولاق في البحر وسار هو بنفسه لوداعها هناك وقبل ركوبها النيل نهض لوداعها فألقى في الجمهور خطاباً بليغاً منشطاً

وتوفى عباس باشا في شوال سنة ١٢٧٠ او يوليو سنة ١٨٥٤ م في قصره بمدينة بنها العسل ثم نقل ودفن في مدفن العائلة الخديوية في القاهرة

سعيد باشا

ولد سنة ١٢٣٧ هـ وتولى سنة ١٢٧٠ هـ وتوفي سنة ١٢٧٩ هـ

هو ابن محمد علي باشا ولد في الاسكندرية عام ١٢٣٧ هـ (١٨٢٢ م) وكان محباً للعلم بارعاً فيه وعلى الخصوص في اللغات الشرقية والعلوم الرياضية وسلك الابحر والرسم وكان يتكلم الفرنساوية جيداً . تولى زمام الاحكام عام ١٢٧٠ هـ او ١٨٥٤ م بعد وفاة عباس باشا ابن اخيه وكان مؤثراً للعدل والفضيلة مهتماً بالاصلاح الاداري . ومن اعماله المبرورة اتمام الخطوط الحديدية والتلغرافية بين اسكندرية ومصر والشروع في مد غيرها وتنظيم لوائح الاطيان واسترجاعها من المتعهدين الى اربابها . وقد عدل الضرائب فجعلها عادلة ورفع كثيراً من الضرائب التي كان يتظلم منها الرعايا ونزح ترعة المحمودية وفي ايامه تمت معاهدة ترعة السويس وقد نشطها تنشيطا كبيراً واقام على طرفها الشمالي مدينة حديثة دعيت باسمه وهي بورت سعيد وغرس الاشجار في طريق المنشية

وفي السنة الثانية من توليه على مصر وضع الحجر الاول لاساس القلعة السعيدية عند راس الدلتا فيما بين القناطر الخيرية تداعت اركانها الآن وقد عثرنا على قطعة فضية مستديرة قطرها قيراطان ونصف على احد وجهيها رسم النيل عند تفرعه والقناطر الخيرية يليها على الجانبين برجا القناطر وبينهما عند راس الدلتا القلعة السعيدية وكل ذلك

في اجمل مايكون من الرسم . وعلى الوجه الآخر كتابة تركية تفيد « ان المغفور له سعيد باشا بن محمد علي باشا المشهور قد وضع اساس القلعة السعيدية وما يليها من الاستحكامات بيده في يوم الاحد ٢٣ جمادى الاخرة عام ١٢٧١ هـ لاجل حماية الديار المصرية » هذا نصها التركي

« قواله لى مشهور محمد علي صلبندن بيك ايكييوز اوتوزيدى سنه هجريه سنده اسكندريه ده دنيايه كلوب يتمش سنه سي شوال المكر منده خطه جسيمه مصره حكمي جاري اولان محمد سعيد محافظه ام دنيا ايجون اشبو استحكامات قويه يه بيك ايكييوز يتمش بر سنه سي جمادي الثانينك يكرمي اوجنجي دوشنبه كوني ومولودينك اوتوز درنجي سنه سي كندى يديله وضع اساس ايتمشدر »



ش ٦٩ : سعيد باشا

وفي ايامه ثارت مديرية الفيوم على الحكومة فبعث اليها واخمد الثورة فهدأت الاحوال . ولما اختتن نجله طوسون اطلق كل من كان في السجون من المجرمين حتى

القاتلين . وفي ايامه اعطيت بلاد السودان بعض الامتيازات وتولى عليها البرنس حليم باشا حكمداراً . وفي عام ١٢٧٦ ه او ١٨٥٩ م توجه لزيارة سوريا فمكث في بيروت ثلاثة ايام ونزل ضيفاً كريماً على وجهاء المدينة وكان في اثناء مروره في الطرقات ينثر الذهب على الناس

وفي عام ١٢٧٨ ه او ١٨٦١ م توفي المغفور له السلطان عبد المجيد وتولى السلطان عبد العزيز . وفي يوم السبت ٢٦ رجب عام ١٢٧٩ ه او ١٧ يناير ١٨٦٣ م توفي سعيد باشا في الاسكندرية ودفن فيها

اسماعيل باشا

ولد سنة ١٨٣٠ وتولى سنة ١٨٦٣ وخلع سنة ١٨٧٩ وتوفي سنة ١٨٩٥



ش ٧٠ : أسماعيل باشا

(ترجمة حاله) هو اسماعيل باشا بن ابراهيم باشا بن محمد علي باشا الكبير . وكان لوالده ثلاثة اولاد ذكور اكبرهم البرنس احمد (ولد عام ١٨٢٥) ثم البرنس اسماعيل (ولد عام ١٨٣٠) ثم البرنس مصطفى (ولد عام ١٨٣٢) وكان البرنس احمد من نوابغ الزمان ذكاء وفطنة كثير الشبه بوالده شكلاً واخلاقاً ولكنه توفي في ابان سني حياته بين الشباب والكهولة فاصبح صاحب الترجمة كبير ابناء ابراهيم

وربي اسماعيل باشا في حجر والده وتعلم وتثقف بحياطة جده لان جده رحمه الله كان قد انشأ لأولاده الصغار واولاد اولاده الكبار مدرسة خصوصية في القصر العالي فيها نخبة من مهرة الاساتذة فتلقى صاحب الترجمة فيها مبادىء العلوم واللغات العربية والتركية والفارسية ونذراً يسيراً من الرياضيات والطبيعيات . فلما بلغ السادسة عشرة من عمره بعث به جده مع ولديه المرحومين البرنسين حليم باشا وحسين بك والمرحوم البرنس احمد باشا مع ارسالية فيها نخبة من شبان مصر الاذكياء الى مدرسة باريس يتولى رئاستهم وجيه ارمني اسمه اصطفان بك . فقضوا في تلك المدرسة بضع سنوات تلقوا بها العلوم العالية ثم عادوا الى مصر الا حسين بك فان المنية ادركته هناك . ومن العلوم التي تلقاها اسماعيل اللغة الفرنساوية والطبيعيات والرياضيات وخصوصاً الهندسة وعلى الاخص فن التخطيط والرسم . وهذا هو سبب شغفه بعد ذلك بتنظيم الشوارع وزخرفة البناء

ولما عادت الارسالية كان عباس باشا الاول والياً على مصر فمكث اسماعيل معه على صفاء ومودة حتى وقع بين عباس باشا وسعيد باشا نفور مبني على اختلاف في اقتسام التركة وانحاز سائر افراد العائلة الخديوية الى سعيد وفي جملتهم اسماعيل . فساروا كافة الى الاستانة ورفعوا دعواهم الى جلالة السلطان فصدرت الارادة الشاهانية بانفاذ المرحوم فؤاد باشا الصدر الاعظم وكان يومئذ فؤاد افندي وجودت افندي وهو جودت باشا المؤلف الشهير الى مصر . فاتيا وسوّيا الخلاف وتصالح افراد هذه العائلة الكريمة فعادوا الى مصر الا اسماعيل فانه بقي في الاستانة وتعين عضواً في مجلس احكام الدولة العلية

وفي سنة ١٨٥٤ توفي عباس باشا الاول وتولى عمه سعيد باشا فعاد صاحب الترجمة الى مصر فولاه عمه المشار اليه رئاسة مجلس الاحكام فاهتم بشأنه اعظم اهتمام ونظمه على مثال مجلس احكام الدولة العلية

وفي عام ١٨٦٣ توفي المغفور له سعيد باشا فافضت ولاية مصر الى اسماعيل باشا

وهو خامس ولاتها من السلالة المحمدية العلوية فاخذ منذ تبوئه الاحكام في رفع شان هذه الديار واعادة رونقها الذي كان لها في عهد محمد علي باشا فاطلق يده في النفقة لتنظيم الشوارع وتشييد الابنية وانشاء المشروعات النافعة على انواعها مما سيأتي تفصيله غير مبال بما قد يجر اليه ذلك من الضيق

وكانت ولاية مصر تنتقل في الاسرة الخديوية الى من يختاره جلالة السلطان الاعظم بقطع النظر عن علاقته بالوالي السابق . وكان ولاة مصر يلقبون بالعزيز او الوالي او الباشا واذا لقبوا احيانا بالخديوي فانما يكون ذلك على سبيل التجمل والتفخيم اما اسماعيل باشا فهو اول من نال رتبة الخديوية ولقب الخديوي فاصبحت ولاية مصر ارثاً صريحاً في نسله ينتقل منه الى اكبر اولاده ومنه الى اكبر اولاده وهكذا على التعاقب وهاك اهم نصوص الفرمان المؤذن بذلك الصادر في ١٢ جمادى الاولى سنة ١٢٩٠ هـ الموافق ٨ يوليو عام ١٨٧٣

الفرمان الخديوي

« ان كيفية وراثة الحكومة المصرية المقررة في فرماننا الصادر ثاني ربيع الاخر عام ١٢٨٥ هـ قد غيرت على وجه ان تنتقل الخديوية من متبوئي كرسيها الى بكر ابنائه ومن هذا الى بكر ابنائه ايضاً وهلم جرّا علماً بان ذلك ادنى الى المصلحة واشد ملاءمة لاحوال البلاد المصرية . واختصاصاً لك بانعطافي الذي صرت له اهلاً بحسن سعيك واستقامتك واجتهادك وامانتك واثباتاً لذلك اجعل قانون الوراثة لخديوية مصر ومتعلقاتها وما يتبعها من البلاد وقائمقامية سواكن ومصوّع وتوابعهما كما تقدم بيانه . بحيث تكون الولاية لبكر ابنائك ثم لبكر ابنائه من بعده . فاذا لم يرزق من تولى الخديوية ولداً ذكراً كانت الولاية من بعده لاكبر اخوته او لاكبر بني اخيه الاكبر كما تقرر . ولا تكون هذه الوراثة لابناء البنات . ولاجل تأييد هذه الاحكام ينبغي ان تكون الوصاية في حال كون الوارث قاصراً على الصورة الآتية وهي :

« اذا توفي الخديوي وكان كبير ولده قاصراً اي غير بالغ من العمر ثماني عشرة سنة يكون هذا القاصر بالحقيقية خديوياً بحق الوراثة فيصدر اليه فرماننا بوجه السرعة. واذا كان الخديوي المتوفى قد نظم قبل وفاته اسلوباً للوصاية وعين كيفيتها وذوي ادارتها بصك مثبت بشهادة اثنين من رؤساء حكومته فاولئك الاوصياء يقبضون اذ ذاك على ازمة الاعمال عقب وفاة الخديوي . ثم ينهون بذلك الى الباب العالي فيثبتهم في مناصبهم . ولكن اذا توفي الخديوي بغير وصية وكان ابنه قاصراً فمجلس الوصاية عند

ذلك يؤلف من متولي ادارة الداخلية والحربية والمالية والخارجية والحقانية وقائد العسكر ومفتش المديريات. فيجتمع هولاء الذوات وينتخبون للخديوي وصياً باجماع الرأي او باغلبيته فاذا تساوت الاراء لاثنين من المنتخبين كانت الوصاية لارفعهما رتبة باعتبار الترتيب السابق من الداخلية فما بعدها . ويشكل مجلس الوصاية من الباقين فيباشرون جميعاً امور الخديوية ويعرضون ذلك لسلطنتنا السنية ليصدق عليه بالفرمان الشريف . وكما انه لا يجوز تبديل الوصي وتغيير هيئة الوصايا قبل انتهاء مدتها في الصورة الاولى اي فيما اذا كان تنظيمها بحكم وصية الخديوي المتوفى فكذلك لا تغير في الصورة الثانية . واما اذا توفي الوصي او احد اعضاء مجلس الوصاية في خلال تلك المدة فينتخب بدل الاول احد اعضاء المجلس وبدل الثاني احد ذوات المملكة . وبمجرد بلوغ الخديوي القاصر ثماني عشرة سنة يكون راشداً فيباشر ادارة امور الخديوية وذلك مما تقرر لدينا واقتضته ارادتنا السلطانية

— «ولما كان تزايد عمارة الخديوية المصرية وسعادة حالها ورفاهة سكانها من أهم الامور لدينا وكانت ادارة المملكة المالية ومنافعها المادية المتوقف عليها تكامل وسائل الراحة وتوفر أسباب السعادة عائدة على الحكومة المصرية راينا ان نذكر كيفية تعديل الامتيازات وتوضيحها على شرط بقاء جميع الامتيازات الممنوحة سابقاً للحكومة المصرية . وذلك انه لما كانت ادارة المملكة الملكية والمالية بجميع فروعها واحوالها ومنافعها عائدة بالحصر على الحكومة ومتعلقة بها وكان من المعلوم ان ادارة اي مملكة وحسن انتظامها وتزايد عمرانها وسعادة سكانها مما لا يتم الا بالتوفيق والتطبيق بين الادارة العمومية والاحوال والموقع وامزجة السكان وطبائعهم فقد منحنا كم الرخصة المطلقة في وضع القوانين والنظامات الداخلية حسب الحاجة واللزوم . ولاجل تسهيل تسوية المعاملات سواء كانت من قبل الرعية اومن قبل الحكومة مع الاجانب . ولتوسيع نطاق الصناعة والحرف وتوفير اسباب التجارة منحنا كم ايضاً الرخصة التامة في عقد المشاركات وتجديد المقاولات مع مأموري الدول الاجنبية في امور المملكة الداخلية وغيرها على شرط ان لا يكون ذلك موجباً للاخلال بمعاهدات الدولة السياسية

« ولكون خديوي مصر حائزاً لحق التصرف المطلق في الامور المالية قد اعطيت له الرخصة في عقد القروض من الخارج بغير استئذان عند ما يجد لذلك لزوماً على شرط ان يكون القرض باسم الحكومة المصرية . وبما ان امر المحافظة على المملكة وصيانتها من الطوارق (وهو اهم الامور واحوجها الى العناية) من اقدم الوظائف المختصة

لخديوي مصر قد منحناه الاذن المطلق بتدارك اسباب المحافظة وتنسيبها على مقتضى ضرورات الزمان والحال وبتكثير او تقليل عدد العساكر المصرية الشاهانية حسب اللزوم بغير تقييد ولا تحديد . وابقينا كذلك لخديوي مصر امتيازه القديم بمنح الرتب العسكرية الى رتبة ميرالاي والملكية الى الرتبة الثانية على شرط ان تكون المسكوكات المضروبة في مصر باسمنا الشاهاني وتكون اعلام العساكر البرية والبحرية في القطر المصري كاعلام عساكرنا السلطانية بلا فرق او تمييز ولا يجوز لخديوي مصر ان ينشيء البوارج المدرعة بغير استئذان اما سائر السفن والبوارج ففي استطاعته ان ينشئها متى شاء » انتهى

وقد امتاز اسماعيل باشا عن سائر ولاة مصر قبله انه حبب سكنى الديار المصرية الى الاجانب من جالية اوربا واميركا وغيرهما بما مهده من وسائل الراحة والطمأنينة مع الاخذ بناصرهم وتأييد مشاريعهم وتنشيطهم وتوسيع نطاق التجارة فتقاطروا اليها افواجاً واقاموا فيها على الرحب والسعة لما آنسوه من الكسب الحسن والعيش السهل

وفي عام ١٨٦٩ احتفل اسماعيل باشا بافتتاح ترعة السويس وكان قد بوشر بحفرها على عهد عمه سعيد باشا فحضر ذلك الاحتفال ملوك اوربا او من يقوم مقامهم . وكان له رنة بلغ صداها اربعة اقطار المسكونة لما اعده فيه اسماعيل من وسائل الزينة مما قد تقصر عنه همم الملوك العظام . وفي جملة ذلك انه بنى الاوبرا الخديوية بالقاهرة لتكون مرسحاً يشاهد فيه ضيوفه صنوف التمثيل وكانت المدة غير كافية لتشييد ذلك البناء فبذل الدرهم والدينار فلم تمض خمسة اشهر حتى تم البناء وسائر معدات التمثيل على ما نشاهده الآن وهو من المراسح التي لا مثيل لها الا في عواصم اوربا العظمى

قناة السويس

ويجدر بنا في هذا المقام ان نأتي على تاريخ هذه القناة من اقدم ازمانها فنقول :

لا يخفى ان الفاصل بين البحرين الابيض والاحمر برزخ السويس وما برح ملوك مصر من عهد الفراعنة يسعون في الوصل بينهما لتسهيل طرق التجارة بين الشرق والغرب ولم يكن الناس اكتشفوا راس الرجاء الصالح فكان برزخ السويس فاصلاً بين الشرق والغرب فاهتم رجال السياسة من الملوك وغيرهم في الوصل بينهما بحيث تجري السفن من الواحد الى الآخر ولو بقناة صغيرة . ولكن القدماء كانوا يعتقدون ان البحر الاحمر اعلى من البحر الابيض المتوسط فخافوا اذا فتحوا ما بينهما ان تطوف الماء وتغرق

البلاد فوجهوا عنايتهم الى الوصل بين البحرين بطرق اخرى . ويقال بالاجمال ان مساعيهم كانت ترمي الى احدى ثلاث طرق وهي (١) الوصل بينهما بواسطة النيل والصحراء (٢) بواسطة النيل وفروعه (٣) بواسطة ترعة مالحة — واليك خلاصة السعي في كل منهما :

١ — الوصل بين البحرين بالنيل والصحراء

هذه اقدم طرق الايصال بينهما واول من شرع بها صيروع احد ملوك العائلة السادسة الفرعونية في القرن السابع والثلاثين من قبل الميلاد واتمه حنو من العائلة الحادية عشرة . وبعض المؤرخين يذهب الى ان بطليموس فيلاذلفوس هو اول من اوجد هذا الاتصال في القرن الثالث قبل الميلاد ولعل الصواب انه اعاده بعد اهماله

وكان الاتصال المذكور يتم بطريق الصحراء بين برنيس على البحر الاحمر وقفط على النيل بقرب قوص بعصر العليا . فكانت المنقولات تحمل على الجمال او نحوها من برنيس الى قفط ومن هناك تنقل على مراكب نيلية الى البحر المتوسط عن طريق دمياط او رشيد . وما زالت هذه الطريق عظيمة الاهمية حتى اكتشفوا راس الرجاء الصالح جنوبي افريقيا سنة ١٤٩٧ م فانحطت اهميتها . ولما فتح خليج السويس كادت تهمل بالكلية لكنها لاتزال تستعمل في بعض الاحوال . وقد اصبح الاتصال الآن بين القصير على البحر الاحمر وقنا على النيل عوضاً عن برنيس وقفط وقد يكون الى قفط ولا تستعمل الا اذا كان المقصود المواصلة بين البحر الاحمر ومصر العليا راساً

٢ — الوصل بواسطة النيل فقط

لابد قبل الكلام في ذلك من كلمة نقولها في تاريخ فروع النيل لانها الآن غير ما كانت عليه في عصر الفراعنة والبطالسة والرومان . فالنيل الآن ينقسم بقرب القاهرة الى فرعيه الكبيرين فيسيران شمالاً يمر الشرقي منهما بنها فميت غمر فسمنود فالمنصورة وينتهي الى البحر المتوسط بالقرب من دمياط . والغربي يمر بمنوف فكفر الزيات فدسوق الى ان يصب في ذلك البحر بالقرب من رشيد . وهذان الفرعان هما الفرعان الوحيدان للنيل الآن وقلما يتفرع منهما غير الترع الاصطناعية

اما في الازمنة الخالية فكانت لها فروع اخرى كبيرة اكبرها متشعب من الفرع الشرقي . وكيفية ذلك ان هذا الفرع بعد ان يصل الى قرب بنها يسير منه فرع غربي ينقسم الى عدة فروع تنتهي الى البحر المتوسط بثلاثة تصب عند بحيرتي المنزلة والبرلس اهمها فرع كبير شرقي يقال له فرع بلوسيوم كان يخرج من الفرع الشرقي قرب بنها

ويسير نحو الشمال الشرقي فيمر ببوباستس (تل بسطة) فالصالحية فدفنة الى ان يصب في البحر المتوسط بالقرب من بلوسيوم (طينة) شمالي الفرما . اما بحر القلزم او البحر الاحمر فكان متصلاً بالبحيرة المرة الكبرى بمضيق صالح لسير السفن وكانت هذه البحيرة خليجاً يدعى خليج هيروبوليس نسبة الى مدينة كانت قائمة على مسافة قصيرة من راسه بالقرب من فيثوم (تل المسخوطة)

والوصل بين البحرين بواسطة النيل يتم بحفر ترعة موصلة بين النيل والبحر الاحمر اما البحر المتوسط فان النيل يصب فيه . واول من فكر في ذلك سيتي الاول من ملوك العائلة التاسعة عشرة فاراد ان يصل النيل بالبحيرة المرة بترعة . ويظن ارستوتل وسترابو وبلينيوس ان سيزوستريس (رعمسيس الثاني او الاكبر) هو اول من فعل ذلك في الجيل الرابع عشر قبل الميلاد . وربما كان ظنهم هذا مبنياً على ان هذا الملك هو الذي اسس مدينة فيثوم المتقدم ذكرها فرجحوا انه احتفر اليها ترعة من النيل لريها . وهذه الترعة توصل بين النيل وخليج هيروبوليس فيتم الاتصال المطلوب . اما المعول عليه بالاسناد الى المصادر التاريخية الوثيقة ان اول من اخرج ذلك الى حيز الفعل انما هو الملك نخاو الثاني من العائلة السادسة والعشرين (سنة ٦١٠ ق م) فاحتفر ترعة تنشأ من فرع بلوسيوم عند بوباستس بالقرب من الزقازيق وتسير فيما يدعى الآن وادي القنال حتى هيروبوليس ويقال ان امتداد هذه الترعة كان ٦١ ميلاً من الاميال الرومانية (نحو ٥٧ ميلاً انكليزياً)

فلما استولى الفرس على مصر اتمها الملك داريوس (دارا) بن هستاسبس سنة ٥٢٠ ق م وكان المضيق بين هيروبوليس والبحر الاحمر كاد يمتلىء من الرواسب فامر بجرفه وتوسيعه وكان طوله نحو عشرة اميال . ولا تزال آثاره باقية الى هذا العهد بالقرب من شالوف عند الطرف الجنوبي للبحيرة الكبرى وترعة الاسماعيلية . . ويشاهد هناك بعض الآثار الفارسية الدالة على صحة ذلك . وكان المعروف اذ ذاك ان البحر الاحمر اعلى من النيل كما تقدم فلم يجسر نخاو ولا داريوس على ايصال ترعتهما هذه الى الخليج تماماً خشية ان يختلط الماءان او يطوف المالح على العذب . فتمت المواصلة اذ ذاك على هذه الصورة : تسير السفن من البحر المتوسط في فرع بلوسيوم الى بوباستس ومنها في تلك الترعة الى هيروبوليس . ومن هذه كانوا ينقلون المحمولات الى مراكب البحر الاحمر على الدواب او غيرها فكانوا يقاسون في ذلك بعض المشقة . فلما تولى بطليموس فيلاذلفوس وجه اهتمامه الى اصلاح ذلك الخلل سنة ٢٨٥ ق م فاحتفر ترعة

موصلة بين هيروبوليس ورأس البحر الاحمر وترعة أخرى من هيروبوليس الى خليج هيروبوليس ووسع المضيق . فاصبح هناك ترعتان كلتاهمـا متصلة بالبحر الاحمر واتخذ حواجز واحتياطات اخرى لمنع طغو المياه المالحة على العذبة بحيث يمكن للسفن ان تمر الى الخليج والى البحر الاحمر مع توفي الطغيان . وابتنى عند مصب الخليج في البحر الاحمر مدينة دعاها ارسينوا جعلها محطة بحرية تنتهي اليها المراكب القادمة عن طريق النيل وتقلع منها السائرة في البحر الاحمر

ثم اخذ ماء النيل يتحول عن فرع بلوسيوم شيئاً فشيئاً حتى جف ماؤه فبطلت تلك الترعة . حتى اذا كان الاسلام وفتحت مصر على يد عمرو بن العاص امره الخليفة بانشاء ترعة يسهل نقل المؤن عليها الى الحجاز فاحتفر قناة دعاها خليج امير المؤمنين فابتدأ بها عند مصر القديمة حيث يبتدئ خليج مصر اليوم فسار بها في ظاهر الفسطاط حتى القاهرة ومنها الى المطرية ومنها الى بوباستس حيث تبتدىء الترعة القديمة ومن بوباستس الى البحر الاحمر . ومازالت تسير السفن في خليج امير المؤمنين الى ايام الخليفة المنصور فامر بردمه منعاً لامداد العلويين الذين ثاروا في المدينة . وما زال مردوماً الى الان . ويقال ان الحاكم بامر الله الفاطمي امر بحفره سنة ١٠٠٠ للميلاد لتسير فيه السفن الصغيرة ثم اهمل فطمرته الرمال . وظل من آثاره الى عهد غير بعيد الخليج الذي كان يقطع القاهرة من الجنوب الغربي الى الشمال الشرقي وهو المعروف بخليج مصر . كان ينشأ من فم الخليج عند مصر القديمة ويسير نحو الشمال الشرقي وقبل ان يبلغ نظارة المالية ينعطف نحو الشرق الجنوبي حتى جامع السيدة زينب فيعود الى سيره نحو الشمال الشرقي فيمر بجانب بركة الفيل ثم سراي درب الجماميز فتكية الحبانية ثم يقطع شارع محمد علي فيمر بجانب سراي منصور باشا الى ان يقطع السكة الجديدة قرب اتصالها بشارع الموسكي فيمر تاركاً كنيسة اللاتينيين وكنيسة السريان الى يساره وكنيسة الارمن وكنيسة القبط الى يمينه الى ان يصل الى بداية سكة مرجوش فيتركها الى يمينه ثم يقطع سور القاهرة عند باب الشعرية ويسير خارج القاهرة الى شارع الظاهر فيمر تاركاً جامع الظاهر الى يمينه حتى يلتقي بترعة الاسماعيلية وهناك ينتهي

وكانت فائدة هذا الخليج قاصرة على ري المدينة وبعض ضواحيها وكانوا يحتفلون بفتحه سنوياً عند وفاء النيل فلما توزعت المياه في القاهرة بالانابيب الى المنازل لم تبق له فائدة فاذنت الحكومة لشركة ترمواي القاهرة بردمه ومد خط الترمواي فوقه وهو الفرع المعروف بترمواي الخليج الآن

٣ — الوصل بينهما بقناة مالحة

وهي الباقية الى الان نعني قناة السويس . وقد فكر في حفرها الفراعنة ولكنهم خافوا طغيان الماء كما تقدم . وفكر فيه ايضاً المسلمون منذ فتحوا مصر — فذكروا ان عمرو بن العاص اراد فتح قناة توصل بين البحرين فمنعه عمر بن الخطاب لئلا يتخذها الروم طريقاً الى الحجاز . واراد ذلك الرشيد بعده على ان يحفر ترعة مما يلي بلاد الفرما نحو بلاد تنيس بحيث يكون مصب البحر الاحمر في البحر المتوسط كما هو حاله اليوم فشاور وزيره يحيى بن خالد فقال له « اذاً يخطف الروم الناس من المسجد الحرام والطواف وذلك ان مراكبهم تنتهي من البحر القلزم (الاحمر) الى بحر الحجاز فتطرح سراياها مما يلي جدة فيخطف الناس من المسجد الحرام ومكة والمدينة » فامتنع عن ذلك . وربما فكر فيه غيره من ملوك المسلمين ولم يخرجوه الى حيز الفعل

ثم ذهبت دولة العرب واخذ الافرنج يهبون من سباتهم وسعوا في اكتشاف الطرق التجارية — وكانت التجارة بين اوربا والمشرق في الاجيال الاخيرة محصورة على نوع ما في فينيسيا (البندقية) وكان الفينيسيون ابرع الناس فيها واكثرهم اشتغالاً بالاسفار بين البحرين عن طريق مصر . فلما اكتشف راس الرجاء الصالح تحولت تلك التجارة الى يد البرتغاليين فشق ذلك على الفينيسيين فاهتموا بانشاء ترعة توصل بين البحرين فخابروا سلطان مصر اذ ذاك (قنسو الغوري) وما زالت المخابرات بهذا الشأن دائرة حتى الفتوح العثماني حتى سنة ١٥١٧ م فبطلت واهمل المشروع . فلما كانت الحملة الفرنساوية اهتم نابوليون بونابرت بذلك الاتصال بواسطة برزخ السويس فاستكشف البرزخ ومعه المهندس الشهير موسيو لابير سنة ١٢١٣ هـ او ١٧٩٨ م وتفحصاه تفحصاً مدققاً فزعم لابير ان البحر الاحمر يعلو المتوسط ٣٠ قدماً فعدل عن فتح ترعة موصلة بين البحرين راساً وقدم التقرير الآتي ويتضمن افضل ما رآه من الطرق :

( ) الاتصال بواسطة النيل وفروعه وذلك بترعة من الاسكندرية الى الرحمانية على فرع رشيد . وفي النيل من هناك الى القاهرة وبخليج امير المؤمنين من القاهرة الى البحيرة المرة حيث يقام حواجز . ومن هناك الى السويس بترعة مالحة

(٢) الوصل بين البحرين راساً بان تحفر ترعة بين السويس والبحيرة المرة وترعة اخرى بين البحيرة المرة وبلوسيوم . الا ان هذا التقرير لم يباشر تنفيذه قبل ان قضي على تلك الحملة بالانسحاب من مصر

وفي سنة ١٢٥٥ هـ او ١٨٣٧ م انشأت شركة البواخر الشرقية خطا تجاريا بين الهند وانكلترا عن طريق برزخ السويس بان تأتي المنقولات في البحر المتوسط الى اول البرزخ فتنقل في البر الى السويس ومنها في البحر الاحمر الى الهند وغيرها

وفي سنة ١٢٦٤ هـ او ١٨٤٦ م تعينت لجنة مختلطة للنظر في تقرير لابير فقررت ان الفرق بالارتفاع بين البحرين لا يعبأ به الا انها انحلت ولم تصل الى نتيجة وتركت ذلك الى احد اعضائها الموسيو تالابوت فكان من رايه تتبع الترعة القديمة من السويس الى تل بسطة (قرب الزقازيق) راساً واحتفار ترعة من هناك الى راس الدلتا حيث القناطر الخيرية الآن فتقام لها قناطر تسير عليها مياه تلك الترعة الى البر الغربي ومن هناك تتم الترعة الى الاسكندرية . فكانه يريد ايصال البحرين بترعة تمر بين السويس والاسكندرية وتقطع راس الدلتا فلم يصادف مشروعه استحساناً لما كان يحول دون ذلك من المشاق . ثم قدم الخواجات بارولت تقريراً من مقتضاه ان يوصل البحر الاحمر ببحيرة المنزلة الى دمياط ثم يقطع النيل وتتم الترعة الى رشيد فيقطع فرع رشيد ايضاً وتوصل الترعة الى الاسكندرية فلم يصادف هذا نجاحاً ايضاً لمشابهته بمشروع تالابوت

وفي سنة ١٢٧١ هـ او ١٨٥٥ م اهتم لينان بك وموجل بك تحت ادارة الموسيو دلسبس في امر هذه المواصلة بعد ان حصل هذا الاخير على البراءة في ذلك من سعيد باشا والي مصر اذ ذاك فاقروا على وجوب فتح ترعة في خط مستقيم بين السويس وبلوسيوم مارة في البحيرات المرة فبحيرة التمساح فالمنزلة . وان تتصل هذه الترعة من طرفيها بحواجز عند التقائها بالبحرين . واقرّا ايضاً على احتفار ترعة عذبة من بولاق مصر توصل المياه الى بلوسيوم . فعمل الموسيو دلسبس تقريراً في ذلك وعرضه سنة ١٨٥٦ على لجنة دولية مؤلفة من نواب دول اوستريا وانكلترا وفرنسا وايطاليا وهولندا وبروسيا واسبانيا فادخلت فيه تعديلات من مقتضاها ان تنتهي تلك الترعة من طرفها الشمالي في نقطة على مسافة ١٧ ميلاً ونصف الى الغرب من بلوسيوم حيث بورت سعيد الآن وسبب ذلك ان مياه البحر المتوسط هناك عمقها بين ٢٥ و٣٠ قدماً على مسافة ميلين من الشاطىء اما عند بلوسيوم فلا تبلغ هذا العمق الاعلى مسافة خمسة اميال . وان تغفل الحواجز عند طرفي الترعة . وتم الاتفاق على ذلك واخذوا في العمل وانتهى حفرها في ١٩ نوفمبر سنة ١٨٦٩ في زمن الخديوي اسماعيل فاحتفل بفتحها احتفالا عظيما حضره ملوك اوربا او مندوبوهم كلف مصر نحو مليون جنيه

القناة والحكومة المصرية

تم انشاء هذه القناة بعقود مبرمة بين الحكومة المصرية والشركة التي انشأتها . فأول عقد ابرم في ٣٠ نوفمبر سنة ١٨٥٤ بين سعيد باشا والي مصر وبين فرديناند دلسبس صاحب المشروع واذن له بمصادقة السلطان عبدالمجيد بتشكيل شركة من ممولي العالم لجمع المال اللازم لحفر القناة الموصلة بين البحرين ويكون لها حق الانتفاع بريعها ٩٩ سنة من يوم فتحها . وانه بعد انقضاء المدة المذكورة تحل الحكومة محل الشركة فيأول اليها جميع حقوقها وتصير الترعة وما يتبعها من الابنية ملكاً لها الا الادوات والاثاث فانها تدفع اثمانها . وتعهد سعيد باشا في ذلك العقد ان يشارك الشركه هو وحكومته لاخراج هذا المشروع لحيز الوجود . وتعهد في لائحة صدرت بعدسنتين ان يكون اربعة اخماس الفعلة الذين يشتغلون في حفر القناة من المصريين واشترطت اشياء اخرى لصلحة الشركة

وتعهدت الشركة من الجهة الاخرى ان تنجز العمل في ست سنوات وان تتكفل هي بالنفقات اللازمة وان القناة تكون طريقاً حراً لكل طارق بلا تفريق بين الدول او الامم وان يكون للحكومة المصرية ١٥ في المئة من صافي الربح ولها ان تشتري من اسهم الشركة المقدار الذي تريده

واضطرت الحكومة سنة ١٨٦٦ الى عقد وفاق ثالث مع الشركة يقضي على الحكومة بغرامة — وذلك ان السلطان عبد العزيز اعترض على تعهد سعيد باشا بتشغيل المصريين في القناة رغم ارادتهم واعتبر ذلك من قبيل السخرة الجبرية وهي تخالف الحرية الشخصية فاضطر اسماعيل باشا وهو الخديوي يومئذ ان يدفع للشركة غرامة مقدارها مليون ونصف من الجنيهات

ابتدات الشركة بالحفر سنة ١٨٥٩ واعلنت الاكتتاب باسهمها فاشترت الحكومة المصرية على عهد سعيد باشا ٦٤٢ ١٧٧ سهماً وذلك يعدل نحو ٤٤ في المئة من راس مال الشركة واشترت فرنسا ١٦٠ ٢٠٧ سهماً اي نحو ٥٢ في المئة ولم تشتر انكلترا الا ٨٥ سهماً

ففتحت القناة للملاحة سنة ١٨٦٩ وبيد الحكومة المصرية ٤٤ في المئة من اسهمها ثم كان ما سيأتي ذكره من تهور اسماعيل في النفقات على البلاد وعلى نفسه واضطر للاموال فجعل يبدد مما في يديه من الاسهم . واحتاج اخيراً الى مبلغ كبير وكان لا يزال عنده من الاسهم ١٧٦٠٠٠ فتقدمت فرنسا لابتياعها فانتبهت انكلترا لما يترتب على ذلك من تغلب نفوذ فرنسا في ذلك الطريق . فما زالت تسعى حتى ابتاعت تلك الاسهم بمبلغ

٤٠٠٠٠٠٠ جنيه وهي لو بقيت الى اليوم لبيعت بثلاثين مليوناً او اكثر

وتورط اسماعيل في السخاء فاحتاج الى مال آخر فاقترض مليون جنيه من شركة السنديكات الكبرى ورهن عندها حصة مصر من ارباح القناة اي ١٥ في المئة . فلما اقتضى اسرافه تداخل اوربا في الشؤون المالية المصرية ظهر للمولجين بالبحث والتفتيش ثقل ما تحملته مصر من الديون فوضعوا قانون التصفية وعجزت مصر عن دفع المليون المذكور فتنازلت عن الرهن وتألفت شركة فرنساوية دفعت الدين وقامت مقام مصر في الاستيلاء على حصتها المشار اليها . ويقدرون جملة ما وصلها من ذلك باربعين مليون جنيه

وكان اسماعيل قبل بيع اسهم القناة قد باع ارباحها لعشرين سنة فلما باع الاسهم لانكلترا سوت مسألة تلك الارباح بان تسددها الحكومة المصرية باقساط مقدارها ٢٠٠٠٠٠ جنيه كل سنة الى سنة ١٨٩٦

وارادت الشركة ان تمد اجل امتيازها فعرض المستشار المالي ذلك بصفة مشروع يقضي بان تزيد الحكومة مدة امتياز الشركة ٤٠ سنة فضلاً عن الستين الباقية بحيث يصير آخرها سنة ٢٠٠٨ وتقبض مصر في مقابل ذلك اربعة ملايين جنيه تستولي عليها في اثناء اربع سنوات (من سنة ١٩١٠ — ١٩١٣) ويكون لها من سنة ١٩٢١ حصة من الربح تبدأ باربعة في المئة وتزداد الى ستة فثمانية فعشرة فاثني عشر في المائة الى سنة ١٩٦٩ وهي نهاية مدة الامتياز الاصلية . ومتى دخلت مدة الامتياز الجديد تستولي الحكومة المصرية فيه على خمسين في المئة من ارباح الشركة الصافية . ومتى انتهت هذه المدة سنة ٢٠٠٨ تصير القناة وابنيتها ملكاً لها الا الادوات والاثاث فتدفع قيمتها

ولما نشر المستشار مشروعه طلب الاهلون عقد الجمعية العمومية لاخذ رأيها فيه وفوضت الحكومة اليها الحكم القطعي بشأنه فقررت رفضه

عود الى اسماعيل

وفي السنة الاولى من ولاية اسماعيل حلت ركاب السلطان عبد العزيز في القطر المصري فلاقى ترحابا جديراً به

وفي عام ١٨٧٢ تعدى الاحباش على حدود مصر مما يلي بلادهم واسروا بعضاً من رعايا مصر فبعثت الحكومة المصرية تطلب ردهم فجرت المخابرات فآل ذلك الى حرب جرد فيها اسماعيل حملة لم تنل غرضاً فانتهت الحرب بالصلح . وفي عام ١٨٧٣ شخص رحمه الله الى دار السعادة فاحتفل بقدومه فعاد وقد حاز رضى الحضرة الشاهانية ورجال

المابين الهمايوني . وفي تلك السنة احتفل بزواج انجاله الثلاثة وهم المغفور لها توفيق باشا الخديوي السابق والبرنس حسن باشا والبرنس حسين باشا احتفالاً واحداً تحدث به الناس زمناً طويلاً ومما زاد ذلك الاحتفال بهجة انهم نالوا عندئذ رتبة الوزارة الرفيعة معاً

الديون المصرية

ولنأت الآن الى امر هو اهم الامور المتعلقة بصاحب الترجمة وعليها مدار ما آل اليه امره — نريد به امر الديون التي تعاظمت على مصر في ايامه . وايضاحا لذلك نذكر ملخص تاريخ الدين المصري . فأول من وضع جرثومة الدين المصري المغفور له سعيد باشا عام ١٨٦٢ وقدره الاسمي ٣٢٩٢٨٠٠ جنيه بفائدة ٧ بالمائة وفي السنة التالية تولى صاحب الترجمة تخت الحكومة المصرية فأخذ في البذل والانفاق في التشييد والبناء وغير ذلك حتى زادت النفقات على الدخل . فكان اذا اراد عملاً جنح الى الاستقراض لا يبالي بعاقبة ذلك حتى بلغت ديون مصر نحو مئة مايون جنيه فأصبحت حملاً ثقيلاً على الخزينة المصرية وعلى اهالي البلاد لانه كان يضرب الضرائب الفادحة ليفي منها فائدة تلك الديون ويستخدم العنف في تحصيلها من الاهالي حتى آل الامر الى مداخلة الدول الاجنبية للمحافظة على اموال رعاياها اصحاب الديون

فتخابرت الدول وتشاورت في احسن الوسائل لضمان تلك الاموال واستهلاكها فألفت لجنة دولية مشتركة سموها صندوق الدين العمومي صدر الامر العالي بتشكيله في ٢ مايو عام ١٨٧٦ وورد في ذلك الامر ان هذا الصندوق قد انشىء لتأمين ارباب الديون على ديونهم واستلام مايستحق لهم من الفوائد وغيرها وان الحكومة لايجوز لها تجديد قرض الا بالاتفاق مع صندوق الدين وان الدعاوي التي يتراءى لصندوق الدين رفعها على الحكومة تنظر في المجالس المختلطة

وكانت الديون المصرية قسمين دين الحكومة ودين الدائرة السنية فضموهما في ٧ مايو من تلك السنة الى دين واحد فبلغ قدره ٩١ مليون جنيه وسموه الدين الموحد بفائدة ٧ بالماية ويتم استهلاكه في ٦٥ عاماً . ثم راى اسماعيل باشا ان توحيد الدين على هذه الصورة لايتيسر له اتمامه فأصدر في ١٨ نوفمبر منها امراً يقول فيه ان تصدر الحكومة المصرية عليها سندات بمبلغ ١٧ مليون جنيه تكون ممتازة برهن خصوصي هو السكة الحديدية المصرية ومينا الاسكندرية وفائدته ٥ بالمائة وسماه الدين الممتاز

على ان كل هذه الوسائل لم تكن كافية لاقناع الدول لان الحكومة لم تكن تقوم

باستهلاك الديون حسب الشروط فعينت الدول عام ١٨٧٨ لجنة مالية مختلطة لمراقبة حسابات الحكومة المصرية فرات فيها عجزاً مقداره مليون ومائتا الف جنيه فتنازل اسماعيل باشا عن املاكه الخاصة واملاك عائلته للحكومة وهي التي تعرف باملاك الدومين وتقرر في تلك السنة استقراض ثمانية ملايين جنيه ونصف وجعلوا املاك الدومين رهناً لها وهذا هو الدين المعروف بدين روتشيلد

اقالته

وكانت اعمال الحكومة المصرية تجري بمقتضى ارادة الخديوي راساً اما بعد مداخلة الاجانب باحوال المالية فلم يرَ اسماعيل بدًّا من جعل حكومته شوروية فشكل مجلس النظار على ما هو عليه الان برئاسة نوبار باشا وصادق على تعيين ناظرين احدهما انكليزي وهو المستر ولسن للمالية والاخر فرنساوي وهو المسيو بلينير للاشغال العمومية . فراى مجلس النظار ان يقتصد شيئاً من نفقات الجند فرفت جانباً منهم فثار المرفوتون وجاء جماعة منه وفيهم ٤٠٠ ضابط الى نظارة المالية وامسكوا بنوبار باشا والمستر ولسن وطلبوا اليهما دفع ما تأخر لهم من رواتبهم و خاطبوهم بعنف وشدة حتى عات الضوضاء وكادت تأول الى ثورة لولا ان اقبل اسماعيل باشا وخاطب الجند ووعدهم وامر بانصرافهم اما هم فحالما راوه ذعروا وكانه جاءهم برقية او سحر فانكفأوا راجعين . والمظنون ان ذلك حصل بالتواطؤ من قبل وهي اول ثورة عسكرية حدثت في هذا العهد

ثم استقال الوزيران نوبار ورياض تخلصاً من عبء التبعة لما آنسوه في اعمال الخديوي من الخطر فشكل مجلساً آخر برئاسة ابنه توفيق باشا (الخديوي السابق) على ان ذلك لم يقلل شيئاً من القلاقل لان الداء لم يكن في المجلس ولكنه كان في مقاصد اسماعيل لانه استعظم اغلال يديه بمجلس فيه ناظران اجنبيان فقلب هيئة ذلك المجلس في ٧ افريل عام ١٨٧٩ واخرج الناظرين الاجنبيين وعهد برئاسة المجلس الى المرحوم شريف باشا فعظم ذلك على دولتي انكلترا وفرنسا لانهما اعتبرتا تلك المعاملة اهانة لهما فعمدتا الى الانتقام فسعتا في ذلك لدى الباب العالي سرًّا وجهراً وفي ٢٦ يونيو عام ١٨٧٩ صدر الامر الشاهاني باقالته وتولية المغفور له توفيق باشا وفي ٣٠ منه سافر اسماعيل باشا من القاهرة الى الاسكندرية ومنها الى اوربا ويقال انه خاطب ابنه توفيق باشا عند سفره قائلا :

« لقد اقتضت ارادة سلطاننا المعظم ان تكون يا أعز البنين خديوي مصر فاوصيك بخوتك وسائر الآل برًّا واعلم اني مسافر وبودي لو استطعت قبل ذلك ان ازيل

بعض المصاعب التي أخاف ان توجب لك الارتباك على اني واثق بحزمك وعزمك فاتبع راي ذوي شوراك وكن اسعد حالاً من ابيك »

وما زال بعد سفره مقيماً في اوربا حتى افضت به الحال الى الاقامة في الاستانة العلية فأقام فيها الى ان توفاه الله فيها في ٦ مارس عام ١٨٩٥ وله من العمر ٦٥ سنة فحملت جثته الى مصر ودفنت فيها

اعماله وآثاره

قلنا ان اسماعيل باشا كان شديد الشغف بتنظيم المدن حتى قيل انه يريد ان يجعل القاهرة تضاهي باريس بالنظام والترتيب فنظم طرقها ووسعها واكثر من فتح الشوارع الجديدة وابتناء الابنية الفاخرة كالاوبرا الخديوية والقصور الباذخة في القاهرة والاسكندرية واعظم تلك الابنية سراي الجيزة وهي مما تقصر عنه همم الملوك حتى ضربت بها الامثال وانشأ المتحف المصري في بولاق والمكتبة الخديوية وهما من اجل الآثار وانفعها . اما المتحف فقد انشأه بأمره ماريت باشا وقبره فيه . وكان المتحف اولاً في بولاق ثم نقل على عهد الخديوي السابق الى سراي الجيزة ثم نقل في عهد الخديوي الحالي الى بناية بنوها له خاصة بجوار قصر النيل



ش ٧١ . ماريت باشا مؤسس المتحف المصري

وماريت باشا فرنساوي الاصل ولد في بولون سيرمير سنة ١٨٢١ ونشأ على حب الآثار المصرية ودرسها . ثم اتفق سنة ١٨٥٠ ان الانكليز انفذوا الى مصر وفداً لغويا يبحث في مكاتب الديور المصرية عن الكتابات القبطية القديمة فعثروا في دير بوادي النطرون على اوراق كثيرة ارسلوها الى لندن فاقتدي الفرنساويون بهم وكانوا انما يرجون بابحاثهم هذه العثور على حقائق جديدة تتعلق بتاريخ اليونان . وكان ماريت قد اشتهر بينهم بمعرفة هذه اللغة فعينوه في هذه المهمة براتب مقداره ثمانية آلاف فرنك فسافر في ٤ سبتمبر سنة ١٨٥٠ حتى جاء القاهرة فراى انه لا يستطيع الذهاب الى ذلك الدير او غيره الا بوصية من بطريرك القبط وكان البطريرك قد غضب من تصرف الوفد الانكليزي لانهم حملوا ما حملوه من الكتب جبراً . وبعد السعي والالتماس رضي ان يكتب الى ماريت كتاب توصيه بأسم رئيس دير الانبا مقار . على ان ماريت لم يكن يرجو الحصول على ذلك الكتاب قبل مضي ١٥ يوماً . فلكي لا يضيع فرصة اخذ يتعهد مشاهد القاهرة فسار الى القلعة . وكان ذهابه اليها سبباً لتغيير عظيم في مستقبل حياته لانه اشرف من سورها على ضواحي العاصمة فراى اهرام الجيزة واهرام سقارة فتاقت نفسه الى زيارتها وقد نسي ماجاء من اجله فركب الى سقارة وتوغل في صحرائها يتوقع العثور على آثار مهمة لقربها من انقاض منف العظمى فوقف يتفرس في تلك الرمال القاحلة فراى فيها حجراً ناتئاً يشبه رأس الانسان فتأمله فاذا هو رأس ابي الهول . وكان قد شاهد امثال هذا التمثال قبلاً فلم يهمه ذلك الاكتشاف لغرابته ولكنه توسم منه خيراً لما سبق الى ذهنه مما قراه في استرابون عن آثار منف وما زال حتى وفق الى اكتشاف السرابيون في تاريخ طويل فصلناه في ترجمته في مشاهير الشرق الجزء الثاني ولما تولى اسماعيل هم بانشاء متحف للآثار المصرية فلم يجد اولى منه . وتوفي ماريت سنة ١٨٨٠

اما المكتبة الخديوية فما زالت في درب الجماميز حتى نقلت الى بناية بنوها لها وللمتحف العربي بباب الخلق تفتخر بها مصر على سائر الامصار الشرقية لما حوته من الآثار العلمية وبينها جانب كبير من الكتب الخطية التي يعز وجودها

ومن اعمال اسماعيل انه جرَّ الماء بالانابيب الى بيوت العاصمة وكان الناس يستقون قبلاً بالقرب والصهاريج وعمم زرع الاشجار في المدن وضواحيها وانار القاهرة بالغاز وتدارك ماينجم عن الحريق باستجلاب آلات الاطفاء

وهو الذي نظم معظم فروع الادارة على ما هي عليه الان فقسم القطر المصري



ش٧٢ : نوبار باشا معين الخديوي اسماعيل في انشاء المجالس المختلطة

الى ١٤ مديرية وعين لها المراكز واسس مجلس النواب ونظمه . ونظم مجالس القضاء الاهلي والقضاء الشرعي وجعل لكلٍّ روابط وحدوداً . ووضع نظام المجالس الحسبية وانشأ مجلس حسبي القاهرة . وعلى عهده انشئت المجالس المختلطة بمساعي وزيره نوبار باشا فانفذه سنة ١٨٦٧ الى اوربا مندوباً مفوضاً لمخابرة الدول العظمى في انشاء محاكم مختلطة تقوم مقام المحاكم القنصلية التي كانت مرجع محاكمة الاجانب في ذلك الحين فقضى في سعيه هذا سبع سنوات يتردد في اثنائها بين ممالك اوربا ويفاوض عظماءها وملوكها والخزينة المصرية مفتوحة بين يديه فانفق اموالاً طائلة ولكنه عاد ظافراً غانماً . وقد اراد اسماعيل بتلك المجالس تقليل نفوذ القناصل وحصر التوسط الاجنبي ولكنها كانت سبباً لزيادة النفوذ واتساع دائرته . وكانت مصلحة البريد قبلا شركات اجنبية فانشأ مصلحة البوسطة المصرية وجعلها من المصالح الاميرية كما هي الان

البريد المصري

كان البريد في زمن محمد علي ينقل على الخيل او على ايدي السعاة بين القاهرة والاسكندرية ودمياط ورشيد . ولما تكاثر الاجانب شعروا بالحاجة اليه فانشأوا بريداً افرنجيا تولاه رجل ايطالي سنة ١٨٤٠ وتولاه غيره حتى دخل في خدمته ايطالي آخر اسمه جاكو موتسي وكان نشيطاً دربا فعمل على توسيع نطاقه فانشأ له نحو سنة ١٨٥٤ فروعاً في دمياط والمنصورة وزفتى ودمنهور ورشيد وطنطا وغيرها



ش ٧٣ : موتسي بك — اول مديري البريد المصري

فقامت المناظرة بين البريد الاوربي وبريد الحكومة المصرية . ولم تكن الحكومة تستطيع الغاء ذلك البريد احتراماً للامتيازات الاجنبية فسعت في ضم البريدين وجعلت فاتحة ذلك الاتفاق رخصة وقتية اعطتها لصاحبي البريد الاوربي تيتوكين وموتسي تخولهما ادارة البريد بمصر الى عشر سنوات على ان تنقل المراسلات بالسكة الحديدية المصرية مجاناً فكان ذلك فاتحة تنظيم البريد

وتوفي تيتوكين بعد سنتين واستقل موتسي بالعمل وخطر له الرجوع الى بلده فاراد ان يبيع الرخصة لبعض البنوك الافرنجية فاغتنمت الحكومة هذه الفرصة وعرضت على موتسي المذكور ان يعيد البريد للحكومة قبل انتهاء مدة الرخصة ويتولى

ادارته بنفسه على شروط رضيها وانضم البريدان سنة ١٨٦٥ وسميا معاً « البوسطة الخديوية » وسمي جاكو موتسي مديراً عاما عليها وانعم عليه بالرتبة الثانية مع لقب بك فصار اسمه موتسي بك وهو اول مديري البريد المصري

وتكاثر قدوم الاجانب الى مصر في عصر اسماعيل وزادت الحركة التجارية زيادة كثيرة وزادت الحاجة الى البريد فانشأ موتسي بك فروعاً له في البلاد والقرى الكبرى في مصر السفلى والعليا وعلى شواطيء البحرين الابيض والاحمر وجعل ديوانه المركزي في الاسكندرية وسن له لائحة وقوانين رسمية وجعل لمراسلاته تعريفة عمومية . وكانت المراسلات تنقل في اول عهد البريد بلا طوابع . فاصطنع موتسي بك طوابع البريد المصري لاول مرة سنة ١٨٦٦ وجعل رسمها مثل رسمها الان في وسطه صورة ابي الهول والاهرام بشكل بيضي وحوله اسم البريد وقيمة الطابع

وما زال البريد المصري مستقلاً عن البرد الافرنجية الى سنة ١٨٦٨ فعقد اول معاهدة في هذا السبيل مع بريد النمسا ثم عقد معاهدة اخرى مع بريد ايطاليا وفي سنة ١٨٧٣ عقد معاهدة ثالثة مع بريد انكلترا وفي السنة التالية (١٨٧٤) دخل البريد المصري في اتحاد البوسطة العام

﴿ المطابع والجرائد ﴾ وحسن اسماعيل مطبعة بولاق وزاد فيها وامر بترجمة الكتب المفيدة وطبعها ونشرها واسس معملاً للورق ونشط المطبوعات فلم يكن في القاهرة الا جريدة الوقائع المصرية تصدر على غير نظام فجعل لها ادارة خاصة بها . وتكاثرت على عهده المطابع والجرائد العربية كجريدة التجارة ومصر والوطن والاهرام والكوكب الاسكندري وروضة الاسكندرية وروضة المدارس واليعسوب ونزهة الافكار و- ـدينة الابصار وبالجملة فقد كانت للعلم في ايامه نهضة مرجع الفضل بها اليه لانه كان يحب العلماء ويجيز المجيدين منهم ويأخذ بناصرهم مادياً وادبيا وكان يشهد الاحتفال بامتحان التلامذة بنفسه ويسلم الجوائز لمستحقيها بيده وقد ينهض عند تقديمها تنشيطاً لهم

﴿ المواصلات ﴾ ولم يكن في القطر المصري يوم توليه الا خط حديدي ممتد بين القاهرة والاسكندرية فانشأ كثيراً من الخطوط الاخرى الممتدة الى سائر انحاء القطر شمالاً وجنوباً وشرقاً وغربا ومد اسلاك التلغراف حتى اوصلها الى السودان وقد بلغت نفقات الخطوط الحديدية والآلات التجارية والعربات والآلات التلغرافية التي احدثها بين عام ١٢٨١ و ١٢٩٠ هـ ٩٦٥٨٣٢٧ جنيهاً على تقدير المرحوم صالح مجدي بك

﴿ الابنية ﴾ ومن آثاره مدينة الاسماعيلية بناها على قنال السويس وسماها باسمه وجعل

فيها الحدائق والقصور وانشأ المنارات في البحرين الابيض والاحمر وزين حديقة الازبكية بغرس اشجارها وتسويرها ورتب فيها الموسيقى وبنى بنايات كثيرة بالقرب من طره على طريق حلوان لمعامل البارود والاسلحة الصغيرة انفق على بنائها مبالغ كبيرة ولكنه لم يستعملها . وبنى ليمان الاسكندرية والحمامات المعدنية في حلوان ولولاها لم تعمر حلوان وبنى المرصد بالعباسية وكثيراً من معامل السكر في سائر انحاء القطر هذا فضلاً عن الترع الكثيرة والجسور الهائلة . ومن اشهر تلك الترع الابراهيمية بالصعيد والاسماعيلية بين القاهرة والسويس . ومن اعظم الجسور كبري قصر النيل الموصل بين القاهرة والجزيرة وبنى حوضاً لترميم السفن في السويس



ش ٧٤ : سوق الرقيق في الخرطوم — تاجر يساوم على جارية

ومما تمّ على يده من الاعمال العظيمة ابطال تجارة الرقيق واتمام فتح السودان واخضاعها فافتتح مملكة دارفور عام ١٢٩١ هـ وما بعدها حتى بلغت جنوده الدرجة الرابعة من العرض وراء خط الاستواء . وعني في تحسين احوال السودان فمهد شلال عكه . وفتح سدًّا كبيراً جنوبي مديرية فشوده طوله ستون ميلاً كان يعيق مسير السفن في النيل الابيض فتسهلت طرق التجارة كثيراً . ومن مآثره تسهيل اكتشاف ماغمض من قارة افريقيا بمد اصحاب الخبرة كما سيأتي في مقدمة الكلام عن الحوادث السودانية

النهضة العلمية في ايامه

وقد علمت ما كان من رواج العلم في زمن محمد علي ثم اصابته صدمة في زمن عباس وسعيد. والاول حالما تولى اقفل المدارس كلها الا واحدة سماها المدرسة المفروزة لتخريج الضباط البرية والبحرية — حتى مدرسة الطب فانه ابدلها بمدرسة بسيطة لاخراج الاطباء للجيش فقط. وكان يختار من تلامذة هاتين المدرستين جماعة يرسلهم الى اوربا لاتمام دروسهم كما كان يفعل جده محمد علي

وجاء بعده سعيد باشا ولم يكن اكثر رغبة من سلفه في التعليم وكان مع ذلك متقلباً ينشيء المدارس ثم يامر باقفالها ثم يفتحها ويقفلها على مايبدو له او تمس الحاجة اليه او تبعث الحالة عليه. وكان عباس الاول لما اقفل المدارس استبقى ديوانها فاجهز سعيد باشا على مابقي وحل ذلك الديوان وما زال محلولاً حتى اعاده اسماعيل

تولى اسماعيل باشا سنة ١٨٦٣ وليس في مصر الا مدرسة ابتدائية ومدرسة ثانوية ومدرسة حربية ومدرسة طبية صيدلية. وكانت هذه المدارس في حالة يرثى لها من الاختلال والتضعضع فامر بتنظيمها وعهد بذلك الى ادهم باشا وكان قد تولى ديوان المدارس بعد مختار بك سنة ١٨٣٩ الى سنة ١٨٤٩ ففوض اليه احياء التعليم مهما كلفه احياؤه. فأنشأ في ناحية العباسية مدرسة ابتدائية ومدرسة تجهيزية ومدرسة حربية للفرسان والمشاة ومدرسة هندسية ومدرسة للطب. واستقدم للمدرسة الحربية مديراً واساتذة من اوربا وعهد بالمدارس الاخرى الى اساتذة من الوطنيين المتخرجين في فرنسا. ولو امعنت النظر في الاحوال السياسية التي كانت محيطة باسماعيل لرأيته انشأ هذه المدارس لمثل الغرض الذي انشأها له جده محمد علي منذ اربعين سنة. لان عنايته الكبرى كانت متجهة على الخصوص الى المدارس الحربية والى ما يهيء رجالاً يخدمون حكومته. واقتدى بجده ايضاً في ارسال الشبان الى اوربا لاتمام علومهم

وسهل اسماعيل قدوم الاجانب الى مصر ورغبهم فيها فانشأوا المدارس على ما يلائم اغراضهم ولكنها عادت بالنفع على الشبيبة المصرية وكثيراً ما كانت الحكومة تنشط هذه المدارس بالرواتب السنوية. وحدث في ايام اسماعيل نهضة ادبية بمن وفد على مصر من رجال الادب من كل الطوائف وانشئت الصحف وتألفت الجمعيات. فراى الحال ماسة الى زيادة العناية في التعليم فأنشأ نظارة المعارف العمومية وعهد اليها بتنظيم المدارس على نمط جديد. فالحقوا مدرسة الحربية بنظارة الحربية وسموا مابقي من المدارس « المدارس الملكية » تحت نظارة المعارف العمومية وقسموها الى ثلاث طبقات باعتبار

درجة التعليم : ابتدائية وثانوية وعليا وانشأوا مدارس لم تكن من قبل كمدرسة الادارة ثم صارت مدرسة الحقوق ومدرسة دار العلوم ومدرسة الصنائع والفنون في بولاق ومدرسة المعلمين واعادوا مدرسة الالسن لتخريج شبان يتولون الترجمة والتحرير في الدواوين . اما التعليم العالي فظل محصوراً في المدرسة التجهيزية واكثر وزراء اسماعيل عملاً في ذلك المرحوم علي باشا مبارك



ش ٧٥ : علي باشا مبارك — وزير المعارف المصرية

ولم تمض عشر سنوات من حكم اسماعيل حتى كمل نظام هذه المدارس وعنيت الحكومة بانشاء الكتاتيب في سائر انحاء القطر فبلغ عددها بضعة آلاف وزاد عدد التلامذة على مئة الف وفي جملتها مدارس للبنات . غير ما انشأه الاجانب من المدارس الخصوصية واكثرها لجماعة المرسلين من الطوائف النصرانية

وفي عهده تأسست المحافل الماسونية الوطنية وبحمايته تعزز شان الجمعية الماسونية في مصر وانتشرت مبادئها حتى انتظم في سلكها نجله المغفور له الخديوي السابق وجماعة كبيرة من امراء البلاد ووجهائها



ش ٧٦ : السيد جمال الدين الافغاني في موقف الخطابة

وحدثت في اواخر ايام اسماعيل حركة فكرية وافقت قدوم السيد جمال الدين الافغاني الى مصر فزادت الحركة . وجمال الدين من كبار الرجال كان له مطمع في الاصلاح السياسي فاتى مصر سنة ١٨٧١ على قصد التفرج بما يراه من مناظرها ومظاهرها ولم تكن له عزيمة على الاقامة بها حتى لاقى صاحب الدولة رياض باشا فاستمالته مساعيه الى المقام واجرت عليه الحكومة راتباً مقداره الف قرش مصري كل شهر نزلاً اكرمته به لا في مقابلة عمل . واهتدى اليه بعد الاقامة كثير من طلبة العلم واستوروا زنده فاورى واستفاضوا بحره ففاض . وحملوه على التدريس فقرأ من الكتب العالية في فنون الكلام الاعلى والحكمة النظرية من طبيعية وعقلية وفي علم الهيئة الفلكية وعلم التصوف وعلم اصول الفقه الاسلامي . وكانت مدرسته بيته فعظم امره في نفوس طلاب العلوم واستجزلوا فوائد الاخذ عنه واعجبوا بعلمه وادبه

وانطلقت الالسن بالثناء عليه وانتشر صيته في الديار المصرية . ثم وجه عنايته لتمزيق حجب الاوهام عن انوار العقول فنشطت لذلك الباب واستضاءت بصائره وحمل تلامذته على العمل في الكتابة وانشاء الفصول الادبية والحكمية والدينية فاشتغلوا على نظره وبرعوا وتقدم فن الكتابة في مصر بسعيه — وكان القادرون على الاجادة في المواضيع المختلفة قليلين

فنبغ من تلامذته في القطر المصري كتبة لايشق غبارهم ولايوطأ مضمارهم واغلبهم احداث في السن شيوخ في الصناعة وما منهم الا من اخذ عنه او عن احد تلامذته او قلد المتصلين به وقد ترجمناه مطولاً في الجزء الثاني من تراجم مشاهير الشرق

وخلاصة القول ان مصر كانت في ايام اسماعيل زاهرة والناس في رغد ورخاء وخصوصاً بعد ارتفاع اثمان الاقطان في اثناء حرب اميركا فان ثمن القنطار الواحد بلغ ١٦ جنيهاً فكان سكان هذا القطر السعيد وفيهم الكاتب والشاعر والتاجر والصانع يتحدثون بمآثره وانعامه وتنشيطه . على ان العقال منهم كانوا لا يغفلون عن ذكر ما كان من اسرافه فوق ما تحتمله حال البلاد وتنبأ بعضهم بمنقلب تلك الحال ووقوع مصر في وهدة الدين وتعرضها لمطامع الدول الاجنبية . والواقع انه لم يترك هذه الديار الا وقد بلغت ديونها زهاء مئة مليون جنيه كما رايت . وهي لا تزال تئن من وطأتها الى الان وكان ذلك من اعظم الاسباب لمداخلة الاجانب في ادارة البلاد ومراقبة اعمالها

على اننا لا ننكر ان الاصلاحات التي اجراها ببعض تلك الاموال قد عادت على البلاد بالنفع الجزيل . ولكننا لا نرى انها تعوض الخسارة كلها وزد على ذلك انه لو احسن التصرف في النفقات وسار بها سيراً قانونياً لكانت العواقب احسن كثيراً ولاصبحت مصر في غنى عن كل هذه التقلبات . ويقال ان مقدار الاموال التي دفعت من خزينة الحكومة المصرية بأمره بغير تسمية المدفوع اليه – بمعنى انه كان يرسل الى المالية تذكرة بأمضائه يقول فيها ادفعوا الى رافعه المبلغ الفلاني فيدفعونه وهم لا يعلمون مصيره – فقد جمعت هذه المبالغ فبلغت ٨٤ مليوناً من الجنيهات . فاذا صحت هذه الرواية كان هذا المبلغ وحده كافياً لوفاء دين مصر

صفاته

كان اسماعيل باشا ربعة ممتلىء الجسم قوي البنية عريض الجبهة كثيث اللحية مع ميل الى الشقرة اما عيناه فكانتا تتقدان حدة وذكاء مع ميل قليل نحو الحول او ان احداهما اكبر من الاخرى قليلاً

وكان جريئاً مقداماً ذا قوة غريبة على اقامة المشروعات كثير العمل لا يعرف التعب ولا الملل ولا مستحيل عنده . وكان ساهراً على ماجريات حكومته لاتفوته فائتة واما اعمال الدائرة السنية فقد كان يطلع على جزئيات اعمالها وكلياتها فلا يباع قنطار من الفحم الا بمصادقته

وكان عظيم الهيبة جليل المقام لا يستطيع مخاطبه الا الانقياد الى رأيه حتى قيل على سبيل المبالغة ان الذين يخاطبونه يندفعون الى طاعته بالاستهواء او النوم المغنطيسي

وكان حسن الفراسة قل ان ينظر في امر الا استطلع كنهه فاذا نظر الى رجل عرف سره او تنبأ بمستقبل امره . ومما يتناقلونه عنه انه ادرك مستقبل احمد عرابي وهو لا يزال ضابطاً صغيراً فأوصى المغفور له الخديوي السابق ان لا يرقيه لئلا يتمكن من بث روحه الثورية فتقود الى مالا تحمد عقباه

وكان يتكلم الفرنساوية جيداً وهي اللغة التي يخاطب بها الاجانب ويحسن العربية والتركية والفارسية ويحب الفخر والبذخ والابهة وكان منغمساً في الترف مكثراً من السراري والحظايا شديد الوطأة على العامة

ولكنه مع ذلك كان كثير الميل الى تنشيط المعارف ورفع منار العلم . ويؤيد ذلك ان مصر بليت عام ١٨٧٤م بطغيان النيل فاصابها جهد عظيم فوجه التفاته الى حال المزارعين والتجار فاراد جماعة من تجار الاسكندرية ان يقيموا له تمثالاً تذكاراً لفضله فابى وامر ان يقام بدل ذلك التمثال مدرسة للتعليم

تركته ووصيته

يعسر تقدير تركة اسماعيل تقديراً مدققاً لكثرة فروعها واختلاف جزئياتها وتفرقها في البلاد ولكن المعروف من تركته انه استبدل معاشه قبل مماته باثنين وعشرين الف فدان من الاطيان باع الفين منها للاوقاف العمومية و١٥٠٠ للجناب العالي فبقي له ١٨٥٠٠ فدان منها ١٢ الف فدان في تفتيش ابباي البارود وقفها على زوجاته الثلاث في حياتهن ثم يرثها ورثته بعدهن . والباقي وقدره ٦٥٠٠ فدان يقسم على الورثة . وترك غير ذلك مما ورثه عن والدته وهو ٥٠٠٠ فدان وهبها لها المرحوم عباس باشا الاول وهي مرهونة و٩٠٠ فدان وقصراً في حلوان وسراي القصر العالي و٣٤ فداناً تابعة لها . وما ورثه عن ابنه المرحوم البرنس علي باشا جمالي الذي توفي منذ بضع عشرة سنة وهو ٦٠٠ فدان . وترك في العباسية قصر الزعفران وفي الاستانة

قصر ميركون وهو يحتوي على قصرين كبيرين وقصرين صغيرين . وترك فيها ايضاً قناق بايزيد ونقدر قيمة ارضه بثلاثين الف جنيه واصله للمرحوم البرنس حليم باشا ورثه عن اخته زينب هانم فاخذه جلالة السلطان منه ووهبه للفقيد . فهذه التركة كلها ما عدا سراي الزعفران تقسم على الورثة بعد ايفاء ديونه التي تقدر بنحو ١٨٠ الف جنيه

اما وصيته فانه كان قد اضاف ٤٧٠٠ او ٤٨٠٠ فدان من اطيانه في ايام ولايته الى الاطيان الموقوفة على اهل قواله وقدرها ١٠ آلاف فدان في كفر الشيخ وجعل لنفسه الشروط العشرة في هذا الوقف بما فيها من حق التغيير والابدال . ثم آلت نظارة هذا الوقف اليه ففصل ٤٧٠٠ فدان التي اضافها اليه عملاً بحقه ووقفها على حاشيته كلها ولم يستثن احداً منهم فرنساوياً كان مثل سكرتيره او انكليزيا مثل طبيبه او غيرهما من الاتباع والجواري اللواتي يبلغ عددهن ٤٥٠ جارية عدا ٤٠٠ بيضاء كان قد زوجهن باعيان مصر قبل مفارقته هذه البلاد

وقد اقام صديقه الحميم راتب باشا وكيلاً لحرمه واوصى ان يعطى ١٥٠ جنيهاً شهرياً وان تعطى حرمه ٥٠ جنيهاً شهريا وان يضاف راتبها الى راتبه اذا توفيت في حياته ويؤخذ راتبهما كليهما من تفتيش آتياي البارود

وتأول نظارة وقف قواله بعده الى البرنس زبيدة هانم بنت محمد علي باشا الصغير ابن محمد علي باشا الكبير . وتأول نظارة وقف القصر العالي الى البرنس عثمان باشا فاضل ولهذا الوقف بيوت ونحو ١٢٠٠ فدان من الاطيان ويبلغ دخله نحو ٥ آلاف جنيه سنوياً . وقد ترك سراي الزعفران لحرمه الثلاث . وكذلك كل منقولاته وقيمتها غير معلومة



محمد توفيق باشا الخديوي السابق

ولد سنة ١٨٥٢ وتولى سنة ١٨٧٩ وتوفي سنة ١٨٩٢

هو اكبر انجال المرحوم اسماعيل باشا الخديوي الاسبق ولد سنة ١٨٥٢ وادخله والده مدرسة المنيل وسنه تسع سنوات فدرس فيها اللغة والجغرافيا والتاريخ والطبيعيات والرياضيات واللغات العربية والتركية والفرنساوية والانكليزية وكان



ش ٧٧ : محمد توفيق باشا الخديوي السابق

ميالاً للعلم من صغر سنه فاحرز منه جانباً اهله لرئاسة المجلس الخصوصي في حياة والده وسنه١٩سنة . ثم تقلد نظارة الداخلية ونظارة الاشغال العمومية ورئاسة مجلس النظار

ولما بلغ الحادية والعشرين من عمره تزوج بكريمة المرحوم الهامي باشا وهي مشهورة بالجمال والتعقل والكمال . وفي السنة التالية (١٨٧٤) ولد له بكره (الخديوي الحالي) فسماه عباس حلمي . ثم ولد البرنس محمد علي سنة ١٨٧٦ والبرنسس خديجة هانم

سنة ١٨٧٧ والبرنسس نعمت هانم سنة ١٨٨١

وما زال يتقلد المناصب في عهد المرحوم ابيه حتى قضت الاحوال باقالته كما تقدم في ترجمته . فاستلم رحمه الله ازمة الاحكام في ٢٦ يونيو سنة ١٨٧٩ وجاء التلغراف من الصدر الاعظم يؤذن بذلك هذا نصه :

« بناء على ان الخطة المصرية هي من الاجزاء المتممة لجسم ممالك السلطنة السنية وان غاية حضرة صاحب الشوكة والاقتدار انما هي تأمين اسباب الترقي وحفظ الامن والعمارة في الممالك وبناء على ان الامتيازات والشرائط المخصوصة الممنوحة للخديوية المصرية مبنية على ما للحضرة الشاهانية من المقاصد المذكورة الخيرية . وبناء على تزايد اهمية ما حصل في القطر المصري ناشئاً عما وقع فيه من المشكلات الداخلية والخارجية الفائقة العادة وجب تنازل والد جنابكم العالي اسماعيل باشا . ثم انه بناء على ما اتصفت به ذاتكم السامية الآصفية من الرشد وحسن الروية على ما ثبتت لدى ملجاء الخلافة الاسمى من ان جنابكم الداوري ستوفقون الى استحصال اسباب الامنية والرفاهية لصنوف الاهالي والى ادارة امور المملكة على وفق ارادة الحضرة الشاهانية الملوكانية توجهت الارادة العلية بتوجيه الخديوية الجليلة الى عهدة استئهال آصفانيتكم وبناء على الفرمان العلي الشأن الذي سيصدر حسب العادة على مقتضى الارادة السنية السلطانية التي صار شرف صدورها . وبناء على ما كتب في التلغراف الى حضرة المشار اليه اسماعيل باشا من تخليه عن النظر في امور الحكومة وتفرغه منها بصورة وقوع انفصاله . وقد تحرر تلغراف هذا العاجز لكي يعلن حال وصوله للعلماء والامراء والاعيان واهل المملكة جميعاً وتباشر من بعده امور الحكومة . وهذا من التوجيهات الوجيهة الى اثر استحقاق آصفانيتكم لتجري التنظيمات والترقيات مبدأ ومقدمة ويصير تكرير الدعاء بتوفيق الذات الجليلة الفخيمة السلطانية ولذلك صارت المبادرة الى ايفاء لوازم التهنئة لحضرتكم ايها الخديوي المعظم والامر والفرمان على كل حال لمن له الامر افندم »

الامضاء

خير الدين

فصدرت الاوامر باعداد ما يلزم للاحتفال بذلك وجلس سموه في القلعة يستقبل المهنئين من الوزراء والعلماء يتقدمهم نقيب الاشراف ثم القاضي ثم شيخ الجامع الازهر ثم جاء القناصل وبعد ذلك دخل الذوات وامراء العسكرية والملكية ثم رجال الحقانية ثم النواب ووجهاء البلاد ثم ارباب الجرائد ثم الموظفون والمستخدمون وغيرهم . ومن

جملة من وفد للتهنئة وفد ماسوني جاء بالنيابة عن الشرق الاعظم المصري فقدم عبوديته فنال من سموه عواطف الرضاء عنهم وعن اعمالهم ووعدهم رعاية محافلهم وحمايتها فانصرفوا شاكرين . وبعد ذلك ارسل الجناب الخديوي تلغرافاً الى الباب العالي جواباً على التلغراف المؤذن بارتقائه الى كرسي الخديوية

كيف كانت حالة مصر

لما تولاها توفيق باشا

اقيل اسماعيل ومصر تحت المراقبة المالية وقد فرغت خزينتها من المال وافسدت قلوب جندها على امرائهم حتى كسروا قيد الحرمة بالثورة التي احدثها اسماعيل . وقد تنافرت قلوب سكان هذا القطر بسياسة خديويها المعزول فانه اغضب العامة بشدة وطأته عليهم وجعل الاغنياء في خطر على اموالهم وبعث الاجانب على سوء الظن بالحكومة لتأخرها عن دفع ديونهم ولم يتفق الدول على العمل في حفظ حقوقها . وقد اشتد كره العرب للاتراك وخوف الاتراك من الافرنج فلم يكن ثمت مندوحة عن الاستعانة باوربا لتسوية الاحوال واستقرارها

وكان في جملة المشاكل التي خلفها اسماعيل بمصر اضطراب العلائق بينها وبين الباب العالي . وكان الباب العالي قد منح اسماعيل امتيازات اهمها اربعة (١) جعل ولاية العهد في الابناء (٢) حق عقد المعاهدات التجارية مع الدول (٣) عقد القروض المالية (٤) زيادة عدد الجند حسب الحاجة . فلما اقيل اسماعيل اراد السلطان الغاء هذه الامتيازات وتصدت للدفاع عنها انكلترا وفرنسا صاحبتا المراقبة على احوال مصر . وكانت فرنسا تحب قطع علاقة مصر مع الباب العالي او حلها على الاقل . واما انكلترا فكانت لا ترى خروج مصر من سيادة الدولة العثمانية . واتفقت الدولتان على بقاء الارث في البكر من الابناء لانه ادعى الى منع الفتن والدسائس ودافعتا عن تفويض مصر في عقد المعاهدات التجارية وعقد القروض . لكن السلطان افلح في تحديد عدد الجند فجعله لا يزيد على ١٨٠٠٠ جندي وصدر الفرمان بذلك في ١٤ اوغسطس سنة ١٨٧٩ وهذا نصه :

الفرمان بولاية توفيق باشا

« الدستور الاكرم والمعظم الخديوي الافخم المحترم نظام العالم وناظم مناظم الامم مدبر امور الجمهور بالفكر الثاقب متمم مهام الانام بالراي الصائب ممهد بنيان الدولة

والاقبال مشيد اركان السعادة والاجلال مرتب مراتب الخلافة الكبرى مكمل ناموس السلطنة العظمى المحفوف بصنوف عواطف الملك الاعلى خديوي مصر الحائز لرتبة الصدارة الجليلة فعلاً الحامل لنيشاننا الهمايوني المرصع العثماني ولنيشاننا المرصع المجيدي وزيري سمير المعالي توفيق باشا ادام الله تعالى اجلاله وضاعف بالتأييد اقتداره واقباله

« انه لدى وصول توقيعنا الهمايوني الرفيع يكون معلوماً لكم انه بناء على انفصال اسماعيل باشا خديوي مصر في اليوم السادس من شهر رجب سنة ١٢٩٦ هـ وحسن خدامتكم وصداقتكم واستقامتكم لذاتنا الشاهانية ولمنافع دولتنا العلية ولما هو معلوم لدينا ان لكم وقوفاً ومعلومات تامة بخصوص الاحوال المصرية وانكم كفؤ لتسوية بعض الاحوال الغير المرضية التي ظهرت بمصر منذ مدة واصلاحها وجهنا الى عهدتكم الخديوية المصرية المحدودة بالحدود القديمة المعلومة مع الاراضي المنضمة اليها المعطاة الى ادارة مصر توفيقاً للقاعدة المتخذة بالفرمان العالي الصادر في ١٢ محرم سنة ١٢٨٣هـ المتضمن توجيه الخديوية المصرية الى اكبر الاولاد وحيث انكم اكبر اولاد الباشا المشار اليه قد وجهت الى عهدتكم الخديوية المصرية . ولما كان تزايد عمران الخديوية وسعادتها وتأمين راحة كافة اهاليها وسكانها ورفاهيتهم هي من المواد المهمة لدينا ومن اجل مرغوبنا ومطلوبنا وقد ظهر ان بعض احكام الفرمان العلي الشأن المبني على تسهيل هذه المقاصد الخيرية المبين فيه الامتيازات الحائزة لها الخديوية المصرية قديماً نشأت عنها الاحوال المشكلة الحاضرة المعلومة فلذلك صار تثبيت المواد التي لا يلزم تعديلها من هذه الامتيازات وتأكيدها وصار تبديل المواد المقتضي تبديلها وتعديلها واصلاحها فما تقرر اجراؤه الآن هو المواد الآتية وهي :

« ان كافة واردات الخطة المذكورة يكون تحصيلها واستيفاؤها باسمنا الشاهاني . وحيث ان اهالي مصر ايضاً من تبعة دولتنا العلية وان الخديوية المصرية ملزمة بادارة امور المملكة والمالية والعدلية بشرط ان لا يقع في حقهم ادنى ظلم ولا تعد في وقت من الاوقات فخديوي مصر يكون مأذوناً بوضع النظامات اللازمة للداخلية المتعلقة بهم وتأسيسها بصورة عادلة . وايضاً يكون خديوي مصر مأذوناً بعقد وتجديد المشارطات مع مأموري الدول الاجنبية بخصوص الجمرك والتجارة وكافة امور المملكة الداخلية لاجل ترقي الحرف والصنائع والتجارة واتساعها ولاجل تسوية المعاملات السائرة التي بين الحكومة والاجانب او بين الاهالي والاجانب بشرط عدم وقوع خلل بمعاهدات

دولتنا العلية البولوتيقية وفي حقوق متبوعية مصر اليها . وانما قبل اعلان الخديوية المشارطات التي تعقد مع الاجانب بهذه الصورة يصير تقديمها الى بابنا العالي . وايضاً يكون حائزاً للتصرفات الكاملة في امور المالية لكنه لا يكون مأذوناً بعقد استقراض من الآن وصاعداً بوجه من الوجوه وانما يكون مأذوناً بعقد استقراض بالاتفاق مع المدائنين الحاضرين او وكلائهم الذين يتعينون رسمياً . وهذا الاستقراض يكون منحصراً في تسوية احوال المالية الحاضرة ومخصوصاً بها . وحيث ان الامتيازات التي اعطيت الى مصر هي جزء من حقوق دولتنا العلية الطبيعية التي خصت بها الخديوية واودعت لديها لا يجوز لاي سبب او وسيلة ترك هذه الامتيازات جميعها او بعضها اوترك قطعة ارض من الاراضي المصرية الى الغيرمطلقاً . ويلزم تأدية مبلغ ٧٥٠ الف ليرة عثمانية وهو الويركو المقرر دفعه في كل سنة في اوانه . وكذلك جميع النقود التي تضرب في مصر تكون باسمنا الشاهاني . ولا يجوز جمع عساكر زيادة عن ثمانية عشر الفاً لان هذا القدر كاف لحفظ امنية ايالة مصر الداخلية في وقت الصلح . وانما حيث ان قوة مصر البرية والبحرية مرتبة من اجل دولتنا يجوز ان يزاد مقدار العساكر بالصورة التي تستتب فيها حالة دولتنا العلية محاربة . وتكون رايات العساكر البرية والبحرية والعلامات المميزة لرتب ضباطهم كرايات عساكرنا الشاهانية ونياشينهم . ويباح لخديوي مصر ان يعطي الضباط البرية والبحرية الى غاية رتبة اميرالاي والملكية الى الرتبة الثانية . ولا يرخص لخديوي مصر ان ينشىء سفناً مدرعة الا بعد الاذن وحصول رخصة صريحة قطعية اليه من دولتنا العلية . ومن الواجب وقاية كافة الشروط السالفة الذكر واجتناب وقوع حركة تخالفها . وحيث صدرت ارادتنا السنية باجراء المواد السابق ذكرها قد اصدرنا امرنا هذا الجليل القدر الموشح اعلاه بخطنا الهمايوني وهو مرسل بمعية افتخار الاعالي والاعاظم ومختار الاكابر والافاخم علي فؤاد بك باشكاتب المابين الهمايوني ومن اعاظم دولتنا العلية الحائز والحامل للنياشين العثمانية والمجيدية ذات الشأن والشرف »

« حرر في ١٩ شهر شعبان المعظم سنة ١٢٩٦ من هجرة صاحب العزة والشرف »

وكان توفيق باشا من اشد الخديويين غيرة على الوطن المصري ولم يكن له بدٌّ من تشكيل وزارة يثق بها تعينه على الحكومة مع تحديد سلطته وسلطتها وعلاقة البلاد بالدولة العثمانية . فانتدب المرحوم شريف باشا لتشكيل وزارة فلبى الدعوة لكنه عرض عليه لائحة في انشاء الدستور فلم يوافق الخديوي عليها فقدم استعفاءه في ١٨ اوغسطس

سنة ١٨٧٩ فقبل . فعزم الخديوي رحمه الله ان يتولى رئاسة الوزارة بنفسه . ولم يطل ذلك فانتدب رياض باشا لتشكيل الوزارة فشكلها في ٢٢ سبتمبر تحت رئاسته

وفي اثناء ذلك وافق الخديوي على تعيين المفتشين الماليين لمراقبة مالية مصر وهما المسيو بارنج (اللورد كرومر) عن انكلترا والمسيو باينيار عن فرنسا . وكانت الحكومة الخديوية قد اصدرت امراً عالياً بحدود سيادة هذين المفتشين فجعلت لهما حق الحضور في مجلس النظار على ان يكون لهما راي استشاري . فلم تمض بضعة اشهر حتى استقرت احوال الحكومة وتشكلت الوزارة وتقررت العلائق بين مصر والسلطان وبينها وبين المراقبين او المفتشين الماليين . ولم يتم حسن التفاهم بينهما وبين الوزارة الا بعد حين . وكان في جملة العراقيل في سبيل الازمة المالية مسألة تصفية الديون وتقدير الميزانية الجديدة

تصفية الديون

اما تصفية الديون فتعينت لها لجنة في ٥ ابريل سنة ١٨٨٠ من خمسة اعضاء اوروباويين وعضو وطني هو المرحوم بطرس باشا غالي لينوب عن الحكومة المصرية . واخذت اللجنة في عقد جلساتها والعمل مع المفتشين الماليين وفرغت من ذلك في ١١ يوليو من تلك السنة ووضعت قانوناً صادق عليه الجناب الخديوي هذه خلاصته :

(١) ان صافي ايرادات السكك الحديدية والتلغرافات ومينا الاسكندرية يكون مخصصاً لتسديد فوائد واستهلاك الدين الممتاز دون غيره اما فائدته فتبقى ٥ بالمائة على القيمة الاسمية . والقيمة التي تدفع سنوياً لفائدة واستهلاك هذا الدين تكون ١ ١٥٧ ٧٦٨ جنيهاً سنوياً

(٢) ان صافي ايرادات الجمارك وعوائد الدخان الوارد ومديريات الغربية والمنوفية والبحيرة واسيوط بما فيه جميع الرسوم المقررة الا ايراد الملح والدخان البلدي. جميع صافي هذه الايرادات تبقى مخصصة لتسديد الدين الموحد والفائدة باعتبار اربعة بالمائة

(٣) ان املاك الدائرة السنية واملاك الدائرة الخاصة المذكورة في الكشوف والرهون العقارية المسجلة وغيرها تكون ملكاً للحكومة وهي تكون مخصصة لضمانة دين الدائرة السنية العمومي

(٤) تسوية الدين السائر تكون من البواقي من سلفة الاملاك الاميرية ومن النقود الباقية لغاية سنة ١٨٧٩م في خزينة النظارات والمديريات والمصالح التي لم تخصص للدين المنتظم ومن الزائد من دفعات المقابلة وموجود نقدية في صندوق الدين العمومي

ومن المبالغ التي يمكن تحصيلها من المتأخرات لغاية ١٨٧٩ م ومن العوائد والرسوم والاموال من اي نوع كانت . ومن العقارات الجائز للحكومة التصرف بها ولم تكن مخصصة. وما ينتج من تغيير البونات او السندات . ومن سندات الدين الممتاز التي توجد على مقتضى المدون في البند السادس من قانون التصفية . ومن الجزء المخصص لاستهلاك الدين المنتظم حسب المدون في البند ١٥ من القانون . ومن الزيادات التي تظهر في الموازين كما هو مبين في البند السابع من قانون التصفية

هذه شذرة صغيرة من قانون التصفية ومن احب التفصيل فليراجع القانون نفسه فانه مؤلف من ٩٩ بنداً ومعه كشفان عن التسويات التي حصلت وغيرها

وبدات الحكومة جهدها باثناء ذلك في تخفيف اثقال الاهلين وفي نشر الامن فاصدرت امراً بالغاء الضرائب الدنيئة والشخصية وابطلت بون حليم باشا . ثم داهمتها الثورة العسكرية المعروفة بالحوادث العرابية فاحدثت فيها انقلاباً سياسياً لايزال باقياً الى الآن واليك تفصيلها :

الثورة العسكرية او الحوادث العرابية

تمهيد في العرب والترك

ما زالت مصر منذ دخلت في حوزة الاتراك قبل العثمانيين وبعدهم وهي ترى للتركي حقاً في السيادة تهابه وتخشى بأسه وتتوقع منه الاستبداد — رغم قلة الاتراك وكثرة العرب . وقد ظهر نفوذهم على الخصوص في الجندية فقد كانت المناصب العالية والرواتب الفادحة والكلمة النافذة للتركي وما على العربي الا الطاعة . ويندر فيهم من يجسر على الشكوى او التظلم جهاراً ولعل اول من فعل ذلك منهم احمد عرابي وهو جندي صغير . وقد جرأه على ذلك سعيد باشا بما كان له من الرغبة في رفع شأن ابناء العرب . وهاك ما رواه احمد عرابي نفسه في اثناء كلامه عن سيرة حياته قال :

«وكان المرحوم سعيد باشا عليه سحائب الرحمة والرضوان قد تولى الحكومة الخديوية في ١٥ شوال سنة ١٢٧٠ وامر بدخول اولاد مشائخ البلاد واقاربهم في العسكرية فدخلت من ضمنهم وانتظمت في سلك الاورطة السعيدية المصرية بقناطر فم البحر في شهر ربيع اول عام ١٢٧١ وجعلتُ فيها وكيل بلوك امين من اول يوم صار انتظامي في سلك العسكرية بعد امتحاني بحضو ابراهيم بك امير الالاي وحسن افندي الالفي حكيم الالاي . ثم ترقيت الى رتبة بلوك امين في شهر رجب من السنة المذكورة بعد اعادة الامتحان مع الطالبين لذلك من غير واسطة احد غير الجد والاجتهاد.

وبعد عام نظرت فرايت بعض الباشجاويشية المصريين ترقى الى رتبة الملازم الثاني وعلمت ان البلوك امين لا يترقى الا الى رتبة الصول قول اغاسي وفيها يفنى عمره. فجزعت من ذلك وذهبت الى امير الالاي وطلبت منه ترتيبي في رتبة جاويش في اورطة كانت افرزت لارسالها الى مدينة المنصورة. فسألني المير الاي المذكور عن سبب ذلك حيث ان راتب الجاويش اقل ١٠ غروش من راتب البلوك امين وان كانت الرتبتان متساويتين. فافصحت له عما خالج فكري واني اذا صرت جاويشاً سهل علي الحصول على رتبة الباشجاويش ثم الانتقال الى رتبة ضابط. فعجب لذلك الخاطر وامر في الحال بجعلي جاويشاً. فمكثت في هذه الرتبة سنتين وفي تلك المدة حُبب الي الاعتزال عن الناس والاشتغال بدراسة قوانين العسكرية مع التدبر في معانيها حتى اتقنت قانون الداخلية وقوانين تعليم النفر والبلوك والاورطة وبعض فصول من تعليم الالاي. وفي اوائل عام ١٢٧٤ امر سعادة راتب باشا بجمع الصف ضباط فاجتمعنا حوله في فسحة قصر النيل وبلغنا ارادة المرحوم سعيد باشا وقال — ان افندينا بلغه انكم تقولون فيما بينكم كيف يصير ترقي الصف ضباط الجدد وتأخير من هو اقدم منهم في الرتب وانه امر ان لا يترقى احد بعد الان الا بعد الامتحان علماً وعملاً فمن فاق اقرانه في الامتحان ترقى الى الرتبة التي يستحقها ولو لم يلبث في رتبته الاولى غير شهر واحد فمن اراد منكم الامتحان فليتقدم الى الامام. فعند ذلك تقدمت امام سعادته واحجم الاخرون خوفاً وهلعاً ظناً منهم انه يريد معاقبة من يتظاهر بذلك. ولما كرر عليهم الطلب خرج آخر وآخر حتى بلغ عدد الراغبين في الامتحان نحو ٣٠ شخصاً فصار امتحانهم بحضوره تحت رئاسة المرحوم اسماعيل باشا الفريق فكنت اول فائز في الامتحان » اه

وفحوى ذلك ان الوطنيين يشكون من ترقية سواهم وتأخيرهم. فلم يكن ذلك الا ليزيد الضغائن في صدور الاتراك والشراكسة من كبار الضباط. وخصوصاً في زمن اسماعيل فانه لم يكن يرى رفع شأن الوطنيين فكانت الضغائن تتزايد بينهم وبين الاتراك والشراكسة ولكن اسماعيل كان شديد الوطأة يخافه العرب والاتراك فلم يحدث في ايامه ما يخشى عاقبته وان يكن هو اول من جرأ الجند على التمرد وطلب الحقوق كما تقدم في سيرة حياته

فلما افضت الخديوية الى المرحوم توفيق باشا وكان محباً للوطنيين رفيقاً بهم راغباً في رفع شأنهم تنفسوا الصعداء. وانعم على الضباط بالرتب وفي جملتهم احمد عرابي

اول نشأة عرابي

هو في الاصل من ابناء الفلاحين ويرجع بنسبه الى الامام الحسين وقد قص ترجمة حياته للهلال في بضع وعشرين صفحة نشرت في تراجم مشاهير الشرق الجزء الاول نقتطف منها قوله في نشأته الاولى قال :

« ومولدي بقرية هرية رزنة بمديرية الشرقية على ميلين من شرقي الزقازيق وهي بلدة قديمة جداً من ضواحي مدينة بوباسطة كرسي مملكة العائلة ٢٢ في زمن شيشاق ابن نمرود التي يقال لها الآن (تل بسطة) . وعشيرتي فيها نحو ربع تعدادها وكان والدي رحمه الله تعالى شيخاً عليها الى ان توفي في شهر شعبان سنة ١٢٦٤ هـ في زمن الهواء الاصفر عن ثلاث نسوة واربعة اولاد وست بنات . وكنت ثاني اولاده الذكور وسني ٨ سنوات وترك لنا ٧٤ فداناً ولوشاء لاستكثر من الاطيان الزراعية ولكنه كان رحمه الله يراعي مصلحة ابناء عمومته حيث ان اطيان القرية كغيرها كانت مكلفة باسماء المشايخ يوزعونها بمعرفتهم على اهل بلادهم بحسب الاحتياج وظلت كذلك الى عهد المغفور له عباس باشا الاول وهو اول من كلف الاطيان باسماء الافراد والزمهم بدفع خراجها وما زاد عنهم يترك للميري ويسمونه المتروك . وكان والدي عليه سحائب الرحمة والرضوان عالماً فاضلاً تقياً نقياً اقام بالجامع الازهر ٢٠ سنة تلقى فيها الفقه والحديث والتفسير وبرع في كثير من العلوم النقلية والعقلية على كثير من المشائخ كشيخ الاسلام القويسني رحمه الله تعالى وغيره من العلماء الاطهار — ولما آلت اليه وظيفة الشياخة على عشيرته جدد عمارة المسجد المنسوب الى عشيرته بالقرية وفيه اربعة اعمدة من الحجر الصوان القديم ومنبر من الخشب عجيب الصنعة . وانشأ بجوار المسجد مكتباً لتعليم القرآن الشريف وجعل له فقيهاً صالحاً عالماً يسمى الشيخ نجم من سلالة السيد العزازي والزم الاهالي بتعليم اولادهم . وكان رحمه الله يشدد عليهم في ذلك حتى صار نحو نصف تعداد الناحية المذكورة يحسنون القراءة والكتابة وكل منهم يعرف واجباته الدينية . ومنهم نحو مائة وخمسين فقيهاً عالماً ومنهم المرحوم الشيخ محمد حسين المراوي من علماء الجامع الازهر والشيخ العارف بالله ابراهيم المصيلحي نفع الله به المسلمين . فلما بلغ سني ٥ سنوات ارسلني والدي الى المكتب المذكور. فاقمت فيه ثلاثة اعوام ختمت فيها القرآن الشريف وعمري اذ ذاك ثماني سنين وبضعة شهور. فلما توفي والدي كفلني اخي الاكبر المرحوم السيد محمد عرابي الذي توفي في ٢٥ شعبان سنة ١٣١٨ رحمه الله تعالى واخذت عنه مبادىء علم الحساب وتحسين الخط مع ملاحظة



ش ٧٨ : احمد عرابي بلباسه العسكري

بعض اشغال الزراعة . ثم بدا لي المجاورة في الازهر حين بلغت اثني عشر عاماً فكنت اجود القرآن على اقاربي واهل بلدي نهاراً واتوجه الى بيت عمي ليلاً وتلقيت قليلاً من الفقه والنحو وبعد سنتين رجعت الى بلدي » اه

وقد تقدم ما قاله عن نفسه في زمن سعيد باشا وقد ارتقى في ايامه الى رتبة قائمقام وظل في هذه الرتبة كل ايام اسماعيل . فلما تولى توفيق باشا احسن اليه برتبة اميرلاي على الالاي الرابع . ولما تشكلت الوزارة الرياضية التي تقدم ذكرها كان ناظر الجهادية فيها عثمان رفقي باشا وهو شركسي متعصب على العرب وفي جملة مساعيه ان يمنع ترقية المصريين من العسكر العامل في الالايات والاكتفاء بما يستخرج من المدارس الحربية وصدرت اوامره بذلك . ثم اردفها باحالة عبد العال حلمي بك اميرالاي السودان على ديوان الجهادية ليكون معاوناً وكان عمره اذ ذاك اربعين سنة . ورتب بدله خورشيد نعمان بك من جنسه على الالاي المذكور وكان سنه فوق الستين وهو ضعيف لا يقدر على الحركة العسكرية وامر برفت احمد بك عبد الغفار قائمقام السواري وترتيب شاكر بك طازه من جنسه بدله وهو طاعن في السن ثم ختمت تلك الاوامر وقيدت بدفاتر الجهادية

وكان احمد عرابي قد نال منزلة بين اقرانه لما فطر عليه من الجرأة والغيرة فاراد الضباط ابناء العرب الاجتماع للاحتجاج على هذه المعاملة فاختاروا ليلة اقيمت فيها وليمة يتلى فيها القرآن بمنزل نجم الدين باشا بمناسبة عودته من الحج في ١٤ صفر سنة ١٢٩٨ قال

احمد عرابي يروي الواقع بنفسه وهو من جملة المدعويين :

« ولما وصلت الى منزل الداعي وجدته غاصاً بالذوات العسكرية وغيرهم فجلست بجوار المرحوم نجيب بك وهو رجل كردي الاصل وبجانبه المرحوم اسماعيل كامل باشا الفريق وهو شركسي الاصل ولكنه يتظاهر بحب العدل والانصاف فاخبرني نجيب بك بما صار وانه نصح لناظر الجهادية بالاعراض عن هذا الاجحاف فلم يصغ لقوله ولذا فهو ساخط ومضطرب ثم اوعز اليه ان يخبرني بما سمع منه . فاخبرني نجيب بك بحقيقة الحال همساً في اذني فقلت لاسماعيل باشا كامل « احق هذا ؟ » فقال « نعم واعطيت الاوامر الى الكتبة للاجراء على مقتضاها » فقلت له « ان تلك لقمة كبيرة لايقوى ناظر الجهادية عثمان رفقي على هضمها » وبعد تناول طعام الوليمة حضر لي احد الضباط واخبرني بان كثيراً من الضباط ينتظرونني بمنزلي وفيهم عبد العال بك حلمي وعلي بك فهمي . فاسرعت اليهم وهم في هياج عظيم وقد بلغهم صدور اوامر ناظر الجهادية قبل ارسالها اليهم . فلما رأوني اخبروني بما سمعته من المرحوم اسماعيل باشا كامل . فقلت لهم « قد سمعت من غيركم فماذا تريدون » فقالوا « انه ليس ذلك فقط بل انه قد كثر اجتماع الشراكسة بمنزل خسرو باشا الفريق صغيراً وكبيراً وهم يتذاكرون كل ليلة في تاريخ دولة المماليك بحضور عثمان رفقي باشا ويلعنون حزبك ويقولون قد حان الوقت لرد بضاعتنا وانهم لا يغلبون من قلة وظنوا انهم قادرون على استخلاص مصر وامتلاكها كما فعل اولئك المماليك » . وقد تحققوا ذلك ممن يوثق بخبره . فقلت لهم « وماذا تريدون اذاً ؟ » فقالوا انما جئناك لاخذ رأيك فيما دهمنا من الخطب العظيم » . فقلت لهم « أرى ان تطيبوا نفوسكم وتهدئوا روعكم وتعتمدوا على رؤسائكم وتفوضوا لهم النظر في مصالحكم وهم ينتخبون لكم رئيساً منهم يثقون به كل الوثوق ويطيعون امره ويحفظونه بمعاضدتكم » . فقالوا كلهم « قد فوضنا الامر اليك وليس فينا من هو احق به واقدر عليه منك » . فقلت لهم « لا . . انظروا غيري وانا اسمع له واطيع وانصح له جهدي » فقالوا « لا نبغي غيرك ولا نثق الا بك » فقلت « فارجعوا لانفسكم فان هذا أمر عصيب لا يسع الحكومة الا قتل من يقوم به او يدعو اليه » . فقالوا « نحن نفديك ونفدي الوطن بارواحنا » . فقلت لهم « اقسموا لي على ذلك » فاقسموا . وفي الحال كتبت عريضة الى دولة رئيس النظار رياض باشا مقتضاها الشكوى من تعصب عثمان رفقي لجنسه والاجحاف بحقوق الوطنيين والتمست فيها اولاً تشكيل مجلس نواب من نبهاء الامة المصرية تنفيذاً للامر الخديوي الصادر ابان توليته . ثانياً ابلاغ الجيش الى ثمانية عشر الفاً تطبيقاً لمنطوق الفرمان السلطاني . ثالثاً تعديل القوانين العسكرية بحيث تكون كافلة للمساواة بين جميع

اصناف الموظفين بصرف النظر عن الاجناس والاديان والمذاهب . رابعاً تعيين ناظر الجهادية من ابناء البلاد عَلَى حسب القوانين العسكرية التي بايدينا . ثم تلوت العريضة هذه عَلَى مسامع الجميع فوافقوا كلهم عليها فامضيتها بامضائي وختمتها بختمي وختم عليها ايضاً علي فهمي بك اميرالاي الحرس الخديوي وعبد العال بك اميرالاي السودان » اه



ش ٧٩ : رياض باشا

ويظن اللورد كرومر ان المحرك الاصلي لهذه الحركة الاميرالاي علي فهمي قومندان

الالاي الاول وعليه حراسة القصر الخديوي . وكان قد استاء من معاملة الخديوي فاراد ان ينتقم لنفسه فدبر هذه المظاهرة

فوز العرابيين الاول

ولما وصلت العريضة الى رياض باشا استخف بها واهمل الرد عليها اياماً وهو يحرض اصحابها عَلَى سحبها وهم يرفضون . ثم بلغهم ان عريضتهم كان لها وقع سيء عند الخديوي وحاشيته الاتراك . ثم ارسل الخديوي يلح عَلَى الوزارة بسرعة الرد نقررت سراً محاكمة العارضين في مجلس عسكري بعد ان يقبض عليهم ويسجنوا . لكن ذلك السر وصلهم فاستعدوا للدفاع فلما جاء امر النظار بدعوتهم الى قصر النيل دبروا شانهم مع الالايات وذهبوا الى القصر فجردوهم من السلاح واوقفوهم تحت المحاكمة واذا برجال الاياتهم قد دخلوا بالقوة وانقذوهم وساروا بهم الى سراي عابدين والحوا في طلب عزل ناظر الجهادية . فلم تجد الحكومة بداً من اجابة الطلب لان القوة في غير ايديها . فاجابهم الخديوي بعزل رفقي باشا وتعيين محمود باشا سامي البارودي مكانه وهو من حزبهم و يقال انه هو الذي ابلغهم قرار مجلس النظار بالقبض عليهم



ش ٨٠ : محمود باشا سامي البارودي

واثر خضوع الحكومة لمطالب الوطنيين هذه المرة تأثيراً شديداً اذ تحقق لديهم انهم اذا اتحدوا وثبتوا لا بد من نيل ما يطلبونه . وقام في نفوسهم حقد على رياض باشا والخديوي وقوّى هذا الاحساس فيهم قنصل فرنسا يومئذ البارون درين لانه كان يحسّن اعمال رجال العسكرية في اعينهم فيزدادون تمرداً وبلغ ذلك الى الجناب الخديوي فشكاه الى حكومته فاقالته . وبعث الخديوي الى كبار الضباط وطيب خاطرهم واكد لهم ثقته في رياض باشا وانه سيزيد الرواتب ويساوي بينهم على اختلاف اجناسهم

اما زعماء الثورة فلم يزالوا خائفين من نجاحهم السريع واعتبروا تلك المحاسنة مكيدة من الحكومة لتسكين جاشهم ثم تحتال للاغتيال بهم فاكثروا من التحفظ وشرعوا في عقد مجالس سرية ليلية في منزل احمد عرابي يدعون اليها خواصهم ويتفاوضون في امر اجتماع كلمتهم والوقاية من الاغتيال . فاقترحوا على ديوان الجهادية اقتراحات عديدة تعزز جانبهم فتمكن عرابي بذلك من استمالة قوم العسكرية فطفق يبث افكاره بين الاهلين من مشايخ العربان وعمد البلاد واعيانها وعلمائها وتجارها استجلاباً لمساعدتهم في مشروعه العائد الى نفعهم على ما زعم وكتب اليهم في ذلك منشورات ثورية ايقاعاً بالوزارة الرياضية

وفي ٢١ جمادى الاولى سنة ١٢٩٨ هـ او ٢٠ ابريل ١٨٨١ م اصدر الجناب الخديوي باقتراح رياض باشا رئيس النظار امراً عالياً بشأن زيادة مرتبات الضباط والعساكر وتعديل النظامات والقوانين العسكرية بناء على طلب محمود باشا سامي ناظر الجهادية فاحتفل هذا احتفالاً فاخراً في قصر النيل دعا اليه النظار والمفتشين احتفاء بصدور ذلك الامر خطب فيه رياض باشا ومحمود سامي واحمد عرابي ثناء طيباً على المكارم الخديوية لما منحته لجماعة الجهادية من الانعام

وفي ٢٨ شعبان او ٢٥ يوليو كان الجناب الخديوي في مصيفه في الاسكندرية فاتفق ان عربة احد تجار الاسكندرية صدمت جندياً من الطبجية صدمة قضت عليه فحمله رفقاؤه الى سراي راس التين وطلبوا الى الخديوي النظر في امره فوعدهم فسكن جاشهم . وبعد بضعة ايام تشكل مجلس حربي اصدر حكمه على النفر الذي حمل رفقاءه على المسير الى راس التين بالاشغال الشاقة طول حياته . اما رفقاؤه وهم ثمانية فحكم عليهم بثلاث سنوات في السجن وبعد ذلك يرسلون الى السودان انفاراً للجهادية . فبعث عبد العال اميرالاي الفرقة السودانية الى ناظر الجهادية محمود سامي يشكو من قسوة ذلك الحكم فرفع سامي تلك الشكوى الى الخديوي فتكدر واستدعى في

الحال الوزراء تلغرافيا الى الاسكندرية فاتوها في ٧ رمضان او ٢ اوغسطس وعقدوا برئاسته مجلساً قدم فيه ناظر الجهادية استعفاءه فقبل وعين بدلاً منه داود باشا يكن واستلم الاعمال وعاد النظار الى العاصمة وهدأت الاحوال بحسب الظاهر. والواقع ان الوطنيين ساءهم قبول استعفاء محمود باشا سامي لانهم يعدونه من اكبر انصارهم

تغير القلوب بين الخديوي والعرابيين

فاصبح العرابيون ينظرون الى الخديوي ووزرائه بعين الارتياب والحذر وشاع يومئذ ان الخديوي استفتى شيخ الاسلام بقتلهم لانهم خانوا الدولة والامة وهي اشاعة كاذبة لـكنها أخذت مأخذ الصدق وازداد العرابيون بها حذراً وسوء ظن

وفي ١٥ شوال او ٩ سبتمبر سنة ١٨٨١ بعد عود الجناب الخديوي من الاسكندرية صدر امر من نظارة الجهادية الى آلاي القلعة بالتوجه الى الاسكندرية وامر آخر الى آلاي الاسكندرية بالمجيء الى المحروسة فاوعز عرابي الى آلاي القلعة ان تلك الاوامر لايقصد بها الا تفريق كلمتهم فصرح ذلك الالاي بعدم امتثاله لما أمر به . وفي خلال ذلك كان عرابي يخاطب الآلايات بالاشارة ان يستعدوا للحضور الى ساحة عابدين في اول سبتمبر ثم ارسل كتابه الى الخديوي والى نظارة الجهادية يخبرهم فيها ان الجيش سيحضر الى سراي عابدين لابداء اقتراحات عادلة تتعلق باصلاح البلاد وكتب مثل ذلك الى قناصل الدول مبيناً ان لاخوف من هذه الحركات على ابناء تابعيتهم لانها متصلة الغاية بالاحوال الداخلية . فارسل الجناب الخديوي وفداً الى زعماء الثورة وهم عرابي وعبد العال واحمد عبد الغفار ينصحهم ان يكفوا عن اجرآتهم وتوجه بنفسه ومعه السير اوكلن كلفن قنصل انكلترا والنظار الى آلاي عابدين واخذ ينصحهم فتظاهروا بالانتصاح وتوزعوا في نوافذ السراي وقاية لها . ثم توجه الجناب الخديوي ورفقاؤه الى القلعة للغرض عينه . فاجابه الجيش هناك « نحن مطيعون لاوامر ولي نعمتنا غير اننا اخبرنا بان المقصود من تسفيرنا اغراقنا عند كوبري كفر الزيات » فقال سموه لمن معه « يظهر ان العساكر مغرورون » ثم تركهم وقصد العباسية لايقاف عرابي فلم يجده وقيل له انه سار في جنده الى عابدين فعاد سموه ايضاً اليها

مظاهرة ساحة عابدين

واشار عليه كلفن ان يبقى في الساحة ويدعو عرابي اليه ويامره بالترجل ففعل فسأله عن الغرض من هذا الاجتماع فاجابه انه جاء يطلب اموراً عادلة فقال ما هي ؟ فاجاب « اسقاط الوزارة وتشكيل مجلس نواب وزيادة عدد الجيش والتصديق على قانون

العسكرية الجديد وعزل شيخ الاسلام »

قال الخديوي « كل هذه الطلبات ليست من خصائص العسكرية »

فكف عرابي واشارت القناصل على الخديوي ان ينقلب الى داخل

ثم قال قنصل انكلترا الى عرابي بالنيابة عن الجناب الخديوي « ان اسقاط الوزارة من خصائص الخديوي وطلب تشكيل مجلس النواب من متعلقات الامة ولا وجه لزيادة الجيش لان البلاد في طمأنينة فضلاً عن ان مالية مصر لا تساعد على ذلك اما التصديق على القانون فسينفذ بعد اطلاع الوزراء عليه . اما عزل شيخ الاسلام فلا بد من اسناده الى اسباب »

فاجاب عرابي « اعلم ياحضرة القنصل ان طلباتي المتعلقة بالاهلين لم اقدم عليها الا لانهم انابوني بتنفيذها بواسطة هؤلاء العساكر لانهم اخوتهم واولادهم فهم القوة التي ينفذ بها كل مايعود على الوطن بالمنفعة . واعلم اننا لا نتنازل عن هذه الطلبات ولا نبرح هذا المكان مالم تنفذ »

قال القنصل « اذاً تريد تنفيذ اقتراحاتك بالقوة الامر الذي يخشى منه ضياع بلادكم »

فقال عرابي « ذلك لا يكون ومن ذا الذي ينازعنا في اصلاح داخليتنا ؟ فاعلم اننا نقاومه اشد المقاومة الى ان نفنى عن آخرنا »

القنصل ــ « واين هذه القوة التي ستقاوم بها »

عرابي ــ « في وسعي ان احشد في زمن يسير مليوناً من العساكر طوع ارادتي »

القنصل ــ « وماذا تفعل اذا لم تنل ما طلبت »

عرابي ــ « اقول كلمة ثانية »

القنصل ــ « وما هي »

عرابي ــ « لا اقولها الا عند القنوط »

ثم انقطعت المخابرات بين الفريقين نحواً من ثلاث ساعات تداول القناصل والخديوي في اثنائها داخل السراي واستقر الراي على اجابة طلبات عرابي وانفاذها تدريجياً لان بعضها يحتاج لمخابرة الباب العالي

فاصر عرابي على تنزيل الوزارة قبل انصرافه فنزلت واستدعي شريف باشا وبعد اللتيا والتي قبل بان يشكل وزارة جديدة بشرط ان يتعهد له رؤساء الحزب العسكري بالامتثال لاوامره وان يقدم عمد البلاد ضمانة على ذلك فحصل وتشكلت الوزارة وجعل محمود سامي ناظراً للجهادية



ش ٨١ : شريف باشا

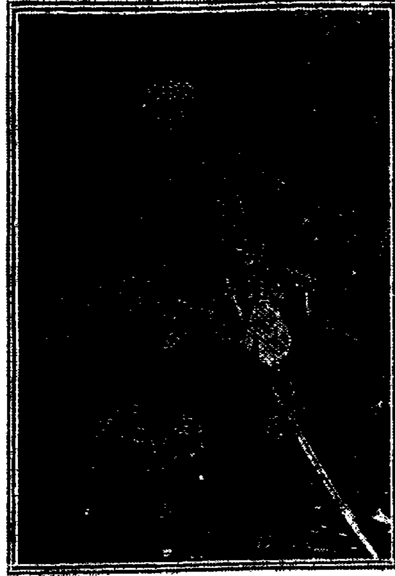
فاوعز شريف باشا الى عرابي ان يتوجه بآلايه الى راس الوادي في مديرية الشرقية ، عبد العال ان يسير بآلايه الى دمياط فامتثلا وسارا الى حيث امرا باحتفال عظيم خطب عبدالله نديم محرر جريدة الطائف وحسن الشمسي محرر جريدة المفيد في محطة خطباً هنأوا بها الحزب الوطني على فوزه

هذه الثورة العسكرية الثالثة اذا اعتبرنا ثورة الضباط في ايام اسماعيل الاولى وكل منها انقضت باسقاط الوزارة او بعزل وزير كبير

ولما استقر عرابي في راس الوادي جعل يتجول في انحاء المديرية يبث مباديه في نفوس عمد البلاد ومشائخ العربان فاستدعته الحكومة الى العاصمة وعرضت عليه رتبة لواء ومنصب وكيل لنظارة الجهادية فقبل الثانية ورفض الاولى ليبقى الآلاي في عهدته ولما استوى على منصبه الجديد جعل يعقد المحافل في منزله علانية وتوسط بالعفو عن حسن موسى العقاد احد تجار المحروسة وكان مبعداً في السودان . فاجابه الجناب الخديوي الى ذلك ثم سعى في عزل الشيخ العباسي من مشيخة الاسلام واستبداله بالشيخ الامبابي

وفي ٢٨ شوال سنة ١٢٩٨ هـ (٢٢ سبتمبر سنة ١٨٨١ م) صدقت الحكومة المصرية على القوانين العسكرية الجديدة وهي من ضمن طلبات الجهادية يوم حادثة عابدين تحتوي على قانون الاجازات العسكرية البرية والبحرية وقانون المستودعين وقانون

معاشات الجهادية البرية والبحرية وفروعها وقانون القواعد الاساسية في النظامات العسكرية وقانون الترقي وقانون الضمائم والامتيازات والاعانة العسكرية . وبعد التصديق عليها جاء الى شريف باشا وفد جهادي وقدموا له الشكر على اعتنائه بمطالبهم وبينوا ارتياحهم الى وزارته واكدوا له اخلاصهم



ش ٨٢ : السلطان عبد الحميد

وفي ١١ذي القعدة او ٤ اكتوبر من تلك السنة صدر الامر العالي باعتماد اللائحة في انتخاب مجلس النواب بناء على تقرير رفع الى شريف باشا مذيلاً بالف وسبعماية توقيع يتضمن طلب تشكيل المجلس النيابي ومن مقتضى تلك اللائحة ان يكون النواب واحداً او اثنين من كل مديرية و٣ من مصر و٢ من الاسكندرية وواحداً من دمياط على شروط مذكورة في اللائحة . ووزعت نظارة الداخلية منشورات بشأن ذلك الى المديريات

مصر والدولة العثمانية

لايخفى ان مصر نالت امتيازها واستقلت بادارتها رغم ارادة الباب العالي ومابرحت الدولة منذ منحت ذلك الامتياز وهي تتحين الفرص لارجاع سيطرتها الى وادي النيل وكان من جملة مطالب العرابيين تشكيهم من النفوذ الاجنبي بمصر وامتياز الاجانب على الوطنيين من كل وجه وكتب عرابي الى الاستانة يشكو ذلك الى السلطان وهو يومئذ

السلطان عبد الحميد وكان قد اخذ في مطاردة الاحرار طلاب الدستور بعد ان قلب دستورهم واصبح لفظ الدستور يرعبه

فلما جاءته شكوى العرابيين من الاجانب وجد باباً للمداخلة بشؤون مصر لكنه يعلم ان من جملة مطالبهم الدستور ومجلس النواب وهو يكره الدستور واسمه فكيف يقبل ان يعلن في بعض ولاياته ؟ . فضلاً عن الاشاعات التي كانت تتناقل يومئذ عن رغبة العرب في إحياء دولتهم وخلافتهم في مصر وسوريا . فأول خاطر بدا للسلطان ان يرسل جنداً عثمانياً يحتل وادي النيل بحجة اخماد الثورة . وامر باعداد الحملة في سبتمبر سنة ١٨٨١

ولكن مصر تحت المراقبة الاجنبية فلا يسهل على السلطان احتلالها . وكانت سياسة فرنسا على الخصوص مقاومة كل توسط عثماني بشؤون مصر . اما انكلترا فلم تكن ترى بأساً من ان يرسل السلطان قائداً عثمانياً يتوسط في حل ذلك المشكل . فاحتجت فرنسا بان ذلك قد يقود الى احتلال عسكري . فعرضت الدولة العثمانية لحل هذه المعضلة ان يخلع الخديوي وينصب مكانه حليم باشا — وهو من طلاب العرش المصري وانما منعه منه فرمان اسماعيل القاضي بانتقال الارث الى الابناء — وكانت انكلترا من اشد المعارضين لهذا التبديل وفرنسا تعارض من الجهة الاخرى بارسال جند عثماني . فاكتفى الباب العالي بارسال مندوب ينوب عنه بحجة حقه بالسيادة على مصر فارسل رجلين هما فؤاد بك وعلي نظامي باشا فوصلا الاسكندرية في ٦ اكتوبر سنة ١٨٨١

فاحتجت انكلترا وفرنسا على ذلك وامرتا المراقبين في مصر ان يستقبلوهما بالترحاب ويمنعاهما من كل مداخلة سياسية . ولما بلغ الخديوي وصول المندوبين استغربه وسأل وكيلي انكلترا وفرنسا عن السبب فاجابا انهما لا يعلمان . على ان الدولتين انكلترا وفرنسا الحتا على الباب العالي ان يقصر زمن تلك الزيارة على قدر الامكان . وغاية ما اتاه المندوبان انهما استعرضا الجند وخطب علي نظامي باشا في الضباط يذكرهم بأن الجناب العالي نائب جلالة السلطان بمصر وان من يعصى الخديوي يعصى اوامر الخليفة

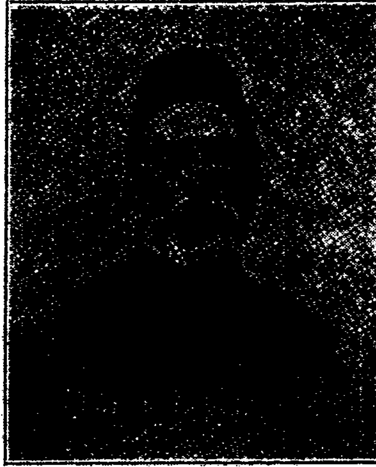
وعادت الدولتان الى طلب خروج المندوبين حالاً فسافرا في ٢٠ اكتوبر . وعادت الدولتان الى التفكير في ملافاة مايخشى وقوعه في مصر . واظهر الخديوي بعد حادثة ٩ سبتمبر ريباً في الجند وضباطه وانه لايرى سبيلا الى الامن الا باخضاع الجيش . وبلغ ذلك العرابيين فاتسع الخرق بين الطرفين

مجلس النواب المصري

واراد شريف باشا رتق هذا الخرق بسياسة واسلوب فرأى ان يعقد مجلس

النواب ويفوض اليه النظر في مطاليب الامة واعضاؤه نوابها فينتقل النفوذ من الجيش اليهم فتتوازن القوى . فصدر الامر العالي في ٨ اكتوبر بعقد مجلس النواب في ٢٣ دسمبر وتم انتخاب النواب على لائحة اسماعيل باشا التي وضعها سنة ١٨٦٦

فكان موءلفاً من اثنين وثمانين عضواً اقيم منهم المرحوم سلطان باشا رئيساً وعبد الله باشا فكري رئيساً للكتبة واعدت قاعة المجلس في ديوان الاشغال لتكون



ش ٨٣ : عبد الله باشا فكري رئيس كتبة مجلس النواب

مقر انعقاده . وحضر تلك الجلسة الجناب الخديوي وقال المقالة الافتتاحية بين فيها شدة رغبته في تأليف ذلك المجلس وتنشيطه . وقال انه يرجو ان يكون مساعداً له في نشر العلوم والمعارف بين افراد الامة مخلصاً في خدمة مصالحها . وحضر تلك الجلسة ايضاً جميع الوزراء ورجال الدولة فتكلم كل منهم حسب مقتضى المقام . ثم نظر المجلس في بعض الامور الداخلية وارفضت الجلسة . وعكف مجلس شورى النواب على الاهتمام بشؤونه فرتب اقلامه وانتخب رؤساءها ثم وجه التفاته على الخصوص الى اللائحة الاساسية الجديدة التي كان قد وعده من مجلس النظار بارسالها اليه لينظر فيها لان مجلس النواب افتتح بمقتضى لائحة اسماعيل

وما لبث شريف باشا ان راى النواب والجند اتحدا وتكاتفا وانقضت سنة ١٨٨١ والامر والنهي بمصر لعرابي وحزبه وصارت الجرائد اذا ذكرته لقبته بالقاب الامراء وكبار الحكام الفاتحين مع ان الحكومة كانت قد اصدرت قانوناً للمطبوعات تقيد به اقلام الكتاب

انكلترا وفرنسا

وعادت الدولتان الى المباحثة في الطريقة المؤدية الى سلامة القطر وصيانة حقوق الاجانب فيه اذا اتقدت شعلة الثورة . ووافق ذلك افضاء وزارة فرنسا الى غمبتا الشهير فوافق رايه راي انكلترا بوجوب نصرة الخديوي وتأييد منصبة ضد مناوئيه وهم كثيرون غير الجيش المصري — فقد كان حليم باشا وانصاره يبذلون المال والسعي في الرجوع الى التوارث الاصلي والسلطان من الجهة الاخرى يتحين الفرص ليعيد سيادته الفعلية — فاعلنت الدولتان انهما لا تسمحان بحركة تؤدي الى تغيير حالة مصر السياسية واتفقتا على احتلال مختلط من الجندين الانكليزي والفرنساوي يؤتى به الى مصر عند الحاجة واعلنتا الخديوي بذلك بمذكرة مؤرخة في ٢ يناير سنة ١٨٨٢ بعثتا بها الى وكيليهما

وصلت هذه المذكرة الى مصر في ٢٦ ديسمبر بعد ان فتح مجلس النواب بحضور الجناب الخديوي وتلا خطابه الافتتاحي كما تقدم. فلما علم بعزم الدولتين على نصرته اجاب شاكراً في ٦ يناير . فاثرت هذه اللائحة في النفوس تأثيراً عظيماً واضطرب منها الجند فاجتمعوا في سراى قصر النيل للمذاكرة في مضمونها فرابهم منها امور كثيرة وايقنوا ان المراد منها مزيد المداخلة وجعل البلاد تحت حماية فرنسا وانكلترا .ثم وفد عليهم ناظر الجهادية (محمود سامي) ففوضوا الراي اليه فسكن جاشهم وطيب انفسهم وتوجه بعد ذلك الى النظار وفاوضهم في الامر وابلغهم انفعال العساكر من هذه اللائحة ثم سار معهم الى الخديوى فبسطوا لديه الامر والرأى والتمسوا المداركة بما يذهب الاثار التي نشأت عن اللائحة المذكورة . فاستقر الراى على اشعار الباب العالي بها مع الملاحظة بانه لا حاجة لقبول مضمونها فسكنت الخواطر بذلك واطمأنت النفوس . واصبحت القوات العاملة في مصر حزبين : (١) الحكومة يعضدها المراقبان (٢) النواب يعضدهم الجند

وكانت الميزانية التي لا بد من عرضها على مجلس النواب للمصادقة عليها مؤلفة من قسمين الاول الايرادات التي تخصصت لوفاء الدين والثاني النظر في سائر الايرادات فلما اجتمع مجلس النواب في ٢ يناير سنة ١٨٨١ وفد شريف باشا على المجلس لتقديم اللائحة الاساسية الجديدة التي اعدها له فقدمها وخطب في ذلك خطاباً اثر في اذهان النواب وقد جاءت هذه اللائحة مشتملة على احكام حرة وحدود مطلقة يكون بمقتضاها للنواب حق النظر في القوانين والنفقات العمومية وان لا ينفذ قانون ولا يعتبر نظام ما لم يصادق عليه في مجلسهم مع الحرية التامة لهم في ابداء آرائهم . فتعينت لجنة

من اعضاء المجلس لمراجعة هذه اللائحة . وبعد الاجتماع مرات عديدة قررت اكثر بنود اللائحة ووقع الخلاف بين النواب والنظار في شأن ما يتعلق منها بالميزانية

وفي ٢٧ صفر من تلك السنة اعاد النواب اللائحة المذكورة الى النظار بعد ان بينوا ما يريدون تعديله فيها . فرأى النظار ان يغيروا شيئاً من تعديلات النواب فلم يقبل اولئك واصروا الا تنفيذ تعديل لجنتهم . وفي ١١ ربيع اول سنة ١٢٩٩ ﻫ (٣١ يناير ١٨٨٢ م) اعاد النظار اللائحة الى النواب مرفوقة بافادة مفادها ان وكيلي الدولتين فرنسا وانكلترا لا يريان حقاً لمجلس النواب في تقرير الميزانية ولكنهما مع ذلك يقبلان المخابرة في هذا الشأن بشرط ان يستقر الاتفاق بين النواب والحكومة على سائر بنود اللائحة . وبناء على ذلك تطلب الحكومة من النواب تصديقهم على اللائحة مع اغفال ما يتعلق بالميزانية لبينما يعطي النواب رايهم النهائي فيه . فنظر النواب في تلك الافادة عدة ساعات فقرروا احالتها الى اللجنة التي كانت مكلفة بتنقيح اللائحة وطلبوا اليها اعادة النظر في التعديلات التي ادخلها مجلس النظار فصدقت على بعضها ورفضت البعض الآخر وادخلت على البند المتعلق بالميزانية تعديلاً على مقتضى ما رادت . وقررت في الوقت نفسه عدم قبول توسط القنصلين في ذلك الامر

وفي يوم الخميس ١٣ ربيع اول (٢ فبراير) سارت لجنة مؤلفة من ١٥ نائباً الى الجناب الخديوي يطلبون تنفيذ ما قرروه اواستعفاء الوزارة . فوعدهم سموه الى صباح السبت وانصرفوا فتقابل مع شريف باشا بحضور القنصلين فاصر شريف باشا على رايه واستعفى للحال . فاستدعى الجناب الخديوي لجنة النواب وكلفها ان تختار رئيساً للوزارة فقالوا ان ذلك من حقوق الجناب الخديوي فالح عليهم فامتنعوا . ولكنهم قالوا نريد وزارة تنفذ لائحتنا فاختار لهم محمود باشا سامي وقلده منصب الوزارة وعهد اليه تشكيل وزارة جديدة . فشكلها وجعل احمد عرابي ناظراً للجهادية . فسر الحزب الوطني كل السرور ووردت لهم التهاني من سائر انحاء القطر من وطنيين واجانب واقام النواب احتفالاً لفوزهم . وفي ١٥ ربيع اول او ٤ فبراير اجتمع ضباط الجهادية من رتبة الصاغقول آغاسي فما فوق ومثلوا بين يدي الجناب الخديوي لاظهار الطاعة فشكرهم سموه وخاطبهم بما شف عن حبه لاصلاح البلاد . وفي ١٩ ربيع اول حضر محمود سامي الى مجلس النظار فقوبل بالتعظيم والتكريم وسر النواب بنفوذ رايهم فخطب فيهم ونشطهم واقر لهم على اللائحة كما عدلوها فلما علم الناس بالتصديق على لائحة النواب اقاموا الاحتفالات في مصر والاسكندرية سروراً بفوز الحزب الوطني واصبح الجهاديون

القوة المتسلطة في البلاد واليهم يوجه الثناء لأن تلك المنى قد ادركت بمساعيهم

ولما جلس عرابي على مسند نظارة الحربية والبحرية احسن عليه وعلى عبد العال برتبة لوا « باشا » ثم سعى في ترقية كثيرين من رفقائه الضباط وقرر قانون الضمائم والمعاشات بصفة جمعت القلوب على ولائه . وعمد الى التخلص من الحزب الشركسي الذي كان لا يزال متخللاً الجهادية فشكل لجنة لفرز الضباط المستودعين ففرزت نحو الستمائة اكثرهم من الاتراك والشراكسة فاصبحت الجهادية وطنية محضة . وذكرت جرائد اوربا اذ ذاك ان الحزب الوطني وفي مقدمته عرابي كان يهدد مجلس النواب ويتوعده بالسوء اذا لم يسر على غرضه . فنشر رئيس المجلس المذكور في الجريدة الرسمية ما ينفي تلك التهمة . ثم تخصصت جريدة الطائف لنشر محاضر مجلس النواب والتكلم بافكار اعضائه والدفاع عنهم . وفي اواسط ربيع آخر او مارس استعفى بلينيار احد المراقبين الماليين فعين بدلا منه الموسيو بريديف . وفي ٦ جمادى الاولى سنة ١٢٩٩ هـ او ٢٥ مارس سنة ١٨٨٢ م انفض مجلس النواب من اعماله لتلك السنة وقد قرر فيها (١) القانون الاساسي (٢) لائحة الداخلية (٣) لائحة الانتخاب (٤) امور اخرى مهمة . وقد تقرر في لائحة الانتخاب ثبوت حق الانتخاب والنيابة معاً لاي من كان من رعايا الحكومة سواء كان مولوداً في القطر المصري او مقيما فيه منذ عشر سنين . ولما ودع النواب الجناب الخديوي سلم سموه كلا منهم امراً مؤذناً بتعيينه عضواً في المجلس المشار اليه الى خمس سنوات

استفحال الثورة

فتمكن الارتباط بذلك بين الجهادية والنواب واضيف اليهما الوزارة لانها وطنية أيضاً فازدادت مشاكل الخديوي والمراقبين وازدادوا اعتقاداً بوجوب احتلال القطر بجند مختلط من الفرنساويين والانكليز . وانكلترا ترى في ذلك باعثاً على سوء ظن الدول الاخرى وتفضل صرف هذا المشكل باحتلال تركي بشروط لايخشى معها رجوع النفوذ العثماني

على ان العثمانيين كانوا يرون في استفحال امر الوطنيين على الخديوي فائدة لهم وربما ساعدوا على ذلك تحت طي الخفاء املاً باسترجاع مصر الى حوزتهم . فلا غرو اذا تمسك الوطنيون بمطالبهم واتحد في ذلك العسكر والنواب والوزارة . وقد زادهم تمسكاً بها اغراء بعض المتطرفين من الافرنج فقد كان منهم جماعة يحسنون تلك الثورة ويطرون القائمين بها ويبشرونهم باستقلال مجيد واشهر هؤلاء المغرورين الفريد بلانت

الانكليزي

فلا غرو بعد ذلك اذا تهور الوطنيون في مطالبهم وتصوروا في انفسهم القدرة على كل شيء فاغلوا ايدي المراقبين ونبذوا سلطة الخديوي واحتقروا الافرنج فعم الخوف انحاء القطر وسادت الفوضى وضاعت سلطة المديرين

وهم في ذلك نهض الباب العالي يقيم الحجة على لائحة الدولتين القاضية باتحادهما في مسألة مصر واحتلالها عند الاقتضاء وخاطب الدول الاخرى بذلك فاجابت روسيا والنمسا والمانيا وايطاليا انهن يرغبن في بقاء مصر على حالتها السياسية تحت رعاية السلطان وسمينه في هذا الجواب «سوزرين Suzerain» ومعنى ذلك في اصطلاح السياسة ان يكون للسلطان السيادة الاسمية على مصر . وهو يريد ان يسمى سوفرين Sovereign اي صاحب السيادة الفعلية . وعند التحقيق يتضح ان سيادته على مصر اقرب الى هذا اللقب مما الى ذاك . لانه صاحب الحق الرسمي في خلع الخديويين وتوليتهم ولا يقدر صاحب اللقب الاول على ذلك فالسلطان « سوزرين » على بلغاريا لانه لا يقدر ان يولي اميرها او يعزله ولكنه سوفرين على مصر

وتغيرت وزارة فرنسا في اثناء ذلك وتولى حكومتها دي فريسينه بدلاً من غمبتا وهو يخالفه في سياسته بمصر فلا يرى احتلالها بجند مختلط وعرض على انكلترا رايه في حل المسألة المصرية بخلع الخديوي وتولية حليم باشا بشرط ان لا يزداد نفوذ العثمانيين فرفضت انكلترا هذا الراي

مشكل جديد

قد رايت ان احمد عرابي رقى كثيرين من الضباط ابناء العرب واضطهد الاتراك والشراكسة وامر بنقلهم الى السودان فبلغه انهم يكيدون له ويتآمرون على قتله فامر بالقبض على جماعة كبيرة منهم وفيهم عثمان باشا رفقي ناظر الحربية السابق وحاكمهم بمجلس حربي فصدر الحكم على اربعين منهم بالنفي المؤبد الى اقصى السودان . فتولدت مشكلة جديدة لان رفقي باشا حائز على رتبة فريق من السلطان وله وحده حق الحكم في هذا الشأن ووافق الخديوي على ذلك فاغضب وزراءه وطال الاخذ والرد في المسألة ثم تقرر تعديل ذلك الحكم بالنفي بدون تعيين السودان او غيرها . فغضب العرابيون والوزارة الآن منهم . فبعثت تستقدم النواب لتشكو اليهم تصرف الخديوي وانه يضيع امتيازات مصر بدون ان يشاور وزرائه وقد اسروا عزمهم على خلع الخديوي واخراج اسرته وتولية محمود باشا سامي حاكماً على مصر

فاجتمع النواب من انحاء القطر وحاولوا تسوية الخلاف عبثاً فتعينت لجنة في ٢٥ جمادى الآخرة سنة ١٢٩٩ هـ او ١٤ مايو ١٨٨٢ م لتعرض على سموه قبول الاقتراح بشرط ان ينزل رئيس النظار فقط وان يجعل مكانه مصطفى باشا فهمي. فتوجهوا وعرضوا ذلك على سموه فقبل بعد التردد . فساروا الى مصطفى باشا يسألونه اذا كان يقبل تلك الرئاسة فأبى . فعادت المسألة الى مركزها الاول بل زادت تجسماً فوقفت حركة الاعمال وبانت العيون شاخصة الى ما سيكون . واجتهد سلطان باشا في تسوية ذلك الخلاف بكل طريقة ممكنة وساعده ناظر المعارف فلم ينجح . وهم في ذلك ورد تلغراف من لندن ينبئ بصدور الامر الى الاسطول الانكليزي الراسي في بحر المانش ان يتأهب ليسافر في ٢٨ مايو الى البحر المتوسط . فأوجس الناس خيفة

وكان الموسيو دي فريسينه قد عاد الى مخابرة انكلترا في ايهما افضل لمصلحة مصر الاحتلال الفرنساوي الانكليزي او التركي . وتقرر ارسال العمارتين الى مياه الاسكندرية وان يُطلب من الباب العالي التوقف عن المداخلة الا اذا دعته الدولتان المتحدتان الى ارسال جند عثماني . وكان راي فرنسا ان الدولتين اذا رأتا حاجة الى الاحتلال العسكري تطلبا الى السلطان ان يرسل جنداً عثمانياً للاحتلال بشروط معينة

ولما بلغ السلطان عزم الدولتين على ارسال اسطوليهما الى المياه المصرية غضب ورفع احتجاجه الى الدول ولكن ذلك لم يقف في طريق الاساطيل

ففي مساء الجمعة غرة رجب او ١٩ مايو سنة ١٨٨٢ وردت على مينا الاسكندرية دارعة انكليزية وفي الصباح التالي دارعتان اخريان وثلاث دوارع فرنساوية فاطلقت المدافع للسلام كالعادة . ثم جعلت البواخر ترد الى ذلك الثغر حتى تكامل الاسطولان ولم يكن معهما اسطول عثماني . فكثر تقول الناس في سبب قدوم هذه العمارات على هذه الصورة . ثم اشيع ان قدومها كان بوفاق مع الباب العالى وبارتياح الدول عموماً بشرط ان تسرع بعد انهاء المشاكل الى الانسحاب

وفي ٧ رجب او ٢٥ مايو من تلك السنة قدم قنصلا انكلترا وفرنسا بلاغاً نهائياً من دولتيهما تطلبان فيه سقوط الوزارة واخراج عرابي من القطر المصرى بان تضمنا له حفظ رتبه ورواتبه ونياشينه وابعاد عبد العال حلمي وعلي فهمي الى الارياف في جهات لايخرجان منها مع حفظ رتبهما ورواتبهما ونياشينهما وان الدولتين عازمتان على تنفيذ كل ذلك . وهما تكلفان الجناب الخديوى ان يصدر عفواً عاماً عن الذين لهم دخل في المسألة . فرفض النظار هذا البلاغ ولم يجيبوا عليه بدعوى « ان لا علاقة للدول

الاروبية معنا فاذا شئن فليخابرن الاستانة اما نحن فاننا مستعدون للمقاومة » فأخذ سلطان باشا يسعى في التوفيق فخبط مسعاه . وفي ٨ رجب او ٢٦ مايو استعفت الوزارة محتجة على بلاغ الدولتين وطلباتهما فكلف شريف باشا بتشكيل وزارة جديدة فأبى واصر على الاباءة فأطلعه قنصل فرنسا على تلغراف وارد اليه من وزارة فرنسا هذا نصه :

« الامل ان يقبل شريف باشا رئاسة الوزارة وا كدوا له اننا لنعضده ونؤيده بكل جهدنا » فلم يقنعه ذلك واصرَّ على الرفض

ثم عقدت جلسة عند الجناب الخديوى حضرها بعض رؤساء الجهادية وفي مقدمتهم طلبة عصمت فقال شريف باشا انه يقبل ان يشكل وزارة جديدة بشرط ان تنفذ الجهادية مآل طلبات الدولتين فقال طلبة « نحن مطيعون انما يستحيل علينا تنفيذها ولا حق للدولتين بطلب ذلك لان هذه المسائل من اختصاص الباب العالي » قال ذلك وخرج فتبعه الضباط . وبتاريخه ورد تلغراف من راس التين بالاسكندرية ان العساكر هناك لايقبلون غير عرابي ناظراً عليهم وانهم اذا مضت ١٢ ساعة ولم يرجع الى منصبه لايكونون مسئولين عما يحدث مما لا يستحب وقوعه . فزاد الاشكال والاضطراب فتمكن شريف باشا وغيره من اصرارهم على رفض تشكيل وزارة جديدة . وعند الغروب اجتمع النواب ورئيسهم وحضر عرابي وجعل يخطب فيهم وخطب ايضاً عبد العال وغيره يطلبون تنازل الخديوي فتفاقم الخطب فارسل الجناب الخديوي يخبر الباب العالي ان الجند غير راضين عن استعفاء الوزارة وانهم اقاموا الحجة على طلب الدولتين . فاجابه ان الحضرة السلطانية امرت بتشكيل لجنة عثمانية تأتي مصر بعد ثلاثة ايام للنظر في هذا الامر . فأمر الجناب الخديوي ان يرجع عرابي الى مركزه موقتاً للتأمين على الاجانب ريثما يصل الوفد العثماني فسر الجند بذلك . وبعث عرابي منشوراً الى قناصل الدول يضمن تأييد الامن لجميع سكان القطر المصري من وطنيين واجانب مسلمين وغير مسلمين وفي الوقت عينه اقترح ثلاثة امور :

١ اعادة لائحة الدولتين وانسحاب اسطوليهما

٢ وضع قانون اساسي تبين فيه حدود كل من الجناب الخديوي ووزرائه

٣ قطع المخابرات والعلاقات توًّا مع الدولتين ومع سائر الدول الا بواسطة الدولة العثمانية

ثم عمل العرابيون على خلع الخديوى وتولية البرنس حليم باشا وكثيراً ماكانوا

يصرحون بذلك في مجالسهم

وكان السلطان من الجهة الاخرى يسعى في اغتنام هذه الفرصة لاسترجاع نفوذه بمصر واعترفت الدول ان السلطان اولاهن بحل هذا المشكل . وبعد ان كانت فرنسا من اكبر المقاومين للتداخل العثماني صرح دي فريسنيه ان كل الوسائل لحل المسألة المصرية يمكن اتخاذها الا الاحتلال العسكري الفرنساوي . خلافاً لراي غمبتاسلفه . وكان الخديوى من الجهة الاخرى راغباً في توسيط الباب العالي لعله يؤيده . وعرض البرنس بسمارك عقد مؤتمر دولي للقرار على هذه المسألة فلم يرض السلطان بالمؤتمر لكنه انتدب رجلين من كبار رجاله اوفدهما الى مصر احدهما درويش باشا والآخر اسعد افندي وكانت مهمتها القبض على الحبل من الطرفين لارضاء الحزبين فيكون السلطان مع الفائز منهما . فكانت مهمة درويش باشا توطيد علائق الولاء مع الخديوى ضد عرابي وبعكس ذلك مهمة اسعد افندي . وكان في جملة الاوامر المعطاة لدرويش باشا ان يقبض على عرابي ورفاقه ويرسلهم مغلولين الى الاستانة وان يلغي مجلس النواب ويقوي نفوذ امير المؤمنين وفرق الاوسمة في العرابيين وفي حزب الخديوي

فآلت هذه السياسة طبعاً الى زيادة التفريق وتفاقم الفوضى وكره الاجانب فافضى ذلك الى حادثة الاسكندرية في ١١ يونيو

حادثة الاسكندرية

وسببها ان القلق والاضطراب استوليا على سكان القطر وكثر الاشاعات ونزع النزلاء الاجانب الى الجلاء خوفاً من امر يأتي فاصبحت الاسكندرية ملجأ الوافدين من جالية الريف على امل ان يكونوا فيها آمنين من غوائل التعدي لكثرة من فيها من الاجانب او بالحرى للاحتماء بجوار الاسطولين الانكليزي والفرنساوي

ثم احس الاجانب فيها ان سفلة الاهالي ومعظم الجهاديين قد اغلظوا في معاملاتهم واستبدوا في امورهم فكانوا يخطرون في الازقة تيهاً يمتهنون الرفيع ويستعبدون الوضيع وقد لاح لهم ان اولئك الاجانب يريدون بهم شراً فجعلوا يتوقعون منهم ما يتذرعون به الى الوقيعة بهم توهماً منهم ان اولئك من الد الاعداء لوطنهم . فعلم الاجانب بتلك المقاصد فجعلوا يتأهبون سراً للدفاع بما امكنهم من اقتناء الاسلحة والرجال واخفائهم في منازلهم واستشاروا اميري الاسطولين فوافقاهم ثم عرضوا الامر على القناصل الجنرالية في القاهرة بواسطة مندوب مخصوص فانكروا عليهم ذلك فلبثوا يتوقعون المقدور

اما اهل الفتنة فادركوا تحذر الاجانب منهم فهموا بهم في ٢٤ رجب او ١١ يونيو وابتداوا الفتنة بخصام بين حمار ومالطي اتصلوا منها الى الاغارة على البيوت والمنازل والفتك بكل من مروا به في السبل . فلم تكن ترى الا اخلاطاً من السفلة بين صعيدي وسوداني وبدوي وفيهم الحمارة والحمالون وامثالهم يهجمون جماعات على من لقوه في طريقهم فقتلوا نحوا من ٣٠٠ نفس وقتل منهم نحو هذا العدد . كل ذلك والاسطولان لم يحركا ساكناً . وتعارض مأمور الضابطة المدعو السيد قنديل ولم ينزل يومئذ الى المدينة و جرح في هذه الواقعة عدد كبير من كبار الاجانب وفيهم قنصل اليونان والمستر كوكسن قنصل انكلترا في الاسكندرية وقنصل ايطاليا وفيس قنصلها وقنصل روسيا وكثيرون غيرهم . فأمر محافظ الاسكندرية (عمر باشا لطفي) الاميرالاي سليمان داوود ان يبعث الجند لايقاف الاهالي ومنعهم من ارتكاب تلك الفظائع . فاجاب انه لا يستطيع ذلك الا بعد ان يأتيه امر من عرابي . فجاءه الامر نحو الساعة الخامسة بعد الظهر فسار الجند والمحافظ امامهم ساعياً على قدميه يسكنون الخواطر وينادون باعادة الراحة . فراوا المخازن قد نهبت والارزاق قد تبعثرت على قارعة الطريق . وعند الغروب هدأت الغوغاء وكف الناس فدخل كل منزله وانقضى الليل ولم يحدث شيء . وفي اليوم التالي كثر عدد المهاجرين بحراً حتى خيل للناس انه لم يبق في المدينة احد من الاجانب . فنزل من المدينة في يوم واحد نحو عشرة آلاف تفرقوا في السفن . كل ذلك خوفاً مما كانوا يخشون حدوثه من مثل ما قاسوه . واتصلت هذه الاخبار بالداخلية فانتشر الاضطراب وعمت البلوى وتقاطر الناس من سائر الاقطار الداخلية الى السواحل يطلبون الفرار كما فعل الاسكندريون واستقرت الحال على ذلك بضعة ايام حتى كاد يخلو القطر من النزلاء وقد قدَّر بعضهم عدد من هاجر في تلك المدة فبلغ زهاء مائة وخمسين الفاً

ولما بلغ خبر حادثة الاسكندرية الى اهل العاصمة اضطربوا وفي صباح ١٢ يونيو خاطب القناصل درويش باشا معتمد الحضرة السلطانية بكلام عنيف وسألوه ان يتخذ التدابير الفعالة لصيانة الاوروبيين واموالهم في جميع انحاء القطر فعقد مجلساً في عابدين حضره الجناب الخديوي ودرويش باشا ومن معه وشريف باشا ووكلاء الدول العظمى السياسيون وبعد المذاكرة اقروا ان تعطى للقناصل ضمانات اكيدة تكفل اعادة الامن والمحافظة على ارواح الاوروبيين واموالهم ومن اخص هذه الضمانات ان يمتثل عرابي لاي الاوامر التي تصدر له من الخديوي فدعي وسئل فاجاب بالقبول وتعهد باجراء

مايضمن الراحة واخذ . درويش باشا على نفسه تبعة تنفيذ الأوامر الخديوية بمعنى ان يكون مشتركاً مع عرابي ومسئولاً معه في تنفيذ تلك الاوامر . فرضي وكلاء الدول بذلك وانصرفوا واخذ عرابي يهتم قياماً بتعهده فنشر المنشورات بمنع الاجتماعات وابطال كل ما يوجب الارتياب . وكانت قد تعينت لجنة بامر الجناب الخديري للنظر في امر حادثة الاسكندرية تحت رئاسة عمر باشا لطفي محافظها وفيها مندوبو القناصل فاجتمعت اللجنة في الاسكندرية وباشرت اعمالها وقررت ماخيل لها انها تدابير فعالة لاعادة الامن

وفي ٢٦ رجب او ١٣ يونيو (حزيران) وصل سمو الخديوي الى الاسكندرية بصحبه درويش باشا مندوب الحضرة السلطانية فصفت لهما الجنود من المحطة الى سراي راس التين واطلقت المدافع تحية لهما . ثم زاره قناصل الدول الا قنصلا انكلترا وفرنسا فانهما بقيا في مصر فابدى لهم اسفه الشديد لما حدث ووعدهم بصرف العناية الى اخماد الفتنة وخاطبهم درويش باشا ايضاً بمثل ذلك وزاد عليه انه واثق الثقة التامة باخلاص الجهادية . الا ان الخديوي اسرَّ الى المستر كولفن المراقب العمومي الانكليزي انه غير واثق باستمرار الامن والراحة وانه يعتبر مهمة درويش باشا كانها قد انتهت ولم تفلح وانه لا يرى بدًّا من مجيء جنود عثمانية لاعادة الراحة . وكان في ثكنات الاسكندرية نحو من ثمانية آلاف جندي بالاسلحة الكاملة ومعهم من المهمات ما يكفي خمسين الفاً

ثم بلغت القناصل رعاياها ان يتخذوا اقرب السبل للنجاة مما ربما يحدث واوعزت اليهم ان يهاجروا من المدينة فتناقلت الالسن هذه الاخبار فتاكد الناس ان الساعة آتية لا ريب فيها وعينت كل دولة من الدول الاجنبية سفناً لنقل رعاياها المهاجرين مجاناً فتسارع الفقراء من كل ناحية متقاطرين من مدن الداخلية والارياف الى الاسكندرية وبورت سعيد حيث كانت تلك السفن معدة لنقلهم الى بلادهم . وكان المستر مالت وكيل انكلترا السياسي لا يزال في العاصمة فجاءه امر من لندرا بان يحضر الى الاسكندرية ويرافق الخديوي حيثما توجه فاتاها واتى معه المسيو سنكوفيتش وكيل فرنسا فخلت العاصمة من رجال السياسة وخلا جوها لعرابي وجماعته واستفحل امرهم ولا سيما لما بلغهم من انقسام دول اوربا في المسأله المصرية فظنوا انهم في مأمن من الاغتيال . ثم حسب القناصل ان تغيير الوزارة يأتي بحل هذه المشكلة فاشاروا على الجناب الخديوي بذلك فشكل وزارة جديدة تحت رئاسة اسماعيل راغب باشا وبقي عرابي ناظراً للجهادية والبحرية فكان راي هذه الوزارة ان الطريقة المثلى لملافاة الامر ان يصدر عفو عمومي

وان يعلن في الجرائد الرسمية « ان كل من عليه مسئولية اواشتراك بالحوادث الاخيرة فعليهم العفو الا المشتركين في حادثة الاسكندرية وهم تحت المحاكمة » فوافقها الجناب الخديوي على ذلك . وفي ٥ شعبان سنة ١٢٩٩ هـ او ٢١ يونيو سنة ١٨٨٢ م بعث الجناب الخديوي منشوراً الى راغب باشا يطلب اليه التحري الحسن في مسألة حادثة الاسكندرية فاجابه بتلبية الطلب

ثم جاءت الاخبار بعزم الدول على عقد مؤتمر في الاستانة لاجل البحث في المسألة المصرية وتمنع الباب العالي من ذلك بدعوى ان ليس في مصر ما يوجب الاضطراب اعتماداً على تقارير درويش باشا المرسلة منه . وكان ذلك مما شدد عزائم الحزب الوطني ولا سيما لما راوا الباب العالي واثقاً بهم يأبى عقد مؤتمر دولي . وكان عرابي يؤكد لاتباعه ان وجود هذه الاساطيل في مينا الاسكندرية لا يخشى منه البتة لانها انما اتت هذا البحر للتنزه كما فعلت مرات عديدة قبل هذه . اما انكلترا فلم تنفك ساعية في عقد المؤتمر بدعوى انه يستحيل اعادة الامن الى مصر بغير واسطة فعالة . وكان الباب العالي يجيب على ذلك بقوله انه بعد تشكيل الوزارة الجديدة صار يرجو استقرار السلام ووافقه على رايه هذا دول المانيا واوستريا وايطاليا والروسية . وهذه الموافقة كانت مبنية على خوف الدول من مطامع انكلترا في مصر . فلما علمت هذه بنياتهم اكدت لهم انها تتعهد متى عقد المؤتمر مع سائر الدول الا تسعى البتة الى ضم ارض ما اليها او الاستيلاء على مصر او قسم منها او الحصول على امتياز ما سياسي او تجاري بدون ان يكون فيه نصيب لسائر الدول فوافقها الجميع على عقد المؤتمر اما الدولة العلية فاصرت على عدم لزومه

وفي ٧ شعبان او ٢٤ يونيو عقد المؤتمر في الاستانة ولم يكن للدولة العلية معتمد فيه فقرر ما يأتي « ان الحكومات التي وقع وكلاؤها بالنيابة عنها على ذيل هذا البروتوكول تتعهد انها لا تقصد البتة اغتنام ارض ما ولا الحصول على امتيازات ما ولا ان يكون لرعاياها من الامتيازات المتجربة ما لا يستطيع ان يناله غيرهم من رعايا اي الدول في مصر وذلك في اي مسألة حصل الاتفاق عليها بسعيها واشتراكها في المخابرات لتنظيم امور تلك البلاد » . وقد كانت انكلترا في اثناء سعيها الى عقد المؤتمر تحشد الجنود استعداداً للحرب وكانت في الوقت عينه تلح على سائر الدول ان تساعدها في ذلك

وجاء في اثناء ذلك الى عرابي نيشان من لدن الحضرة السلطانية فاتخذه الناس دليلاً على رضاء الباب العالي عن اعماله وكان هو يحاول اقناعهم ان جميع الدول تساعده

على مقاومة انكلترا اذا مست الحاجة . وفي ٥ شعبان او ٢٢ يونيو تمارض المستر مالت وكيل انكلترا فأنزل الى احدى السفن وبقي فيها بضعة ايام ثم سافر الى برندزي . وفي ٢٥ منه تنحى المستر كوكسن قنصل انكلترا في الاسكندرية بدعوى مرضه بسبب الجراح التي كان قد اصيب بها في اثناء حادثة ١١ يونيو وهكذا فعل قنصل مصر . اما باقي القناصل فبقوا في الاسكندرية الى ٩ يوليو . وكان الخديوي ودرويش باشا مقيمين في سراي راس التين وعرابي مقيماً في الترسخانة وتحت امره في ثغر الاسكندرية تسعة آلاف مقاتل

وفي جلسة المؤتمر السابعة اقرت الدول على كتابة لائحة مشتركة يقدمونها الى الباب العالي يطلبون منه ارسال جنود عثمانية الى مصر لاخماد الفتنة ففعلوا فابى فاتخذت انكلترا ذلك ذريعة لتداخلها بالقوة

ضرب الاسكندرية

أما فرنسا فقد علمتَ ما كان من تغير سياستها بعد تغير وزارتها وأصبحت لا ترى الاشتراك مع انكلترا في امور مصر وانما هي تشاركها فقط في حماية قناة السويس ولم تشأ مشاركة الانكليز في تحمل تبعة الاحتلال العسكري. ولذلك فلما رسا الاسطولان في مياه الاسكندرية تفردت انكلترا بالعمل. فاخذ الاميرال سيمور قومندان العمارة الانكليزية يترقب الاسباب لمباشرة العدوان فادعى أن الجهادية يحصنون القلاع في الثغر وينقلون أحجاراً ضخمة يلقونها عند فم المضيق لسد مدخل المينا فيمنع المدد ويحصر الاسطول وقال ان هذا التحصين مناف لحقوقه. فكلف الحكومة المصرية أن تكف عن التحصين حالاً والاَّ اضطر الى اطلاق مدافعه عليها فيدكها عن آخرها. فاجابه طلبه باشا عصمت أن لا صحة لما يقول وان الجهادية لم يهتموا قط بتحصين القلاع .وشاع ذلك فخافت الناس وأوعز الى الجناب الخديوي بواسطة المستر كولفن أن يتنحى صيانة لحياته فاجابه « لا يليق بي أن أترك الكثيرين من رعيتي الامناء في اوان الشدة ولا يليق بي أيضاً أن أترك البلاد في اوان الحرب » ثم توسطت قناصل الدول في الاسكندرية بين الاميرال سيمور و بين الجهادية المصرية فلم ينجحوا . فتقدم عرابي وسامي الى كاتب سر مجلس النظار أن يكتب تقريراً في المسألة مفاده « أن الاميرال تجاوز الحدود فيما يطلب وانه لا بد من مقاومته وأن عرابي وقومه مفوضون في أمر الدفاع عن البلاد »

وداروا به على منازل النظار وطلبوا التوقيع عليه فوقع بعضهم اختياراً والبعض اضطراراً ويقال ان الخديوي نفسه صدق عليه أو الجيء للتصديق ثم ارسلوه الى الاميرال سيمور . وأرسل عرابي منشوراً الى المديرين يطلب اليهم أن يكونوا مستعدين للامداد بالجند والمال

وفي مساء ٢٢ شعبان أو ٩ يوليو جاء المستر كارترايت الى الخديوي وأعلنه رسمياً عزم الاميرال سيمور على مباشرة القتال صباح الثلاثاء في ١١ يوليو وألح عليه أن يترك سراي راس التين و يلجأ الى سراي الرمل ففعل . ثم كتب رسمياً الى درويش باشا يطلب اليه ان يحافظ على حياة الجناب الخديوي والقى عليه التبعة اذا اصيب بسوء

وفي ٢٣ شعبان او ١٠ يوليو كتب الاميرال سيمور رسمياً الى كل من درويش باشا وراغب باشا رئيس الوزارة يعلمها عن خروج رجال الوكالة الانكليزية من القطر المصري اشارة الى قطع العلائق الودية واعلنت خارجية انكلترا سائر الدول بذلك « وانها لم تر بدًّا منه لكنها تصرح ان ليس لها ارب خفي او نية غير بينة وانما عملها هذا من قبيل الدفاع وحرصاً على مصلحة الجناب الشاهاني » وفي مساء ذلك اليوم سافر الاسطول الفرنساوي متقهقراً تاركاً سفينتين من سفنه فقط

وفي الساعة السابعة من صباح الثلاثاء ٢٢ شعبان سنة ١٢٩٩ هـ او ١١ يوليو سنة ١٨٨٢ م اطلقت العمارة الانكليزية مدافعها على حصون الاسكندرية وما زالت الى الساعة واحدة ونصف بعد الظهر فهدمت معظمها وانفجر مستودع البارود في قلعة اطه . فجاء راغب باشا الى الجناب الخديوي في الرمل واخبره ان الحصون قاومت اشد مقاومة وان كثيراً من سفن الانكليز قد غرقت وكان يقول ذلك مسروراً. ولكن قوله هذا مالبث ان نقض بورود الخبر الصحيح . ثم جاء عرابي فوقف بين يدي سموه فسأله عن حالة الحصون فقال « لم يعد في وسعنا المقاومة ولا بدَّ لنا من تدابير اخرى او ان نتساهل مع الاميرال » و بعد المخابرة تقرر ارسال طابية عصمت الى الاميرال وعاد عرابي من حيث اتى . فعاد طلبه باشا من عند الاميرال واخبر الجناب الخديوي ان الاميرال يطلب احتلال ثلاث قلاع والا فانه يستأنف القتال الساعة ٢ بعد الظهر. ثم قال « ولكنني قلت له ان هذه المدة لاتكفي لاتمام المخابرة بشأن ذلك فطلبت تطويلها فابى

فاتيت لاعلم سموكم ملتمساً رايكم » فعقد مجلس تقرر فيه انه لايحق للحكومة المصرية الترخيص في احتلال جنود اجنبية بدون مخابرة الباب العالى الا ان الوقت لم يسمح بتبليغ ذلك القرار للاميرال

ولما راى رجال الحصون المصرية عجزهم عن مقاومة السفن الانكليزية رفعوا العلم الابيض اشارة الى ايقاف العدوان فانقطعت السفن عن قذف النار. وكانت الحصون قد تهدمت فعلم الثائرون ان ذلك التسليم يعقبه احتلال الجيوش الانكليزية المدينة فوزعوا في غلس في ١٣ يوليو فرساناً في احياء المدينة يأمرون الوطنيين بالخروج من الاسكندرية حالاً وكانت هذه الاوامر تصدر من الاميرالاي سليمان داوود وامر ايضاً زمراً من الرعاع ان تطوف المدينة وتحرقها فابتداوا من الساعة الاولى بعد الظهر فكانت الاسكندرية مساء الاربعاء مضطرمة الجوانب منهوبة المخازن لاترى فيها الا لهباً متصاعدة واناساً حاملين الامتعة والمصاغ فارّين الى داخلية البلاد

وكان الخديوي في سراي الرمل وبمعيته عثمان باشا واسماعيل باشا الشركسيان وزبير باشا السوداني والجنرال ستون باشا وفدريكو بك وطونينو بك ودي مارتينو بك واباتي بك وتيكران باشا وزهراب بك وغيرهم لايزيد عدد الجميع على خمسين . وبعد ظهيرة ذلك اليوم جاء الى سراي الرمل نحو أربعماية فارس و بعض المشاة واحتاطوا بها فسئلوا عن الغاية من مجيئهم فقالوا « قد أتينا للمحافظة على السراي » والحقيقة انهم جاؤا مأمورين باحراقها وقتل من يخرج منها . وفي الساعه ٧ مساء بعث عرابي يستدعيهم ليه فساروا وتخلف منهم أحد البكباشية ومعه ٣٥٠ فارساً فمثل بين يدي الجناب الخديوي واقسم أنه يموت بين يديه واقتدى رجاله به وأخبره أنهم كانوا قد أتوا يريدون شرًّا . وفي خلال ذلك أرسل الاميرال سيمور ثلاث دوارع من أسطوله لترسو بجوار سراي الرمل صيانة لحياة الحضرة الخديوية ويقال أنها هي التي كانت السبب في انسحاب الفرسان العرابيين . ثم جاء المحافظ الى الخديوي يخبره بما كان من النهب والحرق في أحياء المدينة . فأرسل سموه كامل باشا الشركسي وزبير باشا ليمنعا الناس من ذلك

الاسكندرية بعد الضرب

ونحو الساعة ٢½ بعد ظهر ٢٦ شعبان أو ١٣ يوليو كانت جنود عرابي قد انجلت عن الاسكندرية . فجاء زهراب بك بهذا النبأ الى الخديوي وأن الاميرال سيمور عازم على انزال جنود بحرية الى رأس التين وأنه يدعو الحضرة الخديوية الى سفينته حيث يكون آمناً . ففضل سموه التوجه الى سراي رأس التين فسار وبمعيته درويش باشا حتى جاء السراي فوجد هناك الاميرال سيمور وبعضاً من جنوده ينتظرونه في ساحة القصر . وفي المساء نزل بعض وكلاء الدول وهنأوه بسلامته وكان في السراي ٣٠٠ من الحامية الانكليزية . وفي الصباح التالي أنزل الاميرال فرقاً أخرى من رجاله يطوفون الشوارع ومعهم عدد من المدافع تسكيناً لخواطر الباقين فيها

وقد قدرت الخسائر بسمائة من الوطنيين وخمسة من الانكليز على الدوارع غير المذابح التي حصلت في أثناء ذلك في طنطا والمحلة الكبرى وسمنود وجهات أخرى .

وبعد انتقال العائلة الخديوية الى رأس التين استدعى الجناب الخديوي زهراب بك وجعله ترجماناً بين السراي والضباط الانكليز وعهد اليهم أن يمنع أياً كان من دخول القصر لان العرابيين كانوا قد عينوا نفراً من الجواسيس لتجسس حالة السراي . أما عرابي وأتباعه ففروا الى كفر الدوار وعسكروا هناك على نية الدفاع

ولما استتب المقام للانكليز في الاسكندرية اخذوا في تنظيف الاسواق ونقل الجثث ودعوا المهاجرين ان يعودوا الى منازلهم لاعادة الراحة والطمأنينة واستدعي أثناء ذلك درويش باشا الى الاستانة فتوجه

وكتب راغب باشا الى الاميرال سيمور يخبره ان اجراءات عرابي من الآن فصاعداً مخالفة لاوامر الخديوي وانه هو وحده (عرابي) المسئول عنها

ثم كتب الجناب الخديوي الى احمد عرابي يأمره بالامساك عن جمع العساكر واعداد التجهيزات لان الحكومة الانكليزية لاخصومة بينها وبين الحكومة المصرية وانها مستعدة لتسليم المدينة متى رأت فيها قوة منتظمة والبلاد في أمن وأمره ان يأتي الى سراي رأس التين حالاً

فاجاب عرابي « ان مقاومة العمارة الانكليزية حصلت بقرار مجلس النظار

ودرويش باشا وان النظار هم الذين اعلنوا الحرب على الانكليز وهكذا حصل فاذا كان الاميرال الان قد عدل عن المحاربة الى المسالمة بعد وقوع الحرب فذلك يعد طلبًا للصلح ولا يجوز ان يكون انكاراً للحرب » الى ان قال « انه يميل الى الصلح ولكن مع حفظ شرف البلاد والحكومة فاذا كان الاميرال يريد تسليم المدينة فليسلمها ولتخرج مراكبه من الاسكندرية وانه للمحافظة على شرف الحكومة الوطنية ينبغي الاستمرار على الاستعداد العسكري حتى تفارق المراكب المياه المصرية وانه يعتبر قول الانكليز هذا مكيدة لان الانكليز لايزالون في الاسكندرية ولذلك لايمكنه الحضور اليها » ثم طلب التئام مجلس النظار في مركز الجيش للمداولة في الامر وبعد ذلك يصرف الجيش ويحضر

مساعي العرابيين

فيظهر ان اصرار عرابي هذا هو السبب في اتساع الخرق لان الحكومة الانكليزية لم تكن تطمع باحتلال هذه البلاد عَلَى مايظهر من اقوالها . وكتب عرابي الى وكيل الجهادية يعقوب سامي في القاهرة ايقاعاً في الحضرة الخديوية واتهمها بالتحامل عَلَى الجهادية الوطنية وانها هي التي جلبت كل هذه المتاعب الى القطر المصري وطلب اليه ان يتروى في الامر وينظر في صلاحية هذا الوالي للتولية عليها اوعدمه . فلما وصل كتاب عرابي هذا الى يعقوب سامي جمع اليه الذوات والاعيان والرؤساء الروحانيين في ديوان الحربية في غرة رمضان سنة ١٢٩٩ هـ (١٧ يوليو ١٨٨٢ م) وعقدوا جلسة تحت رئاسة وكيل الداخلية قام فيها عدة خطباء اتهموا الجناب الخديوي ببيع الوطن . واستقر الراي اخيرا عَلَى لزوم الاستمرار على اعداد التجهيزات الحربية وان تعين لجنة من ستة اشخاص يتوجهون الى الاسكندرية لاستدعاء النظار الى العاصمة للاستعلام منهم عن حقيقة ما حصل . وبناء عَلَى ذلك القرار سار الوفد فمر بكفر الدوار وتداول مع عرابي ورؤساء الجند فاختير منه اثنان هما علي باشا مبارك واحمد بك السيوفي للتوجه الى الاسكندرية للغرض المتقدم ذكره . فوصلا اليها وقابلا الجناب الخديوي صباح الاثنين في ٢٤ يوليو وعرضا له الحالة فاصدر امراً عاليًا يقضي بعزل عرابي عن نظارة الجهادية واعلن ذلك في البلاد . ثم ارسل الى الباب العالي يخبره بعصيان عرابي وان الجند انحاز اليه وهو المسئول عنه

اما عرابي فلم ينفك عن اعداد المعدات والتحصين بمساعدة رفقائه لحاول سد ترعة

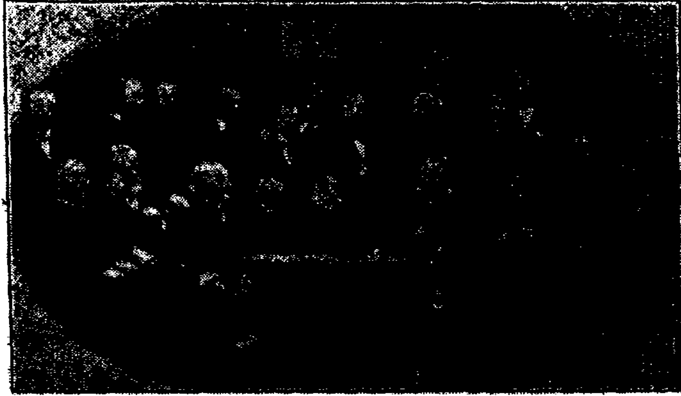
المحمودية بجهة كفر الدوار فلم يفلح وجعل يشيع في البلاد ان الخديوي مشترك مع الانكليز على اضاعة البلاد الى غير ذلك من اثارة خواطر الاهلين ولما وصل الامر بعزل عرابي الى العاصمة اجتمع المجلس المتقدم ذكره في نظارة الداخلية وقرروا بقاء عرابي للمدافعة عن الوطن وايقاف اوامر الخديوي لانه خرج عن قواعد الشرع الشريف

واستولى العرابيون على الخطوط الحديدية والبرقية فنصب الاميرال سيمور سلكاً تلغرافياً بين الاسكندرية وبورت سعيد واعلن الخديوي ثانية عصيان عرابي . غير ان هذه الاوامر والمنشورات كانت تذهب ادراج الرياح لان الاهلين اصبحوا منقادين للحزب الوطني انقياداً امست البلاد به آلة بيد زعيم الثورة يديرها كيف شاء

ثم نزل العرابيون نحو الاسكندرية وعسكروا في الرملة فخرجت اليهم فرقة من الانكليز في ٥ اوغسطس فلم تقو عليهم فتقهقرت الى الاسكندرية ثم عادت اليهم ثانية وقد تشددت فتقهقر العرابيون وتحصنوا بين ابي قير وخطوط الرملة ثم تقهقروا الى كفر الدوار فاعتبر الانكليز من ذلك الحين حالتهم في مصر حالة حربية يحتاجون فيها الى الامداد فاستمدوا انكلترا فامدتهم بقوات كانت تتوارد اليهم عن طريق السويس . اما عرابي فكان في كفر الدوار في اربعة الايات من المشاة والاي من الفرسان والاي من الطبجية وبطارية من مدافع الرش وكثير من العربان وقد قدرت الجنود الانكليزية التي سارت لمحاربة عرابي باربعة عشر الفاً من المشاة واربع فرق من الفرسان والف من الطبجية معهم ٣٦ مدفعاً ونحو ست فرق من المهندسين . ثم انضم الى هذه القوة بعد ذلك قوة هندية مؤلفة من تسعة الاف جندي ويقال بالاجمال ان جميع الحاميات الانكليزية التي كانت في مالطة وقبرص وجبل طارق انضمت الى حملة مصر

على ان هذه الاعدادات لم تكن لتثني العرابيين عن عزمهم فان عرابي كتب الى المديرين بتاريخ ١٢ اوغسطس ان يجمعوا جنداً يبلغ مجموعه ٢٥ الفاً . وطلب ان يكون فيهم الخفراء لانهم اقرب الناس الى الحركات العسكرية تلبية لما تدعوه اليه الحالة من السرعة في حشد الجيوش وفرض ايضاً على المديرين اموالاً يجمعونها من الاهالي امداداً للحرب فلا تسل عن الطرق التي كانوا يجمعون بها تلك النقود . واخذ في تقوية الاستحكامات وتشييد الطوابي فمدها بين ما فوق الرملة باربعة كيلو مترات الى كفر الدوار وانشأ في كفر الدوار سداً عرضه ٣٠ متراً وخندقاً عرضه اربعة امتار جعله فاصلاً بين السد وارض اكثر فيها من مواقع الاستحكام . وكان الخط الدفاعي الاول ممتداً مما بعد المحلة بمسافة الف متر على طول الخط الممتد من الرملة الى البيضة وجعل ما وراء هذا الخط من المرتفعات

والتلال مواقع محصنة الى كفرالدوار فكانت كلها نحو ٥٠٠ موقع . واتم مثل هذه الاعمال الدفاعية من كفر الدوار الى ابي حمص و يوجد بين ابي حمص ودمنهور تل يفضل سائر التلال مساحة وارتفاعاً فاختاره عرابي موقعاً يقيه من الانكليز اذا قضت عليه الحال بالتقهقر الى دمنهور وعزز دمنهور بالمدافع



ش ٨٤ : مؤتمر الاستانة سنة ١٨٨٢

كل ذلك والمخابرات جارية مع السلطان بشأن اشتراكه في المؤتمر للنظر في مصلحة القطر المصري وهو يابى الاشتراك حتى اوعز اليه البارون دي رينغ ان فرنسا تحب الاتفاق مع العرابيين فرضي ان تشترك فيه فانتدب للنيابة عنه سعيد باشا الصدر الاعظم وعاصم باشا ناظر الخارجية في ٢٠ يوليو . واعلن سعيد باشا المؤتمر في ٢٦ منه ان جلالة السلطان يعدّ حملة عثمانية الى مصر ولا حاجة الى مداخلة الدول الاوربية في هذه المسألة . واخذت الدولة في اعداد ٥٠٠٠ جندي لهذه الغاية . فقال اللورد دفرين وهو سفير انكلترا في الاستانة لا بد قبل كل شيء من اصدار منشور شاهاني يعلن عصيان عرابي . فوافقه واصدره فنشر في الجرائد فوجدوه لا يفي بالمرام . فترتب على ذلك تباعد بين الدولة العلية وانكلترا وزاد التباعد سعي السلطان في عرقلة مساعي الجند الانكليزي بمصر او لوتوفه في سبيل ما يحتاجون اليه من الدواب وغيرها لحمل اثقالهم مما يطول شرحه . فقطع اللورد دفرين العلائق السياسية مع الباب العالي . وانصرفت العناية عن ارسال جند عثماني او غيره

اما في مصر فقد تركما الجند الانكليزي في الاسكندرية وقد غادرها العرابيون

وتحصنوا في دمنهور وكفر الدوار وادرك عقلاء الوطنيين عاقبة تلك المقاومة فقام جماعة منهم يخوفونهم العواقب بلا فائدة والظاهر ان عرابي كان معولاً في مساعيه عَلَى مساعدة الباب العالي. ثم مالبث ان سمع بتصريح السلطان بعصيانه ثم جاءته صورة المنشور السلطاني بهذا الشأن وفحواه تعنيف عرابي عَلَى عصيانه وانه يجب عليه الرضوخ للجناب الخديوي

وفي اواسط اوغسطس وصل الجنرال السير وولسلي الى الاسكندرية واستلم قيادة الجيش . ثم اخذت تتوارد القوات الانكليزية فبلغت في اواخر الشهر المذكور نحو ٢٥ الفاً وكان قدوم هذا القائد العظيم داعياً لتيقن الناس بفوز الحملة الانكليزية نظرا لما اشتهر به من البسالة والدراية العسكرية . وبعد وصوله الى الاسكندرية نشر اعلاناً مآله انه لم يأت الى مصر الا لتأييد سلطة الخديوي وهو لا يحارب الا الذين يخالفون اوامر مليك البلاد وتنبأ انه سيدخل القاهرة في ١٥ سبتمبر من تلك السنة . ثم اخذت العساكر الانكليزية تستكشف مراكز العرابيين في كل يوم فكانوا اذا ظفروا بشرذمة من العرابيين ولقوا منها مقاومة قابلوها بقوة السلاح فتولي الادبار تاركة في ساحة القتال من جرح منها فينقلونه الى معسكره اما القتلى فكانوا يدفنونهم

وفي ٥ شوال سنة ١٢٩٩ هـ او ٢٠ اوغسطس ١٨٨٢ م حصلت بين الفريقين معركة في كفر الدوار استمرت ساعتين وعدد العرابيين ضعفا عدد الانكليز وانجلت عن انهزام قسم عظيم من العرابيين وانقلابهم الى تل الوادي واحتل الانكليز بعض مواقع العصاة بعد ان قتلوا منهم ١٦٨ واسروا ٦٢ . وجرت معركة اخرى في اليوم التالي لم يفز بها احد الطرفين . وفي اليوم الثالث ٧ شوال اقتتل الفريقان في كفر الدوار اقتتالاً تعزز فيه جانب الانكليز بنجدة جاءتهم على قطار مخصوص فتراجع العرابيون وتربصوا تحت امرة طلبة عصمت في مواقفهم يتوقعون فرصة . وكان العرابيون بعد كل واقعة يكتبون الى اخوانهم في العاصمة وغيرها انهم ظافرون . اما عرابي فذهب لتحصين التل الكبير في مديرية الشرقية

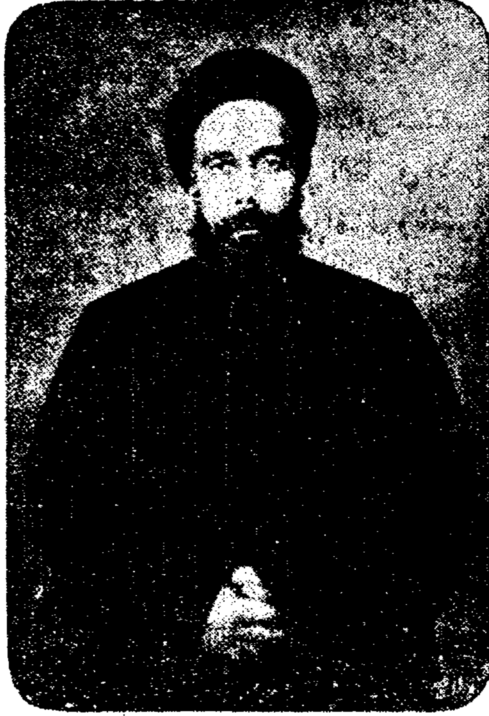
وبعث سير الاحوال وزارة راغب باشا على الاستعفاء فاستقدم الجناب الخديوي رياض باشا من اوربا وكان متغيباً فقدم في اواسط اوغسطس وبعد قدومه دعا الخديوي شريف باشا الى تشكيل وزارة جديدة فابى الدعوة وتعين رياض باشا ناظراً للداخلية وعمر باشا لطفي ناظراً للجهادية

وارسل الانكليز فرقاً من جيوشهم تسير الى مصر عن طريق الاسماعيلية فاشتبكوا في ٩ شوال سنة ١٢٩٩ هـ او ٢٣ اوغسطس سنة ١٨٨٢ م مع العرابيين بين

المسخوطـة والاسماعيلية وكان الفوز للانكليز . واستولى الانكليز ايضاً على المحسمة فاصبحوا على عشرة اميال من التل الكبير وفي ٢٨ اوغسطس حصلت واقعة القصاصين بين المحسمة والتل الكبير . وفي ٢٩ شوال او١٢ سبتمبر ورد لجناب الخديوي في الاسكندرية تلغراف من سلطان باشا ينبيء باستعداد الانكليز لمهاجمة التل الكبير حيث تحصن العصاة ثم ورد تلغراف آخر من الاسماعيلية يعلن هجوم الانكليز على التل من كل ناحية وصوب في الساعة الرابعة والدقيقة ٣٠ بعد منتصف الليل وان العرابيين لم يقفوا امام الانكليز الا ٢٠ دقيقة استولى الانكليز بانقضاضها على التل فغنموا ٤٠ مدفعاً وقتلوا الفي رجل واسروا الفين واستولوا على المؤن والذخائر ثم اخذوا يتعقبون الجند المنهزم

واقعة التل الكبير

وتفصيل ذلك ان عرابي كانت قد وصلت اليه نسخة من جريدة الجوائب وفيها منشور السلطان باعتباره عاصياً فاغتاظ وكاد يقع في اليأس لان حجته الكبرى كانت انه مدافع عن حقوق الدولة العلية في مصر فتشاور مع عبد الله نديم واقر على اخفاء ذلك عن الجند . فلما كانوا في التل الكبير وقد تحصنوا فيه بقوة ٣٠ الف مقاتل و٧٠ مدفعاً زحفت الجنود الانكليزية بقيادة الجنرال وولسلي بقوة ١٣ الفاً و٦٠ مدفعاً وقبل وصولهم الى معسكر العرابيين ارسلوا جواسيس من المصريين ومعهم نسخ من الجريدة المشار اليها ففرقوها في الضباط وكبار الجيش . فلما اطلع اولئك عليها خارت قواهم ويئسوا من الفوز لان معظمهم كان يقاتل لاجل السلطان فعلم عرابي بذلك فجمع اليه الضباط وشاورهم فاقروا على استمرار الدفاع محاباة ورياء . وفيه كتب علي بك يوسف امير الاي المقدمة الى عرابي انه قد تحقق ان العدو لا يخرج في هـذه الليلة فاصدر عرابي امره ان يرتاح الجيش . اما العساكر الانكليزية فسارت من اول الليل لا تفتر لها عزيمة وفي مقدمتها بعض الضباط المصريين الذين كانوا من حزب الجناب العالي وامامهم عربان المنادي يرشدونهم الى الطريق فبلغوا المقدمة في اخر الليل فاخلى لهم علي بك يوسف الطريق ومروا بين العساكر لا رادّ يردهم فاطلقوا النار على الاستحكامات واوقعوا بالجند الراقد فالقت الاجناد اسلحتها وفرت فاستيقظ عرابي من نومه على دوي المدافع وخرج من خيمته فارتاع لما علم ان العدو قد استولى على الاستحكامات وانهزمت الجنود المصرية فاخذ يناديهم فلم يلبه مجيب ثم راى خيمته اصيبت بقنبلة فطارت فعلم انه لا ينجيه من الموت الا الفرار . فركب جواداً كريماً



ش ٨٥ : عبد الله نديم خطيب العرابيين

وفرّ وتبعه عبد الله نديم فحاول بعض خيالة الانكليز ادراكهما فما استطاعوا وما زالا حتى وصلا محطة ابي حماد فنزلا في القطار وامرا السائق بالمسير فتعلل فهدداه فسار حتى وصل القاهرة

عرابي في القاهرة

فتوجه عرابي توًّا الى قصر النيل وعقد مجلساً من امراء العسكرية والملكية واخبرهم بما كان واستشارهم فاختلفت الآراء فنهض البرنس ابراهيم باشا وخطب في الناس محرضاً على الدفاع فوافقوه بحسب الظاهر . واستقر الرأي على انشاء خط دفاعي في ضواحي المحروسة . فسار عرابي في فرقة من المهندسين نحو العباسية يستشيرهم عن انسب المواقع لبناء ذلك الخط فقال له احد الضباط « انك بجهلك وسوء تدبيرك قد احرقت الاسكندرية وتريد الآن ان تحرق مصر فاذا لم يكن لك فيها مايهمك فاعلم ان لنا فيها نساء واطفالاً واملاكاً لانسلم بضياعها تنفيذاً لاغراضك الا تدري انك تعرض مصر

للخطر بانشاء الاستحكامات وتجعل منازلها هدفاً لكرات المدافع فنحن لانوافقك على ذلك واني اقول لك ذلك بالاصالة عن نفسي وبالنيابة عن جميع الضباط الحاضرين فلا ترجُ منا مساعده ويكفي ماقد جرى »

فاندهل عرابي وارتبك في امره لاسيا لما راى الباقين مستحسنين ماقاله رفيقهم فكرّ راجعاً على عقبيه كئيباً فاجتمع باصدقائه ودعاهم الى النظر في الامر فلم يجدوا افضل من رفع عريضة الى الجناب الخديوي يعتذرون بها عن افعالهم ويقدمون له الخضوع فحرروا عريضة وارسلوها مع وفد مؤلف من بطرس باشا غالي وعلي باشا الروبي ومحمد رؤوف باشا ثم اردفوها بعريضة اخرى ارسلوها مع عبدالله نديم في قطار مخصوص وكان ذلك في غرة ذي القعدة سنة ١٢٩٩ ه او ١٤ سبتمبر سنة ١٨٨٢ م فأبى الخديوي قبول العريضة وامر بالقبض على الروبي وسجنه . اما نديم فانه ركب القطار الذي قدم عليه وعاد من فوره بعد أن وصل كفر الدوار ثم اختفى بعد ذلك ولم يتيسر للحكومة القبض عليه الا بعد عشر سنوات قضاها مختفياً في الارياف

دخول الانكليز القاهرة

اما الجنود الانكليزية فانها بعد استيلائها على التل الكبير سارت فمرّت ببلبيس فالزقازيق واستولت عليهما ثم سارت حتى اتت العباسية خارج القاهرة في مساء الخميس ١٤ منه وعسكرت في سفح المقطم فخاف الناس ان يدخل الانكليز مصر محاربين ولكن الامر جاء بخلاف ماكانوا يتوهمون لان الجيوش الانكليزية دخلت العاصمة بحالة سلمية في يوم الجمعة ١٥ سبتمبر طبقاً لما تنبأ به الجنرال وولسلي والقت القبض على عرابي . وبعد وصول الجنرال وولسلي الى القاهرة انفذ السير الجنرال افلن وود الى كفر الزيات فوصلها في ١٦ منه فسلمت فأمر بنسف الطابية التي كان قد بناها العرابيون في قرية اصلان وسلمت باقي الحصون في بورت سعيد ورشيد واخيراً دمياط فانها لم تسلم الا في ٢١ سبتمبر

وبعد وصول الجنود الانكليزية الي القاهرة احتلوا قشلاقات العباسية والقلعة والمقطم وقصر النيل ونزل الجنرال السير وولسلي في سراي عابدين وكان من جملة قواد هذه الحملة الدوق دي كنوت ابن ملكة انكلترا . واودع عرابي ومحمود سامي في سجن العباسية والاسرى من الملكية في سجن الضبطية والجهادية في القلعة

ثم صدرت الاوامر الخديوية بتعيين حكام المديريات من اهل النزاهة والاخلاص وصدرت اوامر اخرى بتعيين لجنة مخصوصة في الاسكندرية لتحقيق مواد السرقة

والقتل والحرق التي وقعت فيها في حادثتي ١١ يونيو و١١ يوليو الى غاية ١٦ منه وتقديم التقارير بما تستطلعه . واوامر اخرى بتعيين مثل هذه اللجنة في طنطا لتحقيق مثل هذه الحوادث التي حدثت خارج الاسكندرية . وارسلت نظارة الداخلية منشورات الى المديرين يستقدمون من وقعت عليهم الشبهة بالاشتراك مع العرابيين . ولا تسل عن التهاني التلغرافية التي وردت للجناب الخديوي وللجنرال وولسلي بما آتاهما الله من النصر المبين

وفي ٢٣ سبتمبر الغيت جريدتا الزمان والسفير وفي ٢٥ منه اقبل الجناب الخديوي الى العاصمة ومعه شريف باشا وسائر النظار فتواردت الجماهير لملاقاة سموه في المحطة ثم ركب والى يساره ابن الملكة وامامه الجنرال ولسلي والمستر مالت الى سراي الاسماعيلية وفي اليوم التالي سار الى سراي الجزيرة للتشريفات الاعتيادية واستمرت الزينة في القاهرة ثلاث ليال متوالية

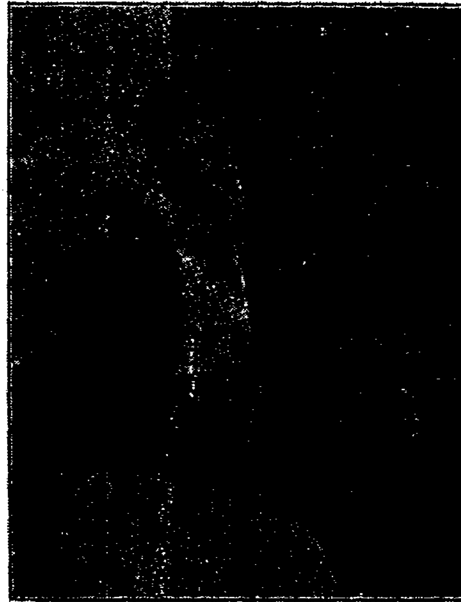
محاكمة العرابيين

وفي ١٥ ذي القعدة سنة ١٢٩٩ هـ او ٢٨ سبتمبر سنة ١٨٨٢ م امر سموه بتشكيل لجنة مخصوصة بالقاهرة تحت رئاسة اسماعيل باشا ايوب لتحقيق قضية من كان له يدٌ في الحوادث الاخيرة وان تقدم ما تقرره لنظارة الداخلية لتنفذه . واصدر امراً آخر بتشكيل محكمة شرعية في القاهرة تحت رئاسة محمد رؤوف باشا للحكم في الدعاوي التي تقدم من اللجنة المخصوصة وان تكون احكام هذه المحكمة قطعية لا تستأنف . واصدر امراً آخر بتشكيل لجنة عسكرية بالاسكندرية للحكم في الدعاوي التي تقدم لها من اللجنتين المخصوصتين اللتين تشكلتا في الاسكندرية وطنطا وان تكون احكامها قطعية تحت رئاسة عثمان نجيب باشا

فشرع كل من هذه اللجنات والمحاكم في اجراء ما عهد اليه . وفي ١٨ ذي القعدة سنة ١٢٩٩ هـ او ٢ اكتوبر سنة ١٨٨٢ م تعين الشيخ محمد العباسي لمشيخة الجامع الازهر بدلاً من الشيخ الامبابي . وكافأ الجناب الخديوي سلطان باشا بعشرة آلاف جنيه على صداقته التي ابداها اثناء الثورة . ثم اصدر الجناب العالي امراً بالغاء الجيش المصري لصرف العساكر التي جاهرت بالعصيان والاكتفاء بمحاكمة الضباط وكبار القادة كعرابي وعبد العال وغيرهما . ثم امر بتنظيم جند جديد . وفي ١١ ذي القعدة او ٢٤ اكتوبر صدر العفو عن الملازمين واليوزباشية الذين كانوا في جيش عرابي مع بعض الاستثناء

والعم الجناب الخديوي بالنيشان المجيدي والعثماني من رتب مختلفة على ٥٢ ضابطاً من ضباط الجيش الانكليزي . واخذت الحكومة المصرية بمشاركة قناصل الدول تسعى في تسكين البال وتوطيد الراحة والقبض على من اشترك بتلك الثورة ومكافأة الذين ساعدوا في اطفائها وبرهنوا على اخلاصهم لمليك البلاد . وعينت في الاسكندرية لجنة للنظر في تعويض الخسائر التي تكبدها اهاليها بسبب الحرق والنهب

واخذت الحكومة في محاكمة زعماء الثورة العرابية على ايدي اللجان المتقدم ذكرها وفرغت من ذلك في ٣ دسمبر سنة ١٨٨٢ ثم التأمت اللجنة مراراً للنظر في تثبيت تلك الاحكام ثم عرضت على الجناب العالي فتكرم بالعفو عمن حكم عليهم بالقتل فأصبحت الاحكام بعد ذلك العفو تقضي بتجريدهم من الرتب والالقاب والنياشين ونفيهم وهاك ماصدر بشأن ذلك

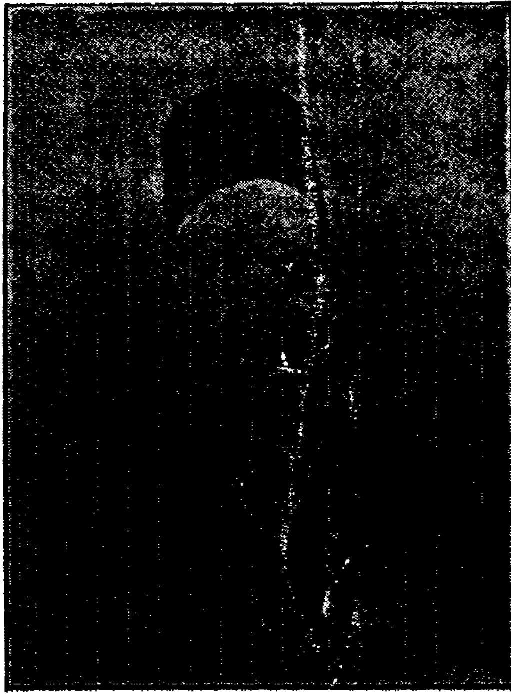


ش ٨٦ : احمد عرابي في منفاه

(١) الحكم الصادر على كل من احمد عرابي وطلبه عصمت وعبد العال حلمي ومحمود سامي وعلي فهمي ومحمود فهمي ويعقوب سامي المقتضي جزاؤهم بالقصاص وقع بدله بالنفي الى الابد من الاقطار المصرية وملحقاتها

(٢) ان هذا العفو يبطل ويقع اجراء الحكم على المذكورين بالقتل اذا رجعوا الى الاقطار المصرية او ملحقاتها

ثم ارتأى مجلس النظار ان تضبط املاكهم المنقولة وغير المنقولة وان يعين لهم في مقابل ذلك راتب سنوي كاف لمعيشتهم فصدر بذلك امر عال في ٢٠ شوال او ١٤ دسمبر من تلك السنة فعينت لجنة لاجراء ذلك . ثم صدرت الاحكام المختلفة على من بقي من اتباع عرابي كل بحسب استحقاقه . وكان الامر بالنفي على ماتقدم يقضي بتسفيرهم حالاً وانما رات الحضرة الخديوية امهالهم الى ١٦ صفر او ٢٧ دسمبر وعند ذلك ركبوا في قطار مخصوص مع من ارادوا استصحابه من ذويهم الى السويس ومنها الى جزيرة سيلان منفاهم



ش ٨٧ : احمد عرابي عند رجوعه

وما زالوا هناك الى سنة ١٩٠١ حتى اذن الجناب الخديوي لهم بالعودة الى مصر يقضون فيها بقية حياتهم بدلاً من منفاهم في سيلان . وقد توسط لهم بذلك الدوك اوف كورنول ويورك ولي عهد انكلترا يومئذ بعد زيارته سيلان ومشاهدة المنفيين في

منفاهم مع مايغشاهم من الذل والضعف . وقدم احمد عرابي الى هذا القطر بعد غيابه عنه نحو ١٩ عاماً

ثم اصدر الجناب الخديوي امراً عالياً بتاريخ ٢٢ صفر سنة ١٣٠٠ هـ الموافق ٣ يناير سنة ١٨٨٣ م بالعفو عن اهالي القطر المصري الذين اشتركوا في الثورة العرابية ماعدا الذين سبق صدور الحكم عليهم لغاية تاريخه

ولاحظ رياض باشا ان نيات الانكليز منصرفة الى التساهل مع عرابي ورفقائه في اثناء محاكمتهم وهو يريد التشديد فأبت نفسه الكظم على ما في ضميره فقدم استعفاءه من نظارة الداخلية وخاضت الجرائد بهذا الشأن ولاسيما جريدة الديبا وابانت ما لهذا الوزير الخطير من المآثر الغراء في التنظيمات الادارية وحرية التصرف بالاحكام . وقد اجمعت تلك الجرائد على استحسان فعله مؤثراً الاستعفاء على قبول خدمة لايستطيع فيها التصرف بالحرية التي تقتضيها مصالح الامة التي هو اكثر الناس غيرة عليها . فلما قبل استعفاؤه عين بدلاً منه اسماعيل باشا ايوب ثم توفي هذا بعد يسير فعين بدلاً منه خيري باشا

الثورة المهدوية او الحوادث السودانية

مع ما تقدمها وما انتهت اليه

ولم تكد مصر تفرغ من الحوادث العرابية او الثورة العسكرية المصرية حتى ظهرت الثورة السودانية بظهور محمد احمد المهدي السوداني وكان لها تأثير شديد في تاريخ مصر الحديث فرأينا ان نأتي على تاريخها تباعاً من ظهور المهدي الى انقضاء تلك الحركة واسترجاع السودان وان تجاوزنا مدة الخديوي السابق

ونمهد الكلام بفذلكة عن تاريخ السودان المصري منذ فتحه محمد علي الى الحوادث المهدوية

تاريخ السودان من فتح محمد علي الى ظهور المهدي

قد تقدم ما كان من فتح السودان في زمن محمد علي باشا على يد ابنه اسماعيل باشا سنة ١٨٢٠ وما بعدها حتى غدر به الملك النمر صاحب شندي وقتله وثأر له الدفتردار . وأول وال عينته الحكومة المصرية على السودان بعد الفتح الاميرالاي عثمان بك سنة ١٨٢٥ ولم يبق فيها الا سنة فخلفه محو بك وغيره فنيره كما ترى في هذا الجدول :

١ — ولاة السودان في زمن محمد علي

عثمان بك	من سنة	١٨٢٥ ـ ١٨٢٦
محو بك	«	١٨٢٦ ـ ١٨٢٦
خورشيد باشا	«	١٨٢٦ ـ ١٨٣٩
احمدباشا ابو ودان	«	١٨٣٩ ـ ١٨٤٤
احمد باشا المنكلي	«	١٨٤٤ ـ ١٨٤٥
خالد باشا	«	١٨٤٥ ـ ١٨٥٠

٢ — في زمن عباس الاول

عبد اللطيف باشا	من سنة	١٨٥٠ـ١٨٥١
رستم باشا	«	١٨٥١ـ١٨٥٢
اسماعيل باشا	«	١٨٥٢ـ١٨٥٣
سليم باشا	«	١٨٥٣ـ١٨٥٤
علي باشا سري	«	١٨٥٤ـ١٨٥٥

٣ — في زمن سعيد باشا

علي باشا شركس	سنة	١٨٥٥ـ١٨٥٧
اراكيل باشا	«	١٨٥٧ـ١٨٥٩
حسن باشا سلامه	«	١٨٥٩ـ١٨٦٢
محمد باشا راسخ	«	١٨٦٢ـ١٨٦٣

٤ — في زمن اسماعيل باشا

موسى باشا حمدي	سنة	١٨٦٣ ـ ١٨٦٥
جعفر باشا سامي	«	١٨٦٥ ـ ١٨٦٥
« « مظهر	«	١٨٦٦ ـ ١٨٧١
ممتاز باشا	«	١٨٧١ ـ ١٨٧٣
اسماعيل باشا ايوب	«	١٨٧٣ ـ ١٨٧٧
غوردون باشا	«	١٨٧٧ ـ ١٨٧٩

٥ — في زمن توفيق باشا

رؤوف باشا	سنة	١٨٧٩ـ١٨٨٢
عبدالقادر باشا حلمي	«	١٨٨٢ـ١٨٨٣
علاء الدين باشا	«	١٨٨٣ـ
غوردون باشا	«	١٨٨٤ـ١٨٨٥

ولكل من هؤلاء الولاة تاريخ لا محل لذكره هنا وانما نشير الى اهم الحوادث بوجه الاختصار — ففي ايام احمد باشا ابو ودان ذهب محمد علي باشا بنفسه لزيارة السودان سنة ١٨٣٩ فتفقد مستعمرته الجديدة وعاد . و بعد سنتين حمل احمد باشا المذكور لفتح السودان الشرقي ففتح التاكا وما زال الولاة يوسعون سيادة مصر عَلَى السودان الى اواخر ايام الخديوي اسماعيل . وفي اوائل ايامه بولاية موسى باشا عَلَى السودان سنة ١٨٦٣ قدم السير صموئيل باكر الانكليزي لاكتشاف منابع النيل ومعه امرأته فقاسى عذاباً شديداً

وفي ولاية جعفر باشا ثار الجهادية السود من كسلة لتأخر مرتباتهم وسوء معاملة قوادهم فتعبت الحكومة في اخماد الثورة وقد سفك بسببها دماء غزيرة

ومن اهم حوادث السودان في تلك الفترة سعي الحكومة في ابطال تجارة الرقيق ولم يصدر الامر رسميا بابطالها الا في زمن اسماعيل باشا بولاية موسى باشا فاصدر اوامره المشددة اليه سنة ١٨٦٣ فتعقب تجار الرقيق وهم يومئذ رجال السطوة والثروة واصحاب الكلمة العليا هناك . فقبض على سبعين مركباً مشحونة بالارقاء بين كاكا وفشودة وأتى بهم

الى الخرطوم ولم يطلق التجار حتى اخذ عليهم المواثيق ان لايعودوا الى هذه التجارة.
ثم انتدب اسماعيل باشا السير صموئيل باكر سنة ١٨٦٩ لفتح خط الاستواء على ان يكون والياً عليه وعقد له على ١٧٠٠ رجل فسافر الى الخرطوم عن طريق سواكن ومنها خرج الى خط الاستواء والحكومة تعضده فاعلن ضم بعض بلاد خط الاستواء رسمياً الى الدولة المصرية اهمها بلاد يونيورو وخلع ملكها كباريقة واقام مقامه رجلاً يوالي الحكومة وعقد شروطاً ودية مع ملكها وعاد الى مصر سنة ١٨٧٣ واستعفى من منصبه على خط الاستواء فعين اسماعيل الكولونل غوردون (غوردون باشا) مكانه فسافر الى ذلك المكان سنة ١٨٧٤ وبذل جهده في اصلاح تلك البلاد والسودان يومئذ بولاية اسماعيل باشا ايوب. ثم استقال غوردون سنة ١٨٧٦ وعاد الى بلاده



ش٨٨: كباريقة ملك يونيورو في خط الاستواء ذاهب الى معسكر صموئيل باكر

وظهر في اثناء ذلك الزبير باشا وانشأ دولة لنفسه في بحر الغزال ودارفور وقد دون اعماله بنفسه ونشرت سيرته في تاريخ السودان لشقير بك. فلما تم له الفتح وعلم اسماعيل بامره خافه وتمنى لو يقضي عليه وجرت حوادث اقتضت مجيء الزبير الى مصر لعرض اختلاف جرى بينه و بين حكمدار السودان وهو حسن الظن في الدولة المصرية وكان يرجو ان يتفق مع الخديوي على تنظيم البلاد التي فتحها فاتى مصر ومعه الهدايا من العساكر واحمال الريش والسن فاحسن الخديوي وفادته لكنه امره ان يبقى بمصر

وما زال فيها وانضمت بلاده الى مملكة السودان المصرية

وفي سنة ١٨٧٧ عادت حكمدارية السودان الى غوردون باشا واخذ في تنظيم الحكومة والادارة وفي تلك السنة عقد اسماعيل باشا معاهدة ابطال تجارة الرقيق مع انكلترا وعهد الى غوردون بتنفيذ ذلك ونشره وهي مهمة شاقة كان لها تأثير شديد في الثورة السودانية التي بدأت في ايام خلفه رؤوف باشا كما سترى

اسباب الثورة السودانية

لاتثور امة على حاكمها الا لامر هام تلجأ اليه عند فراغ الحيلة من نيل حقوقها . واما الاسباب التي اعدت السودان للثورة فكثيرة اهمها :

١ — انتظار المسلمين للمهدي

المشهور بين المسلمين من اوائل الاسلام انه سيظهر رجل منهم يؤيد الدين وينشر لواء العدل ويستولي على الممالك الاسلامية يسمى المهدي ويسندون ذلك الى احاديث نبوية بحث كثيرون من علماء الاسلام في صحتها وفسادها وفي مقدمتهم العلامة ابن خلدون وتتمة للموضوع نذكر الذين ادعوا المهدوية من اول الاسلام الى الآن :

١ : محمد بن عبد الله الملقب بالنفس الزكية ظهر في المدينة سنة ١٤٥ هـ فدعا الناس اليه وكان له اخ اسمه ابراهيم نصره وقام بدعوته ففتح البصرة والاهواز وفارس ومكة والمدينة وبعث عماله الى اليمن وغيرها وكان ذلك في زمن الامام مالك فافتى له وشد ازره فكثرت دعاته حتى كاد يذهب بالدولة العباسية لولم يستدرك المنصور امره ويتغلب عليه ويقتله

٢ : عبيد الله المهدي بن محمد الحبيب بن جعفر الصادق مؤسس الدولة الفاطمية في المغرب التي فتحت الديار المصرية في اواسط القرن الرابع للهجرة وبنت مدينة القاهرة على يد القائد جوهر . وقد اتسعت دولة الفاطميين وامتدت سلطتهم وطالت ايام حكمهم

٣ : محمد بن عبدالله بن تومرت المعروف بالمهدي الهرعي ويكنى ابا عبد الله اصله من جبل السوس في اقصى بلاد الغرب رحل الى المشرق حتى انتهى الى العراق واجتمع بابي حامد الغزالي وغيره فأخذ العلم عنهم واشتهر بالنسك والتقوى وساح في الحجاز وجاء مصر ثم سار الى الغرب واقام بمراكش وغيرها وتأسست على يده دولة عظيمة في اوائل القرن السادس للهجرة هي دولة عبد المؤمن

٤ : العباس الفاطمي ظهر بالمغرب في آخر المائة السابعة للهجرة وادعى المهدوية

فتكاتف الناس حوله وعظمت شوكته حتى دخل مدينة فاس عنوة واحرق سوقها وبعث عماله الى الانحاء لكنه قتل غيلة فانقضى اجله وسقطت دعوته

٥ : السيد احمد ظهر في اوائل القرن التاسع عشر الميلاد في جهات الهند وحارب الاسياخ على حدود بنجاب الشمالية الغربية سنة ١٨٢٦ولم تقم له قائمة

٦ : محمد المهدي السنوسي بن الشيخ محمد السنوسي الذي ظهر في المغرب في اواسط القرن الماضي واصله من جبل سوس بجزائر الغرب نبغ (والده) سنة ١٨٣٧ ولاقى من بعض اولي الامر الاسلامي ترحاباً ولشر دعوته وايدها وكان مقامه الرئيسي في جغبوب على مقربة من واحة سيوا نحو الغرب ولكنه انشأ زوايا عديدة في اماكن اخرى من بلاد الغرب يبلغ عددها ثلاثماية كلها تعلم طريقته وتعاليمه

٧ : محمد احمد المهدي السوداني وقد نحا في دعواه منحى الشيعة فقال انه الامام الثاني عشر الذي ظهر مرة قبل هذه وفي تسمية اتباعه بالدراويش تأييد لرغبته في قول الشيعة لان لفظ درويش فارسية

٢ — عنف الحكومة المصرية في معاملة السودانيين

مابرحت الحكومة المصرية منذ دخول السودان في حوزتها وهي تنظر الى السودانيين انهم احط من سائر رعاياها وتستعمل العنف في معاملتهم يكفي شاهداً على ذلك ما اتاه اسماعيل باشا بن محمد علي من التنكيل في الملك النمر صاحب شندي كما تقدم في فتح السودان فقد ظل كثيرون من اعقاب اولئك المظلومين يتحينون فرصة ينتقمون بها من الحكومة وكانوا اول القائمين بنصرة محمد احمد

٣ — جور الحكام في تحصيل الضرائب

كان تحصيل الضرائب في السودان منوطاً بجماعة الباشبوزوق فكانوا يسومون السودانيين في تحصيلها انواع الخسف والذل وقد يقتضونها مراراً. وروى المستر فرنك باور قنصل انكلترا بالخرطوم اذ ذاك ان الضرائب كانت تضرب على اهل السودان بلا شفقة . فيضربون ضريبة على كل فرد منهم وعلى الاولاد والنساء يقتضونها ثلاث مرات في السنة مرة لصاحب القضاء واخرى للجابي واخرى للحكمدار. وكان الزارع اذا زرع حنطة لايؤذن له بزراعتها حتى يدفع ثلاثة جنيهات كل سنة ويدفع سبعة اخرى في مقابل التصريح له بريها من ماء النيل . فاذا تردد في الدفع سيق الى السجن واذا صح زرعه دفع ذلك المال مرتين مرة للحكومة ومرة لجيب الباشا . واذا كان من اصحاب السفن التجارية التي تجري في النيل فرض عليه اربعة جنيهات عن كل سفينة فاذا لم يرفع العلم

المصري على سفينته غرم باربعة اخرى . ومن تأخر عن تأدية تلك الضرائب اقتضتها الحكومة منه بالكرباج وقد يعاقب ذلك المسكين باحراق منزله او سلب امتعته . والخلاصة ان السوداني لم يكن يباشر امراً الا ادى عليه ضريبة

٤ — منع تجارة الرقيق

من المقرر المشهور ان التجارة السودانية محصورة في اصناف معدودة اهمها تجارة الرقيق . والنخاسون اول تجار الرقيق اشبه بالملوك والقواد منهم بالتجار في حاشية كل منهم مئات او الوف من الرجال بين خدمة وعمال وعبيد يقومون لقيامه ويقعدون لقعوده . فالنخاسون عمد السودان وعيون اعيانه وقادة اعماله تهابهم الحكام وتخشى سطوتهم الحكومة . وما زالت تجارتهم رابحة واعمالهم سائرة حتى قام اهل العالم المتمدن لابطال تجارة العبيد فجاء السودان السير صموئيل باكر للقيام بتلك المهمة ثم انيطت بغوردون باشا فأخذ يطوف الاصقاع والمدن في انحاء السودان يعلم الناس الحرية الشخصية ويأمر التجار بالكف عن الاسترقاق جملة . وهي صدمة قوية ارتجت لها اركان السودان لان منع النخاسة لم يقتصر على تقليل ارباح النخاسين ولكنه عرضهم لاستبداد الجباة لانهم كانوا يؤدون الجانب الاكبر من الضرائب عبيداً او ماشية فأصبحوا بعد ابطال النخاسة لا يقوون على تأديتها . فاستبد بهم الجباة وساموهم الذل والعسف حتى خيف عصيانهم ولكن غوردون باشا لحسن سياسته ولين جانبه لم يحدث في ايامه اضطراب . فلما غادر السودان تولاه رجل لم يكن طالماً بعحل الضعف ليتلافى خطره . فكأن غوردون اوقد ناراً في بعض جهات البيت فجاء غيره لايدري كيف يطفىء تلك النار فتعاظمت والتهمت المدينة برمتها . فلما قام المهدي يدعو الناس الى رفع المظالم آنس من اولئك التجار اصغاء وكانوا له عوناً في اضرام تلك الثوره

٥ — انتظار السودانيين ان يكون المهدي منهم

من المتداول بين شيوخ اهل السودان وفقهائهم ان المهدي سيظهر من بينهم استناداً الى اقوال يروونها عن بعض الائمة منها قول الامام القرطبي في طبقاته الكبرى ونصه « وزير المهدي صاحب الخرطوم » وقول السيوطي وابن حجر « ان من علامات ظهور المهدي خروج السودان » ولذلك رأيتهم رحبوا بالشيخ السنوسي لما قام لكن النجاح قدر لمحمد احمد لاسباب اهمها :

١ استخفاف الحكومة به عند ظهوره وترددها في الضربة القاضية على تلك الثورة كما سيتضح لك من سيرة حياته

٢ قيام العرابيين بالثورة بمصر فانه هاج خواطر الاهلين وجرأهم على النهوض مع اشتغال الحكومة عنهم

٣ ضعف الحاميات المصرية في السودان فان مجموع الجند الذي كان في اصقاع السودان الواسعة من حلفا الى خط الاستواء لايتجاوز ٤٠٠٠٠ رجل موزعة في ١٥ مديرية وليس عندها معاقل حصينة

نشأة محمد احمد المهدي

اصله ومولده



ش ٨٩ : محمد أحمد المهدي

ولد في جزيرة ضرار من اعمال دنقلة سنة ١٨٤٣ وهو من ذرية رجل اسمه حاج

شريف واسم ابيه عبد الله وامه زينب وكان ابوه نجاراً يصنع المراكب والسواقي وضاق به الرزق في دنقلة فرحل باهله الى شندي ثم الخرطوم وابنه محمد احمد طفل ثم مات الوالد. وكان محمد احمد ميالاً الى التدين من صغره فأخذ في درس القرآن وتفهم قواعد الاسلام وانتهى في دروسه الى محمد الخير في الغبش تجاه بربر واشتهر بين اقرانه بالمبالغة في الزهد حتى قيل انه كان يمتنع عن اكل زاد استاذه لانه يجرى عليه من الحكومة وهو يعتقد انه مال الظلم

وبعد ان اتم دروسه على محمد الخير مالت نفسه الى التصوف فذهب الى الشيخ محمد شريف حفيد الشيخ الطيب صاحب الطريقة السمانية وهو اذ ذاك مقيم عند قبر جده في ام مرّحي وسأله الدخول في مصاف تلامذته وذلك في سنة ١٢٧٧ هـ ١٨٦١م فاجابه محمد شريف الى طلبه فاقام عنده منقطعاً الى الصلاة والعبادة وما لبث ان اظهر من التقشف والزهد ما ميزه عن سائر التلامذة حتى انه كان يشتغل في منزل سيده بما هو منوط بالعبيد والجواري من احتطاب واستقاء وطحن وطبخ وهو غير مكلف بشيء من ذلك وكان كلما وقف للصلاة يبكي حتى يبال الارض بدموعه واذا جلس امام شيخه نكس راسه ولم يرفع طرفه اليه الا اذا كلمه فيرفع طرفه بادب واحترام واقام على ذلك سبع سنين. فلما رآه شيخه على هذه الحالة وانه سالك طريق المريدين وناهج منهج الصالحين مال اليه واحبه وجعله شيخاً واعطاه راية واذن له في الذهاب حيث شاء لاعطاء العهود وتسليك الطريقة. فذهب الى الخرطوم وتزوج بابنة عم له واقام مع اخوته يبث طريقته بغيرة وجد

وفي سنة ١٨٧١ رحل مع اخوته الى جزيرة ابا وراء الخرطوم وبنى فيها جامعاً وخلوة للتدريس فاجتمع عليه سكان تلك الجزيرة وهم دغيم وكنانة وغيرهم من عرب البادية واخذوا العهد عنه ودخل بعضهم في تلمذته وفي جملتهم علي ود حلو الذي جعله بعد ادعائه المهدوية خليفته الثاني. ولم يمض الا القليل حتى اشتهر صيته وكثر اتباعه وكان استاذه محمد شريف قد انتقل الى القادرية قرب جبل اولى على النيل الابيض فكان يزوره في كل موسم اوعيد لتقديم واجب الطاعة. وقبل الدخول عليه يجعل الرماد على راسه والشعبة في رقبته وفروة الضأن على صلبه تشبهاً بالعبد في ذله فكان محمد شريف يحل الشعبة من رقبته والفروة عن صلبه ويلبسه افخر الثياب فيقيم عنده اياما ثم يعود الى مركزه في جزيرة ابا. وفي بعض زياراته حدثه عن خيرات البلاد التي رحل اليها وسهولة العيش فيها وزين له الاقامة في العراديب بين

ابا والكوة فانتقل اليها سنة ١٢٨٨ هـ ١٨٧٢ م وكانت العراديب على خصبها خالية من السكان والزراعة فعمرها واقام فيها على صفاء تام مع محمد احمد برهة ثم لم يلبث ان تكدر هذا الصفاء فصار جفاءً ثم نفوراً ثم عداء

واختلفوا في سبب العداء والغالب انه حسد من محمد الشريف لتلميذه لاقبال عربان العراديب اليه فاخذ يخفض من سطوته ويناوئه . وتعاظم النفور بينهما وظهر. فاخذ محمد احمد في انتقاد اعمال استاذه ومن جملتها ان الشريف كان يأذن للنساء في حضور مجلسه وتقبيل يده ولم يكن يرى مانعاً من الرقص والغناء فاخذ محمد احمد يعلم تلامذته ان ذلك يخالف الشرع فبعث محمد الشريف اليه ووبخه ومحا اسمه من الطريقة وهي اهانة عظيمة في نظرهم

وكان محمد احمد يحب الطريقة وله خلفاء وتلامذة فيها فلم يكن تركها سهلاً عليه فعمد الى الملاينة فذهب الى استاذه والتمس العفو وقد ذرى الرماد على راسه وجعل في عنقه الشعبة وهي عود ذو شعبتين توضع في العنق علامة التذلل والاستعطاف وانتهره محمد شريف وطرده واهانه . فلم يعد محمد يستطيع الكظم فالتجأ الى شيخ اخر من الطريقة المذكورة اسمه الشيخ القرشي وكان بينه وبين الشيخ الشريف منافسة نخاف هذا عاقبة الامر فاستقدم محمد احمد واستدناه فابى وكان لذلك الاباء رنة في آذان اهل السودان . وعظم محمد احمد في عيني الناس وانتقل الى جزيرة ابا . وبعد قليل مات الشيخ القرشي فبنى محمد على قبره قبة . وبالغوا في اكرامه نكاية بالشيخ الشريف وازداد الرجل شهرة بالتقوى والكرامة في معظم انحاء السودان وهو الى ذلك الحين لم يدع المهدوية

وكان استبداد جباة الاموال ضارباً اطنابه وحال السودان كما تقدم من القلاقل والاضطراب فكان محمد احمد اذا ذكر الضيق الذي اصابهم من ظلم الجباة نسب ذلك الى خطية بني الانسان وان العالم قد فسد والناس قد ضلوا عن سواء السبيل فنالهم ما نالهم من غضب الله وان الله سيبعث رجلاً يصلح ما فسد ويملأ الارض قسطاً وعدلاً هو المهدي المنتظر . وقد كان ذلك حديث الناس في سائر انحاء السودان فحيثما اجتمعوا تحدثوا في ما يقاسونه من الضنك وما ينتظرونه من الفرج على يد ذلك المنتظر حتى اصبح لفظ المهدي يدوي في سائر مجتمعاتهم ومنازلهم في الاكواخ والاسواق والمساجد والزوايا على الطرق والعطمور وحيثما وجد اثنان او ثلاثة فلا حديث لهم الا الفرج المنتظر على يد المهدي

قيامه بالدعوة

وكان محمد احمد على بينة من هذا الشعور العام وحدثته نفسه ان يكون هو الرجل المنتظر لكنه لم يصرح به لاحد . وهو في ذلك جاءه عبد الله التعايشي من البقارة وكان يشتغل بالتنجيم وكتابة الاحجبة وله مطامع كبيرة فاستحث محمد احمد على القيام بالدعوة وا كد له انه هو المهدي المنتظر من علامات زعم ان اباه وصفها له وانه وجدها كلها في محمد احمد . فجاء ذلك وفقاً لما في خاطر محمد احمد فاعتقد انه المهدي وقرب التعايشي وتعاونا على بناء قبة له واستقدم تلامذته واقام في جزيرة ابا واخذ يفتش الكتب ويبحث عما يؤيد دعواه ويتبين صفات المهدي وعلاماته واخذ يظهر دعواه لتلامذته سرًّا من أواسط سنة ١٨٨١



ش ٩٠ : الدراويش

ثم خرج سائحاً الى بلاد الغرب مع رجاله وعليهم لباس الدراويش وهي الجبة المرقعة والسبحة والعكاز وجعل يبث دعوته بين رؤساء القبائل على ان يكتموا ذلك

حتى تأتي الساعة. وعاد الى ابا واخذ في مكاتبة الناس في هذا الشأن . وبلغ ذلك الحكومة فلم تعبأ به حتى اذا جاءتها الوشاية بشأنه من محمد الشريف واطلعها على بعض تلك المنشورات بدات تهتم بامره . وكان حكمدار الخرطوم يومئذ رؤوف باشا فكاتبه بما نسب اليه فاجابه بكتاب يؤيد به دعوته . فجمع علماء الخرطوم واطلعهم على الكتاب فاتهموه بالجذب ولكنهم اجازوا القبض عليه فانتدب لهذا الامر محمد بك ابو السعود احد معاوني الحكومة فسار في قلة من الرجال فوصل جزيرة ابا في ٧ اغسطس سنة ١٨٨١ فوجد محمد احمد في الغار جالساً وحوله جمهور من تلامذته فسلم عليه وقال « ان حكمدار السودان بلغه امر الدعوى التي قمت بها وارسلني لآتي بك اليه بمدينة الخرطوم وهو ولي الامر الذي تجب طاعته » فاجابه محمد احمد « اما ما طلبته من الوصول معك الى الخرطوم فهذا مما لا سبيل اليه وانا ولي الامر الذي تجب طاعته على جميع الامة المحمدية » ثم شرع في تقديم الادلة على انه المهدي المنتظر فاغلظ له ابو السعود في الجواب وقال « ارجع عن هذه الدعوى فانك لا تطيق حرب الحكومة ولا ترى معك من يقاتلها » فاجابه محمد احمد وهو يبتسم « انا اقاتلكم بهؤلاء » واشار الى اصحابه ثم التفت اليهم وقال « اانتم راضون بالموت في سبيل الله » فقالوا نعم. فالتفت الى ابي السعود وقال له « قد سمعت ما اجابوا به فارجع الى وليّ امرك في الخرطوم واخبره بما رايت وسمعت » فلما راى ابو السعود صدق عزم محمد احمد واعوانه على نصرة دعواهم وان النصح لا ينجع فيهم عاد مسرعاً الى الخرطوم وقص على رؤوف باشا ما رآه وسمعه

مناهضة الحكومة له

فجهز رؤوف باشا حملة من بلوكين بعث بها الى جزيرة ابا وكان محمد احمد قد واعد رجاله عَلَى الصبر فاطاعوا فلما اتت جنود الخرطوم هجموا عليهم وقتلوا معظمهم وعاد الباقون ليخبروا بما كان . وهي اول وقعة جرت بين الدراويش والحكومة وعرفت بواقعة ابا واشتهر فوز المهدي فيها فعدّه اتباعه من كراماته لانه غلب الحكومة الظالمة . ولكن محمد احمد لم يكن يجهل مركزه بالنسبة للحكومة فخاف اهتمامها بامره وهو هناك لا يقوى عَلَى مناهضتها وما كل مرة تسلم الجرة فعزم عَلَي الهجرة وجعل وجهته جبل قدير . فقال لاصحابه ان النبي جاءه في المنام وامره بتلك الهجرة فاطاعوه وساروا وهم يدعون الناس الى طاعة المهدي واعترضه ملكٌ عَلَى جبل في الطريق يقال له جبل الجرادة فخالف محمد احمد فحار به فكانت الغلبة للدراويش فاشتد ازرهم وثبتوا في دعوتهم حتى اتوا جبل قدير في ٣١ اكتوبر سنة ١٨٨١ فلاقاه ملكه واسمه ناصر وانزله عَلَي الرحب والسعة فامر محمد ببناء مسجد للصلاة

وكان عَلَى فاشودة في ذلك الحين مدير من قبل الحكومة المصرية اسمه راشد بك علم بقدوم المهدي الى جبل قدير فاستأذن رؤوف باشا في تاديبه وطال انتظاره الاذن وبلغه ان المهدي ورجاله في ضيق من المرض فزحف وهو يستتر يريد مباغتتهم ولكن امراة مؤمنة اتتهم بالخبر فاستعدوا للقاء وعادت العائدة عَلَى راشد بك ورجاله وغنم الدراويش ما كان معهم من الزاد والذخيرة في ٩ دسمبر منها

وكان لهذا الخبر وقع شديد عَلَى رؤوف باشا في الخرطوم وخاف عَلَى فاشودة واخذ في التجنيد بقيادة جيكلر باشا وبعث يستنجد مصر فاستضعفته فعزلته وولت مكانه عبد القادر باشا حلمي والح جيكلر بوجوب المبادرة فاذن له . فحشد جنداً مختلطاً من العساكر والباشبوزوق وعقد لواءه ليوسف باشا الشلالي في اواسط مايو سنة ١٨٨٢ وبعث الشلالي الى المهدي ينصحه في الطاعة فاجابه جواباً يدل عَلَى استخفافه به ويدعوه الى طاعته . والتقى الجيشان في جبل الجرادة . وفي ٢٩ مايو جرت واقعة قتل فيها الشلالي وجماعة من كبار قواده وغنم الدراويش ما كان معهم من المؤونة والذخيرة والعدة فازدادوا تصديقاً لدعوتهم وشاع ذلك النصر في انحاء السودان فاعظمه السودانيون وارتفع قدر المهدي عندهم وتوافد اليه الناس يبايعونه حتى بلغ عددهم ٢٠٠٠٠ في قدير وحدها — وهذه صورة المبايعة :

« بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله الوالي الكريم والصلاة عَلَى سيدنا محمد وآله مع التسليم . أما بعد فقد بايعنا الله ورسوله وبايعناك عَلَى توحيد الله والا نشرك به احداً ولا نسرق ولا نزني ولا نأتي ببهتان ولا نعصيك في معروف بايعناك عَلَى زهد الدنيا وتركها والرضى بما عند الله رغبة بما عند الله والدار الآخرة وعَلَى ان لا نفر من الجهاد »

فلم تمض سنة ١٨٨٢ حتى اصبحت السودان شعلة ثورويه تنادي باسم محمد احمد . ولبى دعوته جماعة من كبار الرجال منهم عامر المكاشف في سنار والشريف احمد طاها من مشائخ السبانية شرقي النيل الازرق ومحمد زين وود الصليحاني وفضل الله رد كريف والحاج احمد عبد الغفار وغيرهم . وبعضهم تفانى في نصرته وقتل في سبيل دعوته . فاهتمت الحكومة بشان المهدي واخذ عبد القادر باشا حلمي في تحصين الخرطوم وجند ثلاث اورط من السود واخذ في تمرينهم واحتفر خندقاً وراء سور الخرطوم واقام عليه الابراج نصب فيها المدافع فاطمأن الموالون للحكومة عَلَى انفسهم ثم حمل عبد القادر باشا بنفسه لاخماد تلك الثورة فاتى سنار لمحاربة احمد المكاشف وكان قد استفحل امره هناك فحاربه في ٢٤ فبراير سنة ١٨٨٣ ففر المكاشف وغلب رجاله ودخل عبد القادر سنار وطمأن الناس ثم حارب احمد عبد الغفار قرب الرصيرض فشتت شمله وامر العلماء ان يكتبوا الرسائل وينشروها في تكذيب دعوة محمد احمد

سقوط كردوفان

وكانت كردوفان في أثناء ذلك قد اخذت بالثورة واتحد دعاة المهدي على طرد خدمة الحكومة المصرية وكان مديرها سعيد باشا يقيم في عاصمتها الابيض فبذل جهده في اخماد الثورة فلم يفلح والدراويش يزدادون قوة وعدداً حتى هددوا بارا و كشجيل والبركة والحكومة في الخرطوم تمد سعيد باشا بالجند ثم راى المهدي ان يقدم لنصرة دعاته بنفسه وفي اوائل سبتمبر سنة ١٨٨٢ اصبح على مقربة من الابيض فكتب الى محمد سعيد باشا يدعوه الى التسليم فجمع الباشا رجال مجلسه وشاورهم في الامر فأقروا على شنق الرسل وان لايبعثوا جواباً ولكن اهل الابيض كانوا على دعوة المهدي سرًّا وهم الذين دعوه الى فتحها وفي مقدمتهم الياس باشا اعظم تجار كردوفان وحاكمها السابق فانضموا الى العصاة في تلك الليلة هم وبعض الحامية وبقي محمد سعيد باشا في نحو عشرة آلاف من الجند الباشيبوزوق واما جيش المتمهدي فكان جراراً فيه ٦٠٠٠ تحمل البنادق التي غنموها من الجنود المصرية بالمواقع الماضية واما سائر قواته فتبلغ ستين الفاً . ويقول سلاتين باشا في كتابه (النار والسيف في السودان) ان حملة البنادق لم تأت معه الى الابيض بل بقيت في قدير

وفي ٨ سبتمبر هجم العصاة على الابيض فارتدوا خاسرين وقد غنم منهم الجند المصري ٦٣ راية من جملتها راية المتمهدي نفسه واسمها « راية عزرائيل » وقتلوا منهم نحو عشرة آلاف وفي جملتهم محمد اخو المهدي ويوسف اخو عبدالله التعايشي ولم يقتل من الحامية الا ٣٠٠ فعظم ذلك على المتمهدي وادرك خطر الهجوم على الاسوار الحصينة وعوّل من ذلك الحين ان لايهاجم سوراً وانما يفتتح البلاد بالتضييق عليها بالحصار حتى يضنيها الجوع وتعمد الى التسليم . ثم جاء العصاة مدد فاشتد ازرهم فشددوا الحصار على الابيض وعلى بارا وكان في بارا نور عنقره احد امراء العرب وكان موالياً للحكومة ولكنه راى مقامه حرجاً وتحقق الفشل فكتب الى المهدي سرًّا انه اذا ارسل اليه اميراً من اكابر امرائه سلم له فارسل اليه ولد النجومي فخرج نور عنقره مع محمد الخير وكان يلقى سر سواري اي قائد الخيالة وسلما لولد النجومي فقبلهما وانقضت سنة ١٨٨٢ والحصار شديد على الابيض و بارا والعصاة يتكاثرون في سنار وغيرها

وكان المهدي قد ارسل فرقاً من جنده لنشر دعوته في دارفور وبحر الغزال فانتشرت الثورة هناك ولكنهم لم يفتحوا سنة ١٨٨٢ الا بعضاً من بلادها وفي اوائل سنة ١٨٨٣ فتحوا بارا في ٥ يناير واضطرت الابيض الى التسليم من الجوع في ١٩ منه فدخلت

كردوفان في حوزة الدراويش وغنموا منها شيئاً كثيراً من المؤن والذخائر والاسلحة والاموال وصار المتمهدي من ذلك الحين حاكماً على كردوفان وقبض على سعيد باشا ورجاله وبعد اسرهم مدة اكتشف على تقرير بعثوا به سراً الى الخرطوم وامر بقتلهم ثم سلمت سائر بلاد كردوفان

حكومة المهدي

فلما فتح الابيض ودانت له كردوفان اخذ في تنظيم حكومته على غير نظام الحكومة المصرية . واهم اقسام الادارة على ابسط وجوهها ثلاثة الجند والمال والقضاء فجعل على الجند خليفته عبدالله التعايشي قائداً عاماً لجماعة الدراويش يدبر حركاتهم . وانشأ ادارة سماها بيت المال وفيه تحفظ الاموال كالعشور والغنائم والفطرة والزكاة والغرامات التي يضربونها على شارب المسكر او السارق وعهد بادارة بيت المال الى صديق له اسمه احمد ولد سليمان. اما القضاء فاقام عليه رجلاً اسمه احمد ولد علي كان قاضياً في دارفور وسماه قاضي الاسلام . وكان محمد احمد منذ اوائل ظهوره قد عين خلفاءه وجعلهم اربعة مثل الخلفاء الراشدين يتولون الامر بعده الواحد بعد الآخر اولهم عبدالله التعايشي والثاني علي ولد الحلو والثالث محمد الشريف والرابع محمد السنوسي ولكن هذا رفض الخلافة

وعلم هذا المتمهدي ان الحكومة المصرية ستحمل عليه بكل قوتها لاستخراج كردوفان من يديه فأخذ يحث الناس على الجهاد ويحقر الدنيا في اعينهم ويحبب الآخرة اليهم وهم يفدون اليه زرافات وقبائل يتبركون به وقد آمنوا بدعوته بعد ان ذاقوا الراحة والاستقلال على يده فتخلصوا من الضرائب ونجوا من الباشبزوق واستبدادهم فاعتقدوا انه المهدي المنتظر الذي جاء « ليملأ الارض عدلاً وقسطاً كما ملئت جوراً وظلماً » ومما ساعدهم على هذا الاعتقاد تظاهر هذا الرجل بالتقوى والزهد فلم يكن يلبس غير السراويل والجبة فوقها منطقة من خوص يقضي نهاره في الصلاة ونشر المنشورات يحث بها الناس على ترك الدنيا والتمسك بالآخرة ويضع لهم القوانين والاحكام ومن امثلة ذلك منشور نشره من الابيض سنة ١٣٠١ وقعت لنا نسخة منه ننشرها مثالاً لتعاليمه وهاك نصها بالحرف الواحد على علاتها اللغوية :

« بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله الوالي الكريم والصلاة على سيدنا محمد وآله مع التسليم . وبعد فمن عبد ربه محمد المهدي بن السيد عبد الله اعلاماً منه الى كافة المشائخ في الدين والامراء والنواب والمقاديم اتباع المذكورين . ياعباد الله اسمعوا ما اقول لكم وكونوا على بصيرة واحمدوا ربكم واشكروه على النعمة التي خصكم بها وهي ظهورنا

فهو شرف لكم على سائر الامم ولكن المطلوب منكم يا احبابنا المهاجرة في سبيل الله والمجاهدة في سبيل الله والزهد في الدنيا وكل ما فيها فالى البوار ولو كانت لها بال لكان وبكم يحليها وانظروا في اهلها الذين كانت في كل ما يطلبوه وصارت لهم بعد ما كانت عسلاً حنظلاً وسما وصاروا في غاية العذاب والهلاك وشدة التعب والمشقة ولو كان فيها خير لما صاروا هكذا وبعد ذلك فلهم العذاب الشديد فان عجبكم هذا فافعلوا والا فاتقوا الله وكونوا مع الصادقين وجاهدوا في سبيل الله فلهزة سيف مسلم في سبيل الله افضل من عبادة سبعين سنة . ووقفة في الجهاد علَى قدر فواق ناقة يعني حلبة ناقة افضل من عبادة سبعين سنة . وعلَى النساء الجهاد في سبيل الله فمن صارت قاعدة وانقطع منها ارب الرجال فلتجاهد بيديها ورجليها والشبابة فليجاهدن نفوسهن ويسكن بيوتهن ولا يتبرجن تبرج الجاهلية الاولى ولا يخرجن الا لحاجة سرعية ولا يتكلمن كلاماً جهراً ولا يسمعن الرجال اصواتهن الا من وراء الحجاب ويقمن الصلاة ويطعن ازواجهن ويسترن بثيابهن فمن قعدت كاشفة فاتحة راسها ولو لحظة عين فتؤدب وتضرب سبعة وعشرين سوطاً ومن تكلمت بفاحشة فعليها ثمانون سوطاً ومن قال لاخيه يا كلب او يا خنزير او يا يهودي او يا ... او يا ... فيضرب ثمانين سوطاً ويحبس سبعة ايام ومن قال يا فاجر او يا سارق او يا زاني او يا خائن او يا ملعون فعليه ثمانون سوطاً او يا كافر او يا نصراني او يا لوطي فعلية ثمانون سوطاً ويحبس سبعة ايام ومن تكلم مع اجنبية وليس يعاقد عليها ولا لامر شرعي يجوز ذلك الكلام فيضرب سبعة وعشرين سوطاً ومن حلف بطلاق او حرام يؤدب سبعة وعشرين سوطاً ومن شرب الدخان يؤدب ثمانين ويحرق التنباك ان كان عنده وكذلك من خزنها في فمه ومن عملها بانفه ومن ابقاها فيه يؤدب مثل ذلك ومن باعها واشتراها ولم يستعملها يؤدب سبعة وعشرين سوطاً ومن شرب الخمرة ولو مصة ابرة فيؤدب ثمانين سوطاً ويحبس سبعة ايام وجاره ان لم يقدر عليه يكلم امير البلد وان لم يكلمه فيضرب ثمانين سوطاً ويحبس سبعة ايام ومن ساعد شارب الخمر بشربة ماء او اناء فيؤدب كذلك ويحبس ويجاهد نفسه في طاعة الله حقيقة اشد من الجهاد بالارماح لان النفس اشد من الكافر مقاتلة فالكافر تقاتله وتقتله وتكون لك الراحة منه وهي عدوة في صورة حبيب فقتلها صعب ومسلكها تعب . ومن ترك الصلاة عمداً فهو عاصي الله ورسوله قيل كافر وقيل يقتل وجاره ان لم يقدر عليه يكلم امير البلد وان لم يكلمه فيضرب ثمانين سوطاً ويحبس سبعة ايام وقيل اموالهم غنيمة . وبنت خمس سنين ان لم يسترها اهلها فيضربون من غير حبس ومن علم بأمة معها زوج بغير عقد وصبر يوماً

قيل يقتل وقيل يحبس وماله غيمة واعلموا ايها الاحباب ان خلافتكم وامارتكم ونيابتكم عنا في الاحكام والقضايا لاجل ان تشفقوا عَلَي الخلق وتزهدوهم في الدنيا ليتركوها وترغبوهم في الآخرة ليرغبوها و يطلبوها وتعلموهم عداوة نفوسهم ليحذروا منها وتنصفوا من انفسكم اذا ادعوا عليكم فيها فما اشكل عليكم فأمروهم فيه بالصبر لغاية طلب الامراء وجمعهم عندنا ويصير تخبيره بحسب الحكم فيه من الله ورسوله واعلموا يقيناً ان الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون وكونوا عباد الله مع الذين يستمعون القول فيتبعون احسنه واعلموا ايها الاحباب ان القضايا التي كانت من اثني عشر رجب الماضي عام ١٣٠٠ بقعة ماسة قد صار رفعها مطلقاً ما عدا الامانة والدين ومال اليتيم واما الثي بعد الاثني عشر رجب الماضي وقبل الفتوح تسمع فيه الدعاوي . واما قتل النفس ففيه تفصيل في كونه مخير ولي المقتول في اخذ الدية او القصاص واما بعد الفتوح بالنسبة الى العهد فيتعين فيه القصاص لا غير فاعملوا بذلك طبق المنشور وكذلك مال الخلع اخذه عموماً من الازواج بعد الدخول بهن والاستمتاع بهن والاستيلاء عليهن لا يصح اخذه منهن فاحكموا فيه بالحكم الذي فصله الله تعالي في القرآن العظيم واعلموا يا احبابي ولا تخالفوا وامتثلوا الامر وكونوا سامعين طائعين لامري ولا تغيروا ولا تكفروا النعمة التي من الله عليكم بها فقيدوها بالشكر . وتزوج الغنية بعشرة ريال مجيدي او انقص والعزبة بخمسة ريال مجيدي او انقص ومن خالف هذا فعليه الادب بالضرب والحبس في السجن حتي يتوب او يموت في سجنه ومقطوع من اهل زمرتنا ونحن بريئون منه وهو بريء منا والسلام » (الختم)

وكان مع ذلك لا يغفل طرفة عين عن بث العيون والارصاد لاستطلاع حركات الحكومة ومعرفة اغراضها فكان يعرف كل ذلك في حينه معرفة تامة فلا تحدث حادثة او تنوي الحكومة نية او تخطو الجنود المصرية خطوة الا و يعلم بها هو . وارسل في اثناء ذلك قواده تبث دعوته في انحاء السودان فبعث عثمان دقنة الى السودان الشرقي يتولى قيادة العصاة هناك وارفقه بالمنشورات الى قبائل السودان الشرقي لتكون عضداً له وكان عثمان دقنه هذا من تجار الرقيق في سواكن وكان ناقماً عَلَي الحكومة

حملة هيكس باشا

وكانت الحكومة المصرية في اثناء ذلك اخمدت الثورة العرابية (في ١٥ سبتمبر ١٨٨٢) واحتل الانكليز مصر واصبحوا اصحاب الرأي النافذ وقد اقروا عَلَي الغاء جيش عرابي وانشاء جيش جديد وكان بعضهم قد وشى بعبد القادر باشا فاستدعته الحكومة الى مصر وارسلت علاء الدين باشا حاكماً عَلَي السودان في ٢٠ فبراير سنة ١٨٨٣ وحصرت سلطة في الادارة

الملكية وعهدت بقيادة الجند الى سليمان باشا نيازي وجعلت هيكس باشا الانكليزي رئيساً لاركان حربه



ش ٩١ : هيكس باشا

واعدوا حملة لمحاربة المهدي كلها من جيش عرابي والحكومة تسيء الظن به وقد ارسلته اما ليهلك او ينتصر فيعوض على الحكومة ما افسده ولكن تلك الحملة كانت مشؤومة وآلت الى استفحال امر المهدي ودراويشه لانها هلكت عن آخرها على شكل لم يسمع بمثله ولم تطلع الحكومة على سبب ذلك الا بعد حين واليك هو :

جاء هيكس باشا في بادىء الرأي الى الخرطوم والحكومة لم تصمم على فتح الابيض فأقام هناك مدة فبلغه ان بضعة آلاف من العصاة البقارة بقيادة الامير احمد المكاشف وكيل المهدي هناك فخرج اليهم هيكس وحاربهم عند مرابية بالقرب من جزيرة ابا فقتل المكاشف وعدد من قواده ورجاله وفر الباقون وكان لتلك الواقعة تأثير حسن في ارجاع ثقة اهل سنار والخرطوم الى الحكومة وقوة جنودها

فصممت الحكومة عَلَى ارسال حملة تفتح الابيض فكتب هيكس باشا الى الحكومة بالقاهره انه لا يتحمل تبعة هذه الحملة الا اذا كانت القيادة له وحده فسلمت له بذلك ولكنها ارسلت معه علاء الدين باشا حكمدار الخرطوم فطلب هيكس مدداً من الرجال والمال . وسار علاء الدين باشا الى شرقي النيل الازرق فاستحضر اربعة آلاف جمل . وفي اواخر ارغسطس تمت معدات الحملة فاجتمعت في ام درمان . وفي ٨ سبتمبر استعرض هيكس باشا جنوده وفي ٩ منه خرجت الحملة من ام درمان قاصدة الدويم وبينهما مئة وعشرة اميال . وكانت تلك الحملة مؤلفة من اربع ارط من الجنود المصرية معظمهم من الذين حاربوا في سبيل الثورة العرابية وخمس ارط سودانية وارطة من الطبجية والخيالة وكانت الجنود المصرية تحت قيادة سليم بك عوني والسيد بك عبد القادر وابراهيم باشا حيدر ورجب بك صديق . والباشبوزوق بقيادة خير الدين بك وعبد العزيز بك ووالي بك وملحم بك ويحيى بك . والطوبجية والسواري بقيادة عباس بك وهبي وبلغ عدد جنود الحملة احد عشر الفاً منهم سبعة الاف من المشاة المصريين والباقون من الباشبوزوق والخيالة وتوابع الحملة من الجمالة وغيرهم وفيها ٥٠٠٠ جمل و٥٠٠ فارس واربعة مدافع كروب وعشرة مدافع جبلية وستة من نوع النوردنفلت وكان فيها من الضباط الافرنج الكولونيل فركوهار رئيس اركان حرب والبكباشية سكندروف وورتر وماسي وايفانس وغيرهم ومكاتبو التمس والدالي نيوز والغرافيك

وفي ٢٠ سبتمبر وصلت الحملة الدويم وهناك اجتمعت بعلاء الدين باشا . اما هيكس فكان لا يزال في الخرطوم وقد ارسل تلغرافاً الى القاهرة انبأ الحكومة بخروج الحملة من الخرطوم وبين الصعوبة التي ينتظر ملاقاتها في طريقه نظراً لحرارة الاقليم وقلة المياه. وكان في عزمه ان يجعل مسير الحملة من الدويم الى الابيض عن طريق بارة وطول هذه الطريق ١٢٦ ميلاً يقيم في اثنائها محطات فيها قوات عسكرية لحفظ خط الرجوع (خط الاتصال) الى الدويم فيفتح اولاً بارة ويقيم بها مدة ثم يخرج عَلَى الابيض

فلما جاء الدويم وانضم الى الحملة تفاوض هو وعلاء الدين باشا في الامر فقال علاء الدين انه ارسل اناساً جسوا الارض فقالوا ان طريق بارة قليلة المياه وان احسن طريق للابيض بمثل هذا الجند الكبير طريق خور ابو حبل والرهد الى الجنوب فان الماء كثير فيها . نعم ان طولها ٢٥٠ ميلاً ولكن مئة منها سهلة يسير بها الجند بكل راحة والماء كثير الا ان المسافة بين الدويم ونورابي وطولها ٩٠ ميلاً قليلة المياه فاقنعه علاء الدين باشا ان الماء في تلك المسافة يسهل الحصول عليه وبناء عَلَى ذلك قررا ان تسير الحملة عن طريق خور

ابو حبل فوصلوا في ٢٤ سبتمبر الى شات واستولوا عَلَى ابارها وانشأوا نقطة عسكرية . و بدأ الجند منذ خروجهم من الدويم يقدرون العواقب الوخيمة و ينتظرون البلاء العظيم . و كان سيرهم عَلَى شكل مربع يتأهب للقاء العدو في مقدمته الدليلان فالطلائع فالضباط العظام واركان الحرب ثم المربع وهو موءلف من المشاة المصريين وفي ساقته الخيالة والجمال والاحمال والاثقال وفي وسط المربع الطوبجية وقد شبه سلاتين باشا ذلك المربع بغابة من الروءوس والاعناق اذا اطلق العدو عليها رصاصة يستحيل ان تخطئها كلها

وزد عَلَى ذلك ان الجمال لم تكن تستطيع المرعى بالنظر الى انحصارها في المربع فجاعت واكلت قش ارحالها وخارت قواها حتى مات كثير منها . وفي ٣٠ سبتمبر وصلت الحملة الى قرية تبعد ٣٠ ميلاً عن الدويم اسمها زريقة

كل ذلك والحرارة تشتد واللغط يتعاظم بين الجند وكلهم خائف سوء العاقبة ثم حدث نفور بين هيكس وعلاء الدين وسببه اختلافهما في الراي بشان خطة المسير . فراى علاء الدين ان النقط العسكرية في خط الاتصال لا حاجة اليها لانها تقلل عدد الجند فخالفه هيكس في ذلك لان قطع ذلك الخط يقطع كل امل برجوع احد من رجال الحملة حياً اذا قدر انكسارها في ساحة الحرب عَلَى انهم لم ينشئوا نقطة عسكرية بعد شات

اما محمد احمد فحالما علم بسير حملة هيكس جمع رجاله ودعاهم الى الجهاد في سبيل الله وخرج بنفسه وعسكر بقرب شجرة كبيرة بضواحي الابيض ينتظر وصول الحملة فاقتدى به خلفاوءه وامراوءه فخرج كل منهم برجاله وعسكروا هناك وبنوا الاكواخ والكتول (نوع من العشش)

اما الحملة فما زالت سائرة تسحف سحفاً كأنها مثقلة بالقدر المحتوم حتى وصلت الرهد في ٢٠ اكتوبر فاقامت هناك ٦ ايام شاهدت في اثنائها طلائع الدراويش وشرذمات منهم يهاجمونها . وفي ٢٦ اكتوبر سارت ولم تكد تترك معسكرها حتى احتلته العصاة فعلم علاء الدين اذ ذاك خطأه في اهمال خط الاتصال وقد اصبحوا محاطين بالعدو من كل الجهات . وكان في عزمهم المسير الى الابيض عن طريق البركة ولكن الجواسيس اخبروا هيكس ان العصاة نزلوا البركة ومعهم خلفاء المهدي وامراؤهم بعدتهم ورجالهم فتشاور علاء الدين وهيكس في هل يرجعون الى الرهد او يسيرون الى كشجيل ومنها الى مليبس فالابيض . لان خور ابو حبل يتشعب عند الرهد الى شعبتين تسير احداهما الى البركة والاخرى الى كشجيل . فاقر الرأي على المسير الى كشجيل فساروا في ٣ نوفمبر عشرة اميال بين الغابات والاحراج

ش٩٢ : خريطة واقعة هيكس باشا

وقد اخطأوا الطريق ثم وقفوا وانشأوا زريبة باتوا فيها الى الصباح فاستأنفوا المسير حتى صاروا على مسافة ميلين من شيكان بين كشجيل والبركة وقد اجهدهم العطش فهجمت عليهم شرذمة من العصاة فتبادلوا اطلاق الرصاص وقبضوا على بعض منهم فعلموا إن الدراويش هناك بكثرة عظيمة فجمع هيكس كبار رجاله وعقدوا مجلساً تشاوروا فيه فلم يقروا على امر . وكثر اللغط بين الجند وتساط الرعب على قلوبهم وايقنوا بالهلاك وفي الصباح التالي عزم هيكس على المسير تحت رحمة الله فجعل جيشه ثلاثة مربعات وساروا في طريق وعر كثير الاشجار والصخور فحصل بينه وبين الدراويش واقعة قتل فيها كثير من رجاله . ثم سار ايضاً فلم يمش ميلاً حتى هاجموه ثانية في شيكان . وقد رأينا في منشور ارسله المهدي الى عثمان دقنة يخبره بتلك الواقعة ويسمي مكان وقوعها علوبة وكانت تلك الهجمة القاضية لم تبق على تلك الحملة ولم تدرلان الدراويش هاجموها من كل جانب حتى صار الجنود المصريون يطلقون الرصاص بعضهم على بعض وهم لا يعلمون فقتل هيكس وكل قواده وجنده . ولم ينجُ منهم الا نحو ثمانمائة رجل اكثرهم من الضعفاء الذين اختبأوا بين الشجر او تحت جثث القتلى وفي جملتهم رجل اسمه

محمد نور البارودي كان في خدمة هيكس وهو الذي روى اكثر ما تقدم من مهلك هذه الحملة

فرجع المهدي وخلفاؤه وقواده الى البركة وقد سكروا من خمرة النصر وتركوا بعض الامراء يجمعون الاسلاب والغنائم الى بيت المال . وبعد ١٥ يوماً عاد المهدي الى الابيض بالمدافع والذخيرة والادوات التي اكتسبوها من حملة هكس . وكان دخوله الابيض باحتفال شائق . ولا ريب ان تغلبه في موقعة شيكان جعل حكومة السودان تحت اخمصه لان كثيراً من القبائل كانوا يترددون في امره وينتظرون حربه مع هيكس باشا فلما علموا بما كان انضموا اليه وصاروا من اعوانه



ش ٩٣ : سلاتين باشا

وكان سلاتين بك (سلاتين باشا الآن) الى ذلك الحين مديراً على دارفور وقد قاسى مشقات جسيمة في مناوأة العصاة وتمردهم . وكان يرجو الفرج على يد حملة هيكس . فلما علم بفشلها لم يرَ بدًّا من التسليم فبعث الى المهدي بذلك وان ينفذ اليه بعض اقاربه ليسلم البلاد له فبعث اليه الامير محمد خالد ويكنى زقل اميراً على دارفور

واوصاه بسلاتين خيراً . فوصل الدراويش دارا ونهبوها وارسلوا بعضاً من حسانها هدية للمهدي . وجاء سلاتين مخفوراً الى الابيض وبايع المهدي واظهر الاسلام والايمان بالدعوة وسمي عبد القادر

واقام سلاتين من ذلك الحين ملازماً لعبد الله التعايشي يقف عند بابه في جملة الملازمين

السودان الشرقي

وفيما كان هيكس يتجشم الاخطار في قطع الصحاري والقفار ينتظر المقدور كان عثمان دقنة ينشر دعوة محمد احمد في السودان الشرقي وقد اجتمع حوله احزاب كبيرة وقد حدثنا صديق رافق الحوادث في السودان الشرقي وعرف خفاياها قال : « ان توفيق بك محافظ سواكن اذ ذاك تصرف مع العربان الذين يتولون خفارة الطريق بين سواكن وكسلا تصرفاً اوجب نفورهم وذلك انه ولى عليهم شيخاً اسمه محمد الامين ليكون مسئولاً عنهم لدى الحكومة على جاري العادة وكانوا يكرهون هذا الرجل . فالتمسوا من المحافظ ان يبدله بسواه فابى الا توليته فغضبوا جميعاً ونفروا من الحكومة وهم كثار فاتفق مجيء عثمان دقنة بمنشور المهدي فانضموا اليه جميعاً فاشتد ازره بهم ثم انضم اليه غيرهم . فسار لمناوأة الحكومة في سواكن وضواحيها فهاجموا سنكات في ٥ اغسطس سنة ١٨٨٣ ولكنهم عادوا خاسرين فساروا الى طوكر وحاصروها فارسلت الحكومة محمود طاهر باشا قائد حامية السودان الشرقي لانقاذها فباغته الدراويش وكسروه شر كسرة . وحاولت الحكومة مقاومة الدراويش بكل وسيلة وحصلت وقائع كثيرة في تمانيب وترنكتات وغيرهما فلم تغن منهم بطائل . وما زالت سنكات وطوكر محاصرتين تطلبان المدد فاعدت الحكومة في اوائل سنة ١٨٨٤ حملة تحت قيادة باكر باشا سارت الى سواكن لفتح الطريق بين سواكن وبربر وطرد العصاة من البلاد الواقعة بينهما فسارت ومعها نجدة من مصوع وكسلا فلاقاها العصاة في التب بغتة في ٢ فبراير فحاربوها ففشلت وعادت بخفي حنين . كل ذلك وحامية سنكات لا تزال محاصرة وفيها توفيق بك محافظ سواكن المتقدم ذكره وكان رجلاً باسلا شهماً اظهر في حصاره شجاعة لم تعهد الا بالقليل من الناس وكان قد جاء سنكات عرضاً وانحصر فيها . وسنكات قرية صغيرة لا تزيد حاميتها على ستين رجلاً وقد ضيق عثمان دقنة السبل عليها وقطع المؤن عنها حتى كاد اهلها يهلكون جوعاً فكتب عثمان الى توفيق ان يسلم فلا يقتله فابى الا البقاء على ولاء الحكومة . فلما جاء باكر باشا

وعاد خائباً بعث عثمان اليه ان يسلم فيسلم وان الامل بانقاذه قد انقطع فلم يجبه الا بالثبات . ولما راى توفيق بك اخيراً ان المؤن فقدت والجند جاعت واهل البلد مات جمع اليه رجاله واهل سنكات وشاورهم في الامر وحثهم على الثبات على ولاء الحكومة . فقالوا نحن على ما تريد فقال « قد نفد زادنا والطريق مقطوع بيننا وبين المدد فلنخرج مستقتلين فاما ان نسير الى سواكن واما ان يلاقينا العصاة فندافع عن انفسنا حتى الموت »

فخرجوا في اوائل فبراير سنة ١٨٨٤ بعد ان هدموا الطوابي واخربوا المنازل وما ساروا ميلين حتى لاقاهم عثمان دقنة برجاله وهاجموهم فقاتل توفيق بك حتى قتل شهيد الامانة والبسالة ولم ينج من رجاله واهل القرية الا نفر قايلون

اخلاء السودان

وكان ذلك من جملة العوامل لتأييد دعوى المتمهدي ونشر سطوته وخوف الحكومة عاقبة امره . وبدلاً من مواصلة العمل في كبح جماح العصاة واسترجاع ماملكوه من بلادها اقرت بمشورة الحكومة الانكليزية على اخلاء ما بقي من السودان في قبضتهم وسحب جنودها منها والتخلي عن السودان المصري كله للدراويش واصدرت بذلك امراً بتاريخ ٨ يناير سنة ١٨٨٤ وانفذت الحكومة الانكليزية الجنرال غوردون باشا الى السودان للنظر في افضل الوسائل لسحب حامية السودان وسكانها من الافرنج وغيرهم وتثبيت حكومة منتظمة على سواحل البحر الاحمر وغير ذلك . فسار غوردون باشا ومعه الكولونيل ستيوارت كاتم اسراره فوصلا القاهرة فانبأه السير افلن بارنغ (اليوم اللورد كرومر) ان الحكومة الانكليزية قد فوضت اليه اخلاء السودان واعادة حكم الامراء الذين كانوا يحكمونها لما فتحها محمد علي باشا ويقال لهم الملوك او ان يولي غيرهم كما يتراءى له

غوردون باشا

فسار غوردون عن طريق كرسكو وابي حمد فوصل بربر في ٩ فبراير سنة ١٨٨٤ وفي ١٨ منه وصل الخرطوم فتلقاه اهلها بالاكرام . وكان السودانيون يحبونه ويكرمونه للين جانبه وكرم اخلاقه . ومن الغريب ان يسير غوردون بنفسه بلا جيش الى بلاد اشتعلت بنار الثورة ولكنه كان كثير الاتكال على الله وقد صرح بذلك عند وصوله الخرطوم فقال « لم آت لانقاذ السودان بجيش ولكنني اتكلت على الله فلا احارب الا بسلاح العدل »



ش ٩٤ : غوردون باشا

سافر غوردون من القاهرة في ٢٦ يناير سنة ١٨٨٤ ومعه مساعده الكولونيل ستيوارت قاصدين الخرطوم في عطمور ابي حمد فبربر فالخرطوم مصحوبين باوامر عالية خلاصتها في ما يأتي :

١ ان يسحب الموظفين المصريين وعائلاتهم واموالهم من سائر انحاء السودان الى مصر

٢ ان يقيم مقامهم موظفين من اهل السودان يدبر شؤونهم بحكمته كانه يؤسس دولة جديدة

٣ ان يجمع كلمة القبائل المجاورة للخرطوم ويحركها على قبائل المهندوة في السودان الشرقي فيفتح الطريقين بين بربر وسواكن وبربر وكسلا

٤ ان ينقذ سنار وسائر البلاد الواقعة بين النيلين الازرق والابيض (الجزيرة)

٥ ان يرسل ٥ بواخر لنقل عائلات الجنود المصرية في مديريات خط الاستواء

وبحر الغزال

٦ ان يدبر طريقة لمن بقي في دارفور ان ينسحبوا الى مصر عن طريق دنقلا

هذه كانت مقاصده عند خروجه من مصر وخلاصتها خلاء السودان فلما وصل بربر اراد ان يتلوها على اهلها فمنعه حسين باشا خليفة مدير بربر لان التصريح بذلك يعجل على بقية نفوذ الحكومة . فأطاعه ولكنه تلاها في المتمة فكانت داعياً الى سرعة سقوط بربر بعد ذلك . واما غوردون فوصل الخرطوم في ١٨ فبراير كما تقدم . وفي يوم وصوله جمع اعيان الخرطوم كافة في بناية المديرية وافهمهم مهمته ثم خرج الى سراي الحكمدارية فلاقاه مئات من الناس وتراموا على يديه ورجليه يقبلونها وهم يقولون « يا سلطاننا يا والدنا يا مخلص كردوفان » ثم اخذ غوردون وستيوارت في تدبير شؤون الاحكام فانشأوا اقلاماً مختلفة في الحكمدارية للنظر في قضايا الناس وانصافهم على اختلاف طبقاتهم . فأخرج دفاتر الحكومة القديمة وفيها قيود لذممات مطلوبة من اصحاب الاطيان خراجاً عن اطيانهم فوضع تلك الدفاتر في باحة عمومية واوقد فيها النار ولما اتقدت النيران وتعالى لهيبها استخرج الكرابيج والعصي وسائر ادوات الضرب والصفع التي كان يستخدمها الحكمداريون قبلاً والقاها في ذلك اللهيب واهل الخرطوم ينظرون . فكان لذلك تأثير حسن في اذهانهم ثم انشأ مجلساً وطنياً مؤلفاً من اعيان المدينة وبعد قليل زار الترسانة والمستشفى واخيراً ذهب لتعهد السجن ومعه ستيوارت وكوتلجن والمستربوار قنصل انكلترا هناك . فراى فيه حوادث تتفتت لها الاكباد فضلاً عن القذارة وشاهد بين المسجونين اولاداً وشيوخاً بعضهم قد ثبتت براءتهم ولا يزالون في السجن واخرون سجنوا لتهمة فقضوا ثلاث سنين في السجن قبل ان تثبت عليهم جناية . ورأى هناك امراة قضت خمس عشرة سنة مسجونة لذنب اقترفته في صباها فامر غوردون باخراج المسجونين كافة وتنظيف السجن فلم يأت المساء حتى خرجوا زرافات ووحداناً وهم يطلبون الى الله تعالى ان يطيل عمره . وقضى اهل الخرطوم تلك الليلة سهارى فاضاؤا الانوار الملونة واوقدوا المشاعيل وباتوا فرحين مسرورين

واراد غوردون ان يمكن محبته من قلوب اهل السودان فخفف الضرائب وانصف المظلومين وابطل كثيراً من الضرائب ثم اصدر منشوراً يلغي فيه الاوامر الصادرة بشأن الغاء تجارة الرقيق وهاك مفاد المنشور

منشور الى اهل السودان كافة

اعلموا ان راحتكم هي غاية ما نرجوه وبما اني اعلم ان ابطال تجارة الرقيق قد ساءكم

وها لكم ما وضعته الحكومة من القصاص عَلَى من يتعاطاها وغير ذلك مما صدر من الاوامر العالية بشأن تأكيد الغائها فقد رأيت التماساً لراحتكم ان أبطل كل تلك الاوامر وامنحكم الحرية التامة فلا يعترضكم احد في اتخاذ الرقيق لخدمتكم والسلام لكم

الخرطوم غوردون باشا

ففرح تجار الرقيق بهذا المنشور ولكنهم استدلوا منه عَلَى ضعف الحكومة وانها انما اضدرته بالرغم منها لانها لم تقوَ عَلَى تنفيذ امرها في ابطال تلك التجارة . ثم حول نظره الى امر المهدي فارسل اليه في الابيض كتاباً يطلب فيه اطلاق الاسرى و يوليه كردوفان وارفق الكتاب بخلعة نفيسة فردّ محمد احمد الخلعة و بعث الى غوردون ان يسلم فيسلم وان المهدي لم يقم بدعوته طمعاً في الولاية

وكان غوردون باشا في اثناء مسيره الى الخرطوم قد تدبر امر مهمته هذه فراى ان ترك السودان وشأنها بعد اخلائها يعود عَلَى مصر بالوبال فلا تلبث الثورة ان تنتشر ويزحف الدراويش الى حدود مصر فبعث يوم وصوله الخرطوم رسالة برقية الى الحكومة الانكليزية يطلب فيها ان تبعث اليه الزبير رحمت باشا حالاً حتى اذا اخلي السودان ودبر حكومته جعل الزبير باشا خلفاً له عليه خوفاً من استفحال امر المهدي وخروجه عَلَى مصر فابت الحكومة ارسال الزبير فشق ذلك عليه كثيراً

ثم ما لبث ان علم بانتشار دعوة المهدي وانضمام معظم القبائل اليه فاصدر منشوراً يتوعد فيه الثائرين بعذاب اليم و ينصح لهم ان يتوبوا الى طاعة الحكومة

وكان الكولونيل ستيوارت قد سار في مئة رجل بالاعلام البيضاء لمسالمة القبائل القاطنة عَلَى النيل الابيض وتلاوة منشورات غوردون عليهم فكان كلما بعد عن الخرطوم ازداد نفور الناس منه حتى صاروا يعترضون مسيره و يحاربونه واكثرهم من قبيلة البقارة فعاد الى الخرطوم خاسراً فارسله غوردون ثانية في ٢ مارس سنة ١٨٨٤ بمنشورات اخرى فعاد بخفي حنين . وما زالت الثورة تقترب من الخرطوم وضواحيها حتى احدقت بها من كل الجهات . وفي اثناء ذلك جاءت حملة من الدراويش لحصار الخرطوم فذهب جمع منهم الى حلفاية شمالي المدينة فانهزمت حاميتها فجرد غوردون في ١٦ مارس عليهم الفي مقاتل بالبنادق وفيهم الباشبوزوق والجند المنظم لاسترجاع حلفاية فماطلهم الدراويش حتى غدروهم وكسروهم شر كسرة فعادوا القهقرى الى الخرطوم وقد قتل منهم جمع كبير ففشل غوردون لهذه الكسرة وحاكم قواد تلك التجريدة واكبرهم سعيد باشا وحسن باشا وكلاهما من اهل السودان فحكم عليهما بالاعدام لثبوت الخيانة عليهما فقتلا وقطعت اعضاؤهما

سقوط بربر وهلاك ستيوارت

وفي ٢٥ يونيو سنة ١٨٨٤ وصلت الاخبار بسقوط بربر والقبض عَلَى مديرها وارساله اسيراً الى الابيض وتولى بربر امير من امراء الدراويش اسمه محمد الخير. وكان سقوط بربر ضربة قوية عَلَى الخرطوم لانها كانت واسطة الايصال بينها وبين مصر. فادرك غوردون صعوبة مركزه وتحقق يقيناً ان انفاذ مهمته لم يعد ممكناً بالحسنى فلابد من استعمال قوة الجند فطلب الى حكومته ارسال حملة لمساعدته فترددت انكلترا مدة قبل الاقرار عَلَى الحملة. عَلَى انها اقرت في مايو عَلَى وجوب ارسالها ولكن جنودها لم تبدأ بالمسير الى السودان الا في سبتمبر فتذمر اهل الخرطوم وشكوا الى غوردون حالهم وفي جملتهم الاجانب المقيمون هناك فقال لهم من اراد الذهاب فليذهب اما انا فلا استطيع الخروج الا بعد انقاذ الحامية والناس او ان اموت معهم. ولكنه اشار عَلَى ستيوارت ان يسير الى مصر بمن اراد مرافقته من الاجانب وعهد اليه ايصال تقاريره اليومية عن احوال الخرطوم من اول مارس الى ٩ سبتمبر وهو يوم سفر ستيوارت وظن غوردون ان ذهاب ستيوارت بهذه التقارير الى مصر يفيد الحملة القادمة لانقاذه فركب ستيوارت باخرة وركب معه بعض الافرنج ورافقته باخرتان فوصل بربر وضربها ومرَّ بها فعادت الباخرتان وجرت باخرته حتى اذا تجاوزت ابو حمد الى واد قمر ضايقها الدراويش من البر ثم جنحت فنزل من فيها فلقيهم الدراويش وقتلوهم وحملوا الاسلاب والاوراق الى المهدي. كل ذلك وغوردون يستحث الانكليز ويستنهض هممهم وينذرهم بالخطر القريب فجاءه خبر هلاك ستيوارت ومن معه قبل خروج الحملة. عَلَى ان تلك الحملة لم تصل الخرطوم الا في ٢٨ يناير سنة ١٨٨٥ اي بعد سقوطها ومقتل غوردون بيومين

حركات الدراويش

فلننظر في حركات الدراويش واجراآتهم في معسكرهم في اثناء حصار الخرطوم ملخصاً عما رواه سلاتين باشا في كتابه «السيف والنار في السودان» وما احكاه غيره من الاسرى الذين رافقوا تلك الحوادث داخل الخرطوم وخارجها

تركنا المتمهدي وقد عاد ظافراً الى الابيض بخيله ورجله فبعد وصوله اليها انفذ بعض امرائه لتأييد سلطته في دارفور وبحر الغزال وما جاورهما ثم علم ما كان من امر السودان الشرقي وظفر عثمان دقنا في سنكات وتماثيب والتب وحصار كسلة

وتكاثر دعاة المهدي بعد انتصاره عَلَى هيكس وتقاطر الناس اليه قبائل وجماعات قياماً بنصرته وكانوا يعسكرون بخيامهم وابلهم وخيلهم حول الابيض فقلت مياه الابيض فخاف المهدي ان يصيبهم جهد فاشار بالانتقال الرهد وفيها الماء غزيراً فانتقلوا اليها رجالاً

ونساء واولاداً في اواسط افريل سنة ١٨٨٤ باحمالهم واثقالهم ودوابهم واقاموا هناك والمهدي يقضي نهاره في الصلاة والوعظ والحث على الجهاد . ثم سمع بخروج الجنود المصرية من الخرطوم على اهل الجزيرة فبعث محمد ابا جرجا اميراً عليها في عدد عظيم من الدراويش على ان يمد اهل الجزيرة ويحاصر الخرطوم . فحصلت بينه و بين جنود الخرطوم وقائع انتصرت في اولها الجنود المصرية ثم عادت العائدة عليهم بعد ذلك كما رايت . وارسل المهدي الشيخ محمد الخير اميرا على بربر فسار اليها وحاصرها وفتحها وارسل مديرها حسين باشا خليفة اسيراً الى معسكر المهدي في كوردوفان . فالتقى بسلاتين باشا وتشاطرا مصيبة الاسر . اما دنقلا فكان مديرها مصطفى بك ياور (ثم صار مصطفى باشا) قد كتب الى المهدي غير مرة يسلم اليه فلم يركن هذا الى تسليمه بل بعث السيد محمد علي وبعض الشائقية ليجسوه فحاربهم وفرق شملهم وكان الماجور كتشنر (اللورد كتشنر باشا) قد جاء بمهمة سرية لاستطلاع نوايا مصطفى بك ياور واحوال السودان فشهد بعض مواقعه مع الدراويش

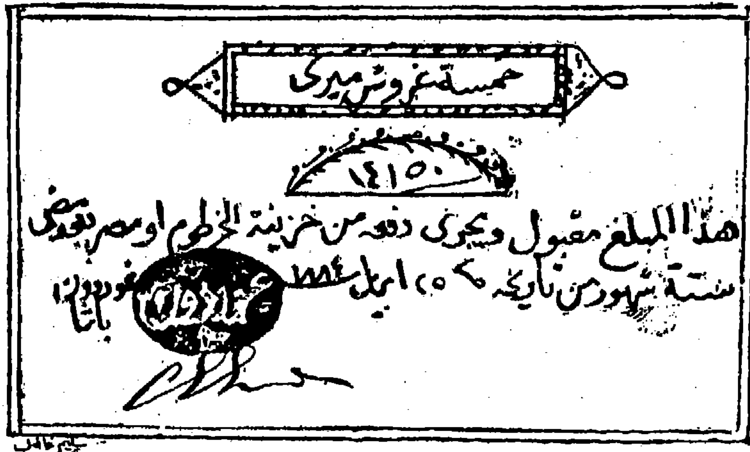
وخلاصة الامر ان حجار السودان ورماله كادت تنطق بصوت واحد « صدق محمد احمد بدعواه » وكان الي ذلك الحين مقيماً في الرهد فكتب اليه امراؤه من انحاء مختلفة ان ينزل برجاله الى النيل الابيض فكان يؤجل مسيره مظهراً الازدراء بقوة اعدائه والاعتداد بقوته و يستعرض جنوده كل جمعة استعراضاً عمومياً يحضره هو بنفسه والجيش اذ ذاك ثلاثة اقسام يراس كل منها خليفة من خلفائه . ولكن الخليفة عبد الله التعايشي كانت له الرئاسة الكبرى ويلقب « رئيس الجيش » وفرقته تسمى « الراية الزرقاء » ينوب عنه في قيادتها اخوه يعقوب التعايشي . وفرقة الخليفة علي ولد الحلو تدعى « الراية الخضراء » وفرقة الخليفة محمد الشريف تسمى « الراية الحمراء » او « راية الاشراف » وتحت كل من هذه الرايات الثلاث رايات صغيرة لا يحصيها عدّ يجتمع حول كل راية منها مئات من الدراويش

وكيفية الاستعراض عندهم ان يقف امراء الراية الزرقاء براياتهم صفاً واحداً يولون وجوههم المشرق و يقف امراء الراية الخضراء صفا آخر يقابل الصف الاول وجهاً لوجه و يقف امراء راية الاشراف صفاً آخر يقابل الشمال فيؤلفون مربعاً ينقصه ضلع كانه باب يدخل به المهدي وحاشيته فيمر بجانب الصفوف يحييها قائلاً « الله يبارك فيكم »

فلما انقضى رمضان تلك السنة قال محمد احمد انه قد اوحي اليه في الرؤيا « الحضرة » ان ينزل لمحاصرة الخرطوم وامر رجاله بذلك

حصار الخرطوم

فزحفوا برجالهم واحمالهم واثقالهم ودوابهم فضربوا نقاراتهم وساروا حتى اشرفوا على الخرطوم وسلاتين معهم فعسكروا هناك تحت راية التعايشي . وسار الامراء الآخرون يبحثون عن مكان آخر يعسكرون فيــه . ثم امر المهدي ان يحدق جنده بالخرطوم ويشددوا الحصار عليها فامر ابا جرجا وولد النجومي ان يحاصراها برجالهما من البر الشرقي للنيل الابيض عند مكان اسمه كلاكلا وامر ابا عنجه وفضل المولى ان يحاصرا طابية ام درمان على البر الغربي . وما زالوا محاصرين تلك الطابية حتى فتحوها في ١٥ يناير سنة ١٨٨٥ وهي اول طابية فتحوها من حصون الخرطوم . ويؤخذ من تقرير كتبه الشيخ المضوّي احد قواد المهدي في ذلك الحصار ان المهدي كان عازماً ان يشدد الحصار على الخرطوم حتى تسلم من الجوع كما فعل بالابيض وان رجال ولد النجومي وحدهم بلغوا عشرين الفاً . فربما كانت قوة الدراويش كلها ستين الفاً او سبعين او اكثر


خمسة غروش ميري

١٤١٥٠

هذا المبلغ مقبول ويجري دفعه من خزينة الخرطوم او مصر بعد مضي ستة شهور من تاريخه ٢٥ ابريل ١٨٨٤ غوردون باشا

ش ٩٥ : نقود غوردون

أما غوردون فلم يمض في الخرطوم شهرين حتى نفدت النقود من خزينتها فاصطنع نقوداً من الورق بفئات متفاوتة يتعامل بها الناس الى اجل مسمى . وقد شاهدنا كثيراً منها عند وصولنا المتمة سنة ١٨٨٥ وفي الشكل ٩٥ صورة احداها برسمها الاصلي تماماً

على ان ذلك قلما خفف من ضيق اهل الخرطوم ونزلائها فانهم ما انفكوا يشعرون بالضغط يوماً بعد يوم والحصار يزيدهم تضييقاً حتى اصبحوا محاطين بالعدو من كل جهة وقلّ زادهم او نفد وجاعوا وغوردون يصبرهم ويعدهم بقرب وصول الحملة الانكليزية

لانقاذهم ولكنها تأخرت كثيراً فملَّ الناس الانتظار واشتد الجوع حتى اكلوا لحوم القطط والكلاب ومضغوا سعف النخل وجذور الذرة . كل ذلك وهم واثقون بوعد غوردون ولكنهم اصبحوا يسيئون الظن به اخيراً

الحملة الانكليزية لانقاذ غوردون

اما الحملة الانكليزية التي اقروا على ارسالها لانقاذ غوردون فبرحت مصر في اوائل الخريف وعدد رجالها ستة الاف من نخبة الجند الانكليزي واكثر قوادها من الاشراف اذ تسابق الانكليز الى الانتظام في سلك هذه الحملة لزعمهم انها عبارة عن (فسحة) على النيل . فلم يصل من رجالها الى كورتي الا بعضهم وتفرَّق الباقون في نقط خط الاتصال . ومن كورتي سارت حملة في عطمور صحراء بيوضة الى المتمة بقيادة الجنرال ستيوارت والقصد بها سرعة الوصول الى الخرطوم . وسارت حملة اخرى على النيل الى بربر بقيادة الجنرال ارل . وكنا ممن سار برفقة حملة العطمور فشهدنا وقائعها وسمعنا اطلاق مدافعها ورنات قنابلها ورصاصها فقطعت الحملة جكدول فابا طليح فلاقاها العرب على الآبار فحصلت بين الفريقين واقعة شفت عن انهزام العرب فتعقبهم الانكليز الى المتمة ساروا بقيادة الجنرال ستيوارت ليلاً وقد كنت في جملتهم في تلك الليلة الليلاء فكنا سائرين لانرى شيئاً من آثار الطريق المؤدي الى المكان المقصود لشدة الظلام فاضطررنا الى الاستدلال عليها بالابرة المغنطيسية (البصلة) والنجم القطبي وكنا تارة نصعد على آكام متلمسين وطوراً تعثر ارجل جمالنا باعشاب او انجم شوكية ولم نكن نخرج صوتاً ولا نقدح ناراً لئلا يكون بقربنا من الاعداء من يستطلع احوالنا فتحبط مقاصدنا . ولم يأت اخر الليل حتى اصبحنا وليس فينا من لم يأخذ منه النعس مأخذاً عظيماً . وكانت تأخذ من احدنا سنة الوسن وهو على ظهر الجمل فينتبه وهو على وشك السقوط فيعتدل

وعند ما اصبح يوم غرة ربيع اخر او ١٨ يناير اشرفنا على النيل المبارك عن بعد والمتمة عن يسارنا ولم نكد نقف والغزالة في الضحى حتى خرج الينا من اسوار المدينة (المتمة) جيش جرار من العربان وقفوا على مرمى رصاص منا وقد حالوا بيننا وبين النيل وجعلوا يطلقون علينا النار من وراء الاشجار والصخور فامر الجنرال ستيوارت بالترجل وانشاء زريبة وما كدنا نفعل حتى احتدمت نيران العدو فامر الجنرال بتشكيل مربع ثم وقف وراء احد المدافع وبيده المنظر يراقب حركات العدو فاصابته رصاصة في بطنه فسقط على الارض وسقطت قلوبنا معه . وكان بجانبي المستر سانكي هربرت كاتب سر الجنرال المذكور فسألته ما ظنه بحياة الجنرال فاجاب متأسفاً انه لا

يرجو له شفاء . وما اتم كلامه حتى اصيب هو برصاصة في راسه فشهق وسقط ميتاً لا حراك به وكان خادمه بجانبه يخاطبه في بعض حاجاته فلما رآه ساقطاً رفع يده منادياً يا سيدي يا سيدي ولم يتم قوله حتى اصيبت يده عند المعصم برصاصة ثقبتها من الجانب الواحد الى الاخر. وكنا نرى كثيرين غيره يسقطون مثل تلك السقطة . فلا تسل عما حل بالجند من اليأس الا انهم تجلدوا واقاموا عليهم اكبر ضباطهم قائداً فاتموا تشكيل المربع بعد ان رفعوا الجنرال جريحاً جرحاً بليغاً لم يعش بعده اكثر من شهر واحد فمات عند انسحاب الحملة ودفن عند آبار جكدول في وسط الصحراء

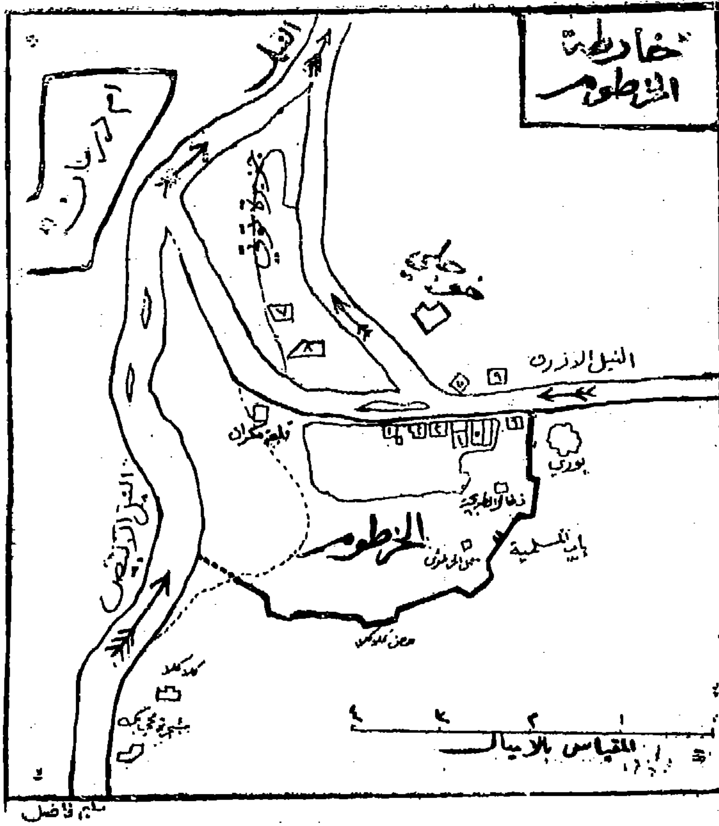
فسار المربع ونحن داخله قاصدًا النيل فهاجمنا الاعداء ببسالة غريبة ثم ما لبثوا ان اقتربوا من مربعنا حتى تشتت شملهم فسرنا حتى ادركنا النيل عند الظلام بعد مفارقتنا اياه نحوًا من اسبوعين فحييناه تحية ملتاح وعسكرنا على ضفته للمبيت تلك الليلة . وفي الصباح التالي جاءت العساكر مع من كان معهم في الزريبة ثم انتقلنا الى قرية جنوبي المتمة يقال لها القبة

وكان غوردون قد انفذ لملاقاة تلك الحملة اربع بواخر كانت في مياه الخرطوم ليستعينوا بها في الوصول اليه وبعث يقول لهم انكم اذا لم تصلوا الينا في بضعة ايام ذهبنا هباء منثوراً وقد علم السير شارلس ولسن خلف الجنرال ستيوارت على تلك الحملة بذلك في ٢١ يناير وكان يجب ان يبادر حالا الى الخرطوم بدلاً من ان يقضي اربعة ايام بجوار المتمة بلا داع فغادرها في ٢٤ يناير سنة ١٨٨٥ على باخرتين لم تصلا الخرطوم الا في ٢٨ منه وكانت قد سقطت وقتل غوردون في ٢٦ منه فعاد السير شارلس كاسف البال ولم يصل المتمة الا بعد شق الانفس لان باخرتيه انكسرتا واصابه من الخطر ما لا محل لتفصيله هنا

سقوط الخرطوم

اما كيفية سقوط الخرطوم فعلى ما يأتي . من تأمل هذه الخارطة (ش ٩٦) علم ان الخرطوم واقعة موقعاً طبيعياً حصيناً للغاية فهي محاطة من الشمال والغرب بالنيل ومن الجنوب والغرب بسور منيع ووراءه من الخارج خندق عميق والجند قائمون على السور ليلاً ونهاراً وترى بين بنايات الخرطوم وسورها ارضاً لا بناء فيها

وقد ذكرنا ان المهدي حاصر الخرطوم وشدد الحصار عليها لكي تسلم من الجوع فلم تمض مدة حتى انبأه جواسيسه ان حملة انكليزية قادمة لانقاذ الخرطوم وغوردون فبعث اليها جنداً لاقاها في ابي طليح تحت قيادة موسى ولد الحلو وابي صافية فعادت خاسرة فارسل جنداً آخر الى المتمة بقيادة نور عنجة فانكسر ايضاً كما تقدم . فلما



ش ٩٦ : دلالات الارقام في خريطه الخرطوم

(١) الحكمدارية (٢) السراي (٣) حواصل الحنطة (٤) الترسانة
(٥) القشلاق (٦) طابية بوري (٧) مخازن البارود (٨) قرية توتي
(٩) الطابية البحرية (١٠) السراي الشرقية

بلغه خبر انكسار رجاله اراد التمويه على اتباعه فامر باطلاق مئة قنبلة وقنبلة وهي اشارة النصر عندهم فاطمان الدراويش ولكن محمد احمد جمع امراءه وخلفاءه في جلسة سرية وقل لهم ان الحضرة جاءته فاوحت اليه ان يهاجر الى الابيض . فاعترضه الامير محمد عبد الكريم قائلاً « ان الهجرة ميسورة لنا في كل حين والطريق الى الابيض مطلق لنا فلنهاجم الخرطوم اولاً فأذا امتنعت علينا هاجرنا الى الابيض واذا فتحناها فلا يقوى الانكليز ولا غيرهم على اخذها منا » فاستحسن المهدي رايه وصبر بضعة ايام وهو يستقصي اخبار الانكليز وحركاتهم . وفي ٢٥ يناير بلغه قيام الباخرتين من المتمة

فاقر على مهاجمة المدينة في صباح اليوم التالي (يوم الاثنين في ٢٦ يناير سنة ١٨٨٥) فبعث الى القوات المحاصرة يقول انه علم بالوحي ان الله قد جعل ارواح اهل الخرطوم كلها في قبضته

وفي مساء ذلك اليوم ٢٥ منه قطع المهدي النيل الابيض من ام درمان وكل من اراد الجهاد معه ونزل الى معسكر ولد النجومي في كلاكلا وخطب هناك خطاباً حث رجاله فيه على الجهاد واوصاهم ان لا يقتلوا غوردون باشا. ولما اتم خطابه عاد بيطانته الى ام درمان

وفي الصباح التالي ٢٦ منه الساعة الاولى بعد نصف الليل زحف الدراويش من كلاكلا بقيادة ولد النجومي وانقسموا فرقتين فرقة تهاجم السور بين النيل الابيض وباب المسلمية وفرقة تهاجمه من ناحية بوري (انظر الخارطة) وكان السور بين باب المسلمية والنيل الابيض قد تهدم بعضه مما يلي النيل لمجاورته ارضاً يغمرها ماء النيل في فيضانه ترى حدودها في الخارطة منقطة . وكان الماء قد انحسر عنه اذ ذاك وتهدم بعضه فتكونت فيه ثغور دللنا عليه بتقطيع السور هناك الى نقط . فعول الدراويش على ان يدخلوا المدينة من تلك الثغور على انهم اذا فازوا بالدخول منها عدلوا عن الهجوم من جهة بوري ودخل القسمان معاً من جهة النيل الابيض

مقتل غوردون

فزحفوا سكوتاً حفاة تحت جناح الليل لا تسمع لهم حركة حتى صاروا عند تلك الثغور فردموا الخندق ووسعوا الثغور وصاحوا صياح الحرب قائلين « في سبيل الله » ودخلوا يزاحم بعضهم بعضاً وقد غاصوا في الاوحال الى الركب فبغتت الحامية فاطلقت بعض الطلقات وكان فرج باشا قائد الحصون على باب المسلمية فما انتبه الا وقد قضي الامر ولم تبق فائدة بالدفاع ففتح الباب وسلم فانهال الدراويش على المدينة كالسيل وهم ينادون « للكنيسة .. للسراي » وامعنوا في الاهالي المساكين قتلاً ونهباً لم يبقوا ولم يذروا . وسار بضعة منهم الى السراي حيث يقيم غوردون وكان قد يئس من قدوم الحملة وبات تلك الليلة حوالي نصف الليل ولم يكد يغمض جفنه حتى سمع اطلاق النار فصعد الى سطح السراي واشرف على الاسوار فراى العرب قد دخلوا السور ولم يعد باليد حيلة فلبس ثيابه وتقلد سلاحه وهمّ بالنزول فلاقاه ثلاثة من الدراويش في اعلى السلم فسأل اولهم قائلاً « اين محمد احمد » فأجابه بطعنة قاضية وضربه آخر بالسيف فخرّ قتيلاً ولم يبد دفاعاً . ويقال ان قتلته من رجال ولد النجومي ولم يكن ولد النجومي معهم فجاء بعدئذ فساءه قتله فامرهم بجر جثته الى باحة السراي وان يقطع راسه ويحمل الى المهدي في ام درمان فحملوه اليه في منديل كبير في الساعة الاولى من النهار وكان سلاطين مقيداً

في خيمته بام درمان وقد سمع اطلاق المدافع وعلم بهجوم العرب على الخرطوم ثم سمع بفتحها فوقف حزيناً كئيباً فمر حاملو راس غوردون به وبينهم رجل اسمه شطا كان يعرفه سلاتين قبلاً فكشف له عن راس غوردون وقال « اليس هذا راس عمك الكافر »

فأثر ذلك المنظر في سلاتين كثيراً وكان قد هزل جسمه من الاسر والخوف وكاد يغمى عليه ولكنه تجلد وقال بصوت ضعيف « انه مات في سبيل الدفاع عن واجباته هنيئاً له فقد استراح من متاعبه » فقال له شطا ضاحكا « اتمدح الكافر انك ستلاقي ما لقيه قريباً » فتأمل حال سلاتين اذ ذاك



ش ٩٧ : راس غوردون يريه الدراويش لسلاتين باشا

ثم حملوا الراس الى المهدي فاظهر كدره لذلك وكان سلاتين يظن ان المهدي لو اراد ان يبقي عليه واوصى رجاله بذلك ما تجرا احد على مخالفة اوامره

هكذا سقطت الخرطوم عاصمة السودان في ايدي الدراويش وبسقوطها سقط كل امل بافتتاحها . ولكن المهدي لم يقم فيها بل اقام في ام درمان وبنى هناك مدينة جعلها عاصمة ملكه من ذلك الحين

اما الحملة الانكليزية فانها انسحبت من المتمة الى كورتي فاقامت هناك مدة ثم عادت الى دنقلا فمصر فسحبت معها كل من اراد مرافقتها من سكان شمالي كورتي واصبحت السودان من ذلك الحين مملكة المهدي السوداني

موت المهدي وخلافة التعايشي

فلما فتحت الخرطوم وعادت الحملة الانكليزية الى مصر ازداد الناس وثوقاً بدعوى المهدي مع ما شاهدوه من توفيقه في مشروعاته فانه كاد لايشهد موقعة الا انتصر فيها ولا حاصر مدينة الا فتحها . واذا اعتبرت ما لاقته الحملة الانكليزية القادمة لانقاذ غوردون من العراقيل والعوائق عجبت لما اتفق لمحمد احمد هذا من غرائب التوفيق . فاتخذ اشياعه ذلك دليلاً على كرامته وايقن هو انه اصبح المالك المتصرف في السودان من اقصائه الى اقصائه وخيل له انه سيفتح الامصار ويخضع الملوك والسلاطين فتنتشر سلطته في الخافقين . على انه لم يكن يرجو ان يتم ذلك كله على يده ولكنه كان يقول انه لن يموت الا بعد فتح الحرمين وبيت المقدس ثم ينزل الكوفة ويموت فيها. ولكن ساء فأله لانه لم يكد يؤيد سلطته ويقيم في عاصمته «ام درمان» بضعة اشهر حتى داهمته الوفاة في ٢١ يونيو سنة ١٨٨٥ فيها على اثر اصابة شديدة بالحمى التيفوسية لم تنجع فيها حيلة ففارق هذا العالم على عنقريب « سرير سوداني » وحوله خلفاؤه الثلاثة وخاصة امرائه منهم احمد ولد سليمان ومحمد ولد البصير وعثمان ولد احمد والسيد المكي . فلما شعر المهدي بدنو الاجل قال لمن حوله بصوت منخفض « ان النبي صلى الله عليه وسلم اختار الخليفة عبد الله خليفة لي وهو مني وانا منه فاطيعوه ما اطعتموني . استغفر الله » ثم تلا الشهادتين وجعل يديه متقاطعتين على صدره واسلم الروح

ولم يكد يخرج النفس الاخير من انفاسه حتى تقدم الحضور فبايعوا عبد الله وسموه « خليفة المهدي » وكان في جملة من حضر موت المهدي امرائه عائشة ويدعونها « ستنا ام المؤمنين » فسارت لابلاغ خبر وفاته الى نسائه الاخريات وتعزيتهن وكان الناس قد تجمهروا مئات والوفاً حول المنزل ينتظرون الخبر عن سيدهم ومهديهم فلما علموا بموته ضجوا وصاحوا فاوعز اليهم ان البكاء والندب حرام لان المهدي انما فارق مقامه في الارض بمجرد ارادته ليلقى وجه ربه . فغسلوا الجثة ولفوها بالاكفان واحتفروا لها حفرة في تلك الغرفة حيث فارقتها الروح ودفنوها وجعلوا فوقها بعد ذلك مقاماً من الخشب يغشاه ستر اسود وبنوا فوقه قبة وسموا ذلك المقام « قبة المهدي » يزورها الناس للتبرك واحتفروا بجانب القبة بئراً يستقي الزائرون منها للشرب والوضوء وحول القبة درابزون من الخشب « ش ٩٩ »

وكان سلاتين باشا قد نال العفو من المهدي قبل وفاته فخلت قيوده وعاد الى معية التعايشي فشاهد تلك الحوادث شهادة عين ووصفها في كتابه السيف والنار والسودان وصفاً تاماً



ش ٩٨ : طبيب المهدي

فبعد دفن المهدي سار خليفته عبد الله الى الجامع وخطب في الناس وانبأهم بوفاة المهدي فبكى وبكى الناس ثم اوصاهم بالطاعة والاتحاد للعمل باوامره وبعد الخطبة تقدم الناس لمبايعته فتلوا صورة المبايعة التي ذكرناها قبل الان ولكنه غير العبارة الاولى منها فجعلها « بايعنا الله ورسول الله ومهدينا وبايعناك على توحيد الله الخ »

اوصاف المهدي

كان محمد احمد طويل القامة عريض المنكبين اسمر اللون قائمه قوي البنية. وكان اول قيامه بدعوته ربع القامة فاصبح في اواخر ايامه سميناً ضخماً . وكان كبير الراس عريض الجبهة حاد العينين اسودهما خفيف اللحية اسودها وعلى خديه آثار الاخاديد العرضية الثلاثة من كل جانب كسائر الدناقلة ابناء قبيلته . وكان متناسب الانف والفم لا ينفك



ش ٩٩ : قبة المهدي وفيها قبره

مبتسماً فتظهر اسنانه وبين الاماميتين منهما فلجة تشبه الثمانيـة « ٨ » تعد عند السودانيين وغيرهم من المشارقة علامة السعد ويقال لصاحبها افلج وكان ذلك من جملة ما حبب المهدي الى النساء وكن يسمينه « ابو فلجة »

وكان يلبس جبة بيضاء قصيرة مضربة تراها دائماً مغسولة نظيفة مطيبة برائحة خشب الصندل والمسك وعطر الورد وكان مشهوراً بين اتباعه بهذه الرائحة حتى نسبوها اليه فسموها « رائحة المهدي » وذكر بعضهم خالاً كان في خده ادعى انه من علامات المهدوية

وقد علمت من تدبر ترجمة حاله انه كان نبيهاً مدبراً رضي الخلق حسن السياسة ماهراً في التأثير على عواطف الناس اذا تكلم ظهر للسامعين ان جوارحه كلها تتكلم

فاذا ذكر مآثم بني الانسان او وصف النعيم المقبل او حث على الجهاد بكى وتخشع وابكى السامعين . ويظهر من مجمل سيرة حياته انه صبور على البلوى كاظم للغيظ مسالم للاحزاب محسن اليهم راغب في امتلاك قلوبهم باللطف وحسن الاسلوب وكان ذلك من اكبر العوامل في نشر دعوته وقيام الناس بنصرته ولو امد الله في اجله لكان فتح السودان صعباً على الجنود المصرية نظراً لاستهلاك قواده في سبيل نصرته . اما خليفته فكان على غير خلقه من اللين والدعة والمسالمة الى حد هاج غيرة الخليفتين الاخرين وغيرهما من الامراء فقام الشقاق بين الدراويش فضعفت عزائمهم وفسدت امورهم وتضعضعت احوالهم وسهل الفتح على المصريين

تعاليمه

ذكرنا في ماتقدم ما كان من اعماله الحربية منذ ظهوره الى وفاته فنقتصر الآن على ذكر ما احدثه من التعاليم والتقاليد بين مسلمي السودان :

(١) علَّم الزهد في الدنيا وملذاتها ونبذ المجد الدنيوي فابطل الرتب والالقاب الرسمية وغير الرسمية وساوى بين الغني والفقير وفرض على اتباعه لباساً واحداً يمتازون به ويدل على تزهدهم وهو الجبة المرقعة

(٢) جمع المذاهب الاربعة (المالكي والشافعي والحنفي والحنبلي) ووحدها بتسوية بعض ما بينها من الخلاف والغاء البعض الآخر واختار آيات من القرآن الكريم تتلى كل يوم بعد صلاة الصبح وصلاة العصر سماها « الراتب » وسهل طرق الوضوء

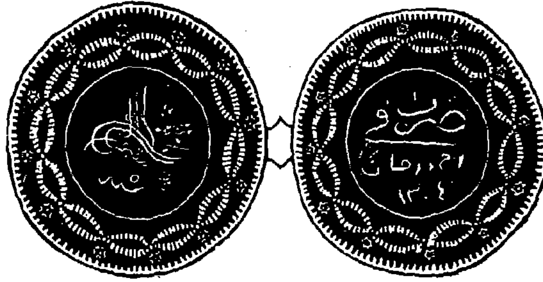
(٣) حرَّم الاحتفال بالاعراس احتفالاً يدعو الى النفقة ومنع شرب الخمر وغيرهما مما يتناولونه في الاعراس وخفض مهر الزواج فجعله عشرة ريالات وبدلتين للبكر وخمسة ريالات وبدلتين للثيب وجازى من يخالف ذلك بسلب امواله كلها . وابدل ولائم الاعراس بطعام من التمر واللبن فتسهلت بذلك وسائل الزيجة على الفقراء وقد كانت نفقات العرس الباهظة حائلة بينهم وبين الاقتران

(٤) ابطل الرقص واللعب ومن رقص او لعب فقصاصه الجلد واخذ امواله وترى تفصيل ذلك في منشور المهدي الذي تقدم نشره

(٥) منع الحج الى الحرمين خوفاً على قواته من التفريق وتعاليمه من الضياع لعلمه انها تخالف تعاليم اهل الاسلام . ووضع قصاصاً على من يشك في دعوته او يتردد في تنفيذ اوامره ان تقطع يده اليمنى ورجله اليسرى ويكفي لثبوت التهمة عليه شهادة

شاهدين وقد يكتفي ان يدعي علمه ذلك بالوحي . وتأييداً لدعوته احرق كل كتاب او ورقة تخالف هذه التعاليم

وقد ضرب المهدي نقوداً باسمه هذه صورة قطعة فضية منها بحجمها الطبيعي (ش ١٠٠) على احد وجهيها اسم المدينة التي ضربت فيها « ام درمان » وعند أسفل ذلك تاريخ ١٣٠٤هـ وهي سنة استقلالهم بالاقطار السودانية وفي اعلاها رقم واحد يقصدون به السنة الاولى من سلطانهم . وعلى الوجه الآخر ما يشبه الطغراء يقرأ منها كلمة «مقبول» كأنهم يريدون بها ان هذه النقود مقبولة عند حكومتهم وعند اسفل الطغراء يقرا سنة ٥ ربما يقصدون بها السنة الخامسة من ظهور المهدي أو هجرته



ش ١٠٠ : نقود المهدي

وكان المهدي قد بعث امراءه الى الانحاء لبث دعوته وتأييد سلطته وحث الناس للمهاجرة الى أم درمان فسعى محمد خالد في دارفور فأتم اخضاعها وسار ابو عنجه الى كردوفان وكانت قد سلمت الى المهدي الا سكان الجبال الجنوبية منها فاخضع بعضهم وبقي البعض الآخر مستقلاً اما ما بقي من السودان الغربي من ضفاف النيل الابيض الى حدود وداي فقد دانت للمهدي برمتها

السودان الشرقي

اما في السودان الشرقي فما زالت سنار وكسلا محاصرتين وقد دافعت حاميتها دفاعاً حسناً حتى اضطرت الى التسليم فلم تنقض سنة ١٨٨٥ حتى بلغ نفوذ المهدي وسلطته جنوباً الى لادو من مديرية خط الاستواء ولم يبق من السودان في حوزة الحكومة المصرية الا سواكن وحدها

واتفق في اثناء حصار سنار ان القوة المحاصرة لها كانت تحت قيادة الامير عبد الكريم وهو من اقارب المهدي فدفعته حامية سنار فانفذ التعايشي ولد النجومي وهو من اعظم قواد الدراويش ففتحها في اغسطس سنة ١٨٨٥ فبعث التعايشي الى عبد الكريم ان يأتي هوورجاله الى ام درمان وكان قد اخذ معه لحصار سنار الجنود السودانية بلواء الخليفة محمد الشريف وهو من اقارب المهدي ايضاً فلما فتحت سنار على يد ولد النجومي ثم دعي عبد الكريم الى ام درمان حمل عبد الكريم ذلك من التعايشي محمل الاهانة له وذاع على الالسنة اذ ذاك ان عبد الكريم قال لو ضمت اليه رجاله ورجال الخليفة الشريف لاخرج الخلافة من يد التعايشي ودفعها الى الخليفة الشريف لانه اولى بها من ذاك . فبلغ ذلك الكلام مسمع التعايشي فبعث الى اخيه يعقوب وهو عمدته وقائد جنده واخبره الخبر واوصاه ان يكون الجند على استعداد عند وصول عبد الكريم . فلما وصل عبد الكريم لاقاه التعايشي بالتحية والتهنئة واثنى على ما بذله في حصار سنار ثم شرفه وبعث الى الخليفتين وسائر الاشراف (اقارب المهدي) فادخلهم غرفة داخلية ولما استتب بهم المقام امر كاتبه فتلا عليهم منشوراً كان قد كتبه المهدي في الابيض يحرض اتباعه به على طاعة التعايشي

فلما تمت تلاوة المنشور قال عبد الله ان عبد الكريم خائن فانكروا ذلك عليه ودافعوا عن صداقته وامانته فتظاهر بالعفو عنه ولكنه اشترط اخراج الجنود السودانية من قيادته الى قيادة اخيه يعقوب فقبل الشريف وسائر الاقارب بذلك رغم ارادتهم ثم اشار التعايشي الى الخليفة علي ولد الحلو بطرف عينه ان يجددوا المبايعة ويمين الطاعة فوضعوا ايديهم على القرآن واقسموا ان يسلموا الجنود السودانية وان يحافظوا على الطاعة . ولا ريب ان الشريف ورجاله فعلوا ذلك قهراً وفي انفسهم حزازات يودون لو انهم يذهبون بحياة التعايشي . وكانت تلك الحادثة امثولة ذات بال اصبح بها مقاوموه مقصوصي الاجنحة لايستطيعون حراكاً ولكنهم حقدوها عليه واخذ كل من الفريقين ينظر الى الآخر بعين الحذر . على ان الظواهر كانت تدل على اتحاد وارتباط متينين . اما التعايشي فما انفك يدعو الناس من الجهات البعيدة للمهاجرة الى ام درمان ليعمرها ويحشد فيها قوة عظمى يستعملها عند الحاجة

حرب الاحباش

وفي اثناء ذلك تعدى بعض السودانيين على الاحباش في بلاد الحبشة واخربوا كنيسة من كنائسهم والتجأ المتعدون الى قلابات وهي في بلاد الدراويش مما يلي حدود الحبشة فحماهم حاكم المدينة فجاء الاحباش بجند كبير تحت قيادة الرس اعادل

واخربوا البلدة واحرقوها حتى صارت قفراً يأوي اليها الضباع والذئاب وساقوا الاولاد والنساء اسارى الى الحبشة . فبلغ التعايشي ذلك فكتب الى يوحنا نجاشي الحبشة اذ ذاك ان يرسل الاسرى ويعين الفدية التي يريدها عنهم ولكنه بعث ايضا يونس احد قواده بجند الى قلابات وامره ان يحصنها ويقيم فيها حتى يأتيه امر اخر

وبعد قليل جاء نباء ان يونس في ضيق فبعث ابا عنجة يتولى قيادة الدراويش في قلابات فسار في جنده وانقذه من ضيقه . وقبض على ١١ اميراً ظهر انهم تآمروا على قتل يونس وبعث الى الخليفة يستشيره في امرهم فبعث اليه ان يقتلهم ثم ندم فبعث ان لا يفعل ولكن سبق السيف العزل

فجمع ابو عنجه هذه القوة وسار نحو راس عادل لينتقم منه فوفق في هذه الحملة على غير انتظار وتغلب على رجال راس عادل واخرجهم من محلتهم واستولى على الخيم والمؤن وكل الامتعة واسر امرأؤه راس عادل وابنته . وكانه بهذه الغلبة قد فتح كل مقاطعة امحرة فسار تواً الى غندر على امل ان يلاقي فيها خزائن واموالاً فلم يجد شيئاً فاحرق البلدة وعاد وهو ينهب ويسلب كل ما مرَّ به بطريقه حتى ساقوا امامهم قطيعاً من نساء الاحباش واطفالهم سوق الاغنام فلما وصلوا قلابات بعثوا الاسرى الى ام درمان فاخذ الخليفة خمسهم وضموا الباقي الى بيت المال وقد مات منهم في الطريق مئات من الجوع والتعب واصبح الطريق بين قلابات وابي حراز مملوءاً بجثث اولئك المساكين وفي جملتها جثتا ابنة راس عادل وابنه لكن المنية عاجلت ابا عنجة فمات ولم يتجاوز ٣٢ سنة من عمره

ثم ما لبث النجاشي ملك الحبشة ان جند للانتقام من الدراويش على خراب غندر فحمل بجند كبير على قلابات وكانت جنود ابي عنجه لا تزال هناك ولم تفقد الا قائدها الاكبر فتأهبوا للدفاع فوصل النجاشي وعسكر بالقرب من قلابات وانتهت الحرب بهرب الاحباش وقتل ملكهم وتركوا المعسكر غنيمة للدراويش فوجدوا في جملة الغنائم تاج النجاشي يوحنا مصنوعاً من الفضة ومحلى بالذهب وسيفه وكتاباً مرسلاً اليه من ملكة الانكليز فحملوا ذلك غنيمة الى ام درمان

فتح مصر

ومن اغرب مطامع التعايشي فتح مصر وضمها الى مملكته على حين ان المهدي نفسه لم يجاهر بذلك صريحاً . فلما توفي هذا كتب التعايشي كتاباً الى جلالة السلطان وآخر الى سمو الخديوي وآخر الى ملكة الانكليز يطلب اليهم جميعاً ان يسلموا له ويذعنوا لسلطانه وارسل الكتب مع رسل خصوصيين الى مصر فعاد الرسل ولم ينالوا جواباً غير الاحتقار والازدراء فشق ذلك عليه وحقده عليهم


ش ١٠١ : مجلس التعايشي وقضاة

فلما قدر له بالفوز على الاحباش حدثته نفسه أن يجرد على مصر فيفتحها ويقيم لخاساً من البقارة او التعايشة اميراً يتولى حكومتها او يأتي هو بجلالة قدره من بيته في ام درمان فينصب عنقريبه في سراي عابدين !

ولم يرَ بين قواده اولى بهذه المهمة من عبد الرحمن ولد النجومي وكان من اشد الدراويش بطشاً واصعبهم مراساً وا كثرهم استهلاكا في نصرة الدعوة وكان قبل ظهور المهدي تاجراً بين مصر والسودان قد خبر الارض وعرف الطرق فارسله في جملة إكثرها من قبائل الجعالين والدناقلة وغيرهم ممن جاوروا حدود مصر العليا وخالطوا

سكان تلك الاقاليم متظاهراً ان قصده بذلك فتح مصر برجال هم ادرى بها من غيرهم . ولكن الحقيقة انه لم يجهل الخطر الذي يهدد ذلك المشروع فلم يدخل في تلك الحملة احداً من اقاربه وابناء عشيرته ولا من قبائل البقارة وغيرهم من عرب غربي النيل الابيض لانهم من حزبه فاذخرهم لحين الحاجة اما الدناقلة والجعالين فاكثرهم من حزب الخليفة محمد الشريف وقد رايت ما بينه وبين التعايشي وما كان من تغير قلبيهما فما انفك هذا بعد ذلك يعتبر الشريف عدوًّا له تحت طي الخفاء فبعث احزابه في حملته هذه وفي نيته انهم اذا فتحوا مصر عاد الفخر له واتسعت مملكته واذا انكسروا تقهقروا الى دنقلا وقد ضعف شأنهم وتخلص هو من دسائسهم

فجعل دنقلا محط رحال تلك الحملة واقام يونس ولد الدغيم اميرًا على دنقلا يقيم فيها ويدير شؤونها وولد النجومي يقود الحملة ولا يعمل الا بمشورة يونس

فلما اعدَّ التعايشي تلك الحملة بعث كتباً اخرى الى مصر وفيها الانذار الاخير فبقي الرسل مدة في اصوان ثم اعيدوا بلا جواب فبعث التعايشي راس النجاشي يوحنا الى يونس امير دنقلا على ان يرسله الى وادي حلفا تهديدًا للمصريين . وامر ان يسير ولد النجومي بحملته على مصر فلا يحرك ساكناً في حلفا بل يهاجم اصوان فاذا فتحها يقيم فيها حتى تأتيه اوامر اخرى

فخرج ولد النجومي من دنقلا في مايو سنة ١٨٨٩ في جيش لا نظام له والحكومة المصرية عالمة بكل حركة من حله وترحاله . وكان سردار الجيش المصري اذ ذاك الجنرال غرانفل باشا المشهور بالتأني وصدق الروية فضلاً عن الرقة ولين الجانب فحصن حلفا واصوان وسائر الحدود

فلما دنت حملة الدراويش من ارجين بجوار حلفا اقتربت شرذمة منهم الى النيل وولد النجومي لا يعلم بها فخرجت اليها الحامية المصرية بقيادة وودهاوس باشا فكسروها شر كسرة

وكان غرانفل باشا قد خرج من اصوان فبعث الى ولد النجومي يبين له خطر موقفه وينصح له ان يسلم فيسلم فأبى فسار السردار بجيش معظمه على البر الغربي للنيل وبعضه على البر الشرقي لان الدراويش كانوا قادمين على البر الغربي جرت بينهم وبين الحاميات مناوشات ليست بذات بال حتى وصلوا توشكي وهناك حصلت الواقعة التي قضت على تلك الحملة فقتل قائدها وتشتت شملها واليك التفصيل

واقعة توشكي

توشكي قرية حقيرة على البر الشرقي وبعضها على البر الغربي للنيل بين كروسكو وحلفا على بضعة اميال من هيكل ابي سمبل شمالا مؤلفة من اعشاش صغيرة من الطوب والقش متفرقة على ضفة النيل في مسافة من الارض على موازاة النيل يبلغ طولها ثلاثة اميال وعرضها منه الى الصحراء نحو نصف ميل وفيها بعض النخيل

وفي البر الغربي مقابل توشكي على بعد اربعة اميال منها جنوباً سلسلة تلال عالية من حجر الغرانيت تمتد من الضفة غرباً نحو ثلاثة اميال في الصحراء وعند طرف هذه السلسلة والى جنوبيها كان معسكر الدراويش بقيادة ولد النجومي وعلى نحو تلك المسافة شمالاً سلسلة اخرى . وبين السلسلتين سهل متصل بالصحراء وفيه حصلت الواقعة

وكان السردار مقيماً في توشكي فبعث طلائعه في صباح ٣ اوغسطس سنة ١٨٨٩ باكراً لاستكشاف معسكر العدو فعادوا واخبروا بان العرب يستعدون للمسير فخرج السردار لمجرد الاستكشاف فلم يكد يشرف على معسكرهم حتى رآهم هاجمين كالجراد فبعث الى الجند في توشكي وكان بعضهم لم يتناول طعاماً ولا تهيأ للمسير فساروا باسرع من لمح البصر وهم لم يأكلوا بعد ولا حملوا من الماء الا شيئاً قليلاً فصمم السردار اذ ذاك ان لا يكف عن الدراويش حتى يشتت شملهم في ذلك اليوم وكان قد علم بما كانوا فيه من الضيق والجوع . وهاك اسماء الارط التي شهدت تلك الواقعة وهي الارطة التاسعة بقيادة البكباشي لويد والعاشرة بقيادة البكباشي دن والثالثة عشرة بقيادة اليوزباشي كمستر والطبجية بقيادة البكباشي رندل فضلاً عن البيادة الراكبين والاورطة الثانية من البيادة جاءت متأخرة وقال الذين شهدوا واقعة توشكي ان الارط السودانية عملت في ذلك اليوم اعمالاً عجيبة وبالغوا برغبتهم في الحرب حتى عصوا اوامر قوادهم لما دعوهم الى الكف عنها والخلاصة ان الواقعة المشار اليها لم تنقض الى الساعة الثانية بعد الظهر من ذلك اليوم (٣ اوغسطس سنة ١٨٨٩) . وبلغ عدد قتلى الدراويش ١٢٠٠ قتيل وزاد عدد اسراهم على اربعة آلاف وفيهم النساء والاولاد فضلاً عن الاسلاب والاعلام والسيوف والرماح ولم يقتل من الجيش المصري الا ٢٥ وجرح ١٤٠

ووجد بين قتلى الدراويش اذ ذاك اعظم امراء تلك الحملة ما عدا عثمان الازرق وعلي ولد سعد وحسن النجومي وميرغني سوار الذهب وشيخ الابيض فقد نجا هؤلاء بنحو الف واربعمائة شريد وهم الذين استطاعوا الفرار من تلك الموقعة فقط . اما ولد النجومي فقد قتل وحزّ راسه وجيء به الى السردار

فكان ذلك النصر مبيناً سرّ به المغفور له الخديوي السابق فبعث الى السردار يهنئه به لعلمه انه امثولة عامت التعايشي ما لم يكن يعام . اما الذين قتلوا من الجنود المصرية فابتنوا لهم مقاماً قرب مكان الواقعة ضموهم اليه وبنوا فوقه قبرًا نقشوا فوقه باللغة العربية حفرًا على واجهة القبر كتابة هذا نصها

« شيد هذا الاثر تذكاراً لواقعة توشكي التي حصلت في ٦ الحجة سنة ١٣٠٦ هـ وانهزم فيها جيش العصاة السوداني المرسل تحت امرة عبد الرحمن ولد النجومي فتشتتوا بعد قتل اميرهم وكان الجيش المصري تحت قيادة سعادة السردار غرانفل باشا وفي هذا القبر دفنت جثث العساكر المصرية الذين استشهدوا وهم بالميدان »



ش ١٠٢ : توفيق باشا في توشكي

وبعد الواقعة سار الخديوي السابق في بعض رجال معيته لتفقد احوال الحدود فركب الى مكان تلك الواقعة ووقف امام قبر شهدائها يتأمل ما اظهره جنده من البسالة في ذلك القتال . وقد نشرنا رسمه رحمه الله واقفاً امام ذلك القبر وقد اسند راسه على كفه متأملاً (انظر الشكل ١٠٢)

⁂ قحط عظيم ⁂ وكان خبر ذلك الانكسار صدمة قوية على الدراويش في ام درمان فعرفوا قدر انفسهم ووقفوا عند حدهم ولكنهم لم يكادوا يتخلصون من عواقب تلك

الكسرة حتى داهمهم قحط غلت فيه اثمان الحنطة وقل الزاد واشتدت وطأة الجوع على الفقراء حتى اكلوا سيور الجلد التي يشدون بها مقاعدهم فكثر النهب وازداد الضغط

وكانت وطأة الجوع في الغالب اشد على المارين بام درمان والقادمين اليها مما باهلها حتى اتصلت الحاجة ببعضهم الى بيع اولادهم بيع الرقيق انقاذاً لهم من الموت جوعاً . قال سلاتين « وكانت الجثث ملقاة في الشوارع والمنازل مئات وليس من يدفنها فاصدر التعايشي منشوراً قال فيه ان كل صاحب منزل مطالب بدفن الجثث التي تشاهد ملقاة قرب منزله فقلت الجثث على الشوارع ولكن بعضهم كانوا يحفرون حفراً بقرب المنازل يدفنونها بها تخلصاً من مشقة الحمل الى المدافن . وكانت مياه النيلين الازرق والابيض تجري امام ام درمان حاملة مئات من الجثث فارق اصحابهـا الحياة على ضفاف النيل او بالقرب منها فالقوها اهلهم او اصحابهم فيه » وخلاصة القول ان الجوع اهلك من الدراويش اضعاف ما ابادته الحروب منذ ظهور المهدي الى ذلك اليوم . ورافق هذا الضيق جراد جارف اكل ما بقي من الزرع

على ان التعايشي ما زال يبث دعاته في سائر الانحاء لتأييد دعوته وكانت بقية من خط الاستواء لا تزال على ولاء الحكومة بقيادة امين باشا فانفذت المانيا حملة بقيادة ستانلي الرحالة الشهير لانقاذ امين باشا فقاسى في سبيل ذلك مشقات جسيمة تمكنت بعدها من الخروج به وببعض الحامية فدخلت مديرية خط الاستواء بحوزة الدراويش ولم يبق للحكومة من السودان المصري الا سواكن وطوكر

وقد فصلنا تاريخ التعايشي واصله وصفاته واخلاقه ومناقبه وحكومته وادارتها من حيث الجند والمالية والقضاء والبريد وسائر احوالها مطولاً في الجزء الاول من كتابنا تراجم مشاهير الشرق نكتفي منها هنا بوصف حكومته :

حكومة التعايشي وادارتها واعمالها

١ — المالية

تسمى المالية عند الدراويش « بيت المال » او هي بيوت المال يختص كل بيت منها بنوع من انواع الدخل والخرج اهمها خمسة وهي : ١ بيت المال العمومي ٢ بيت مال الملازمين ٣ بيت مال الخمس للخليفة ٤ بيت مال ورشة الحربية ٥ بيت مال ضابطة السوق

﴿ بيت المال العمومي ﴾ : هو عبارة عن الخزينة العمومية لمملكة الدراويش يجمع دخلها من المصادر الآتية : ١ الزكاة والفطرة ٢ الاسلاب والغنائم المكتسبة بالحرب ٣ العشور وهي ما يدفعه التجار على بضائعهم (المكس) ٤ ضريبة



ش ١٠٣ : عبد الله التعايشي

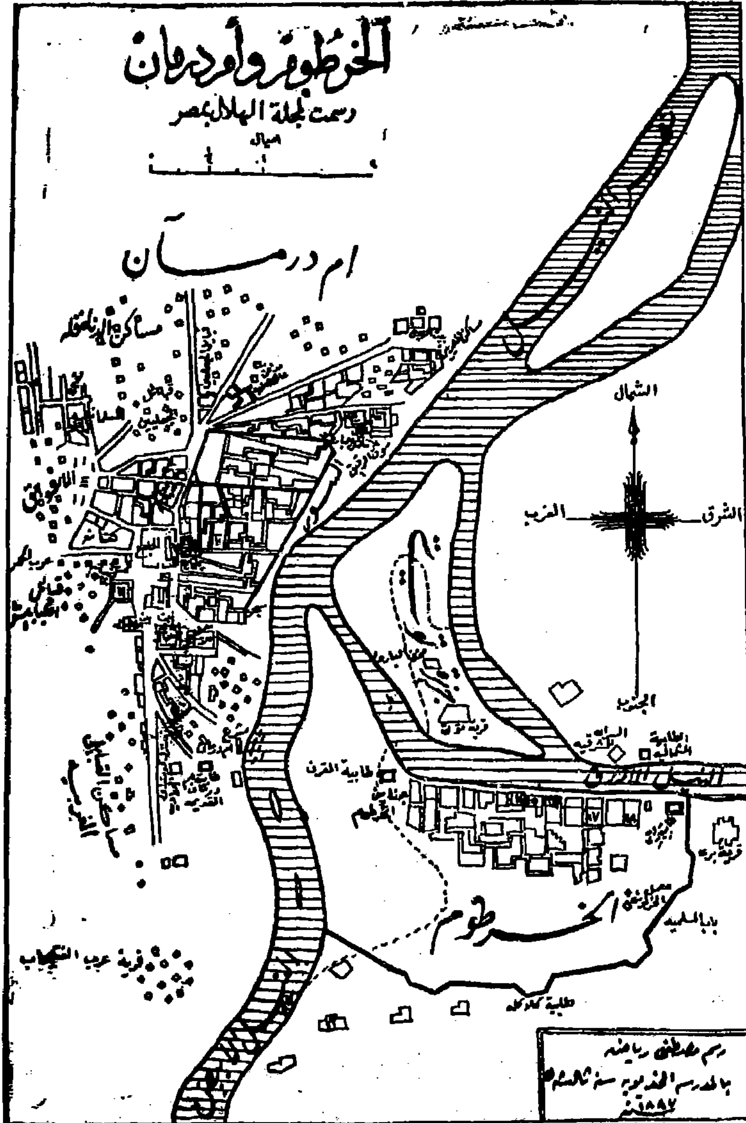
الصمغ ٥ ضريبة القوارب ٦ قروض يعقدها بيت المال مع التجار ولا ينوي دفعها ٧ ضرائب العبور في النيل من ضفة الى اخرى (المعديات) ٨ غلة الارض الواقعة غربي النيل الابيض وشرقي النيل الازرق وهي تمتد جنوباً الى كركوج وفشوده وشمالاً الى حجر العسل ٩ معين يستولي عليه بيت المال العمومي من بيوت المال الاخرى

واما نفقات بيت المال العمومي فهي : ١ نفقات نقل الجيوش ومؤنهم وذخائرهم الى المديريات والمقاطعات ٢ اعطيات الجند (رواتب الجهادية) ٣ رواتب المستخدمين ٤ الصدقات

﴿ بيت مال الملازمين ﴾ : ويراد به خزينة الملازمين وهم جند التعايشي الخصوصيين ومنهم حراسه وياورانه . يجتمع دخل هذه الخزينة من محاصيل ارض الجزيرة (بين النيلين الابيض والازرق) واما نفقاتها فمحصورة في رواتب الملازمين

﴿ بيت مال الخمس للخليفة ﴾ : وهو اشبه شيء بالخزينة الخاصة ودخله من المصادر الآتية : ١ معظم ما يفضل في خزائن المديريات بعد نفقاتها المعلومة ٢ محاصيل الجزائر الواقعة في النيل وفي جملتها جزيرة توتي تجاه الخرطوم ومحصول ارض الغنيمة ومنها حلفاية وكملين وكانتا قبلا من املاك الخاصة الخديوية ٣ عشر البضائع التي

ترد من بربر الى ام درمان ٤ اثمان العبيد الذين يرسلون من المديريات ٥ محصول اكثر البواخر والسفن. اما خرج بيت مال الخليفة فمحصور في نفقات منزله الخصوصي



ش١٠٤: خارطة الخرطوم وام درمان في زمن التعايشي

﴿ بيت مال ورشة الحربية ﴾ : ويشبه خزينة الحربية عندنا دخله من : ١ غلة

جنائن الخرطوم ٢ محصول بعض السواقي بجوار الخرطوم ٣ العاج الوارد من خط الاستواء . وخرجه من: ١ نفقات البحرية ٢ نفقات الترسانة ويسمونها بيت الامانة ٣ استخراج ملح البارود وتنقيته ٤ نفقات معمل الاسلحة



ش ١٠٥ : عبد الله التعايشي يقطع النيل ويحرض رجاله على القتال

﴿ بيت مال ضابطة السوق ﴾ : وهي خزينة الضابطة دخله من اموال السكيرين والمقامرين التي يحكم التعايشي بضبطها ومن ضريبة الحوانيت . واما نفقاته فعلى ما يأتي : ١ رواتب الضابطة من الانفار والضباط ٢ نفقات بيت الضيافة وهو ليعقوب اخي عبد الله التعايشي ٣ نفقات بناء السور الكبير لام درمان . هذه هي اقسام المالية من

الدخل والخرج اما المقادير التي تدخل وتخرج فلا تيسر معرفتها

٢ — النقود والتجارة

لما قام المهدي بدعوته ووفق الى فتح المديريات استولى على خزائنها واموال اهلها فكان ينفق مما وصل الى يديه من ذلك وهي النقود الدارجة في السودان على عهد الحكومة المبرية اهمها الريال المجيدي والريال ابو مدفع فلما اتسعت مملكته ونفدت تلك الاموال اخذ في ضرب النقود باسمه اشار عليه بضربها احمد ولد سليمان فضرب نقوداً فضية شبيهة بالريال المصري نشرنا رسمها وجنيهات شبيهة بالجنيهات المصرية . ولكنهم لم يكونوا يضبطون المقادير اللازمة من كل معدن منها . وكان الذهب قليلاً بين ايديهم فكفوا عن ضرب الجنيه واكثروا من ضرب النقود الفضية فضربوا منها ضربات عديدة تعرف باسماء خاصة بها منها « ريال المهدي » وهذا احسنها كلها ومنها « مقبول » و « ابو سدر » وكلاهما من ضرب القيرافوي . و « ابو كيس » وعليه رسم رمحين متصالبين . و « العملة الجديدة » . على انهم اخذوا ينقصون مقدار الفضة بالنسبة الى النحاس شيئاً فشيئاً حتى صارت نسبة الفضة الى النحاس كنسبة ٢ الى ٥ وكانت في بادىء الراي ٧ الى ١ اي ان الريال كان يحتوي سبعة اجزاء من الفضة وجزءاً من النحاس وهو ريال المهدي فصار يحتوي جزئين من الفضة وخمسة من النحاس وذلك دليل على فقر السودان وفساد حكومته . على ان دار ضرب النقود كان يتخذها كبار الدراويش تجارة يكتسبون بها اموالاً طائلة لانها تعطى حكراً او ضمانة ومن قوانينها ان يراسها اثنان معاً يدفع الواحد منهما ستة الاف ريال كل شهر ومايضربانه من النقود يجب ان يكون مقبولاً لدى التجار وغيرهم فاذا اعترض احد على صحتها او تمنع عن قبولها فعقابه الجلد اوسلب الاموال . فالريال صار يستبدله تجارام درمان بثمانية ريالات من العملة الجديدة ويستبدلون الريال ابا مدفع بخمسة ريالات فاضطروا ملافاة لما يلحقهم من الخسارة بهذه المعاملة ان يرفعوا اثمان بضائعهم حتى بلغ ثمن شقة البفتة الزرقاء التي يصطنعون منها ثياب النساء ستة ريالات وكان ثمنها على عهد الحكومة المصرية ثلاثة ارباع الريال . واصبح رطل السكر (الرطل ١٤٤ درهماً) بريالين . ومن الغريب ان غلاء الاثمان قاصر على البضائع الواردة من مصر اما ما يجلب من السودان فاثمانه بخسة بالنسبة الى تلك فالجمل مثلاً يساوي ستين ريالاً والبقرة مائة ريال واردب الذرة ستة ريالات والخروف خمسة ريالات فا كثر

٣ — قواته

واما قواته ومقدارما كان عنده من الذخيرة والمؤونة قبيل ذهاب دولته فمعظمها من المشاة حملة السيوف والرماح وعددهم ٤٦٠٠٠ ومن الخيالة ٦٦٠٠ ومن العساكر الجهادية ٣٤٣٥٠ وجملة ذلك نحو مائة الف وخمسة آلاف مقاتل وعدد الاسلحة ٧٤ مدفعاً و٤٠٣٥٠ بندقية هذه قوات التعايشي الرسمية ولكنها كانت تتضاعف بما ينضم اليها من القبائل القائمة بنصرته

٤ — القضاء

كان القضاء منوطاً عندهم بالقضاة وكبيرهم يسمى « قاضي الاسلام » وجميعهم آلات صماء بيد التعايشي فلا يصدرون حكماً الا كما يوحيه هو اليهم ما خلا القضايا الطفيفة من الاحوال الشخصية وما شاكلها فقضاة الدراويش بهذا الاعتبار بين جاذبين قويين ضميرهم والاحكام الشرعية من جهة وارادة التعايشي من جهة اخرى وهاك اسماء قضاة ام درمان عام ١٨٩٥

(١) حسين ولد زهرة من قبيلة الجعاليين
(٢) سليمان ولد الحجاز « « الحجاب
(٣) حسين ولد قيسو « « الحمر
(٤) احمد ولد حمدان « « العراقين
(٥) عثمان ولد احمد « « البطاحين
(٦) عبد القادر ولد ام مريم وكان قاضي كلاكلا على عهد الحكومة المصرية
(٧) محمد ولد المفتي وهو قاضي المواد الجزئية بين الملازمين

وهناك قضاة آخرون للقبائل الغربية اذا حضروا الجلسة لا يصدرون حكماً بل يبدون رايهم . اما شيخ الاسلام فهوحسين ولد زهرة المتقدم ذكره اول القضاة تلقى الفقه في مدرسة الجامع الازهر وهو اعلم اهل السودان كافة مع الميل الى العدالة وكثيراً ما اصدر احكاماً تنطبق على مقتضى الشريعة الغراء وتخالف ارادة التعايشي فاصبح التعايشي غير راض عنه تمام الرضى وقلما يدعوه لحضور الجلسات

واساس الاحكام عندهم الشريعة الاسلامية وتعاليم المهدي التي اشرنا اليها في كلامنا عن اوصاف المهدي وتعاليمه ويزعمون ان هذه التعاليم انما وضعها المهدي لاحياء ما كاد يندثر من احكام الشريعة الغراء بالاهمال . واهم تلك التعاليم الاعتقاد بان محمد احمد هو المهدي المنتظر حقيقة ومن شك في ذلك فعقابه القتل

وواجبات قاضي الملازمين الحكم فيما يعرض بين الملازمين او بينهم وبين عامة الناس

وفي الحالة الثانية فالحق دائماً في جانب الملازمين . وهناك قاضيان ملحقان ببيت المال ينظران في القضايا المتعلقة بالاحكام الشرعية من جهة بيع الرقيق وشرائه . وعندهم قاض يقيم في السوق ليحكم في الامور الخفيفة التي تعرض هناك

فتح ام درمان وذهاب دولة الدراويش

تلك حال حكومة الدراويش سنة ١٨٩٦ ثم توالى عليها النحس وجندت الحكومتان المصرية والانكليزية لقهرها بحملة مختلطة من الانكليز والمصريين بقيادة السردار



ش ١٠٦ : كتشنر باشا بعد فتح ام درمان

كتشنر باشا وجرت في اثناء الطريق من حلفا الى الخرطوم وقائع قاسى فيها الجند مشاق عديدة من جملتها واقعة الاتبرة وفيها قبضوا عَلَى الامير محمود ابن عم التعايشي وقيد اسيراً كما ترى في الشكل ١٠٧ مع نحو ٢٠٠٠ من رجاله وما كان معهم من الغنائم . واستعد السردار من هناك للزحف عَلَى ام درمان

و بلغ التعايشي ذلك فجمع ذوي شوراه فاشار عليه بعضهم بالهجرة فغضب وامر بضرب

ذلك الناصح وقال « اني محارب حتى اقتل » وامر بالتحصين وبناء الطوابي لاتقاء نيران مدافع العدو التي ستطلق عليهم من النيل . ولم يجده ذلك نفعاً فان الجنود المتجدة وصلت ام درمان في ٢ سبتمبر سنة ١٨٩٨ وخرج التعايشي لملاقاتها . وبعد ثلاث هجمات متوالية اضطر التعايشي للفرار بعد ان يئس من الفوز وتحقق ان اخاه يعقوب قد مات .



ش ١٠٧ : الامير محمود ابن عم التعايشي وهو اسير

واحتل الجند المتحدام درمان ورفعوا عليها الرايتين المصرية والانكليزية ولما علم السردار بفراره بعث في اثره كوكبة من السواري ومعهم سلاتين باشا براً وارسل مدرعتين بحراً فعادوا ولم يدركوه

وفي اليوم التالي استولوا على اوراق الخليفة وكتبه من بيته . وامر السردار بنسف قبة

المهدي ونبش قبره و بعث الجمجمة الى معرض التحف في لندن و بعثرت سائر عظامه .
ثم قصدوا بيت يعقوب اخي الخليفة وكانوا يظنون المال فيه فلم يجدوا شيئاً وتحققوا بعدئذ
ان بعض رجال يعقوب لما تحققوا موته اتوا وخلعوا الابواب واخذوا الاموال . ثم ذهبوا الى
بيت المال فلم يجدوا فيه ما يستحق الذكر الا ٢٠٠ قنطار عاج . ثم ذهبوا الى سجن الخليفة
واطلقوا من كان فيه من المساجين وكلهم من موظفي الحكومة وعددهم نحو ١٤٠٠ رجل
بين ملكي وعسكري

و بعد قليل نزل السردار كتشنر باشا الى مصر ونال عَلَى هذا الفتح مكافأة جزيلة وسمي
لورد الخرطوم ورقي الكولونيل ونجت بك مدير قلم المخابرات الى رتبة لواء وسمي ادجوتنت
جنرال للجيش المصري . وحاولوا القبض عَلَى التعايشي عبثاً وكانوا كلما طلبوه من مكان فر الى
سواه حتى علم ونجت باشا في اواخر سنة ١٨٩٩ ان التعايشي يتحفز للهجوم عَلَى ام درمان وعلم
بمكانه فحمل عليه وحاربه في جديد حتى قتل في ٢٤ نوفمبر من تلك السنة وقتل معهُ
الخليفة علي ود حلو واحمد فضيل والسنوسي احمد اخو الخليفة من امه وهارون محمد اخوهُ
وغيرهم وغنموا ما كان معهم من الذخيرة والاموال وانقضت بذلك دولة الدراويش

وصارت السودان من ذلك الحين تحت سيطرة الدولتين الانكليزية والمصرية
وسنذكر نص الوفاق في كلامنا عن ولاية سمو الخديوي الحالي

عود الى ولاية توفيق باشا

قد فرغنا من الكلام عَلَى الحوادث السودانية الى اخرها وان تجاوزنا زمن الخديوي
السابق رغبة في ترابط الحوادث فلنعد الى ما كان من احوال مصر بعد ما ذكرناه عَلَى اثر
الحوادث العرابية ونفي العرابيين فنقول :

اول شيء باشرته انكلترا بعد قهر العرابيين واعادة السيادة الى الجناب الخديوي انها
انفذت اللورد دوفرين معتمداً من قبلها لتسوية المسائل المصرية وتنظيم تقرير بشأنها ولم يكن
ذلك برضا الباب العالي . واخذ اللورد دوفرين منذ وصوله الى القاهرة يجتمع بالخديوي
والوزراء و يتداول معهم في المسائل التي يجب النظر فيها بعد ان درس احوال البلاد و بحث
بنفسه عن الامور التي كان عازماً عَلَى وضعها . ثم حرر تقريره المشهور وارسله الى لندن في
٦ فبراير سنة ١٨٨٣ م بحث فيه بحثاً دقيقاً في حالة مصر السياسية والقضائية والمالية ودقق
عَلَى الخصوص بديون الفلاحين . ثم شرع الانكليز في الغاء المراقبة الانكليزية الفرنساوية
للانفراد بالعمل فكبر ذلك عَلَى فرنسا ولكنها لم تستطع امراً يمنع الغاءها فالغيت وجعل



ش ١٠٨ : اللورد دوفرين

في مكانها بامر الحضرة الخديوية موظف مصري دعوه مستشاراً مالياً وله الحق ان يحضر في جلسات مجلس النظار فتعين السير اوكلاند كولفن في هذا المنصب

اصلاحات جديدة

وفي اول مايو سنة ١٨٨٣ صدر الامر العالي بتشكيل المجالس الجديدة وغيرها على هذه الصورة :

١ مجالس المديريات : مجلس في كل مديرية ويكون لها ان تقرر رسوماً فوق العادة لصرفها في منافع عمومية تتعلق بالمديرية انما لا تكون قراراتها في هذا الشان قطعية الا بعد تصديق الحكومة عليها

٢ مجلس شورى القوانين : وفائدته النظر في القوانين التي تسن حديثاً قبل نشرها ولا يجوز اصدار قانون او امر يشتمل على لائحة ادارة عمومية ما لم يتقدم ابتداء الى هذا المجلس لاخذ رايه فيه . وان لم تعول الحكومة على رايه فعليها ان تعلمه بالاسباب التي اوجبت ذلك انما لا يترتب على اعلانه بهذه الاسباب جواز مناقشة فيها

٣ الجمعية العمومية : وهذه لا يجوز ربط اموال جديدة او رسوم عَلَى منقولات او عقارات او عوائد شخصية في القطر المصري الا بعد مباحثة الجمعية العمومية في ذلك واقرارها عليه

٤ مجلس شورى الحكومة : صدر الامر بتشكيله وتاجل بيان اعماله

ثم شرعت الحكومة في تنظيم الجيش المصري الجديد بعد ما الغت الجيش القديم عَلَى ما تقدم فانتخبت من الضباط من لم يكن له يدٌ في الحوادث العرابية واخذت بعد ذلك في تنظيم الجندرمة والبوليس وجعلت السير افلن وود قائداً عاما للجيش المصري وباكر باشا قائداً للجندرمة والبوليس فكان عدد الجندرمة ٢٠٠٠ فارس و ٣٠٠٠ ماش . ثم تعين الجنرال السير افلن وود سرداراً للجيش المصري ورئيساً لاركان حربه . فاختار لمساعدته عدداً من الضباط الانكليز جعلهم في اركان حربه وعهد اليهم قيادة الفرق لتعليمها الحركات العسكرية

ثم نظمت المجالس المحلية ووضع لها قوانين عادلة وتعين لها رجال يقبضون عَلَى ازمتها وقد انصرف اليها همّ اللورد دوفرين فتشكلت لجنة تحت رئاسة نخري باشا لانتقاء اللائقين الذين يجب انتخابهم ليعهد اليهم بالعمل والادارة . واهتم مجلس النظار في مسألة القضاة الاوربيين فقررت لجنة التعديل ان يكون في كل مجلس ابتدائي اوربيان وفي الاستئنافي اربعة . وفي ٨ شعبان سنة ١٣٠٠ هـ (١٤ يونيو سنة ١٨٨٣ م) صدر الامر الخديوي بترتيب هذه المحاكم ولائحة قوانينها . ثم صدر الامر الخديوي بكل من القانون المدني والتجارة البرية والبحرية والمرافعات وتحقيق الجنايات

ثم اشارت انكلترا على مصر بعد تبديد جيش هيكس باشا باخلاء السودان . فقبلت ولم يقبل شريف باشا رئيس وزارتها فاستعفى وخلفهُ نوبار باشا في ٨ يناير سنة ١٨٨٤ وتكاثرت الاشاعات على اثر ذلك عن مقاصد انكلترا بمصر وكثر القيل والقال حتى بين رجال انكلترا انفسهم . ثم عقد مؤتمر دولي في يونيو سنة ١٨٨٤ في لندن تحت رئاسة اللورد غرانفيل ناظر خارجية انكلترا للبحث في امور كثيرة تتعلق بمصر فقرر تعديلات كثيرة انتهت بلا نتيجة فلا حاجة الى ذكرها

وفي ذي القعدة سنة ١٣٠١هـ (اوائل سبتمبر سنة ١٨٨٤م) وفد على القطر المصري اللورد نورثبروك معتمداً من انكلترا للنظر في المسألة المالية واحوال الادارة الداخلية مستصحباً معهُ القاضي الهندي سميع الله خان بناءً على رغبة اللورد في انتخاب قاضٍ مسلم يصحبه الى مصر ويكون شريكاً له في هذه المهمة فتحدث الناس كثيراً بسبب قدوم هذا المعتمد . اما هو فاخذ في ملاحظة ما اتى من اجله وطاف البلاد شهلا

وجنوباً . وبعد ان قضى اياماً طوالاً عاد الى بلاده وحرر تقريراً رفعهُ الى حكومته فلم يحز قبولاً فنسجت عليه عناكب النسيان

وعاد الباب العالي الى الاحتجاج على الاحتلال الانكليزي وبعد المخابرة مع انكلترا تمَّ الاتفاق في اكتوبر سنة ١٨٨٥ م على ارسال مختار باشا الغازي معتمداً عن



ش ١٠٩ : مختار باشا الغازي

الدولة العلية في مصر وان تُرسل انكلترا معهُ معتمداً اسمه السير وولف . فجاءَ مختار باشا وما زال مقيماً الى عهد قريب احتجاجاً حياً على الاحتلال الانكليزي

النقود المصرية الجديدة

ثم اهتمت الحكومة باصلاح نقودها بانشاء نقود جديدة وما زالت المسألة تحت البحث الى اواخر سنة ١٨٨٥ م فصدر امر عال بتاريخ ٧ صفر سنة ١٣٠٣ هـ او ١٤ نوفمبر سنة ١٨٨٥ م مؤذن بضربها . وفي اواخر سنة ١٨٨٧ م ظهرت وتداولتها الايدي وهي مبنية على حساب الكسور العشرية تسهيلاً للمعاملة . وكيفية ذلك انهم

جعلوا قيمة الجنيه المصري مائة غرش كما كان قبلاً وقسموهُ الى الف جزء دعوا الواحد منها مليماً أي جزء من الف . فالمليم هو جزء من الف من الجنيه المصري والغرش عشرة مليمات والريال مائتا مليم (عشرون غرشاً) وهكذا . والجنيه واجزاؤه مصنوعة من الذهب والريالات واجزاؤها من الفضة والمليم ومركباته الى ابي العشر مليمات من النيكل . وقسموا المليم الى نصفين يعرف الواحد منهما بنصف عشر الغرش وقسموا كلا من هذين القسمين الى نصفين يعرف الواحد منهما بربع عشر الغرش أي جزء من اربعين من الغرش وهي البارة وجميع اجزاء المليم مصنوعة من النحاس

وترى في شكل ١١٠ مثال النقود المضروبة حديثاً وهذه القطعة تعرف بنصف ريال وقيمتها عشرة غروش او مائة مليم. وترى على احد وجهيها من الاسفل تاريخ سنة ١٢٩٣ ﻫ وهي السنة التي تولى بها السلطان عبد الحميد الخلافة العثمانية . ومن الاعلى رقم عشرة وهي السنة العاشرة من توليته وفيها ضربت هذه النقود . وترى على الوجه الآخر الطغراء العثمانية باسم عبد الحميد والى اسفلها رقم عشرة تحتهُ حرف ش للدلالة على قيمة هذه القطعة اي عشرة غروش



ش ١١٠ : النقود المصرية الجديدة

اما قيم النقود الاجنبية بالنسبة للنقود المصرية فعلى الوجه الآتي :

	بارة	غروش صاغ	او مليماً
الليرة الانكليزية تساوي	٢٠	٩٧	٩٧٥
« العثمانية «	٣٠	٨٧	٨٧٧½
« الفرنساوية (فانتي)	٠٦	٧٧	٧٧١¼

ومتى عرفت قيم الليرات يمكنك استخراج قيم اجزائها

وفي السنة التالية (١٥ ابريل سنة ١٨٨٦) قررت الحكومة المصرية اقتضاء ضرائب المنازل من الاجانب كما كانت تقتضيها من الوطنيين . وكان الاجانب معفين منها الى ذلك الحين

وفاق بشأن الجلاء

وفي ١٧ ربيع آخر سنة ١٣٠٤ هـ او ١٣ يناير سنة ١٨٨٧ م الحَّ الباب العالي على الحكومة الانكليزية ان تعين زمن انجلاء جيوشها عن القطر المصري . فاجابت انها لا يمكنها ذلك الا متى استتب النظام فيها. وفي ٣ فبراير تقرران يكون جيش الاحتلال منحصراً في ثلاثة مراكز فيقيم في القاهرة ٢٩٠٠ جندي وفي الاسكندرية ٩٠٠ وفي اصوان ٤٠٠٠ وفي ١٥ جمادى الاولى او ٩ فبراير اقترح السير وولف معتمد انكلترا في الاستانة على الباب العالي الاقتراحات الآتية بما يتعلق بمصر وهي :

١ استقلال مصر تحت سيادة جلالة السلطان والغاء العهود والامتيازات القنصلية

٢ ان تكون حالة مصر من قبيل الحياد على مثال حالة بلجيكا

٣ حرية المرور في قنال السويس في زمني الحرب والسلم

٤ اخلاء انكلترا للقطر المصري بعد ان تجمع الدول على وجوب ذلك

فتلقى جلالة السلطان هذه الاقتراحات بفتور وطلب ان يتقدم كل ذلك تحديد انكلترا زمن الجلاء . وبعد النظر في هذه الاقتراحات مدة يومين رفضت

و ٢٥ رجب سنة ١٣٠٤ هـ او ١٩ افريل سنة ١٨٨٧ م توفي شريف باشا رئيس مجلس النظار سابقاً وهو في اوربا يسعى في ترويح النفس فاسف الجميع على فقده وحملت جثته الى مصر ودفنت فيها

وفي ١١ شعبان او ٥ مايو منها عرضت انكلترا على الباب العالي ان يكون زمن احتلالها لمصر خمس سنوات فطلب الباب العالي ان يكون ثلاث سنوات ولم يتقرر شيءٌ . وفي اوائل يونيو عرض على البـاب العالي وفاق بينهُ وبين انكلترا بشأن مصر وهاك نصه :

١ تبقى مصر كما هي حسب نصوص الفرمانات السلطانية

٢ يبقى خليج السويس على الحياد وتضمن الدول سلامة مصر

٣ تبقى العساكر الانكليزية في مصر مدة ٣ سنوات وعند انقضائها يلبث الضباط الانكليز في رئاسة الجيش المصري سنتين

٤ لا تخرج انكلترا عساكرها من مصر بعد ختام السنة الثالثة من التوقيع على الوفاق اذا حدث اضطراب جديد في مصر داخليّاً كان ام خارجيّاً

٥ يحق لانكلترا احتلال مصر بمساعدة العساكر العثمانية اذا وقع اختلال بها او خشي ان ترسل دولة اجنبية عساكرها الى مصر

٦ تستدعي الدولة العلية وانكلترا بقية الدول للتصديق على هذا الوفاق وتطلبان من الدولة اجراء بعض التعديلات في المعاهدات الدولية المخولة للاجانب في مصر جملة امتيازات

وبعد المخابرات الطويلة بشأن هذا الوفاق رفض الباب العالي المصادقة عليه

وفي ٩ يونيو سنة ١٨٨٨ سقطت الوزارة النوبارية وعهد الخديوي بتشكيل وزارة جديدة الى رياض باشا والناس ما فتئوا منذ اعتزال رياض باشا الاعمال بعد حادثة عرابي يشخصون اليه بابصارهم وقد احاطت به آمالهم لما اشتهر به من الحب للشعب المصري ورغبته في اصلاح البلاد ولما له من الولع الخاص بالزراعة وهو مشهور بذلك شهرة تضاهي شهرته في حب العلم وتنشيط ذويه . ومن مبادئه حرية الضمير والصرامة في اتباع الحق من حيث هو . وكثيراً ما قاده ذلك الى التنحي عن قبول منصب الوزارة في الاحوال التي كان يخشى معها تقييد افكاره ومخالفة مبادئه . فعند ما سقطت الوزارة النوبارية لم يكن الناس يصدقون ان رياض باشا يقبل ان يشكل وزارة جديدة . فلما انبأهم البرق بجلوسه على دستها وتقلده اعمال نظارتي الداخلية والمالية كادوا يطيرون على اجنحة الآمال وتطاولت اعناقهم استطلاعاً لما سيكون من امر هذه الوزارة الجديدة

وفي ايام وزارته انشئت المحاكم في الصعيد وتم ترميم القناطر الخيرية . وقد ادار شؤون الحكومة بحزم وصدق نية لكنه اغضب كثيرين واضطر الى الاستقالة في ٢٤ مايو سنة ١٨٩١ فخلفه مصطفى باشا فهمي وظلت مقاليد الوزارة في قبضته حتى تولى الخديوي الحالي



عباس باشا حلمي

الخديوي الحالي

ولد سنة ١٨٧٤ وتولى العرش الخديوي سنة ١٨٩٢



ش ١١١ : عباس باشا حلمي الخديوي الحالي

حياته الشخصية

هو بكر الخديوي السابق ولد في ١٤ يوليو سنة ١٨٧٤ ولما توفي والده سنة ١٨٩٢ كان سموه اعزه الله في مدرسة فينا . وكان قبل ذهابه اليها قد تثقف في مدرسة عابدين التي شادها والده له ولدولة شقيقه البرنس محمد علي . فلما اتما دروسهما فيها ارسلهما والدهما الى مدرسة جنيف بسويسرة فمكثا فيها مدة يجدان في تحصيل العلوم . ثم برحاها الى فينا وانتظما في مدرستها الملوكية العليا . وفي اثناء اقامتهما في تلك المدرسة استأذنا والدهما

المرحوم بالتجول في انحاء اوربا لاستطلاع احوال تلك المدنية من مصادرها . فزارا المانيا وانكلترا وروسيا وايطاليا وفرنسا ولقيا من ملوك هذه الممالك ترحاباً حسناً وزارا الممالك الاخرى

وفي سنة ١٨٨٩ عادا الى مصر واستأذنا والدهما المرحوم في زيارة معرض باريس لذلك العام فاجابهما الى ذلك فلقيا هناك ترحاباً جيلاً وعادا الى المدرسة . وفي سنة ١٨٩١ عادا الى مصر في اثناء راحة المدرسة ثم رجعا الى المدرسة في فينا . وفي ٨ يناير من السنة التالية عام ١٨٩٢ جاءهما النبأ البرقي بوفاة الخديوي السابق فاصبح سمو اكبرهما مولانا الامير خديوياً على مصر من ذلك اليوم . ثم جاءته رسالة الصدر الاعظم بتثبيته على ذلك العرش فاسرع الى مقر حكومته فوصل الاسكندرية في ١٦ يناير المذكور فاحتفل القطر بقدومه احتفالاً يليق بمقامه

واشتهر سمو الخديوي بانعطاف المصريين اليه اكثر مما الى كل خديوي سواه لما يلاقونه من دعته ولطفه وصدق محبته لهم . ويمتاز عصره عن عصور سائر اسلافه بنهضة الاقلام واتساع نطاق الصحافة واطلاق حرية المطبوعات وتكاثر المطابع والجرائد والمجلات والمكاتب وسائر عوامل النهضة العلمية

وهو اوسع الخديويين اطلاعاً على اسباب المدنية الحديثة لانه تثقف في مدارس اوربا مع كثرة اسفاره اليها والى الاستانة . ولد ولي عهده البرنس محمد عبد المنعم في ٢٠ فبراير سنة ١٨٩٩ وقد عهد بتعليمه وتثقيفه الى شكري باشا وهو من احسن العارفين بما يقتضيه منصب امير مصر من الاصول والقواعد التي يجب ان يروض بها ولي العهد

وقد سافر سموه الى الحرمين سنة ١٣٢٧هـ (١٩٠٩) لقضاء فريضة الحج فبرح موكبه القاهرة في ٢٩ ذي القعدة سنة ١٣٢٧ (١١ دسمبر سنة ١٩٠٩) فوصل جدة في ١٤ دسمبر وحلت ركابه في مكة فزار مناسك الحج وادى فرائضه وكان موضوع الاحترام والاعجاب حيثما حل ثم يمم المدينة فادى الزيارة وبرحها في ١٥ يناير سنة ١٩١٠ فوصل مصر في ٢٥ منه فزينت له العاصمة زينة لم يسبق لها مثيل

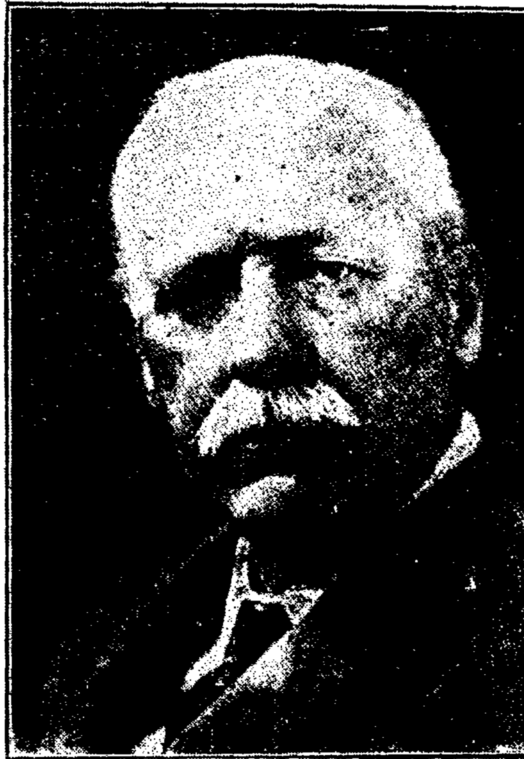
الوزارات في ايامه

وقد تقلب في ايام سموه وزراء هذه اسماء رؤسائها وتاريخ تشكيلها :

وزارة مصطفى باشا فهمي تشكلت	في ١٤ مايو سنة ١٨٩١	
« رياض باشا	«	« ١٨ يناير « ١٨٩٣
« نوبار باشا	«	« ١٤ افريل « ١٨٩٤

وزارة مصطفى باشا فهمي تشكلت في ١١ نوفمبر سنة ١٨٩٥
« بطرس باشا غالي « « ١٠ « « ١٩٠٨[١]
« محمد سعيد باشا « « ٢١ فبراير « ١٩١٠

وكل ما اجرته حكومة مصر على عهد الجناب الخديوي انما جرى على ايدي وزرائه شأن الحكومات الدستورية الكبرى مع ما تقتضيه حالة مصر السياسية من قبول مشورة المحتلين بلسان عميدهم . وكان العميد في اول حكم سمو الخديوي اللورد كرومر



ش ١١٢ : اللورد كرومر

وما زال اللورد كرومر في هذا المنصب الى ٦ مايو سنة ١٩٠٧ فابدلته انكلترا بالسير الدون غورست . وفي زمن اللورد كرومر تمكن نفوذ الانكليز في مصر وكثر نوابهم في الحكومة المصرية وهم المستشارون . ولا تخلو نظارة من مستشار او وكيل

(١) يمتاز تاريخ بطرس باشا غالي عن تواريخ سائر وزراء مصر انه مات مقتولاً عمداً بيد شاب اسمه ابراهيم الورداني تربص له وهو خارج من النظارة في رابعة النهار واطلق عليه عدة رصاصات مات على اثرها ثم حوكم القاتل وقتل

فضلاً عن المفتشين والمهندسين والقضاة ورؤساء المصالح ومديريها وغيرهم . فاعمال الحكومة المصرية يجريها الوزراءُ باسم الجناب الخديوي وبمصادقة سموه ومشورة الانكليز . وتسهيلاً لتفهم الاعمال التي تمت على عهد سموه نقسمها الى ابواب نبحث في كل منها على حدة فنقول :

١ — الاعمال السياسية

نريد بهذا الباب ذكر ماجرى في زمن الجناب الخديوي مما يتعلق بالدول الاخرى وليس هو من قبيل ادارة البلاد الداخلية . واول تلك الاعمال تحديد تخوم مصر في الفرمان الشاهاني . فقد صدر الفرمان المذكور في ٢٧ شعبان سنة ١٣٠٩ او ٢٦ مارس ١٨٩٢ وفيه اختلاف عن الفرمان الصادر للمرحوم توفيق الخديوي السابق من حيث حدود مصر الشرقية عند شبه جزيرة سينا . فدارت المخابرات بين وزارة خارجية انكلترا والباب العالي بهذا الشأن حتى اصدر الصدر الاعظم ملحقاً تلغرافيا يخوّل الحكومة المصرية فيه ادارة شبه جزيرة سينا مؤرخاً في ٨ ابريل من تلك السنة . وهذا نص الفرمان المذكور بعد المقدمة :

فرمان الخديوي الحالي

« انه لدى وصول توقيعنا الهمايوني الرفيع يكون معلوماً لكم انه بناء على ما قضى به الله من انتقال جنتمكان محمد توفيق باشا خديوي مصر الى رحمته تعالى واعلاماً بجليل التفاتنا ونظراً الى حسن خدامتكم وصداقتكم واستقامتكم لذاتنا الشاهانية ولمنافع دولتنا العلية ولما هو معلوم لدينا من ان لكم وقوفاً ومعلومات تامة بخصوص الاحوال المصرية وانكم كفء لاصلاحها وجهنا الى عهدتكم الخديوية المصرية المحدودة بالحدود القديمة المبينة في الفرمان الشاهاني الصادر بتاريخ ٢ ربيع الثاني سنة ١٢٥٧ هـ والمبينة ايضاً في الخريطة الملحقة بالفرمان المذكور مع الاراضي المنضمة اليها طبقاً للفرمان الشاهاني الصادر بتاريخ ١٥ ذي الحجة سنة ١٢٨١ هـ وذلك بمقتضى ارادتنا الشاهانية الصادرة في ٧ جمادى الثانية سنة ١٣٠٩ هـ ولانكم اكبر اولاد جنتمكان الخديوي المتوفى وجهت الى عهدتكم الخديوية المصرية توفيقاً للقاعدة المقررة بالفرمان الشاهاني الصادر في ١٢ محرم سنة ١٢٨٣ هـ القاضي بان الخديوية المصرية تؤول الى اكبر الاولاد البكر فالبكر

« ولما كان تزايد عمران الخديوية المصرية وسعادتها وتأمين راحة اهليها ورفاهيتهم هي من المواد المهمة لدينا ، ومن اجل مرغوبنا ومطلوبنا كنا وجهنا فرماناً شاهانياً

لتحقيق هذه الغاية الحميدة بتاريخ ١٩ شعبان سنة ١٢٩٦ﻫ الى جنتمكان والدكم بتوليته الخديوية المصرية وضمناه المواد الآتية :

« ان جميع ايرادات الخديوية المصرية يكون تحصيلها واستيفاؤها باسمنا الشاهاني وحيث ان اهالي مصر ايضاً من تبعة دولتنا العلية وان الخديوية المصرية ملزمة بادارة امور المملكة الملكية والمالية والعدلية بشرط ان لا يقع في حقهم ادنى ظلم ولا تعدٍّ في وقت من الاوقات . فخديوي مصر يكون مأذوناً بوضع النظامات اللازمة الداخلية المتعلقة بهم وتأسيسها بصورة عادلة . وايضاً يكون خديوي مصر مأذوناً بعقد وتجديد المشارطات مع مأموري الدول الاجنبية بخصوص الجمرك والتجارة وكافة امور المملكة الداخلية لاجل ترقي الحرف والصنائع والتجارة واتساعها ولاجل تسوية المعاملات السائرة التي بين الحكومة والاجانب او الاهالي والاجانب مع امور ضابطة الاجانب بشرط عدم وقوع خلل بمعاهدات دولتنا العلية البوليتيقية وفي حقوق متبوعية مصر لها ولكن قبل اعلان الخديوية المشارطات التي تعقد مع الاجانب بهذه الصورة يصير تقديمها الى بابنا العالي . وايضاً يكون حائزاً للتصرفات الكاملة في امور المالية لكنه لا يكون مأذوناً بعقد استقراض بوجه من الوجوه . وانما يكون مأذوناً بعقد استقراض بالاتفاق مع المداينين الحاضرين أو وكلائهم الذين يتعينون رسمياً وهذا الاستقراض يكون منحصراً في تسوية احوال المالية الحاضرة ومخصوصاً بها . وحيث ان الامتيازات التي اعطيت لمصر هي جزء من حقوق دولتنا العلية الطبيعية التي خصت بها الخديوية واودعت لديها فلا يجوز لاي سبب او وسيلة ترك هذه الامتيازات جميعها او بعضها او ترك قطعة ارض من الاراضي المصرية للغير مطلقاً ويلزم تأدية مبلغ ٧٥٠ الف ليرة عثمانية الذي هو الويركو المقرر دفعه في كل سنة في اوانه . وكذلك جميع النقود التي تضرب في مصر تكون باسمنا الشاهاني ولا يجوز جمع عساكر زيادة عن ثمانية عشر الفاً لان هذا القدر كاف لحفظ امنية بلاد مصر الداخلية في وقت الصلح . ولكن حيث ان قوة مصر البرية والبحرية مرتبة كذلك من اجل دولتنا يجوز ان يزاد مقدار العساكر بالصورة التي تستدعي فيها حالة دولتنا العلية محاربة وتكون رايات العساكر البرية والبحرية والعلامات المميزات لرتب ضباطهم كرايات عساكرنا الشاهانية ونياشينهم . ويباح لخديو مصر ان يعطي الضباط البرية والبحرية الى غاية رتبة امير الاي والملكية الى الرتبة الثانية . ولا يرخص لخديوي مصر ان ينشيء سفناً مدرعة الا بعد الاذن وحصول رخصة صريحة قطعية اليه من دولتنا العلية . ومن اللزوم المحافظة على كل الشروط

السالفة الذكر واجتناب وقوع حركة تخالفها وحيث صدرت ارادتنا السنية باجراء المواد السابق ذكرها قد اصدرنا امرنا هذا الجليل القدر الموشح اعلاه بخطنا الهمايوني وارسلناه »

« تحريراً في « ٢٧ شعبان المعظم سنة ١٣٠٩ من هجرة صاحب العزة والشرف »

وهذا تلغراف الصدر الاعظم المتمم له :

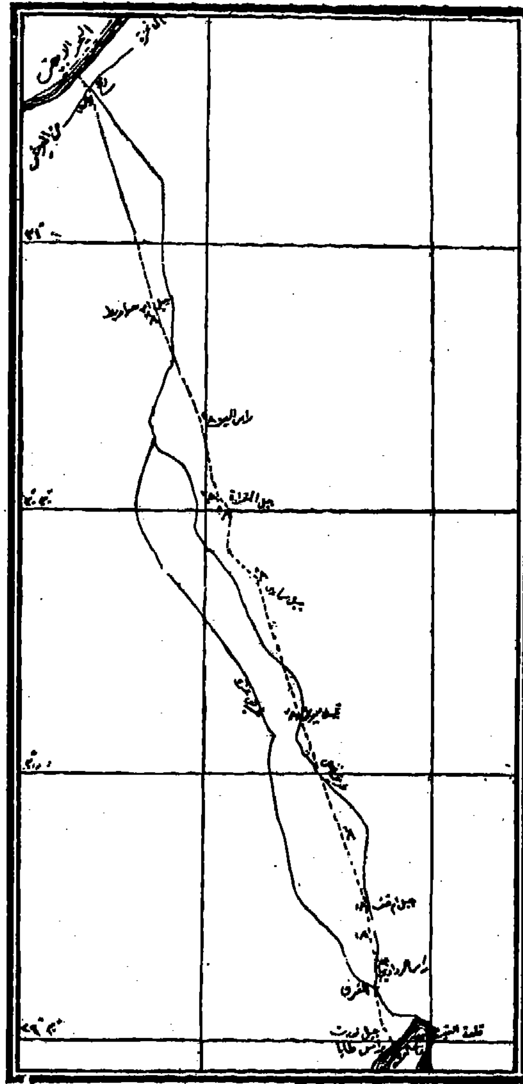
« معلوم لدى جنابكم العالي ان جلالة مولانا السلطان الاعظم كان قد صرح للحكومة المصرية بوضع عدد كاف من الجند بجهات الوجه والمويلح وطابا والعقبة الواقعة على شواطيء الحجاز . وكذلك في بعض جهات من شبه جزيرة طورسينا بسبب مرور المحمل المصري من طريق البر

« ولما كانت جميع هذه الجهات غير مبينة اصلاً في خريطة سنة ١٢٥٧ هـ المسلمة الى جنتمكان محمد علي باشا المبينة بها الحدود المصرية لذلك اعيد الوجه اخيراً الى ولاية الحجاز بمقتضى ارادة شاهانية كما اعيد اليها طابا والمويلح وضمت العقبة كذلك الان الى الولاية المذكورة . اما من جهة شبه جزيرة طورسينا فهي باقية على حالتها وتكون ادارتها بمعرفة الخديوية المصرية بالكيفية التي كانت مدارة بها في عهد جدكم اسماعيل باشا ووالدكم محمد توفيق باشا » اهـ

حدود مصر من الشرق

ثم وقع خلاف في اواخر سنة ١٩٠٦ على تلك الحدود الفاصلة بين مصر والشام وبعد مداولات طويلة بين مصر والباب العالي اتفق الجانبان على تعيين لجنة ينتدبها الباب العالي واخرى تنتدبها مصر . وقد انتخبت اللجنتان واجتمعتا على الحدود واقرتا على اتفاقية رسمية مؤرخة في اول اكتوبر سنة ١٩٠٦ وهذا نص موادها المتعلقة بالحدود وصورة الخريطة التي رسمت لايضاح ذلك :

المادة الاولى — يبدأ الخط الفاصل الاداري كما هو مبين بالخريطة المرفقة بهذه الاتفاقية من نقطة راس طابا الكائنة على الساحل الغربي لخليج العقبة ويمتد الى قمة جبل فورت ماراً على رؤوس جبال طابا الشرقية المطلة على وادي طابا ثم من قمة جبل فورت يتجه الخط الفاصل بالاستقامات الآتية — من جبل فورت الى نقطة لا تتجاوز مائتي متر الى الشرق من قمة جبل فتحي باشا ومنها الى النقطة الحادثة من تلاقي امتداد هذا الخط بالعامود المقام من نقطة على مائتي متر من قمة جبل فتحي باشا على الخط الذي يربط مركز تلك القمة بنقطة المفرق (المفرق هو ملتقى طريق غزة الى العقبة



ش ١١٣ : خريطة الحدود بين مصر والشام

بطريق نخل الى العقبة) ومن نقطة التلاقي المذكورة الى التلة التي الى الشرق من مكان ماء يعرف بثميلة الردادي والمطلة على الثميلة (بحيث تبقى الثميلة غربي الخط) — ومن هناك — الى قمة راس الردادي المدلول عليها بالخريطة المذكورة اعلاه بـ A ٣ ومن هناك الى راس جبل الصفرة المدلول عليه بـ A ٤ — ومن هناك الى راس

القمة الشرقية لجبل ام قف المدلول عليها بـ A ٥ ومن هناك الى نقطة مدلول عليها بـ A ٧ الى الشمال من ثميلة سويلمه ومنها الى نقطة مدلول عليها بـ A ٨ الى غرب الشمال الغربي من جبل سماوى — ومن هناك الى قمة التلة التي الى غرب الشمال الغربي من بئر المغارة (وهو بئر في الفرع الشمالي من وادي مابين بحيث تكون البئر شرقي الخط الفاصل) — ومن هناك الى A ٩ — ومنها الى A ١٠ غربي جبل المقراة — ومن هناك الى راس العين المدلول عليه بـ A ١١ — ومن هناك الى نقطة جبل ام حواويط مدلول عليها بـ A ١٢ ومن هناك الى منتصف المسافة بين عامودين قائمين تحت شجرة على مسافة ثلثمائة وتسعين متراً الى الجنوب الغربي من بئر رفح والمدلول عليه بـ A ١٣ ومن هناك الى نقطة التلال الرملية في اتجاه مائتين وثمانين درجة (٢٨٠) من الشمال المغناطيسي (اعني ٨٠ درجة الى الغرب) وعلى مسافة اربعمائة وعشرين متراً في خط مستقيم من العامودين المذكورين — ومن هذه النقطة يمتد الخط مستقيماً باتجاه ثلثمائة واربعة وثلاثين درجة (٣٣٤) من الشمال المغناطيسي (اعني ٢٦ درجة الى الغرب) الى شاطيء البحر الابيض المتوسط ماراً بتلة خرائب على ساحل البحر الاحمر

المادة الثانية — قد دل على الخط الفاصل المذكور بالمادة الاولى بخط اسود متقطع في نسختي الخريطة المرفقة بهذه الاتفاقية والتي يوقع عليها الفريقان ويتبادلانها بنفس الوقت الذي يوقعان فيه على الاتفاقية ويتبادلانها

المادة الثالثة — تقام اعمدة على طول الخط الفاصل من النقطة التي على ساحل البحر الابيض المتوسط الى النقط التي على ساحل خليج العقبة بحيث ان كل عامود منها يمكن رؤيته من العامود الذي يليه وذلك بحضور مندوبي الفريقين

المادة الرابعة — يحافظ على اعمدة الخط الفاصل هذه كل من الدولة العلية والخديوية الجليلة المصرية

المادة الخامسة — اذا اقتضى في المستقبل تجديد هذه الاعمدة او الزيادة عليها فكل من الطرفين يرسل مندوباً وتطبق مواقع العمد التي تزاد على الخط المدلول علية في الخريطة

المادة السادسة — جميع القبائل القاطنة في كلا الجانبين لها حق الانتفاع بالمياه حسب سابق عاداتها اي ان القديم يبقى على قدمه فيما يتعلق بذلك وتعطى التأمينات اللازمة بهذا الشأن الى العربان والعشائر وكذلك العساكر الشاهانية وافراد الاهالي والجندرمة ينتفعون من المياه التي بقيت غربي الخط الفاصل

المادة السابعة ـ لا يؤذن للعساكر الشاهانية والجندرمة بالمرور الى غربي الخط الفاصل وهم مسلحون

المادة الثامنة ـ تبقى اهالي وعربان الجهتين على ما كانت عليه قبلاً من حيث ملكية المياه والحقول والاراضي في الجهتين كما هو متعارف بينهم « انتهى »

اتفاقية السودان

قد تقدم في كلامنا عن الحوادث السودانية ان السودان استرجع سنة ١٨٩٧ بحملة مؤلفة من الجندين الانكليزي والمصري فاقتضى ذلك ان يكون للدولتين معاً. وقد وضعنا وفاقاً بهذا الشأن وقعت عليه الحكومتان في ١٩ يناير سنة ١٨٩٩ هذا نص مواده :

١ ـ تطلق لفظة السودان في هذا الوفاق على جميع الاراضي الكائنة الى جنوبي الدرجة الثانية والعشرين من خطوط العرض وهي :

اولاً الاراضي التي لم تخلها قط الجنود المصرية منذ سنة ١٨٨٢

ثانياً الاراضي التي كانت تحت ادارة الحكومة المصرية قبل ثورة السودان الاخيرة وفقدت منها وقتياً ثم افتتحتها الآن حكومة جلالة الملكة والحكومة المصرية بالاتحاد

ثالثاً الاراضي التي قد تفتتحها بالاتحاد الحكومتان المذكورتان من الان فصاعداً

٢ ـ يستعمل العلم البريطاني والعلم والمصري معاً في البر والبحر بجميع انحاء السودان ما عدا مدينة سواكن فلا يستعمل فيها الا العلم المصري فقط

٣ ـ تفوّض الرئاسة العليا العسكرية والمدنية في السودان الى موظف واحد يلقب (حاكم عموم السودان) ويكون تعيينه بامر عال خديوي بناء على طلب حكومة جلالة الملكة ولا يفصل عن وظيفته الا بامر عال خديوي يصدر برضاء الحكومة البريطانية

٤ ـ القوانين وكافة الاوامر واللوائح التي يكون لها قوّة القانون المعمول به والتي من شأنها تحسين ادارة حكومة السودان او تقرير حقوق الملكية فيه بجميع انواعها وكيفية ايلولتها والتصرف فيها يجوز سنها او تحريرها او نسخها من وقت الى آخر بمنشور من الحاكم العام وهذه القوانين والاوامر واللوائح يجوز ان يسري مفعولها على جميع انحاء السودان او على جزء معلوم منه ويجوز ان يترتب عليها صراحة او ضمناً تحوير او نسخ اي قانون او اية لائحة من القوانين او اللوائح الموجودة.

وعلى الحاكم العام ان يبلغ على الفور جميع المنشورات التي يصدرها من هذا القبيل

الى وكيل وقنصل جنرال الحكومة البريطانية بالقاهرة والى رئيس مجلس نظار الجناب العالي الخديوي

٥ ـ لا يسري على السودان او على جزء منه شيء ما من القوانين او الاوامر العالية اوالقرارات الوزارية المصرية التي تصدر من الآن فصاعداً الا ما يصدر باجرائه منها منشور من الحاكم العام بالكيفية السالف بيانها

٦ ـ ان المنشور الذي يصدره حاكم عموم السودان ببيان الشروط التي بموجبها يصرح للاوروبيين من اية جنسية كانت بحرية المتاجرة او السكنى بالسودان او تملك ملك كائن ضمن حدوده لا يشمل امتيازات خصوصية لرعايا اية دولة او دول

٧ ـ لا تدفع رسوم الواردات على البضائع الآتية من الاراضي المصرية حين دخولها الى السودان ولكنه يجوز مع ذلك تحصيل الرسوم المذكورة على البضائع القادمة من غير الاراضي المصرية . الا انه في حالة ما اذا كانت تلك البضائع آتية الى السودان عن طريق سواكن او اي مينا آخر من مواني ساحل البحر الاحمر لا يجوز ان تزيد الرسوم التي تحصل عليها عن القيمة الجاري تحصيلها حينئذ على مثلها من البضائع الواردة الى البلاد المصرية من الخارج . ويجوز ان تقرر عوائد على البضائع التي تخرج من السودان بحسب ما يقدره الحاكم العام من وقت الى آخر بالمنشورات التي يصدرها بهذا الشأن

٨ ـ فيما عدا مدينة سواكن لا تمتد سلطة المحاكم المختلطة على اية جهة من جهات السودان ولا يعترف بها فيه بوجه من الوجوه

٩ ـ يعتبر السودان باجمعه ما عدا مدينة سواكن تحت الاحكام العرفية ويبقى كذلك الى ان يتقرر خلاف ذلك بمنشور من الحاكم العام

١٠ ـ لا يجوز تعيين قناصل او وكلاء قناصل او مأموري قنصلاتات بالسودان ولا يصرح لهم بالاقامة قبل المصادقة على ذلك من الحكومة البريطانية

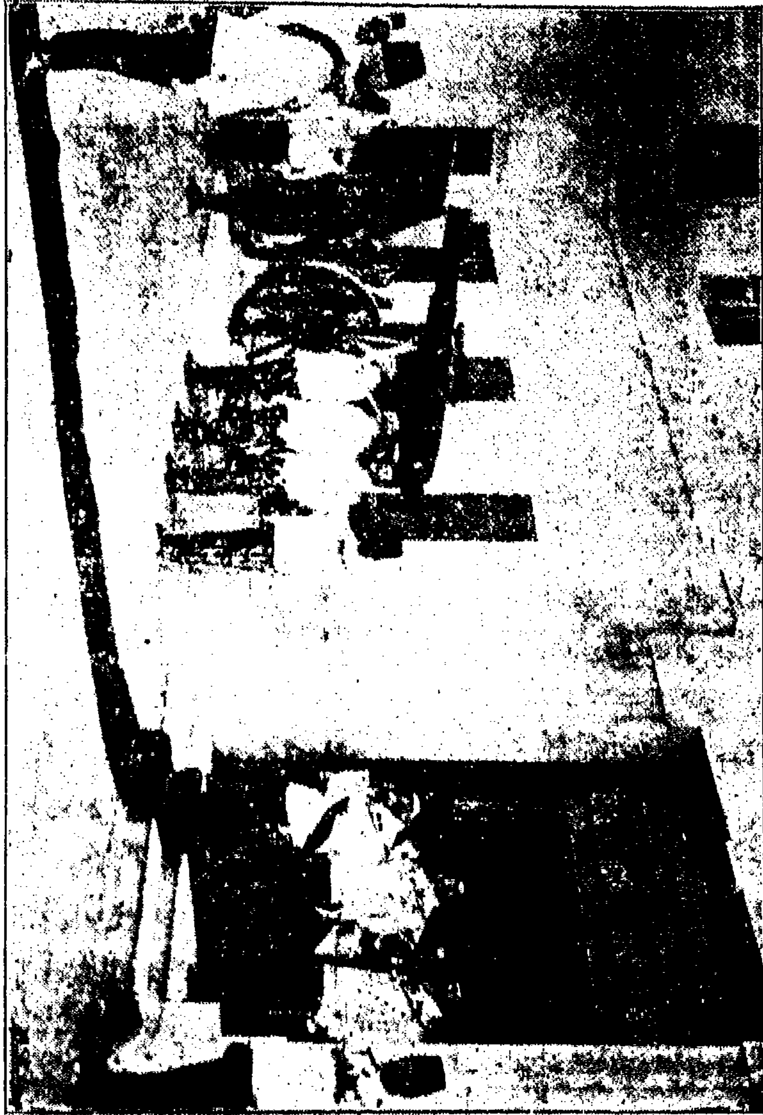
١١ ـ ممنوع منعاً مطلقاً ادخال الرقيق الى السودان او تصديره منه وسيصدر منشور بالاجراءات اللازم اتخاذها للتنفيذ بهذا الشأن

١٢ ـ قد حصل الاتفاق بين الحكومتين على وجوب المحافظة منهما على تنفيذ مفعول معاهدة بروكسل المبرمة بتاريخ ٢ يوليو سنة ١٨٩٠ فيما يتعلق بادخال الاسلحة النارية والذخائر الحربية والاشربة المقطرة او الروحية وبيعها او تشغيلها » اه

تحريرا بالقاهرة في ١٩ يناير سنة ١٨٩٩

(الامضاءات)

« بطرس غالي » « كرومر »



ش ١١٤ : الجناب الخديوي يلقي خطابه أمام سراي الخرطوم

وشرف سمو الخديوي السودان سنة ١٩٠٢ وزار الخرطوم فقوبل بالاحتفاء والاعظام وتلا في سراي الخرطوم خطاباً ينبئ عن الرضى عن حالة السودان — وهذا رسم سموه وهو يتلو الخطاب

الوفاق الانكليزي الفرنساوي

ومما يعد من قبيل الاعمال السياسية بمصر الاتفاق الذي عقد بين انكلترا وفرنسا في ٨ افريل سنة ١٩٠٤ فهوذوشأن في سياسة مصر لان فرنسا اعترفت فيه باحتلال انكلترا مصر واطلقت يدها فيها وهذا نص الفقرة المتعلقة بذلك من الاتفاق المذكور :

« تصرح حكومة جلالة الملك (انكلترا) انها لا تنوي تغيير حالة مصر السياسية . وتصرح حكومة الجمهورية الفرنساوية انها لا تعيق عمل بريطانيا العظمى في مصر بطلب تحديد زمن الاحتلال الانكليزي او باي اسلوب آخر »

٢ — الاعمال الادارية

يصعب تحديد ما جرى من الاصلاحات الادارية في عهد الجناب الخديوي ولكن يقال بالاجمال ان معظم ما تم في زمن الاحتلال من الاصلاحات تم في عهد سموه . استهلت حكومته اعزه الله بالغاء السخرة وكانت المخابرات جارية بشأنها من قبل وقد صدرت عدة اوامر عالية تتعلق بها حتى صدر الامر القاضي عليها في ٢٨ يناير سنة ١٨٩٢ وقد صدر بهذه المادة :

« تلغى السخرة في كامل انحاء القطر المصري »

وصدر امر سموه في هذا التاريخ بالغاء الضرائب التي كانت قد وضعت على الصنائع

وفي ايام سموه الغي نظام البوليس الذي كان متبعاً في زمن الخديوي السابق بامر عال صدر في ٣ نوفبر سنة ١٨٩٤ ووضع النظام الحالي بناء على لائحة رفعها المرحوم نوبار باشا . وفي ظل سموه عدلت الضرائب بامر عال صدر في ١٠ مايو سنة ١٨٩٩

وفي ايامه الغيت الضرائب التي كانت على السفن المسافرة في النيل بامر عال مؤرخ في ٢٩ نوفبر سنة ١٩٠٠ والغيت الدخولية وهي الضرائب التي كانت الحكومة تتقاضاها على الخضار والفاكهة ونحوهما مما يدخل المدن فالغيت من اول سنة ١٩٠٣ والغي احتكار الملح في اول سنة ١٩٠٦ وفي عهد سموه صفيت حسابات الدائرة السنية وبيعت البواخر الخديوية .

ومن الامور الادارية التي تمت في عهد سموه النفي الاداري الذي قررته الحكومة من عهد غير بعيد وقد افاد كثيراً

٣ — الاعمال الزراعية

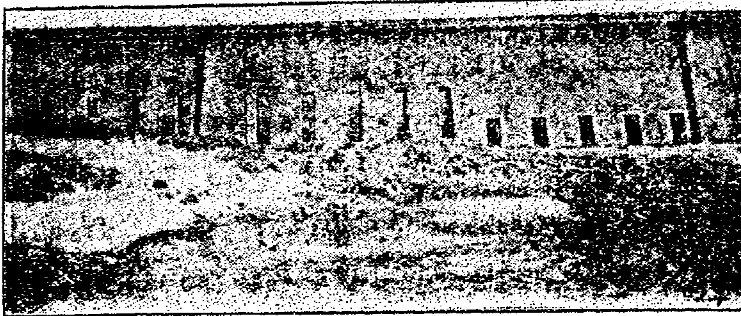
ان اعمال الزراعية التي شرعت بها الحكومة المصرية على يد مصلحة الري من اوائل عهد الاحتلال لم تظهر ثمارها الا في عهد الجناب العالي فبعد ان كانت مساحة الاطيان الزراعية اقل من خمسة ملايين فدان ناهزت سبعة ملايين . وكانت البقاع التي تزرع قطناً عند ولاية سموه نحو ٩٠٠٠٠٠ فدان فصارت نحو ١٥٠٠٠٠٠ فدان. وكانت غلة القطن سنة ١٨٩١ نحو ٤٦٠٠٠٠٠ قنطار فصارت في العام الماضي نحو سبعة ملايين قنطار . واخذت تتحول ملكية الارض الى الفلاحين وكان عدد مالكي الاطيان في اول ولاية سموه نحو ٧٥٠٠٠٠ انسان فاصبح عددهم ١٣٥٦٠٠٠ نفس . ولا يخفى ما يدل عليه ذلك من توزع الثروة بين الناس . وفي ايامه انشئت مدرسة الزراعة وصارت هذه الصناعة تعلم قانونيا . وانشئت المعارض الزراعية وتألفت الشركات الزراعية والبنك الزراعي والنقابات الزراعية



ش ١١٥ : قناطر اسيوط

تمثيل النيل وخزاناته من الجنوب الى الشمال ا القناطر الخيرية في رأس الدلتا ب خزان أسيوط ج خزان أصوان د جزيرة فيلي وفيها خرائب انس الوجود ه الهويس الذي تسير به السفن

ومن المشروعات الزراعية قناطر اسيوط وهي على ٢٥٠ ميلاً جنوب القاهرة تولت انشاءها للحكومة شركة السير جون ايرد وشركاه بدات فيها في شتاء عام ١٩٠٢ وانتهت منه في ربيع سنة ١٩٠٨ وهي كالقناطر الخيرية شكلاً ولكنها تمتاز عنها بان القناطر الخيرية مبنية من القرميد وهذه من الحجر . طول قناطر اسيوط ٨٣٣ متراً وعددها ١١١ قنطرة عرض كل قنطرة خمسة امتار عليها ابواب من الحديد . وعلو القناطر من قاع النهر الى السطح ١٢ متراً ونصف متر وثخانتها عند القاعدة ٢٦ متراً ونصف متر وثخانتها عند السطح سبعة امتار وثمانون سنتيمتراً . والغرض من هذه القناطر اصلاح الري مدار السنة في مصر الوسطى والفيوم لانها اذا اقفلت اعاقت جري الماء فيرتفع نحو ثلاثة امتار فوق ارتفاعه الاعتيادي فيزيد مساحة الاراضي الزراعية نحو ٣٠٠٠٠٠ فدان تروى من ترعة الابراهيمية . ولقناطر اسيوط هويس لمرور السفن طوله ٨٠ متراً وعرضه ١٦ متراً



ش ١١٦ : خزان اسوان

اما خزان اسوان فهو اعظم مشروعات الري تولت انشاؤه الشركة المذكورة في اوائل سنة ١٨٩٩ وانتهى في اواخر سنة ١٩٠٢ مواده من حجر الغرانيت والسمنت والحصى . وبلغ وزن ما كانوا ينجزون عمله في اليوم الواحد ٢٦٠٠ طن طوله ٢٠٠٠ متر ويمتد من الجبل الشرقي الى الجبل الغربي . وعلوه يختلف من ٢٠ متراً الى ٤٠ باختلاف عمق قاع النهر . وثخانته عند قاعدته ٢٥ متراً وثخانة اعلاه او هو عرضه من فوق ٧ امتار . وفي جدار الخزان ١٨٠ فتحة هي نوافذ عليها الابواب من الحديد تختلف سعتها باختلاف مواضعها منها ١٤٠ نافذة مسطح الواحدة منها ١٤ متراً . واربعون نافذة مسطح الواحدة منها سبعة امتار

وقد وصفنا كيفية استخدامه في السنة ١١ من الهلال

٤ — النهضة المالية

ان النهضة المالية التي حصلت في زمن سموه لم يسبق لها مثيل من عهد بعيد . فتكاثر الذهب واثرى الناس وتوسعوا في اسباب العيش ولا سيما في اواسط العقد الاول من هذا القرن بارتفاع اثمان الارضين فتألفت الشركات المالية العقارية والبنائية لاستثمار ارض البناء والاطيان الزراعية. ولولا تورط الناس في المضاربة لسلمت مصر من رد الفعل الذي احدث الازمة المالية منذ بضع سنين . ومع ذلك فان ثمار النهضة المالية لا تزال باقية وهي ظاهرة في الحكومة وفي الامة وفي الاسواق التجارية وفي كل شيء كما يتضح ذلك من المقابلة

فميزانية الحكومة المصرية كانت سنة ١٨٩٢ نحو عشرة ملايين جنيه فاصبحت الآن نحو ١٦ مليوناً . وكانت الواردات التجارية سنة ١٨٩٢ قيمتها اقل من عشرة ملايين جنيه فزادت في اثناء النهضة المالية على ٢٦٠٠٠٠٠٠ جنيه وبلغت في السنة الماضية نحو ٢٣٥٠٠٠٠٠ جنيه . وكانت الصادرات ١٣٥٠٠٠٠٠ جنيه فصارت نحو ٢٩٠٠٠٠٠٠ جنيه . وقد تكاثر انشاء بنوك الصيرفة واهمها البنك الاهلي انشيء سنة ١٨٩٨ ورأسماله ٢٥٠٠٠٠٠ جنيه . والبنك الزراعي انشيء سنة ١٩٠٢ ورأسماله خمسة ملايين جنيه وغيرهما

ومن دلائل الثروة تكاثر الابنية واتساع المدن. وهذه القاهرة قد تضاعفت مساحتها مراراً عما كانت عليه قبلاً حتى كادت تتصل بضواحيها . غير ما انشيء فيها باثناء هذه النهضة من الابنية الفخيمة والقصور الباذخة . وعمرت الضواحي وانشيء بضواحيها بلد جديد لا مثيل له في سائر اقطار العالم نعني واحة عين شمس

واستحدث في ايام سموه بنك اقتصادي في مصلحة البوسطة المصرية منذ بضع سنوات بلغ عدد الذين اودعوا نقودهم فيه الى آخر العام الماضي نيفاً و ٨٩٠٠٠ نفس وبلغ مقدار ما اودعوه ٣٥٧٠٠٠ جنيه استعانوا بها على امورهم

٥ — النهضة العلمية والحركة الفكرية

ان الحركة العلمية التي حدثت بمصر في اثناء العشرين سنة الاخيرة ظاهرة كالشمس بما انشأته الحكومة او ساعدت على انشائه من الكتاتيب والمدارس في انحاء القطر او بما ادخلته من التعديل في طرق التعليم وخصوصاً من حيث اللغة العربية . فقد كانت هذه اللغة يكاد يقضى عليها في المدارس المصرية فانتعشت الآمال باحيائها فاخذت

الحكومة في ارجاع التدريس اليها وابثت روح التعليم في انحاء القطر وكثر الساعون في انشاء المدارس من اهل اليسار في الارياف ـ هذا من حيث المدارس الابتدائية

اما التعليم العالي فاهم ما حدث منه في هذا العصر مدرسة القضاء الشرعي والجامعة المصرية وبذلت العناية في تحسين حال الازهر وغيره من المدارس الكبرى . غير عناية الحكومة بالمعاهد العلمية كالمتحف المصري والمتحف العربي ودار الكتب الخديوية

ومن آثار الجناب الخديوي راساً في خدمة العلم والهيأة الاجتماعية عنايته في فن التمثيل فاوفد شاباً (جورج افندي ابيض) يتلقى هذا الفن على اربابه في فرنسا وقد عاد سنة ١٩١٠ ومعه جوق مثل عدة روايات في الاوبرا الخديوية على سبيل التجربة . ولا تزال عناية سموه موجهة الى تنشيط هذا الفن واحيائه في اللغة العربية

واكبر ادلة الحركة الفكرية ظهرت في الصحافة بما اطلقته لها الحكومة من الحرية فتكاثرت الجرائد والمجلات في ايام سموه وتشعبت مواضيعها وتألفت الاحزاب السياسية على اختلاف اغراضها ولكل منها جريدة اوغير جريدة تنطق بلسانه . وتألفت الشركات المالية لانشاء بعضها . وكبر حجمها وظهرت صبغتها الوطنية وتنوعت مواضيعها وتألفت لها نقابة صحافية . ويقال بالاجمال ان الصحافة المصرية بلغت في هذا العصر ارقى ما بلغت اليه في سائر الاعصر [1] بما صارت اليه من التأثير في الامة والحكومة . وقد رايت ان الحكومة المصرية كانت قد قيدت الصحافة بقانون انشأته سنة ١٨٨١ عرف بقانون المطبوعات فهذا القانون اخذت الحكومة في اهماله رويداً رويداً بعد الاحتلال واصبح في عهد الجناب الخديوي في حكم الملغى عرفاً . فرأت الحكومة بالعام الماضي (سنة ١٩١٠) ان تقيد المطبوعات لاسباب اقتضت ذلك فوضعت قانوناً جديداً هو تعديل القانون القديم

ومن آثار الحركة العلمية ايضاً انشاء الجمعيات الادبية والعلمية وتأسيس الاندية الاجتماعية واهمها نادي المدارس العليا ونادي دار العلوم في القاهرة . ولا يكاد يخلو بلد من البلاد الكبرى من ناد او جمعية على اختلاف مواضيعها

واتفق في امارة سمو الخديوي اضطراب احوال المملكة العثمانية والتغالب بين السلطان عبد الحميد واحرار مملكته . فكانت مصر ملجأ الفارين من الظلم او الطالبين للرزق من سائر الامم

ومن قبيل الحركة الفكرية في هذا العصر قيام نخبة من ادباء الشبان المسلمين

(١) تجد مقالة ضافية في تاريخ النهضة الصحافية في الهلال سنة ١٨ صفحة ٤٨٣

للاصلاح الديني وزعيمهم المرحوم الشيخ محمد عبده المصري المتوفى سنة ١٩٠٥

ومن هذا القبيل جنوح الناس الى الحكم الدستوري وارتفاع صوت الصحافة في طلب الدستور وتوسيع اختصاص الشورى



ش١١٧ : الشيخ محمد عبده

وزاد تألف الجمعيات الخيرية في زمن سموه وانتظمت نظارة الاوقاف وانصرفت عنايتها الى حفظ الآثار وترميم المساجد وبناء المعابد والمستشفيات الخيرية آخرها المستشفى العباسي . وتضاعفت نفقات الاوقاف الخيرية على المبرات والاحسان . فكانت يوم تولى الاريكة الخديوية ٢٧٦ ٨ جنيهاً فاصبحت للعام الماضي ٧٧١ ٦٥ جنيهاً

وبالاجمال فان مصر بلغت في العصر العباسي الحالي ما لم تبلغ اليه في العصور الماضية من حيث الرقي الاجتماعي والسياسي والاقتصادي والفكري في ظل سمو الامير ايده الله

﴿ تم الجزء الثاني ﴾

﴿ وبه تم الكتاب ﴾

فهرس الجزء الثاني

من تاريخ مصر الحديث

(تم فهرس الفصول ويليه الفهرس الابجدي)

اصلاح خطأ

صفحة	سطر	ج	خطأ	صواب
١١٨	٢٣	١	الفسطاط	حلوان
١٣٦	٢	١	اللصوص	الفرس
٢٠٣	٢	١	مختار	بختيار

فهرس ابجدي

لاهم ما حواه هذا الكتاب من الاعلام والاغراض

انتهى الفهرس الابجدي

هذه السلسلة تضم :

١ ـ فتح العرب لمصر

٢ ـ تاريخ مصر إلى الفتح العثمانى

٣ ـ الجيش المصرى البرى والبحرى فى عهد محمد على

٤ ـ تاريخ مصر من أقدم العصور إلى الفتح الفارسى

٥ ـ تاريخ مصر من عهد المماليك إلى نهاية حكم اسماعيل

٦ ـ تاريخ مصر من الفتح العثمانى الى قبيل الوقت الحاضر

٧ ـ ذكرى البطل الفاتح ابراهيم باشا

٨ ـ تاريخ مصر فى عهد الخديو اسماعيل باشا (مجلدان)

١٠ ـ فتوح مصر وأخبارها

١١ ـ تاريخ مصر الحديث مع فذلكة فى تاريخ مصر القديم (ج ١) (ج ٢)

١٢ ـ قوانين الدواوين

١٣ ـ تاريخ مصر من محمد على إلى العصر الحديث

١٤ ـ الحكم المصرى فى الشام

١٥ ـ تاريخ الخديوى محمد

١٦ ـ آثار الزعيم سعد



MADBOULI BOOKSHOP مكتبة مدبولى

6 Talat Harb SQ. Tel. : 5756421 ٦ ميدان طلعت حرب ـ القاهرة ـ ت : ٥٧٥٦٤٢١